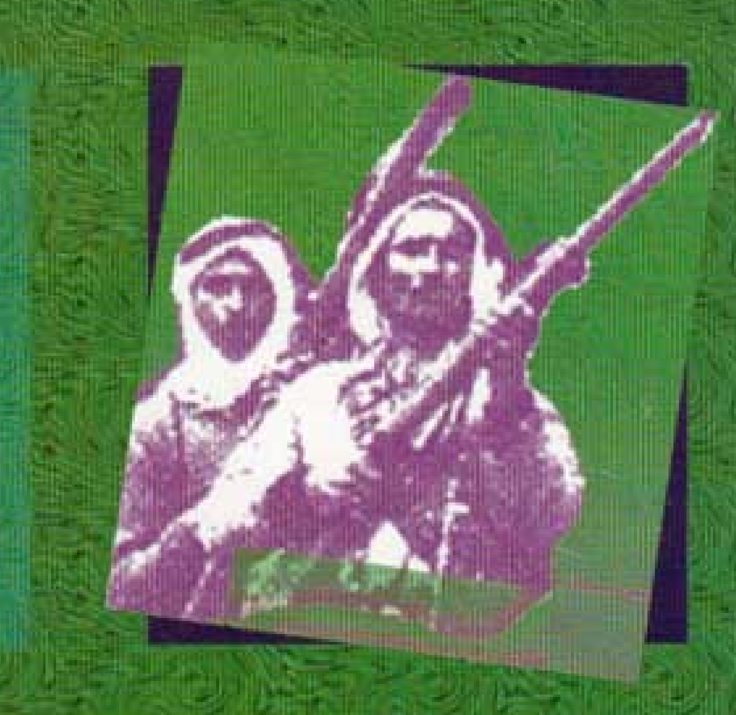
قدري قلعجي

الثورة العربية الكبرى



١٩١٦ـ ١٩٢٥

جيل الفداء يوما بيوم مع كامل الأسماء
و الوثائق و الأدوار

قدري قلعجي

جيل الفداء

قصة الثورة الكبرى ونهضة العرب

دار الكاتب العربي

جيل الفداء

إلى جلالة الحسين بن طلال

في هذا المنعطف العاصف من تاريخنا الحديث، بعد الكارثة المذهلة التي روعت كل نفس وهزّت كل ضمير، بينما يعود كل عربي إلى نفسه يقاضيها الحساب ويسائلها عما قالت وفعلت، تقف أنت يا صاحب الجلالة، فوق الدموع والجراح والتحديات، وقفة القائد الرابط الجأش، المطمئن إلى أمسه وغده، لأنك لم تعرف في ملحمة البطولة التي هي حياتك، وقصيدة الرجولة التي هي سيرتك، غير الحق رائداً والعقل مرشداً، فلم تحكم الأهواء الشخصية في القضايا الوطنية، ولم ترجح الانفعالات العاطفية على الحكمة والروية، وكنت تقابل الهدم بالبناء، والكفر بالإيمان، والسفه بعفة القلب واللسان، داعياً إلى الوحدة والتضامن كلما تفرقت من العرب قلوب، وتوزعت قوى، وتبعثرت صفوف. فأنت خير ما تكون حين لا تظن نفسٌ بنفس خيراً.

لقد كنت دائماً على مستوى المسؤولية التي تحمل عبئها أمام التاريخ، لأنك المؤتمن على رسالة نشأت في ظلها ودرجت في هديها، وورثت تبعاتها الجسيمة عن أسرة قائدة ما كانت الزعامة في عرفها منذ محمد بن عبد الله

إلى الحسين بن علي ، إلا بطولة وتضحية ، وجهاداً واستشهاداً ، تاركة من دمائها ومبادئها مصابيح على الطريق الطويل . وفي موكب مجدها واستشهادها، كان تاريخ العروبة يشق دربه ويرسي خطـــاه ، لأن دم كل شهيد منهم كان باعثاً إلى نهضة وسبيلاً إلى ضياء .

وفي هذا الكتاب يا جلالة الحسين سطور من تلك الرسالة ، لعلنا اليوم أحوج من أي يوم آخر إلى مطالعتها والاهتداء بدروسها وعبرها ، أرفعها إليك وأضعها بين أيدي الأمة العربية ، وأنت وهذه الأمة على موعد مع المجد في معركة الشرف والوحدة والمصير .

قدري قلعجي

مقدّمة

بقلم دولة الأستاذ سعد جمعة

الأستاذ قدري القلعجي ، ليس بحاجة إلى تعريف ، وإلى من يقدمه إلى قراء العربية ، فهو كاتب معروف ، على أوسع ما تكون المعرفة في البلاد العربية، بما قدّم من إنتاج أصيل غزير ، أسهم في نهضتنا الفكرية والأدبية ...

وكتابه هذا – جيل الفداء، قصة الثورة الكبرى ونهضة العرب– هو واحد من هذه الكتب، المتميزة في أسلوبها وأفكارها.. فقد عرض الثورة ورجالها وما أعطت للأمة العربية ، بقلم المؤرخ الأمين الصادق ، وبأسلوب الكاتب الأصيل ، الذي تهزّ خياله ، أريحيةُ المواقف ، ومشاهدُ البطولة والفداء . فجاء كتابه سجل تاريخ صادق ، وكتاب أدب في الذروة ...

وحسبك من إعزاز هذا المؤرخ الأديب ، للغة العربية وبيانها ، انه يتعلق – باللغة – واللغة وحدها ، فيراها السبب في وحدة الأمة ، والرباط الأوثق لقوميتها ، ويدلل على ذلك بأقوال كثيرة ، لأعلام من الشرق والغرب .

وهو يرى ، ان هذه اللغة ، هي التي جعلت العرب ، في العراق وسورية ، يميلون إلى جيوش العرب الفاتحة ، بقيادة خالد في الشام ، والمثنى في العراق . وهذا صحيح ، على ان نضيف اليه شيئاً آخر وهو ان هذه القبائل العربية ، من مناذرة

وغساسنة ، هي عربية العرق نزحت من الجزيرة، وقد طلبت بعض هذه القبائل من قادة العرب ان تحارب فارس ، نصرة للنسب فحسب ، ومن هنا يتبين ان الشعور بالقومية العربية ، ووحدة الدم واللغة ، أبعد في التاريخ من اليوم الذي جاءت فيه جيوش العرب المسلمين إلى الشام ، كما يذكر الكاتب ، فالغساسنة هم العرب الذين يقول فيهم حسّان بن ثابت في الجاهلية :

بيض الوجوه كريمة أنسابهم شمّ الأنوف من الطراز الأول

والمناذرة يأنفون من مصاهرة الأكاسرة ، إدلالاً بقوميتهم العربية .

ويمضي المؤلف في هذا الفصل الممتع الذي بدأ به الكتاب ، « نشأة القومية العربية » فيمزج الحقائق وهو أحرص ما يكون عليها ، بطائفة جميلة من أعذب الشعر ، لروّاد القومية العربية ، وهي كثيرة في ثنايا الكتاب . فلا يحسّ القارىء انه يقرأ كتاب تاريخ ، يقصد صاحبه عرض الحقائق أولاً ، وإنما هو يقرأ كتاب أدب فيه تاريخ، تنشرح له نفسه ، فلا يملّ من قراءته ، وتلك هي ميزة الصديق قدري فيما يكتب .

*

جميل هذا الوفاء من كتّاب العربية، إذ يلتفتون إلى تاريخهم يعرضونه ويثنون على ما صنع الأجداد ، ويأخذ هذا الوفاء أجمل صوره عندما يلتفتون إلى تاريخهم الحديث ، وقصة ثورتهم العربية الكبرى ، ليعطوا آباءهم ما يستحقون من حب وتقدير لما صنعوه ، وضحوا من أجله ، في هذه الفترة الحاسمة من تاريخ العربية ، التي تتنازع فيها الفكر العربي شتى التيارات المتضاربة والتي منها ما يتجنى على هذه الثورة .

انه جيل الفداء العربي ، الذي يشدّ الباقون منه ، وهم قلة ، على الرحيل ، من هذه الدنيا .

وحسبهم ، لترتاح نفوسهم ، ان يشعروا بوفاء الأبناء ، رغم كل التناقضات التي

يعيش فيها هؤلاء الأبناء .

ان الثورة العربية ، كما قال المؤرخ ، من أروع معطياتها ، هذه اليقظة ، وهذا الوعي ، للقومية ، والوحدة العربية ...

لقد أزاحت حكم الغزاة عن الديار العربية ، وإذا كانت الظروف التاريخية ، لم تمكنها من تحقيق كل أهدافها ، فحسبها انها أيقظت العرب ، كل العرب ، على هذه الأهداف ، وجعلتها مطلباً يتعمق معناه في ضمير العرب يوماً بعد يوم .

والآن ، من الذي قام بهذه الثورة، من الذي خطط لها، من الذي قاد جحافلها، من هو الأصل فيها ؟؟

يقول المؤلف — الفصل الثامن — الشريف حسين هو الأمل .

أي هو الأصل في قصة هذه الثورة المباركة ، ومن حوله أبناؤه ، وهي بعد كما يروي المؤرخ كانت « أمانة قومية في يده » وأيدي أبنائه ..

والمؤلف الكريم ، إذ يدرك هـــذا كله ، يهتف من أعماقه ، ان يومها وهو التاسع من شعبان ، يجب ان يكون يوم عيد جامع للعرب ، في كل مكان . ومـا أحرى العرب اليوم ، وفاء منهم للثورة وقائدها ، ان يكون لهم مثل هذا اليوم . لقد كان الشريف حسين وحده ، هو القادر ، على حمل لوائها ، لأنه كما كتب اليه نواب العرب في مجلس المبعوثان قائلين: « اننا نعترف لـــك دون سواك بالرئاسة الدينية على جميع الأقطار العربيـــة ، لأنك الآن خلاصة بيت الرسول ، ﷺ ، واجماعنا هذا هو بالنيابة عن أهل بلادنا ، نجهر به ، عند الحاجـــة ، والله يحفظك لأمتك ويساعدك لدفع الشر عن دينك » .

يضاف إلى هذا الإرث العظيم ، من النسب الذي يحني له العربي ، رأسه إجلالاً واحتراماً ، شخصية الحسين الأول ، ذاتها .

يقول عنه جورج انطونيوس ، كما روى المؤرخ ، ويكاد يجمع على هذه الصورة كل من كتب عنه :

« وكان الحسين شخصية بارزة موقرة ، وهو أمر لا بدّ منه ، لرجل من سلالة رسول الله ، وفضلاً عن شرف محتده ، فان تقواه ، ومسلكه الرفيع ، وحيـاته

المستقيمة النقية ، كل ذلك أكسبه عدداً كبيراً من المعجبين » .

ويجيء مع هذا لتمام الصورة ، ما عرف عنه ، وانتبه اليه مؤرخوه ، حبه لقومه العرب ، وغيرته وحرصه على ان يوفر لهم حياتهم المستقلة ، ويصل اليهم ما انقطع من تاريخهم المجيد .

لقد كانت الثورة شاقة ، تنازع الحسين قبلها ، وأراد ان يكون معه ، كل من الفريقين المتحاربين في الحرب العالمية الأولى .

ولكنه كان للعرب ، فأخذ جانب الحلفاء لأن حَدْسَهُ الملهم أن سيكون لهم النصر ، فقاتل معهم ، بعد ان أخذ المواثيق والعهود ، لخير العرب ووحدة بلادهم . كما يكشف عن هذا الفصل السادس عشر وغيره من فصول الكتاب .

عاش الثورة ، وعاش بعد الثورة ، ولكن فتى قريش ، كما يسميه الكتاب ، تقدمت به السن ، فأصبح – شيخ قريش – بل شيخ العرب قاطبة .

ولكن هذا الشيخ الجليـــل ، لم يرو التاريخ قصة كقصة صموده على الحق ، والحفاظ على حقوق أمته ، وعدم الترخص ولو بشيء قليل منها ، ولو كان في ذلك ذهاب عرشه .

وذهب العرش .

وانتهى به المطاف ، منفياً عن بلاده .

غير ان حياته بما فيها من عزيمة وتضحية بقيت الرمز الخالد ، للعرب في كفاحهم ونضالهم .

ان له في قلب كل عربي مخلص ، عرشاً ، وسيبقى خالداً في تاريخ هذا الانسان.

ومن هنا كانت هذه اللفتة كريمة من المؤلف ، يستحق من أجلها الثناء ، وهي إهداء الكتاب إلى الحسين العظيم ، ملك المملكة الأردنية الهاشميـة ، فهو الوارث لهذا البيت الكريم وأمجاده عبر تاريخ العرب ومنها ، ثورة جده .

يرثه نسباً .

ويرثه عملاً دائباً ، ومسعى صادقاً كريماً ، لخير العرب أجمعين .

وها هو البطل العظيم ، يعلو على النكسة ، ويطوي الجوانح على آلامها ، عاملاً

في يومه ما وسعه للعمل، الذي هو فوق طاقة البشر ، ليزيل آثارها ، وسيقدر بفعل العزيمة المصممة على ذلك في غده .

وانه لغد مشرق بفضله ، وبعظيم تضحياته .

عاشت ذكرى الحسين الجد ، وبورك فيما صنع .

وعاش الحسين ، الحفيد ، وبارك الله فيما صنع ويصنع .

*

وبعد فليس هذا إلا إيماءة صغيرة لما في هـــذا الكتاب النفيس ، من حقائق وأحاديث ، أجهد المؤلف نفسه ، في جمعها وتمحيصها ، ولكم أتمنى ان يطيل القارىء وقفته كما أطلتها عند فصل « في ظلال المشانق » ، ليرى كم ضحى الآباء من أجلنا ، بل وعند سائر الفصول ، فكلها ممتع حقاً .

وفقه الله .

عمان في ١٩٦٧/١٠/٤

سعد جمعة

الفصل الأول

نشأة القومية العربية

كان يوم التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤ (١٠ حزيران ١٩١٦) وهو اليوم الذي أعلنت فيه الثورة العربية الكبرى ، بدء النهضة العربية ومنطلق التاريخ العربي الحديث .

ولا ريب في ان النهضة أبعد من ذلك عهداً وأعمق جذوراً ، غير ان الثورة قد أعلنت عنها وجسدتها ، فاقترنت بها وغدت تاريخاً لها ، وكانت المنطلق الذي أدى إلى ظهور العرب مجدداً على مسرح التاريخ كأمة ذات شخصية أصيلة مبدعة ، متمسكة بحريتها واستقلالها . فإذا كان لكل بلد عربي عيده الوطني ، فان يوم التاسع من شعبان هو العيد القومي للبلاد العربية جميعاً ، لأنه أعظم الأيام في تاريخها الحديث ، فهو يوم الوثبة الأولى والثورة الكبرى ، ويقظة الشعور القومي، وتلاقي آمال العرب على اختلاف مذاهبهم ومنابتهم . وستظل ذكراه حافزاً لشحذ الهمم ، وتجديد النقمة على كل مغتصب ، وإذكاء الشعور الوطني في النفوس ، حتى تتحرر كل أرض عربية من الاحتلال ، وينعم كل وطن عربي بالاستقلال .

واقتران النهضة العربية بالثورة على الترك ، ينبه الأذهان إلى الصفة الأولى من صفاتها ، وهي اليقظة القومية ، وشعور العرب بأن ثمة رابطة قوية تجمع شتاتهم

وتؤلف بين قلوبهم، وهذه الرابطة هي القومية العربية التي تجعل منهم كياناً متماسكاً موصول الشعور متحد الأهداف .

لقد فقد العرب ملكهم وأضاعوا شخصيتهم ، منذ بـــدأ تحكم الموالي الفرس والمماليك الأتراك في الدولة العباسية ، فتسابق الأعاجم من بعد ذلك إلى السيطرة عليهم باسم الدين . وكانت الدولة العثمانية أبرع من استغل هـذا الشعار ، حتى كاد العرب ينسون قوميتهم ، ويتنازلون عن استقلالهم وحريتهم ، للدولة التي قتلت فيهم كل عوامل الابداع ونوازع الطموح ، وأغرقتهم بالخرافات والأكاذيب ، فجاءت النهضة توقظ العرب من سباتهم ، وتبعث شخصيتهم، وتنبه الغافل منهم إلى أنه عربي قبل أن يكون مسلماً ، وإلى ان الاسلام يجب ان يكون مبعث عزة وكرامة لا مصدر مذلة واستعباد . وكان من معجزات هذه النهضة القومية ان يتسلم قيادتها ويتولى زعامتها أمير هاشمي قرشي من نسل النبي العربي ، وان يكون هو الذي أطلق الرصاصة الأولى ، في ذلك اليوم التاريخي ، يوم التاسع من شعبان ، على الدولة التي استعبدت العرب باسم الاسلام ، واستطالت عليهم باسم خلافة المسلمين !

والفكرة القومية في الغرب حديثة النشأة ، يرجعها الباحثون إلى القرن التاسع عشر الذي سمي بحق « عصر القوميات » ، فقد كان ملوك أوربة يحكمون ممالكهم بقوة السيف وبشرعة الحق الإلهي ، فيهيمنون على البلاد التي تمتد سيطرتهم اليهـــا ، ويتوارثونها ، أو يتهادونها كما يشاءون ، فنشأت من جراء ذلك ممالك تضم أمماً مختلفة اللغات والأجناس ، كما ان أمماً أخرى كان يخضع كل قسم منها لدولة قد تكون معادية للأخرى . وفي أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر نشأت الفكرة القومية التي تهيب بكل أمة إلى ان تعي وحدة وجودها وتحيي الروابط التي تشد أفرادها بعضهم إلى بعض ، فأصبح مفهوم الأمة هو الأساس في بناء الدول وليس إرادة هذا المسيطر أو ذاك ، وأدى ذلك إلى سلسلة من الحروب والانقلابات والثورات استغرقت معظم القرن التاسع عشر ، وانتهت إلى تغيير خارطة أوربة، ونشوء دول جديدة اتحدت فيها القوميات المشتتة وغدا لكل منها كيانها المستقل

ومصيرها الموحد [1] .

ولكن الشعور القومي في تاريخ العرب أقدم منبتاً وأعرق أصولاً ، فهو يرجع إلى ذلك اليوم المجيد الذي جاءت فيه جيوش العرب المسلمين إلى الشام بقيادة أبي عبيدة الجراح وخالد بن الوليد ، فإذا بالغسانيين وهم عرب مسيحيون ، يأتون اليهم وفي مقدمتهم ملكهم جبلة بن الأيهم ، وكان الغسانيون حرسة أبواب الشام لدى ملوك الروم ، إلا أنهم بدلاً من مقاومة المسلمين والوقوف في وجوههم ، تركوا الروم المسيحيين وناصروا المسلمين لأنهم عرب مثلهم ، وكانوا يدلونهم على دخائل الروم ، فمهدوا لهم السبيل إلى قلب البلاد وآزروهم في فتحها . ولما حاصر عمرو بن العاص غزة ، ذهب بنفسه إلى حاكمها البيزنطي متخفياً ، فأمر الحاكم بقتله عند وصوله إلى باب المدينة خارجاً منها، فعلم رجل عربي من نصارى غسان بالأمر فلحق بعمرو وقال له سراً : يا عمرو ، لقد أحسنت الدخول فاحسن الخروج . ففطن عمرو لما أراد وعمل على إنقاذ نفسه [2] . قال البلاذري : « وانحاز جبلة بن الأيهم إلى الأنصار قائلا لهم : أنتم إخوتنا وبنو أبينا [3] » . وقد كان لنصارى العرب الذين يقطنون جزيرة الفرات وانضمامهم إلى جيش المسلمين الأثر الأكبر في انتصار هؤلاء في معركة حمص ، تلك المعركة الفاصلة التي غادر هرقل البلاد على أثرها وهو يهتف مودعاً يائساً : « السلام عليك يا سورية » [4] .

إن الشعور القومي في تاريخ العرب يرجع إلى ذلك اليوم المجيد كما يرجع إلى يوم آخر لا يقل عنه توهجاً وإشراقاً ، يوم جـــاء المثنى بن حارثة الشيباني إلى العراق ليقاتل الفرس في عهد الفتوح ، وكان المثنى زعيم بني بكر يغير على الفرس بغيـــة تحرير سواد العراق قبل الحملات الاسلامية ، وهو الذي طلب إلى الخليفة أبي بكر

---

١ ـ كانت المانية قبل وحدتها مقسمة الى ما يزيد على ثلاثمائة دويلة ، وكانت ايطالية تتألف من ثماني دول واقطار .

٢ ـ العقد الفريد ج ١ ، ص ٦٥

٣ ـ انظر البلاذري ص ١٤٢ ـ ١٤٣

٤ ـ انظر البلاذري ص ١٥١ والطبري ج ٣ ، ص ٩٨ ـ ٩٩

مؤازرته في نضـــاله القومي ، فلما كانت موقعة جسر الحابطة ، بعد هدنة حشد الفرس خلالها كل قوتهم ، سار الجيش العربي باتجاه الجيش الفارسي ، حتى كان أحدهما قبالة الآخر ، في قرية يقال لها « قس الناطف » يفصل بينهما الفرات ذلك الشريط المائي الخالد ، إذ كان العرب على ضفته الغربية والفرس على الضفة الشرقية، وثمة جسر يصل بين الضفتين . ونادى منادي الفرس بالعرب : « اعبروا الينـــا أو دعونا نعبر !.. » فنصح المثنى قائده أبو عبيد قائلًا له : « ليعبروا الينـا ، ودعنا نحارب يحمي ظهرنا متسع الصحراء ان بئنا بالفشل ، وإلا زحمناهم بسيوفنا نرديهم قتلًا أو غرقاً .. » ولكن المثنى المتحمس أبى ان يكون الفرس أجرأ على الموت من العرب ، وأمر الجند فعبروا النهر إلى الأعداء [1] وطلع فجر ذلك اليوم من أيام الخريف على تلك البطاح ، واشتبكت القوات العربية بالجموع الفارسيـة الحاشدة ، وأبو عبيد يتقدم بالراية فرسانه الصناديد ، وصبر الفريقان لثخين الجراح حتى قبل الغروب ، وهو يضرب يميناً لينثني يساراً ، حتى جندله فيل من الفيلة العشرين التي تتقدم صفوف الفرس ، وهرع رديفه يحمي الراية ذل الانتكاس فلحق بأبي عبيد ، وتبعه ستة آخرون يتجندلون صرعى الحميـــة والإقدام . وكانت الحملة شديدة على العرب ، ثقيلة على أبطال الصحراء . ولما فقد الجيش العربي الآلاف من محاربيه ، لم يسع الباقون إلا طلب النجاة عبوراً على الجسر ، ولكن الهزيمة لم ترق لأحد بني ثقيف واسمه عبد الله بن مزيد ، فأطلقها صيحـــة مجلجلة : « موتوا على ما مات به أمراؤكم أو تظفروا » وأسرع فقطع الجسر ، فازداد الاضطراب والبلبلة . وفي هذه اللحظة الحرجة تقدم المثنى وقد تسلم لواء الامارة ، وحمل الراية، وهدّأ روع الناس ، وأعاد نصب الجسر ، وحمى مؤخرة الجيش العربي بعملية انسحاب بارعة . وكان هذا البطل آخر من عبر الجسر ، ثم قطعـــه لمنع الفرس من تعقب العرب المنكسرين ، ولكن تحت وطأة جرح بعيد الغور نفذ إلى جنبه من خلال حلقات الدرع .

---

١ ـ الطبري ج ٢ ، ص ٦٥٨ ـ ٦٦٠.

والجدير بالذكر ان بدوياً نصرانياً من قبيلة طيء يدعى أبا زبيد كان بين الشجعان القلائل الذين صمدوا إلى جانب المثنى في تغطيته لحركة انسحاب المسلمين الذين سيطر عليهم الذعر ، ولا ريب في ان حافزه على هذا كان العصبية العربية إذ ان بني جلدته كانوا يحاربون الأجانب الفرس ، ولا ريب في ان الحماس الديني لم يكن هو حافز المثنى أيضاً ، وإنما كان العصبية العربية ، إذ ان المثنى لم يكن قد اعتنق الإسلام إلا من نحو عام [1] وكانت هذه هي المعركة الأولى التي يمنى فيها العرب بالخسران ، إلا ان ذلك لم يكن إلا حافزاً جديداً للمثنى القائد الشجاع الذي استطاع ان يرد الصاع صاعين للفرس ، بعد ان بعث الرسل إلى من يليه من العرب يستنجدهم على الفرس ، فتوافدوا اليه من كل صوب ، وكان فيمن لبّى نداء الاستغاثة قبيلتا تغلب ونمير اللتان وفد رجالهما في جمع عظيم وهم يقولون : « نقاتل مع قومنا ». ويقول الجنرال غلوب في ذلك: « وكانت هـذه القبائل من النصارى يقودها شيخها أنس بن هلال الذي يروى انه قال : ان عليه وعلى قومه ، وان لم يكونوا من المسلمين، ان يقاتلوا إلى جانب أبناء عمومتهم [2]». وكان الرد الطبيعي لتلك المعركة الخاسرة ، معركة البويب وهي إحدى ضواحي الكوفة الآن ، التي قاد المثنى حركاتها وقد زاد إيمانه بالنصر لما كان يتلقى من نجدات تصله من أعماق الجزيرة ، حتى إذا استشعر بقوة العضد بما امتد تحت بصره من قوافل الجهاد ، وأفواج العرب النصارى الذين أخذ عامل الجنس والعصبية القومية يتغلبان في أعماقهم على أي حافز آخر ، سار بجموعه هذه نحو الحيرة ، فنهد اليه الفرس بكثيف عددهم ، والتقى الجمعان في البويب ، واشتد أوار القتال ، ولا سيما في القلب حيث عقد نثار النقع كلّة سوداء حجبت سماء الحلبة حتى غابت أطراف الأجنحة عن المثنى ، والفرس يشددون ضغطهم حيث يصول ويجول ، ولكن دون ان يستطيعوا زحزحة العرب قيد ذراع من الأرض . وعلى حين غرة ، ومن حيث لم يحتسب الأعاجم ، انعطف المثنى بفرسانه على جناح الفرس الأيمن ، متقدماً القبائل العربية المسيحية

---

١ ــ الفتوحات العربية الكبرى ص ٢٨٦

٢ ــ المرجع السابق ص ٢٨٧

التي عززت الصفة القومية للمعركة . وفي الوقت نفسه أخذ قائد ميمنة المثنى يضغط على نفس الجناح الفارسي الذي انكشف أمام فرسان العرب. وحينئذ اشتد الهجوم العربي بكل ما فيه من طاقات متوهجة على قلب العدو . وما كان أشدها مفاجأة عندما تغلغل غلام تغلبي نصراني نافذاً إلى مقر قيادة الفرس ، وعلا بحسامه مفرق قائدهم مهران ، ثم انثنى وهو يرفع صوته فخراً ببطولته وانتساباً لقبيلته : أنا الغلام التغلبي ، أنا قتلت المرزبان !

ان الشعور القومي في تاريخ العرب يرجع إلى العديد من تلك الأيام التاريخية المجيدة [1] ، ممتداً في جذوره إلى عهد عمر بن الخطاب الذي عرف كما يقول الدكتور حسين مؤنس : « كيف يستخرج من العربي خير ما كانت تضمه نفسه من خصال ، واجتهد بعقليته القرشية الخالصة حتى حوّل الأمة الإسلامية إلى دولة عربية [2] » .

ولا ريب في ان الشعور القومي والشعور الديني كانا متقاربين في فجر الدعوة الإسلامية وبدء الحضارة العربية،إذ قضى الإسلام على العصبيات الجاهلية والخلافات القبلية التي كانت تمزق الكيان العربي ، وحطم الأصنام التي كانت رمزاً لاختلاف العرب وتخلفهم الفكري ، ودعا إلى مقاومة الجهل والظلم والفقر ، فألف بين قلوب العرب وجمع شتاتهم، وحطم الحواجز التي كانت تفصل بينهم وتجعل منهم جماعات متعادية مغلقة على ذاتها ، ونفخ فيهم روح العزة والكرامة والاباء ، فتحرروا من اضطهاد الفرس والروم ، وانطلقوا من الجزيرة العربية شرقاً وغرباً رسل خير وحق ونور .

وقد تداخل التاريخ العربي والتاريخ الاسلامي تداخلاً حيّر بعض الباحثين ، إذ أسهم في التاريخ العربي عدد كبير من المسلمين غير العرب ، ولكنهم كانوا يتكلمون العربية وينتجون بالعربية، وقد نشأوا في بيئة عربية واندمجوا في تقاليدها ومصالحها ، وعاشوا في كنف الحضارة العربية وعملوا لها دون سواها ، فهم إذن

---

١ ـ انظر الطبري ج ٢ ، ص ٦٤٩ ، و ج ٣ ، ص ١٥٧ ، تاريخ ابن خلدون ج ٢ ، ص ٣١٢

٢ ـ مجلة الثقافة العدد ٦٤٢

جزء من التاريخ العربي أياً كانت منابتهم الأولى والاعراق التي تحدروا منها، وهذه الظاهرة قائمة في جميع البيئات الأخرى . وكذلك كانت انتصـــارات الإسلام ومنجزاته ، من حيث هو تاريخ وحضارة وثقافة ، إنما هي انتصارات ومنجزات عربية ، يشترك في الاعتزاز بها العربي المسلم والعربي غير المسلم ، ما دامت البلاد العربية مسرحها ، واللغة العربية لسانها ، والأمة العربية هدفها وغايتها [1] ، وهذا ما جعل العرب يعدون الأخطل المسيحي التغلبي بين شعراء الإسلام ويسميه الخليفة شاعر بني أمية ، فقد كان أبو عبيدة يقول : شعراء الإســـلام الأخطل ثم جرير والفرزدق ، وقال الخليفة عبد الملك بن مروان : ان لكل قوم شاعراً وان شاعر بني أمية الأخطل [2] .

وقد عبر عن هذا المعنى كثير من أدباء العرب المسيحيين المحدثين نذكر منهم مارون عبود وأمين نخله ويوسف ابرهيم يزبك وخليل مطران الذي خاطب الأمـة العربية بقوله :

داع إلى العهـد الجديد دعاك   فاستأنفي في الخافقين عـلاك
يا أمة العرب التي هي أمنـــا   أيّ الفخـــار نميته ونماك ؟
يمضي الزمان وتنقضي أحداثه   وهواك منا، في القلوب هواك

والشاعر القروي رشيد الخوري الذي يقول في إحدى قصائده :

أنا العروبـــة في كل مملكة   انجيـــل حب وقرآن انعام
سل عهد شامي وبغدادي وأندلسي   عن عمق فلسفتي، عن عدل أحكامي
شغلت قلبي بحب المصطفى وغدت   عروبتي مثـــلي الأعلى وإسلامي

والذي يقول في قصيدة أخرى :

---

١ ـ انظر هـذه قوميتنا ص ٢٣٠ ـ ٢٤٢ ، حول الحركة العربية الحديثة ج ١ ، ص ٨ ـ ٩

٢ ـ الاغاني ج ٨ ، ص ٢٩٤

اني على دين العروبة واقف		قلبي على سبحاتها ولساني
انجيلي الحب المقيم لأهلها		والذود عن حرماتها فرقاني

ومحبوب الخوري الشرتوني القائل :

قالوا: تحب العرب ! قلت: أحبهم		يقضي الجوار عليّ والأرحام
قالوا : لقد بخلوا عليك ! أجبتهم :		أهلي وان ضنوا عليّ كرام
قالوا: البداوة ! قلت: أطهر عنصر		صفت القلوب هناك والأجسام
ومحمد بطل العروبة كلها		هو للأعارب أجمعين إمام !..

والياس طعمة الذي عرف باسم أبي الفضل الوليد القائل في محاولة لإسباغ هالة قومية على الديانتين المسيحية والإسلامية :

كان الرسول حجازياً بمولده		فشرّف الشام لما زار غسانا
وكان عيسى شآمياً فما وطئت		رجلاه أرباض يونان ورومانا

واسكندر الخوري الذي يضع الرابطة القومية فوق الرابطة الدينية :

قبل المسيح وأحمد		كنا وما زلنا عرب
كانت وما زالت لنا		أوطاننا أماً وأب
لا دين يجمعنا سوى		دين المحبة والنسب

وايليا أبو ماضي الذي يعتز بانتسابه إلى قحطان :

ومن كان قحطان أباه فانه		له الصدر دون العالمين أو القبر
وان بني قحطان إذ جد جدهم		لأعظم من ان يستنيم بهم حر

والياس فرحات القائل :

لا تقولوا ما لنا والعرب كي		تضربوهم مثلاً يا شعراء

انهم أجـــدادنا بالرغم مــن قائـــل أنا من العرب براء
انهم أجـدادنا ان شرفوا أو دنوا ، فالدم لا يصبح ماء
هبهم الشوك فهـــل من وردة تنكر الشوك لترضي الكبرياء؟

وأديب اسحق الذي يذكر العرب بماضيهم الأبي ويحرضهم على حاضرهم الذليل قائلاً : « شعلة سرت من الحجاز فأثارت الشام والعراقين ومصر والمغرب والهند ، واتصلت بأطراف الفرنجة فملأتها نوراً وناراً ، فهي بنورها تستضيء ، ومن نارها تقتبس . ثم هبت عليها عاصفة الفتنة ونكباء المحنة ، فلم يبق من ذلك النور غير شفق التصور في أفق التذكر . فمن رأى العرب مئات من الرجال يقتحمون مصر الفراعنة ، وملك القياصرة ، وسلطنة الأكاسرة ، ينكرهم إذ يراهم ألوف ألوف يقادون بخيط مما نسجت العنكبوت ، ومن سمعهم يقولون لأميرهم : « ان رأينا فيك اعوجاجاً قوّمناه بحد السيف » يعجب من رضاهم بفساد الأحكام وصبرهم على التواء الحكام [1] » .

ومثله نعمة الحاج الذي يقول في الموضوع نفسه :

يا معشر العرب كيف صبركم وذا مضام ، وذاك مضطهـــد
أترضون الخنوع عن جـــزع أم استهانت هوانها الأسد
أين الإباء الذي به اشتهرت آباؤكم ، أين منه ما ولـــدوا!
هذي بطون التاريخ شاهدة فاستشهدوها عن الأولى شهدوا

ونجيب الحداد القائل :

آن الأوان لأن أخاطر بالدم من لم يخـــاطر بالدما لم يسلم
أجزيرة العرب التي أحببتهـــا كم من أكف قد رمتك بأسهم

---

١ ـ التدرد ص ٢٠٠ ـ ٢٠١

لعبت أكف الترك فيك وغادروا في كل قطر منك نهراً من دم

لقد أثبت البحث العلمي انه ليس من أمة معاصرة تنتمي إلى جنس واحد أو عنصر ثابت لم يمتزج بغيره أو يطرأ عليه أي تغيير، فالشعوب يحتك بعضها ببعض في عهود السلم وعهود الحرب والهجرات المستمرة فيتداخل بعضها في بعض ويتفاعل كل منها مع الآخر [١] . وقد اختلطت بالعرب فئات كثيرة من سكان منطقة الشرق الأوسط ، فتأثرت بهم وتأثروا بها، ومرت القرون والأحقاب الطويلة وتلك الفئات تزداد امتزاجاً بالبيئة العربية والمشاعر العربية والتاريخ العربي ، حتى غدت اللغة العربية لغتهم التي بها يتكلمون والوطن العربي وطنهم الذي اليه ينتسبون .

وإذا كان المؤرخ البريطاني مكولي يشير في تاريخه لانكلترة إلى القبائل والعناصر المختلفة والدويلات العديدة التي قامت في الجزر البريطانية ليخلص إلى ان الأمة الانكليزية اليوم هي الأمة التي تتكلم الانكليزية وتجعل من شكسبير وملتن أعظم شعرائها ، ومن ماكولي وويلز أعظم كتابها ، وهي الجماعة التي انصهرت ، على الرغم من أصولها المختلفة وعقائدها المتباينة ، في هذه الجزر ، فأصبح أفرادها يسمون بالانكليز [٢]، فأحرى بنا ان نطلق هذا القول نفسه على الأمة العربية وعلى اللغة العربية التي غدت بمثابة الوطن للعرب أجمعين . وفي الحديث الشريف : « ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي باللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي [٣] » .

وما أصدق قول الفيلسوف الألماني هيردر في علاقة اللغة بنفسية الأمة

---

١ ـ يقول الاستاذ ساطع الحصري : نستطيع ان نقول بكل جزم وتأكيد ان وحدة الاصل والدم ، في اية امة من الامم ، انما هي من الاوهام التي استولت على العقول والاذهان ، من غير ان تستند الى برهان (محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ٢٢) .

٢ ـ هذه قوميتنا ص ٢٤٥

٣ ـ لا يعني هذا ان اللغة هي العنصر الوحيد الذي تتألف منه القومية ، ولكنها العنصر الاول الفعال من عناصرها المتعددة واهمها الارض المشتركة والتاريخ المشترك والتراث المشترك والمصير المشترك .

وشخصيتها وكيف انها والأمة أمران متلازمان ومتعادلان : « الطبيعة فرّقت الشعوب بعضها عن بعض ، ليس بواسطة الغـــابات والجبال والبحار والصحارى والانهار فحسب ، بل فرقتها أيضـــاً – وبوجه أخص – بواسطة اللغة والميول والسجايا . ان اللغة القومية بمنزلة الوعـــاء الذي تتشكل به وتحفظ فيه ، وتنتقل بواسطته أفكار الشعب . اللغة ، سواء أقلنا انها خلقت دفعة واحدة من قبل الله ، أم ذهبنا إلى أنها تكونت تدريجياً بعمل العقل ، لا يمكن أن نشك في انها في الحالة الحاضرة ، هي التي تخلق العقل ، أو على الأقل تؤثر في التفكير تأثيراً عميقاً وتسدده وتوجهه اتجاهاً خاصاً . والأدب الذي يسود بين الطبقات العليا من الأمة قد يكون عاكساً للتأثيرات الخارجية والأجنبية ، ولكن لغة الشعب تمثل في كل الأحوال ، روح الشعب . ان لغة الآباء والأجداد مخزن لكل ما للشعب من ذخائر الفكر والتقاليد والتاريخ والفلسفة والدين . ان قلب الشعب ينبض في لغته . ان روح الشعب يكمن في لغة الآباء والأجداد [1] . »

وشبيه بهذا قول فيخته : « ان الحدود الأساسيـــة التي تستحق التسمية باسم الطبيعة، هي الحدود الداخلية التي ترسمها اللغات. فان الذين يتكلمون اللغة الواحدة، يرتبط بعضهم ببعض ، بحكم نواميس الطبيعة ، بروابط عديدة ، فيكونون كلا لا يقبل الانفصام [2] » .

وأعمق من هذا وذاك قول أرنولد فان جينيب ورينيه جوهانيه : « ان روح الأمة وسر كيانها وعنوان وعيها ، تكمن كلها في اللغة ، هذه الرابطة العضوية الخفية ، غير المادية ، العاملة للوحدة في هدوء وخفاء ، القوية كأعظم ما تكون القوة ، أليس في اللغـة نوع من الفلسفة القومية ، ينم عن أعمق خصـائص الجنس ، ويؤدي إلى تمثل العناصر الانسانية المتأثرة بها ؟ والنطق بلغة معينة ، أليس هو إلى حد ما ، تبني قومية تلك اللغة ، أو بدء الاتجاه في ذلك السبيل [3] »

---

١ – ما هي القومية ، لساطع الحصري ، ص ٥٦

٢ – ما هي القومية ، ص ٥٩

٣ – المرجع السابق ، ص ٦٩ – ٧٧

وقد صاغ هذه المعاني جميعاً موريس آرنت أحد شعراء الالمان في القرن التاسع عشر ، في قصيدة شهيرة أراد ان يحدد فيها معنى « الوطن الألماني » وهو يبدأ قصيدته بهذا السؤال: « ما هو وطني الألماني ؟ » ثم يردف هذا السؤال العام بسلسلة أسئلة تفصيلية وتوضيحية :

« هل هو بروسيا ، هل هو الشواب ؟
وهل يقع على الراين ، حيث تزدهر الكروم ؟
أم هو على البلت ، حيث ترفرف أجنحة الطيور ؟ »

وبعد ذلك يرد على هذه الأسئلة بقوله :

« أوه ، كلا .. كلا ..
وان الوطن الألماني لهو أكبر من ذلك ؟ »

بعد هذه القطعة الأولى من القصيدة ، ينظم سلسلة قطع أخرى ، يكرر فيها الأسئلة عن كل قطر من الأقطار الألمانية الأخرى، مثل بافاريا ووستفاليا وأوستريا.. وينهي كل واحدة منها بالرد الآنف الذكر :

« أوه ، كلا .. كلا ..
والوطن الألماني يجب ان يكون أكبر من ذلك . »

وبعد الانتهاء من هذه السلسلة ، يغيّر شكل السؤال :

« إذن ، قل لي ما هو اسم هذا البلد الكبير ؟ »

ثم يرد على جميع الأسئلة السابقة بقوله :

« كل البلاد التي ترن في أجوائها اللغة الألمانية ..
« كل البلاد التي يرتفع فيها إلى السماء الحمد لله باللغة الألمانية

« كل تلك البلاد ، يجب ان تكون وطن الألمان
« فيا أيها الألماني الشجاع ! يجب ان تعتبر كل تلك البلاد وطنك وتحبها بكل قلبك .. »

وفي الأخير ينهي الشاعر قصيدته بالتضرع إلى الله :

« يا إله السماء ، استجب لدعائنا ، وامنحنا شجاعة الألماني الحقيقي ، لكي نحب ذلك الوطن بكل اخلاص وحماس ، ونراه وطناً فعلياً لجميع الألمان . »[1]

والواقع ان اللغة ليست ألفاظاً وحسب ، وإنما هي آداب وتقاليد وعادات وطرق تفكير ووسائل تعبير ، وسبيل لنقل التراث القديم إلى الجيل الجديد ، بحيث تغدو جزءاً من حياة الأمة الفكرية والروحية وعاداتها الوطنية . وفي عهود الاضطهاد القومي ، ومحاولة الدولة الغالبة القضاء على جميع عناصر القومية في الشعب المغلوب ، كانت اللغة تصبح لدى أبناء هذا الشعب ، بمثابة الوطن الروحي ، وتجسيداً لكل ما يقدسون . وهذا ما حدث في العالم العربي عندما حاولت القومية الطورانية القضاء على جميع الوشائج التي تشد العربي إلى قوميته وتراثه وتؤلف قوام شخصيته ووجوده وفي مقدمتها اللغة العربية .

*

ولا ريب في أن ذلك المعنى الجليل ، معنى التجدد والتحرر والنهوض ، الذي تميز به الاسلام في أول عهده ، لا يتفق مع ما طرأ على حياة المسلمين من بعد ، ولا سيما في عصور الانحطاط ، من قعود وجمود فشاع فيهم الخنوع والاستسلام ، وتخاذلوا أمام الطغيان ، وتمسكوا بكل ما يقصيهم عن الحياة ، وينأى بهم عن أسباب القوة والعزة والابداع .

---

١ ـ ما هي القومية ، ص ٦١

وقد أصيب العرب بكثير من هذه الآفـــات التي تسرب معظمها من بيئات أعجمية وأصول غير عربية ، فذلوا بعـد مجد ، وضعفوا بعد قوة ، وانحطوا بعد ارتقاء ، وأظلمت حياتهم وركدت بعـــد نبض واشراق . وبعد أن كان الدين حافزاً لهم للتحرر والتوثب والاقتحام ، جعل الأعـــاجم يحكمونهم باسم الدين . وحين احتل السلطان سليم العثماني بلادهم في الربع الأول من القرن السادس عشر [1] ، رحبوا به في كل قطر من أقطارهم متطلعين اليه كمنقذ يحررهم من جور المماليك ، « فباسم الدين فتحت البلاد له الأبواب ، وباسم الدين انتقلت الخلافة إلى البيت العثماني [2] » ولأول مرة في التاريخ انتقلت الخلافة إلى حاكم غير عربي [3]. وغدت عاصمة العالم الاسلامي تقع في قطر غير عربي ، وضاع ذلك التراث الخالد الذي حافظت عليه العروبة منذ خرجت من موطنهـــا الأصلي في بلاد العرب مع الجيوش الاسلاميـــة ، إذ كانت الحركات السياسية الكبرى التي اضطرم بها العالم الاسلامي ، وما نجم عنها من قيـــام دولة مكان أخرى ، تتحرج من نقل مركز الحكم إلى بلاد غير عربية ، فظلت العاصمـة تتنقل بين مدنها الكبرى ، من المدينة إلى دمشق إلى بغداد ثم إلى القاهرة [4] .

---

١ ـ افتتح الاتراك العثمانيون العراق سنة ١٥١٠ (٩١٦ هـ) وسورية سنة ١٥١٦ (٩٢٢هـ) ومصر واليمن ١٥١٧ (٩٢٣ هـ) ثم تغلغلوا في شمال افريقية وافتتحوا الجزائر سنة ١٥٤٧ (٩٥٤ هـ) .

٢ ـ المراحل التاريخية للقومية العربية ، ص ٧

٣ ـ كان المماليك قـد احيوا الخلافة في مصـر باسنادها الى احـد افراد بني العباس الذين نجوا مـن مذبحة المغول فـي بغداد ، واصبحت منذ ذلك الحين منصبا روحيا صـرفا يتوارثه الامراء العباسيون دون ان يكون لهم من السلطان سوى تعيين السلاطين (انظر صلاح الدين الايوبي لقدري قلعجي ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣) وقد شاع عن العلاقات بين السلطان سليم والخليفة المتوكل آخر أولئك الخلفاء العباسيين ، ان الخليفة نقل رسميا منصبه للفاتح وقدم لـه رمزا لهذا النقل الآثار المقدسة التي كان يعتقد أنها من ايام النبي ، كالبردة التي كان يلبسها الخلفاء العباسيون في احتفالاتهم الرسمية وبعض شعرات من لحيته وسيف الخليفة عمر ، وقد نقل السلطان هذه الآثار الى القسطنطينية حيث لم تزل محفوظة في جامع أيوب كقسم مـن الغنائم التي غنمها بفتحه مصر ، ولكن ليس هناك دليل قاطع على نقل الخلافة من المتوكل الى السلطان سليم ، فضلا عن أن شرعية انتقال الخلافة على هذا الشكل أمر لا يمكن التسليم به دون نقاش (انظر الخلافة لتوماس أرنولد ، ص ٨٦) .

٤ ـ قادة التحرير العربي في العصر الحديث ، ص ٣٨

ولم يزد الحكم العثماني على أن ضرب نطاقاً عسكرياً حول البلاد وفرض عليها جبايات منظمة تؤدى كل عام ، ولم تكسب الأحداث الاسلامية شيئاً بهذا الفتح الجديد ، حتى الأمن الذي شملها في السنوات الأولى منه ، لم يلبث أن اضطرب حبله وعاد الأمر فوضى كما كان... واستمر الركود بل استحال خموداً ، وزادت الهمم هبوطاً والعقول جهلاً ، وتضاءلت من نواحي الدولة بوارق النهوض الأدبي أو الفني التي كانت تتبىء بالخـــير في بعض نواحي مصر والشام ، فسكن كل شيء وركد في ظل هذه الوحدة الظاهرة التي عرفت بالدولة العثمانية ، وانقطعت الصلات التجارية بين الشرق والغرب ، بعد أن كانت قائمة ماضية في سبيل القوة في أواخر أيام المماليك ، فكان انقطاع الصلات هـذا أكبر العوامل في تفوق أوربة على العالم الاسلامي إذ إنه وقف في مكانه ومضت أوربة في سبيلها قدماً .[1]

لقد استغل الاتراك الرابطة الدينيـــة في حكم العرب ، ونسي هؤلاء موقفهم يوم انهارت الدولة العربية في الأندلس ، وكان الأتراك في عنفوان دولتهم وأوج قوتهم، فلم ينهضوا لنصرة العرب وأغلقوا آذانهم عن استغاثتهم، بل ابتهجوا لسقوطهم لأنه يفسح لهم مجال التفرد بالسلطان ، حالف سليمان القانوني فرنسوا الأول ولم يشأ أن يحالف عرب الأندلس في محنتهم ، وقد أشار إلى ذلك أبو البقاء الرندي في مرثيته للأندلس فقال :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له ... هوى له أحـد وانهدّ ثهلان
أصابها العين في الاسلام فارتزأت ... حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين حيان ؟
وأين قرطبة دار العـلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن ؟
قواعد كنّ أركان البلاد فما ... عسى البقاء إذا لم تبق أركان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة ... ان كنت في سنة فالدهر يقظان

١ ــ رفاعة الطهطاوي ، للدكتور حسين فوزي النجار ، ص ١٥

وماشياً مرحـــاً يلهيه موطنه | أبعد حمص تغر المرء أوطان
تلك المصيبة أنست مـا تقدمها | وما لها من طوال الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة | كأنها في مجـال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهنـد مرهفة | كأنها في ظلام النقع نيران
وراتعين وراء النهر في دعـة | لهـم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبـأ من أهل أندلس | فقد سرى بحديث القوم ركبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم | قتلى وأسرى فما يهتز إنسان
ماذا التقاطع في الاسلام بينكـم | وأنتم يا عبـاد الله اخوان
الا نفوس أبيـــات لهـا همم | اما على الخير أنصار وأعوان ؟ !

والواقع ان الاتراك العثمانيين قد اضطلعوا ببطولة الفصل الختامي من مأساة العروبة وتحطيم مجدها القديم الذي ما فتىء يتعرض لمعاول الهدم منذ بدأت الشعوبية تتغلغل في عاصمة العباسيين ، وورثوا باسم الإسلام مكانها في التاريخ ، وزعامتهـــا للشعوب الإسلامية . ولكن الإسلام الذي لم يعرف في عهد العرب ، التعصب ضد مذهب أو جنس أو دين وإنما عمل على إرساء دعائم الحرية والتسامح ، وكافح الفتنة والإكراه ، فقد في ظل العثمانيين كثيراً من مبادئه ومعـــانيه ، وانتشرت تحت عنوانه ترهات وأوهام. ويطول بنا المقال لو ضربنا الأمثلة وعددنا البراهين، ويكفي ان نذكر ان عمر بن الخطاب لما فتح القدس أبى ان يصلي في كنيستها مخافة ان يتخذ المسلمون مصلاه مسجداً ، أما محمد الفاتح فقد بادر إلى تحويل كنيسة ايا صوفيا إلى مسجد جامع لما فتح القسطنطينية بعد ذلك بسبعة قرون .

لقد كان الإرث الحضاري الذي آل إلى العثمانيين أكبر من طاقتهم الروحيـة ، فتخلوا عنه بدلاً من ان يضيفوا اليه من إبداعهم ووحي ضمائرهم ، وانسحبوا من ميادين الحياة والتقدم ، وانسحب معهم أبناء الشعوب التي يحكمون، تاركين العمل فيها لحضارات أقوى وشعوب أكثر تجاوباً مع التطور وأسرع استجابة لنداء العصور الحديثة . لقد نجحوا في كسب معارك عسكرية عظيمة في البر والبحر ، جعلت الامبراطورية التركية من أكبر الامبراطوريات في العالم . ولكن هذا النجاح لم

يستمر طويلاً ، ولعله كان من مدخرات الإسلام الأدبيـة في قرونه الأولى . ولم تؤت هذه الانتصارات ثماراً ذات بال، لأنها لم تقترن بقدرة علمية ولا مهارة إدارية ولا بصيرة سياسية . ولم تكن الدولة لتضع نصب عينها يوماً ان لها رسالة حضاريـة فأقفرت من العلماء والمفكرين الذين نهضوا في كنف الحكم العربي وكانوا النجوم الهادية في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة . ومن ثم تحولت فتوح الدولة إلى عبء عليها بدل أن تكون مدداً لها [١] .

وإذا كانت هذه الفتوح قد جلبت للدولة خيراً يذكر ، فان هذا الخير ما كان ليساوي شيئاً إلى جانب خسارة الشعوب الاسلاميـــة نفسها . « أجل ، ان الدولة التركية ، بقصورهـــا الأدبي ، خسرت رأسمالها من المسلمين أنفسهم ، في بلادهم الطويلة العريضة ، فإن هؤلاء المسلمين أخذوا ينحدرون قليلاً قليلاً في مجال العلم والعمران ، فاذا العواصم التي طالما دوّت بالدروس والمنـــاظرات يخفت صوتها ، وتقفر عرصاتها ، وتغلق مكاتبها . وإذا المدائن والقرى التي كانت أسواقاً للخيرات، ومجالاً للفنون والصناعات ، تذوي وتضمر وتعتل [٢] »

لقد كانت الرابطـــة الدينية السلاح الذي تذرعت به الدولة العثمانية لاحكام قبضتها على الشعوب العربية ، فأحاط الحكام أنفسهم بطوائف المرتزقة من الدجالين والمشعوذين الذين ضربوا ستـــاراً كثيفاً حول الشريعة السمحاء ، وحرّفوا أصول الدين ، ونشروا البدع والخرافات ، ونفثوا السم القـاتل في كتبهم ومواعظهم ، فتراكم الجهل ، وران الظلام ، وتلبدت السحب التي تحجب نور العقل وصحة الفكر واشراق البصيرة ، وسادت الأوهام المثبطة للهمم ، المضعفة للعزائم ، الداعية إلى الاستسلام المهين .

ومن هنا كانت حركات المقاومـة والاصلاح التي تمخضت بها الدول العربية في القرن الثامن عشر ، حركات امتزجت فيها نزعة التحرر القومي بالدعوة إلى الاصلاح الديني ، والرجوع بالشريعة إلى أصولها وقواعدها ، وإزالة ما أدخل عليها في عهود

---

١ ـ انظر حقيقة القومية العربية ، ص ٢٦٦

٢ ـ المرجع السابق ، ص ٢٦٧

الظلام والانحطاط من بدع وأكاذيب مناهضة للعقل مناقضة للاسلام ، دخيلة على العرب وعلى قيمهم الفكرية وجذورهم التاريخية .

وأول هذه الحركات دعوة المصلح محمد بن عبد الوهاب في نجد ، الذي دعا الناس إلى مذهب الإمام احمد بن حنبل ، وحث مريديه على مطالعة كتب شيخ الاسلام احمد بن تيمية ، فلاقت دعوته الاصلاحية انتشاراً كبيراً ، واتسع نطاقها حين وضع الأمير سعود الكبير نفسه في خدمتهـــا ، فاقترن السيف والفكر ، وعمت الدعوة جميع شرق الجزيرة العربية واليمن والحجاز ، وبدأت تمتد إلى بلاد الشام وتطرق أبواب بغداد ، فخشيت الدولة العثمانية ذلك ، وعهدت إلى محمد علي واليها في مصر بالحملة على الأمراء السعوديين في معاقلهم ، فقام ولداه طوسون وابرهيم على التوالي بحملات عنيفة على نجد والحجـــاز أنزلت بها أضراراً فادحة . إلا أن نجم الأمراء السعوديين ما لبث أن لمع من جديد في عهد تركي بن عبـــدالله الذي اتخذ الرياض عاصمة له وأعاد للسعوديين عزتهم ووطد أركان دولتهم . ويتفق المؤرخون على أن ظهور الدعوة الوهابية ، بما اشتملت عليه من تحريض على الجهاد ، وتطهير للنفوس ، وإذكاء للوعي بصفة عامة ، قد أيقظ العرب من سباتهم ، وأثار فيهم الوعي القومي وان لم تكن هذه الاثارة مقصودة لذاتها . وهم يرون ان الدعوة إنمـــا توقفت عند حـــدود جزيرة العرب ، نظراً لضعف الوعي القومي العربي في ذلك الزمن ، إذ استطاع العثمانيون التغرير بالعرب وإيهامهم ان الحركة الوهابية حركة إلحادية ثائرة على الاسلام ، وسرعان ما انتصر باطل العثمانيين على حق الوهابيين ، إلا أن الحركة الوهابية التي كانت من الناحية السياسية سلسلة من المحاولات الرامية إلى استقلال قلب جزيرة العرب استقلالاً تاماً عن الدولة العثمانيـــة ، قد تركت مع ذلك أثراً عميقاً بين العرب جعلهم يعتقدون أنهم قوة لا تغلب ، وأنهم إذا اتحـــدوا غلبوا ، وأن الأتراك جسم غريب عن الكيان العربي ، ومن السهل التخلص منه إذا ما تمت الحركات القومية الوطنية ، وأن الإمامة كما يقول ابن تيمية إنما تقوم على عقد بين الحاكم والأمة يوجب على الإمام تطبيق الشريعة بمعاونة أهل العلم واشرافهم ، وله في مقابل ذلك البيعة والطاعة ، فإذا أخل باحكام الشريعة وجب الخروج عليه ، وقد

اعتبر الوهابيون الخليفة العثماني خارجاً على العقد الشرعي بين الإمام والأمة ، فكانت حركتهم أول حركة تناهض الخلافة العثمانية على اساس من العقيدة الاسلامية نفسها ، وقد حطمت هذه الحركة تلك الهالة التي كانت تحيط خليفة المسلمين في استانبول بما يشبه العصمة والقداسة [١] .

ولما قام الشيخ محمد بن عبد الوهاب يدعو إلى الاصلاح في المشرق قام السيد محمد بن علي السنوسي بنشر الطريقة السنوسية في المغرب . وكانت دعوة السنوسي الكبير أساسها الإسلام الصحيح البعيد عن البدع، فلما اشتد ساعدها في عهد مؤسسها ونجله المهدي أخذت تلاقي مقاومة شديدة من الدولة العثمانية . أما في اليمن التي كان تاريخها منذ ان احتلها الأتراك تاريخ جهاد مستمر في سبيل التحرر من نير هذا الاحتلال ، فقد كان الأئمة الزيديون يحاربون الدولة العثمانية باسم المذهب الزيدي . وكذلك كان شأن الأدارسة في عسير الذين حاربوها باسم الاصلاح الديني. ولكن من الخطأ الاعتقاد بأن الإمام الزيدي في اليمن ، أو الأمراء السنوسيين في ليبيا والصحراء الافريقية أو الأدارسة في عسير ، كانوا يحاربون الأتراك بدافع العامل الديني وحده ، فان العامل القومي كان وراء هذه الحركات جميعاً [٢] .

ويذكر المؤرخون في حركات الإفاقة والمقاومة العربية حركة محمد علي والي مصر الذي ثار على تركية محاولاً استغلال رغبة العرب في التمتع باستقلالهم ، وأطلق على نفسه لقب « سلطان العرب وخاقان البحرين » غير ان نزعته النفعية الامبراطورية انتهت بالإخفاق ، لأن العرب لم يشتركوا فيها اشتراكاً فعلياً ، إذ تبين لهم ان خروجه على السلطان العثماني وهو الألباني الأصل ، ليس مبعثه إلا الرغبة في إنشاء دولة عربية تدين له بالطاعة كما كانت تدين من قبل للسلاطين العثمانيين. وقد كانت الثورات المحلية التي هبت في وجه ولده ابرهيم باشا في بلاد الشام عنصراً رئيسياً بين العناصر التي عملت على إجلاء جيشه عن هذه البلاد . ولكن هذه الحركة

---

١ ــ انظر : تاريخ الامة العربية ، عصر الانبعاث ص ٢٤ ، الاحداث العربية في تاريخها الحديث ص ١٩ ــ ٢٠ ، قلب جزيرة العرب ص ٣٣٠. ، سطور من الرسالة ص ٣١ ــ ٣٢

٢ ــ محاضرات في الاستعمار ، ج ٢ ص ٣٣

المعادية للدولة العثمانية ، والتي كان مسرحها قلب البلاد العربية، قد تركت ولاشك أثرها في تنبيه المواطنين إلى ضعف هــذه الدولة ، وإلى إمكان مقاومتها بالتكتل والاتحاد ، فضلاً عما قام به ابرهيم باشا من محاولات إصلاحية في ميداني الإدارة والتعليم تقرباً من أهل البلاد [1] .

لقد كان العامل القومي يعلن عن ذاته بين حين وآخر في انتفاضات جريئة وثورات محلية وصرخات أبية . فمنذ مطلع عهد السلطان سليمان القانوني ، أي بعد أربع سنوات فقط من الفتح العثماني ، ثارت دمشق على الحكم التركي بقيادة الوالي الغزالي ثورة كبدت سورية ألوف الضحايا. ثم تعاقبت بعد ذلك ثورات وانتفاضات كانت تقمع بوحشية لا مثيل لها ، إلا عندما كانت تلك الأحداث تقترن بظروف خارجية تدعو ذلك الذئب إلى ارتداء ثوب الحمل ، كما حدث حــين هاجم أبناء دمشق الوالي التركي سليم باشا سنة ١٨٣٠ (١٢٤٧ هـ) وقتلوه عقاباً له على مظالمه ، وكانت حكومة الاستانة تخشى ان تستنجد دمشق بالقاهرة في عهد محمد علي الكبير ، فأخذت تبرر عمل أهل دمشق وأصبحت كالمحامية عنهم تختلق لهم الأعذار عما بدر منهم [2] .

ومن تلك الانتفاضات الرائعة ثورة لبنان في عهد الأمير فخر الدين المعني الثاني الذي أراد ان ينتهز انشغال الدولة العثمانية في حروبها مع النمسة وحلفائها ، فيؤلف دولة عربية مستقلة كانت حدودها تتسع باستمرار ، فأخذت الدولة العثمانية تستميله وتسترضيه ، حتى استجمعت قواها فانقضت عليه واعتقلته في عاصمتها مع اثنين من أولاده ثم قضت عليهم جميعاً في سنة ١٦٣٥ (١٠٤٥ هـ) [3] .

ومنها ثورة الشيخ ظاهر العمر الذي قاوم الدولة العثمانية في عكة ، وغدا السيد المطاع في الساحل السوري ، وحارب والي دمشق العثماني وهزم جيشه ، ثم جهزت

---

١ ـ أنظر الاحداث العربية في تاريخها الحديث ص ٢١٢ ، بريطانيا والدول العربية ص ١٥

٢ ـ خطط الشام ، ج ٣ ص ٤٢

٣ ـ أنظر : تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني ، لعيسى اسكندر المعلوف .

الدولة سنة ١٧٨٠ (١١٩٥ هـ) [١] .

وثورة سليمان الشاوي في العراق سنة ١٧٨٦ (١٢٠١ هـ) ، تلك الثورة التي اتخذت طابعاً قومياً وانضم اليها الشيخ تويني صاحب المنتفق وشيخ الخزاعل. وكان الشاوي كما يقول ابن سند ، من أفراد الدهر عقلاً وحلماً وكرماً وشجاعة [٢] .

وثورة الشيخ سعدون السعدون في المنتفق بالعراق ومقاومته للسلطة العثمانية في أواخر القرن التاسع عشر ، وقد التف حوله أكثر البدو الضاربين بين النجف والكويت ، فوجهت اليه الحكومة العثمانية قوة من جيشها فقاتلها وانتصر عليها، ثم احتال عليه والي البصرة فاعتقله وأرسله إلى بغداد ثم إلى حلب حيث حوكم بتهمة العمل لاستعادة الحكم للعرب ، وقد توفي قبل انتهاء محاكمته [٣] .

وثورة الكرك عام ١٩١٠ (١٣٢٨ هـ) التي تزعمها الشيخ قدر المجالي وقد اشتركت في إشعال نيرانها عوامل عدة ، كان أهمها سوء الإدارة العثمانية ، وما تعتمده من وسائل الإرهاب في جباية الضرائب وتطبيق الأنظمة والقوانين التعسفية التي لا تتفق وأوضاع البلاد، وآخر هذه الأنظمة قيام الأتراك باحصاء السكان تمهيداً لتجنيدهم وإرسالهم إلى البلقان كما فعلوا في حوران وجبل الدروز . وقد احتل الثوار دار الحكومة ومؤسساتها ، وضربوا الحصار على الحامية التركية ، وامتدت نار الثورة من الكرك إلى القرى المجاورة لها والمنطقة كلها ، إلا ان الحملة العسكرية التي كانت تحتل جبل الدروز ما لبثت ان أنجدت الحامية التركية المحاصرة في الكرك ، وأخمدت الثورة بمنتهى الشدة والقسوة [٤] .

على ان هذه الانتفاضات الفردية العفوية في سائر أقطار العروبة ، ان دلت على ان طبيعة العرب التي تعشق الحرية والاستقلال لم تخنع للذل ولم ترض بالهوان ، فانها لم تكن تدل على يقظتهم القومية ، وشعورهم بحقهم كأمة وعت حقيقة

١ ــ انظر : سيرة ظاهر العمر ، لميخائيل الصباغ .

٢ ــ انظر : التحفة النبهانية ، جزء المنتفق ، ص ١١٠ ــ ١٤٥

٣ ــ انظر : مطالع السعود ، ص ٢١ ، ولب الالباب ، ص ١٧٨ ــ ١٨١

٤ ــ انظر : تاريخ الاردن في القرن العشرين ، ص ١٨ وما بعدها .

وجودها ، وآمنت بشخصيتها الخاصة المتميزة ، وأعلنت تلك الحقيقة باعتبارها الصفة الأصيلة الثابتة لمجتمعها . ويجب ان ننتقل إلى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حتى نشهد بذور هذه القومية وقد تأصلت جذورها ، ونرى غراسها اليانعة تنمو وتؤتي أكلها .

الفصل الثاني

ذلك الليل الطويل

كان القرن التاسع عشر أحلك الحقب في ذلك الليل الطويل الذي ران على البلاد العربية ، منذ أدال القدر منها في موقعة بغداد سنة ١٢٥٨ (٦٥٦ هـ) إذ احتلها هولاكو وقتل خليفتها المعتصم ، وأحرق مكاتبها وذبح مئات الألوف من أبنائها ، ثم تبعه تيمورلنك فمحا كل أثر للمدنية فيها .

وقد كان اكتشاف البخار والثورة الصناعية ، مبعث نهضة رائعة في أوربة اختصرت المسافات وقرّبت الأبعاد وربطت بين الشرق والغرب ، وكان من المبادىء التي انتصرت وانتشرت في العالم المتمدن ، وانتقلت إلى آسية وافريقية ، مبدأ القومية الذي استثار الشعوب البلقانية والعربية الخاضعة للامبراطورية العثمانية التي أخذت تطمح إلى الظفر بحريتها واستقلالها .

وكانت الدولة العثمانية قبل ذلك تحارب أعداءها في الخارج فقط ،فصارت تحارب الأمم التي تحت حكمها أيضاً محاولة القضاء على فكرة الاستقلال في تلك الأمم تارة بالوعد وتارة بالوعيد [1] .

---

١ ـ ثورة العرب ص ٤

وكان حكام الامبراطورية العثمانية يرون إلى تململ الشعوب التي يحكمونها، فيلجأ بعضهم في معالجة ذلك إلى شيء من الاصلاح ، ويلجأ غيرهم إلى مزيد من البطش والإرهاب .

وقد بدأت محاولات الاصلاح في أواخر عهد السلطان محمود الثاني ، بل في سنة وفاته بالذات (١٨٣٩ م ١٢٥٥ هـ) إذ أدخل بعض الاصلاح على أنظمة الجيش وجهاز الحكم. ثم خلفه ابنه عبد المجيد، وتولى وزارة الخارجية في عهده رشيد باشا أحد المثقفين البارزين ، فأصـــدر سنة ١٨٥٥ (١٢٧٢ هـ) « الفرمان كل خانه » وهي مجموعة من الأنظمة تعتبر بمثابة قانون أساسي . ولما توفي السلطان عبد المجيد وخلفه أخوه السلطان عبد العزيز سنة ١٨٦١ (١٢٧٨ هـ) ، انكفأت حركات الاصلاح، وساد الظلم والطغيان حتى تولى رئاسة الوزارة في عهد عبد الحميد الثاني المصلح العظيم مدحت باشا ووضع دستوراً تقدمياً يوطد دعائم الحرية والديمقراطية في البلاد .

وكانت الدول الأوروبية الكبرى التي تتنازع لحاف «الرجـل المريض» ، وهو اللقب الذي أطلق على الدولة العثمانية يومذاك، قد اتفقت على عقد مؤتمر في الاستانة لمعالجة المشاكل القائمة في البلقان وإصلاح الإدارة العثمانية ، مبررة ذلك برغبتها في حماية الأقليات المسيحية والعناصر المضطهدة في الامبراطورية . ولم يكن هناك من يستطيع إخراج الدولة من ذلك الموقف العصيب إلا مدحت باشا ، فان دستوره المقترن لدى الرأي العام في الولايات العثمانيـة الثائرة وفي أوربة نفسها ، بالمبادىء التي تنشدها تلك الولايات ، ينزع من الدول الأوروبية أكثر الحجج التي تتذرع بها للتدخل في شؤون الدولة العثمانية واقتطاع الولايات التابعة لها .

وفي اليوم الثاني عشر من شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٧٦ (١٢٩٣هـ) وهو يوم افتتاح مؤتمر الدول الأوروبية الست في الاستانة ، بينما كان أعضاء المؤتمر مجتمعين لتقرير طرق الاصلاح التي ينبغي للدولة العثمانية انتهاجها ، إذا بهم يسمعون مدافع الأسطول التركي تطلق نيرانها ، وإذا بصفوت باشا وزير الخارجية العثمانية يقف بينهم قائلًا : « أيها السادة ان هذه المدافع التي تقصف على جهة الخليج ، تؤذن بإعلان النظام الدستوري الجديد الذي رأى جلالة السلطان تطبيقه في الدولة . ولما

كان هذا النظام يكفل لسائر العناصر العثمانية حريتها الشخصية فلم يعد ثمة من حاجة إلى اجتماعنا بعد هذا الانقلاب . »

وقد تلقى المندوبون هذه الكلمات بصمت عميق ، وتولاهم الذهول لهذه المفاجأة ثم قال مندوب انكلترة بلهجة اليائس : « إن مهمتنا قد انتهت أيها السادة » ولكن المندوب الروسي اعترضه قائلاً : « ان هذه المظاهر يجب ألا يكترث لها » وألح على ضرورة الشروع في بحث الموضوع الذي انعقد المؤتمر من أجله ، إذ ليس هناك ما يضمن ان الدستور الذي أعلن سينفذ ، فوافقه زملاؤه على رأيه .

وبينما الدول الست ماضية في مؤتمرها بالاستانة ، في التآمر على الدولة العثمانية بحجة حماية الأقليات والعناصر المضطهدة،أخذ مدحت باشا يعمل على تنفيذ الدستور حالاً كي يثبت للرأي العام في تلك الدول ان سياسة الدوله العثمانية قد تغيرت حقاً بعد اعتناقها النظام الجديد ، فأطلق حرية الرأي والنشر والاجتماع ، وعفا عن المبعدين السياسيين ، وأحسن معاملة الأقليات والطوائف المسيحية .

وما لبث المؤتمر ان أنهى أعماله بعد ان اتخذ عدة مقررات تنتقص من سيادة الدولة العثمانية ، ووجه إلى الباب العالي مذكرة جاء فيها ان مندوبي الدول الست وسفراءها عازمون على مغادرة الاستانة إذا رفضت هذه المقررات، وقد أمهل الباب العالي أسبوعاً واحداً للاجابة عليها ، ولم يشأ مدحت باشا ان ينفرد الباب العالي بالجواب على هذا الانذار ، بل أراد ان يجيب عليه الشعب نفسه ، وبما ان مجلس النواب لم يكن قد تم انتخابه ، فقد دعا مائتين وخمسين رجلاً من قادة الرأي في البلاد على اختلاف طوائفهم وهيئاتهم ، إلى عقد مجلس وطني كبير ، فالتأم هذا المجلس في الباب العالي في ١٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٨٧٧ (١٢٩٤ هـ) وبحث مطالب المؤتمر فقرر رفضها في جو يلتهب وطنية وحماسة .

وبادر مدحت فأرسل قرار المجلس الوطني إلى مندوبي الدول ، فلم يبطىء هؤلاء حتى غادروا الاستانة في ٢٠ كانون الثاني (يناير) . وما كاد السلطان الأحمر يطمئن إلى انتهاء الأزمة ، وزوال الضغط الأوروبي ، حتى أقال مدحت باشا في ٢٤ كانون الثاني (يناير) ونفاه ، ثم ما لبث ان ألغى الدستور ، وحل مجلس

النواب ، وأوقف حركة الاصلاح ، واضطهد المصلحـــين الأحرار ، وفرض على الامبراطورية أشد ألوان العسف والارهاب [1] .

ومرت الدولة بعد ذلك بأسوأ حقبة في تاريخها ، واستطاع السلطان عبد الحميد وبطانته ان يستمروا في الهيمنة على أجزاء المملكة فترة طويلة ، كما استطاعوا ان يؤخروا بعث الوعي القومي ، وبخاصة الوعي العربي ، فترة ما ، فتفسخت المملكة ودب الفساد إلى كافة أجزائها [2] .

وهكذا عانت البلاد العربية في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر ، أشد ضروب الظلم ، وأرهق الخطوب وأفدحها ، وأقسى أساليب الحكم الاستبدادي ، ولم يكن زبانيـــة العثمانيين ، من مدنيين وعسكريين ليهتموا بشيء اهتمامهم باتخام خزائنهم يستنزفونها من دماء الشعوب الغارقة في أقتم دياجير البؤس والشقاء .

على أشلاء هذه الشعوب المختلفة الأجنـــاس والقوميات ، شيد أولئك الحكام الذين لا يربطهم بمحكوميهم إلا رباط التسلط ، قصوراً باذخـــة لم تكن في حقيقتها إلا هياكل للظلم والاستبـــداد ، والعسف والاستعباد ، تطل على الجموع البائسة ، وتقوم على أنقاض الشعوب المغلوبة على أمرها ، والتي انقسمت حياتها ما بين أنات مكبوتة وانتفاضات يائسة لا تلبث أن تغرق البلاد في زكي الدماء وطاهر النجيع ، اللهم إلا إذا كانت تلك البلاد في الديار الاوروبيـــة ، تحتضن حركاتها وتغذيها في آن واحد ، الدول العظمى الطامعة باسلاب الرجل المريض .

وكانت الانباء ما تفتأ تترى إلى السلطـان الاحمر عن طريق أولئك الحكام ، متحدثة عن الرفاهية التي ينعم فيها الناس ، في رعية لا تكف ألسنتها تتحدث بآي الشكر والثناء على السلطان ، صاحب الفضل الأول بالحيـــاة السعيدة التي يحياها ملايين المحكومين !

ولم يكن السلطان نفسه بأفضل من ولاته ، وإنمـــا كان أشد منهم وأظلم ،

---

١ ـ انظر مدحت باشا ابو الدستور العثماني وخالع السلاطين لقدري قلعجي ص ٥١ ـ ٨٢

٢ ـ تاريخ الامة العربية ، عصر الانبعاث ص ٣٣

وأقسى وأعتى ، يعيش في جو مشحون بالفسق، ودنيا غاصة بالجواسيس والعيون الذين لا هم لهم إلا تضخيم الأخطار التي يزعمون بأنها تهدد حياته ، فيدفعونه إلى الامعان في غوايته ومضاعفة جواسيسه .

وكانت السياسة العامة تقضي بأن تبقى تلك الشعوب ، وفي مقدمتها الشعوب العربية، في جهالاتها، تتخبط في تيه العماية ، وتسيطر عليها ترهات رجال الدين الذين اخرجوا الشريعة عن محورها الأساسي ، الذي هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلى طقوس وبدع هي أقرب إلى التمثيل الكوميدي منها إلى التعبد . وكان الدراويش – في ذلك الوقت – يشكلون قوة روحية ذات أثر بعيد ، يعتمد عليها السلطان كل الاعتماد ، تمكيناً لمركزه وتضليلاً لشعبه .

وهذا أبو الهدى الصيادي يتخذ من الدين سلاحاً بتاراً، ويرفع السلطان إلى درجة الأولياء دينياً ، ليمتري هو ضرع الدنيا. وكثير هم من كانوا على شاكلة هذا الدجال الذي كشفه حكيم الشرق جمال الدين الافغاني .

لقد كان التعليم العالي وقفاً على أبناء الأمراء والولاة الحاكمين ، الذين كانوا يعلمون أولادهم في الاستانة ليتولوا من بعدهم شؤون الادارة ويتبوأوا مراكز الحكم . وكانت البرامج المدرسية الهزيلة تتفق وروح السياسة الهادفة إلى تجهيل الشعب لا إلى تعليمه ، ولا سيما في العالم العربي .

وكان الطلاب العرب يواجهون مصاعب لا قبل لهم بتذليلها ، وأهمها قضية اللغة السائدة آنذاك ، لغة الحاكم التركية ، وهي اللغة الوحيدة التي تدرس في مدارس الدولة . أما اللغة العربية فلم تكن تدرس إلا في الكتاتيب والمدارس الدينية .

وقد انتشرت الكتاتيب التي تعلم القرآن الكريم والخط العربي في كل حي من أحياء المدن العربية . وكان الأطفال يتراكمون فيها بعضهم فوق بعض ، يجلسون على الحصر القذرة وينشأون في جو انعدمت فيه الوسائل الصحية الأولية . وكان أكثر الآباء يكتفون بتعليم أولادهم ذلك القسط اليسير من المعرفة ، بينما يرسل غيرهم أبناءهم بعد تخرجهم من الكتاب إلى المدارس الدينية لدراسة الفقه والنحو على أيدي رجال الدين ذوي السلطة الروحية الذين كانوا يشنون الحملات على المدارس

العصرية ويفتون بأنها دور كفر والحاد ، مما يتفق وسياسة الدولة العثمانية التي كانت تشجع علماء الدين ورجال الطرق والمذاهب الصوفية القائمة على الخرافات ومحاربة العقل .

وهكذا تفشت روح الجبر والاتكال والزهد في الحيـــاة ، وأفرغت الصفات القدسية على السلطان ، والسلطان يحشر في قصوره مئات المحظيات ، ويحيط نفسه بألوف الجواسيس ، منغمساً في حمـــأة الإثم والرذيلة ، بينما الشعب يعاني مرارة الجوع وعادية المرض وفداحة الجهل ، وتملأ عقله خرافات الأوليـــاء والصوفيين والأدعية والأوراد .

في ذلك الجو المظلم عاش الانسان العربي خلال القرن التاسع عشر ، تملأ مخيلته الأوهام ، وتكتنفه الأباطيل ، وتغشى أبصاره ظلمات تمتد من ورائها ظلمات ، بينما كانت أنوار المعرفة تغمر عالم الغرب، وأهازيج الحرية تنطلق من حناجر المصلحين هناك،ومواكب الحضارة تتقدم في كل مكان بحثاً عن المواهب واستغلالاً للعبقريات.

وعندما كانت شرارات المعرفـــة والحرية تلامس نفوس الأفذاذ من شباب العرب ، أبناء الطليعة ورعيل الفداء ، كانت السلطات الحاكمة تبادر إلى اطفاء ما توهّج من قبس وتوقّد من نار ، فتعقل الألسنـة وتكم الأفواه ، وتقمع كل حركة تنادي بالتحرر وتدعو إلى الاصلاح ، حتى أضحت غياهب السجون ومجاهل المنافي وقفاً على رجال الفكر والمواطنين الاحرار ، فضلاً عمن كان نصيبهم القتل والاغتيال أو من أغرقوا في لجج البحار [1] .

لكن ما هو أشد وأدهى ، ان جهاز الادارة بما ركبت عليه من اتقان محكم ، لم تسيطر فقط على عقول العامة ، ونفوس السواد ، بل وصلت سمومها وأوهامها إلى سويداء فئة كبيرة من ذوي الرأي وحملة الاقلام ، الذين لم يستطيعوا أن ينفذوا إلى الأعماق ، اما لبعدهم عن دار الخلافة ، وأكثر هؤلاء من المصريين الذين دهموا بالاحتلال البريطـــاني ، فكانوا يرون شعلة الأمل في العرش العثماني . واما لأنهم

---

١ ـ انظر عبد الرحمن الكواكبي لقدري قلعجي ص ٥ وما بعدها .

الطبول التي عملت أجهزة الدعاية على استخدامها ، فكانت أقلامهم وأفكارهم — شاءوا أم أبوا ، علموا أم لم يعلموا — موضوعة في خدمة التضليل ، وتجهيل الشعب ، وان كنا نميل إلى أن هؤلاء ، ولا سيما اعلام الوطنية منهم ، لم يرفعوا الراية العثمانية إلا فزاعة في وجه الاحتـــلال البريطاني ، وعلى رأسهم الزعيم الوطني الخالد مصطفى كامل [1] الذي قال في خطاب له ألقاه في الطلاب المصريين الذين يدرسون في باريس عام ١٨٩٥ (١٣١٣ هـ) :

« حقاً ان سياسة التقرب من الدولة العلية لأحكم السياسات وأرشدها ، فضلًا عن الأسباب العظيمة الداعية لهذا التقرب ، فإن العدو واحد . ولا يليق بنا أن نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل فيه أعداؤنا على تجزئة دولتنـــا . ولا غرو إن كنا نتألم لآلام الدولة العلية ، فما نحن إلا أبناؤها المستظلون بظلها الوريف المجتمعون حول رايتها ...

« وقصارى القول إن الراية العثمانيـــة هي الراية الوحيدة التي يجب أن نجتمع حولها ، ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد والائتلاف ، فلنتحد قلباً ولساناً ، ولنكن يداً واحدة في خدمة الأوطان واسعادها ، ولنقل اليوم جميعاً من صميم أفئدتنا ليحي جلالة السلطان عبدالحميد ، وليحي العباس ، ولتحي العثمانية ومصر ... [2] »

وكثيرون هم الكتاب والشعراء والساسة والفقهـــاء الذين كانوا ينحون هذا النحو ، ويعزفون على هـــذا الوتر ، ويكفي أن يكون بينهم شوقي ، وحافظ ، واسماعيل صبري ، ورشيد رضا ، وعبـــدالله النديم ، وعبدالله فكري ، وتوفيق البكري ، وكل واحد من هؤلاء علم من أعلام الفكر وقائد من قادة النهضة .

ومن أقوال شوقي في مخـــاطبة السلطان عبد الحميد قوله في قصيـــدة « صدى الحرب » :

---

١ — يخلط بعض الكتاب بين حركات النضال الوطني المحلية والحركة القومية العربيـــة ، فمن الواضح مثلا ان نضال الحزب الوطني في مصر لا علاقة له بالوعي القومي العربي ، وان كان يؤلف صفحة رائعة من صفحات الكفاح العربي ضد الاستعمار .

٢ — الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص — ١٩ — ٢٠ .

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب   وينصر دين الله ايان تضرب
وما السيف إلا آية الملك في الورى   ولا الأمر إلا للذي يتغلب

وقوله في قصيدة « تحية الترك » :

بحمد الله رب العالمينا   وحمدك يا أمير المؤمنينا

وقوله في قصيدة « ضيف أمير المؤمنين » :

رضي المسلمون والاسلام   فرع عثمان دم ، فداك الدوام

وقوله في قصيدة « نجاة أمير المؤمنين » :

هنيئاً أمير المؤمنين فإنما   نجاتك للدين الحنيف نجاة

والواقع ان الحركة الفكرية في مصر قد افترقت عن الحركة الفكرية في بلاد الشام منذ الاحتلال البريطاني في سنة ١٨٨٢ (١٣٠٠ هـ) واتبعت اتجاهاً وطنياً خاصاً بها ، فكانت العاطفة السائدة فيها هي العاطفة الاسلامية أولاً ، وكانت تحت تأثير الكيان المصري المحلي ثانياً ، فاكتسبت شخصية ذاتية مستقلة عن بقية أجزاء العالم العربي ، وأدى هذا إلى انعزالها عن حركة القومية العربية انعزالاً يكاد يكون تاماً ، واتجهت مصر نحو افريقية وظلت الوحدة السياسية بينها وبين السودان مركز الثقل في نشاط الحركة الوطنية المصرية ، فساعد ذلك على انصراف مصر عن الشرق العربي بقضاياه ومشاكله جميعاً [1] .

---

١ ـ للتوسع في هذا الموضوع انظر : حول الحركة العربية الحديثة ج١ ص ١٩ الدولة العثمانية والشرق العربي ص ٢٧٠ ذكريات العجلوني ص ٦ ، مذكراتي على هامش القضية العربية ص ١٠ ، الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص ١٦ ، الوحدة العربية ص ١١٦، هذه قوميتنا ص ٢٨٨ ، الحقيقة عن العالم العربي ص ٦٣ ، الاحداث العربية في تاريخها الحديث ص ٣٣ تاريخ سورية لحتي ص ٣٥٢ .

ويقول جورج انطونيوس في ذلك : « كانت القاهرة وبيروت مركزين لألوان من النشاط متوافقة ، وكانت منزلتها التي بلغاها مستمدة من مصدر ثقافي مشترك ، ولذلك كانا يؤثران معاً في سائر البلاد الناطقة بالضاد . ولكن حينما احتلت بريطانية العظمى مصر سنة ١٨٨٢ (١٣٠٠ هـ) في الفترة التي بدأت فيها اليقظة القومية تتخذ طابع الحركة الفكرية – السياسية ظهر اتجاه فكري جديد ذو صبغة مصرية محددة ويرمي إلى هدف واحد لا يتعداه ، وهو السعي لارغام جيش الاحتلال البريطاني على الانسحاب . وهكذا ولدت القومية المصرية ، واتجه قادتها وجهة جعلتها بمرور الأيام تزداد انفصالاً عن الحركة العربية العامة . ومع ذلك فقد ظلت الصلات الثقافية تربط بين مصر وسائر الاقطار العربية ، وخاصة ان وادي النيل قد زاد رخاؤه وأمنه في ظل وصاية انكلترة وحمايتها ، فأصبح لذلك مأوى يلتجيء اليه ضروب متعددة من الناس من طلاب العلم والكتاب والمفكرين السياسيين ، من البلاد العربية التي ظلت خاضعة لحكم السلطان . وكانت آمال المصريين لا تزال آنئذ – كما هي اليوم – متفقة اتفاقاً كبيراً مع آمال العرب ، ولكن الانفصال كان تاماً في مجال العمل القومي الخالص . وهذا ما حدث أيضاً مع تونس التي كانت تحت الحماية الفرنسية . وهكذا وجدت الحركة العربية القومية نفسها محصورة حينئذ – أكثر من أي زمن مضى – في نطاق بلاد الشام والعراق وشبه الجزيرة العربية [1] » .

وقد كانت الحدود غير واضحة لدى المفكرين العرب بين مفهوم الوطنية ومفهوم الدين . والحق ان اقتران الحكم العثماني بالاسلام ، ثم عدم تمييز أكثر المسلمين بين خليفة عربي عادل يحكم على أساس من الشورى ، وسلطان تركي متربع على عرش الاستبداد ، بحجة أن كلا منهما هو « خليفة المسلمين » ، قد أساء إلى حركة العرب التحريرية وأخر تطور وعيهم القومي [2] .

---

١ – يقظة العرب ص ١٧٤

٢ – انظر الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ص ٣٦ الامة العربية في معركة تحقيق الذات ص ٦٠

وقد كان أولئك المفكرون يرون العثمانيـــة والمصرية من معدن واحد هو الاسلام ولا تنفصم الواحدة عن الأخرى [١] .

وليس يعبر عن ذلك كما يعبر عنه هذان البيتان لأحمد محرم :

يا آل عثمان من ترك ومن عرب ... وأي شعب يساوي الترك والعربا
صونوا الهلال وزيدوا مجده علماً ... لا مجد من بعده إن ضاع أو ذهبا

وكما كانت العاطفة الدينية تسير أحياناً إلى جانب الشعور القومي ، أو تختلط به ، كانت النزعة الشرقية أيضاً تبرز أحيانـــاً أخرى [٢] في صورة غامضة تمتزج بالقومية والاسلام ، كقول شوقي :

وما الشرق إلا اسرة أو عشيرة ... تلم بنيها عند كل مصـــاب

أو قوله يخاطب عبد الحميد :

وضع الشرق في يديك يديه ... وأنت من حماته الأقسام

أو قوله :

نمـــا لك ضمها الاسلام في رحم ... وشيجة، وحواها الشرق في نسب

أو قوله :

ناهيك بالسبب الشرقي من نسب ... وحبـــذا الاسلام من رحـم

وقد بلغ من تعصب بعض المفكرين لهذه الاتجاهات الساذجة ، انه لما ظهرت الدعوة إلى القومية العربية رأى فيها بعضهم ضرباً من الخيانة ، واعتبرها آخرون بدعة ترمي إلى إضعاف الوحدة الدينية أو هدمها ، ودسيسة تهدف إلى تحطيم الدولة العثمانية التي هي دولة الخلافة العظمى وحامية الاسلام [٣] .

---

١ ـ الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ص ٣٧
٢ ـ انظر المرجع السابق ص ٧٢ ـ ١٠٤
٣ ـ مذكراتي على هامش القضية العربية ص ٤

أما سكان جزيرة العرب فكانت أوضاعهم الاجتماعية ومنازلهم الجغرافيـــة ، لا تساعد على تأثرهم بفكرة القومية العربية بمعناها الحديث تأثراً سريعاً ، باستثناء من أقام منهم في الاستانة وتفاعل تفاعلاً إيجابياً مع دعاة الفكرة العربية وتفاعلاً سلبياً مع دعاة القومية الطورانية ، وفي مقدمة هؤلاء الشريف حسين بن علي وولداه عبد الله نائب مكة في مجلس المبعوثان وفيصل نائب جدة. وينطبق هذا المعنى على من كان في الاستانة من المصريين وأبناء المغرب العربي وفي مقدمتهم عزيز علي المصري[1].

١ ـ انظر حول الحركة العربية الحديثة ص ٢٠ .

الفصل الثالث

المفكرون العرب رواد القومية العربية

إذا كان شعور مفكري مصر ونجوى أفئدتهم قد ظل متعلقاً بالاستانة ، وإذا كانت صيحات الأحرار هناك لم تخرج عن نطاق الولاء للرابطة العثمانية، فانها كانت أكثر انطلاقاً وتفجراً قومياً في لبنان وسورية والعراق،على أقلام الأدباء والمفكرين الذين عاشوا تحت النير العثماني ، واصطلوا بنار الاستبداد ، فلم يروا في الدولة العثمانية تلك الأم الرؤوم ولا في السلطان العثماني ذلك الأب الحادب ، وإنما رأوا فيها الدولة المسيطرة المستبدة ، ورأوا فيه السفاح والجزار .

ولم يكن يسيراً علىهؤلاء الأدباء والمفكرين الجهر برأيهم والتعبير عن عاطفتهم، وقد هاجر عدد منهم إلى مصر والبلاد الأميركية . ومن هؤلاء سليم سركيس (١٨٦٠ – ١٩٢٧ م ، ١٢٧٧ – ١٣٤٦هـ) صاحب جريدة « المشير » التي عرفت بعدائها للسلطان عبد الحميد ومؤلف كتاب « سر مملكة » الذي ندد فيه بسياسة الدولة العثمانية ، ومن أقواله رداً على أولئك الذين كانوا يعقدون الآمال على إصلاح الدولة العثمانية :

نرجو صلاح الترك قد   خابت أمانينا الكواذب
هي دولة ظلمت وليس العد   ل عن ظلم بذاهب

فانشد معي قولاً تردده المشـــارق والمغـــارب
ليس العجيبـــة فقدها بل عيشها احدى العجائب

ومن أروع الصرخات القومية الواعية التي تعالت في سماء البلاد العربية وأسبقها، قصيدة الشيخ ابرهيم اليازجي البائية التي قيل انه ألقاها في افتتاح الجمعية السورية في بيروت، ولكن المراجع الموثوقة تؤكد انه ألقى في هذه الحفلة قصيدة أخرى[1]. أما قصيدته البائية فقد نشرت غفـــلاً من التوقيـع ، وكان لها في إشعال الحماسة وإثارة النفوس، ما كان لنشيد المارسيلييز من أثر في نفوس الفرنسيين ، ومن المرجح انه نظمها في حدود سنة ١٨٦٨ م (١٢٨٥ هـ) وقد قال فيها :

تنبهـــوا واستفيقوا أيهـــا العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب
فيم التعلل بالآمـــال تخدعـــكم وأنتم بـــين راحات القنـــا سلب
الله أكبر ما هـــذا المنام فقد شكاكم المهد واشتاقتكم التـــرب
كم تُظلمون ولستم تشتكون ، وكم تُستغضبون ، فلا يبدو لكم غضب
ألفتم الهون ، حتى صار عندكم طبعاً ، وبعض طباع المرء مكتسب
وفارقتكم ، لطول الذل ، نخوتكم فليس يؤلمكم خسف ، ولا عطب
لله صـــبركم لو ان صـــبركم في ملتقى الخيل ، حين الخيل تضطرب
كم بين صبر غـدا للذل مجتلبـــاً وبـــين صبر غـــدا للعز يجتلب
فشمروا ، وانهضوا للأمر ، وابتدروا من دهركم فرصة ضنت بهـــا الحقب
لا تبتغـــوا بالمنى فوزاً لأنفسكم لا يصدق الفوز ، ما لم يصدق الطلب
خلوا التعصب عنكم ، واستووا عصباً على الوئـــام ، ودفع الظلم ، تعتصب
لأنتم الفئة الكثرى ، وكم فئـــة قليـــلة ، تم إذ ضمت لهـــا الغلب

---

١ ـ الاتجاهات الادبية للمقدسي ص ١٠٦ وهو يقول ان اليازجي القى فـــي هذه الحفلة قصيدته التي يقول في مطلعها :

سلام ايهـــا العـــرب الكـــرام وجـــاد ربـــوع قطركم الغمـــام
لقـــد ذكـــر الزمان لكـــم عهودا مضت قدمـــا فلـــم يضع اللمـــام

هـذا الذي قد رمى بالضعف قوتكم وغـادر الشمل منكم ، وهو منشعب
وسلط الجور في أقطاركم ، فغدت وأرضها ، دون أقطار الملا ، خرب
وحكم العلج فيكم ، مع مهـانته يقتـادكم لهـواه ، حيث ينقلب
سلاحهم في وجـوه الخصم مكرهم وخـير جندهم : التدليس والكذب
لا يستقيم لهم عهـد ، إذا عقدوا ولا يصح لهم وعـد ، إذا ضربوا
أعنـاقكم لهم رق ومالـكم بين الدمى والطلى والنـوند منتهب
باتت سمان نعاج بين أذرعكم وبات غـيركم لـلدر يحتلب
فصاحب الأرض منكم ضمن ضيعته مستخـدم وربيب الـدار مغترب
بالله يا قومنـا هبوا لشأنكم فكم تناديكم الأسفـار والخطب
ألستم من سطوا في الأرض واقتحموا شرقاً وغرباً وغزوا أينما ذهبـوا

وتلت ذلك حقبة تمتع العرب خلالها بقسط أوفر من الحرية حين تولى مدحت باشا ولاية سوريـة (١٨٧٨ – ١٨٨٠ م ١٢٩٥ – ١٢٩٨ ﻫ) وساعد على إيقاظ النزعات القومية فيها ، وأسس الجمعيات والمدارس الخيرية . وفي هذه الحقبة نظم ابرهيم اليازجي قصيدة لا تقل قوة وروعة عن قصيدته الأولى ، دعا العرب فيها إلى الاتحاد القومي ، والكفاح في سبيل الحرية ، منوّهاً بما تحقق من ذلك للجبل الأسود ، ومما جاء فيها :

دع مجلس الغيد الاوانس وهـوى لواحظها النواعس
ابن النعيم لمن يبيت على بساط الذل جـالس
ولمـن تراه بـائساً أبداً لذيل الترك « بائس »
ولمن ازّمته بكف عـداه يظـلم وهـو آيس
ولمن تبـاع حقوقـه ودمـاؤه بيع الخسائس
ولمـن يرى أوطـانه خـربا كأطـلال دوارس
فالترك قـوم لا يفوز لديهـم إلا المشاكس
أولستم العـرب الكـرام ومن هم الشم المعاطس

فـــاستوقدوا لقتـــالهم نارأً تروّع كل قـــابس

وإذا كان ابرهيم اليازجي رائد الشعر القومي في أدبنا الحديث ، فان عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩ – ١٩٠٢ م ١٢٦٦ – ١٣٢٠ ﻫ) قرينه في ميدان النثر . وقد أنشأ الكواكبي في حلب صحيفـــة باسم « الشهباء » فانطلقت من حروفها شهب أنارت معالم الطريق أمام القافلة الوطنية ، فاقبل الناس على التهام هذا الغذاء العقلي والزاد الروحي بنفوس متعطشة ونشطت القوى العربية الفتية للبحث عن شخصيتها الضائعة ، وترددت على الألسن أسئلة لم تكن قبل ذلك الحين لتلامس الأخيلة .

وقد أغلقت السلطة التركية هذه الصحيفة فعمد إلى إصدار صحيفة أخرى باسم « الاعتدال » ولم تكد أعداد هذه الجريدة تصل إلى أيدي القراء حتى رأى جميل باشا والي حلب انها أبعد ما تكون عن الاعتدال ، فبين حروفها تهدر نذر العاصفة التي تتجمع في آفاق العالم العربي لتهب عاتية مزمجرة تنسف جذور الحكم العثماني ، فعمد إلى تعطيلها بعد فترة قصيرة من صدورها [1] .

إلا أن رسالة الكواكبي إنمـــا انعكست في كتابيه « طبائع الاستبداد » « وأم القرى » اللذين لم يستطع نشرهما في حلب ، فهرب بهما إلى القـــاهرة حيث شاهدا النور ، والكتاب الأول هو مجموعة فصول رائعة في بيان أخطار الاستبداد وفضائل الحكم الشورى ، فهو يحمّل مسؤولية تأخر الأمة للحكم الارهابي التعسفي الذي يسخّر الدين والمجتمع والدولة جميعاً لخدمـــة أهواء الحاكم المستبد ، ثم يدعو مواطنيه إلى الأخذ بأهداب الحرية والعلم والديمقراطية لبناء مجتمع جديد .

وقد جاء في ختام « طبائع الاستبداد » هذا الهتاف الحار الموجه إلى الشعوب العربية :

« أترى اني أمام أحيـــاء لهم حق التحية أو أمام أموات لهم حق الرحمـــة ؟ يا للتعساء ! ليس لكم راحة الأموات ولا قوة الأحيـــاء . فإلى متى تزحون تحت

---

١ – انظر : عبد الرحمن الكواكبي لقدري قلعجي ص ١٥ – ١٦

عبء غفلتكم ؟ انهضوا قبل أن تسحقكم يد القدر ...

«سامحكم الله الذي خلقكم أحراراً كالنور والنسيم !.. فماذا صنعتم بحريتكم ؟.. آباؤكم لم يعرفوا السجود إلا للخالق ، وهم الآن يرقدون مستقيمين في أجداثهم آنفين في رقادهم ، أما أنتم حتى في حياتكم مقوسو الظهور لكثرة سجودكم .

« أيها العرب المسلمون ، اعلموا ان الاستبداد لمن أشد المظالم فاخلعوه إن كنتم مؤمنين ... وأنتم أيها العرب غير المسلمين ، تناسوا ضغائنكم . أنتم الأولون الأكثر تنويراً وثقافة ، وعليكم أن تجدوا الوسيلة لتوحيد الصفوف . انظروا إلى النمسا والمجر وإلى الولايات المتحدة الاميركية كيف أدى التطور فيها إلى التضامن القومي . لماذا لا نحذو حذوها ونقول لهـــذا الاجنبي الذي لا يتكلم لغتنا : دعنا نتدبر أمورنا بنفسنا ؟ ! فلنتحد ولنصرخ قائلين : لتحيَ الأمة ، ليحيَ الوطن ، ولنعش أحراراً كرماء » .

أما كتاب « أم القرى» فقد تخيل فيه ان جمعية سرية عقدت مؤتمراً لها في مكة المكرمة ، وكان المؤتمرون يمثلون معظم البلدان الاسلامية، وقد عكفوا على مناقشة قضايا مجتمعاتهم كل بحسب ما يرى من طرق الاصلاح للقضاء على الآفات الضارة في بلاده ، وإذا كان الاتجاه العـام في أبحاث الكتاب إسلامي الطابـع ، فانه لم يخل مع ذلك من لمحات قومية ذات أهمية كبرى .

لقد كان عبد الحميد يخدر أعصاب العرب ويصرفهم عن الوعي القومي بسلطته المستمدة من الخلافة الإسلامية ، فجاء الكواكبي يدعو إلى فصل الملك عن الخلافة والدين عن السياسة ، وإلى عودة الخلافة إلى الأمة العربية ، منبهاً إلى ان دعوى الخلافة في القسطنطينية يجب ان تعوق العرب عن طلب الحرية والاصلاح ، داعياً إياهم إلى الاستقلال في حكم أنفسهم بمثل قوله : « إن التطابق في الجنس بين الراعي والرعية يجعل الأمة تعتبر رئيسها رأسها فتتفانى دون حفظه ودون حكم نفسها بنفسها حيث لا يكون لها في غير ذلك فلاح أبداً كما قال الحكيم المتنبي :

وإنمـا الناس بالملوك ولا   يفلح عرب ملوكها عجم !

وقد أوضح أسباب ميل « الجمعية » إلى العرب من دون الشعوب الإسلامية الأخرى ، فسجل لهم ستاً وعشرين مزية يفضلون بها غيرهم من الأقوام، منها الحرص على الحرية والاستقلال والتمسك بمبادىء الشورى ومكارم الأخلاق ، وختم هذا «القرار» بقوله: « فهذه هي الأسباب التي جعلت جمعية «أم القرى» ان تعتبر العرب هم الوسيلة الوحيدة لجمع الكلمة الدينية بل الكلمة الشرقية [١] » .

وفي تلك الفترة نفسها لمع في دمشق اسم الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥١–١٩٢٠م ١٢٦٨ – ١٣٣٩ هـ) ، واشتهر فيها بسعة الاطلاع وقوة الحجة ومضاء العزيمة والعمل على إنشاء المدارس ، وإصلاح طرق التعليم ، ووضع الكتب المدرسية ، ومن آثاره الباقية دار الكتب الظاهرية التي أنشأها ليجمع شتات الكتب النفيسة ، المخطوطة والمطبوعة ، الموقوفة على طلاب العلوم ، وكانت مبعثرة في مكتبات المدارس الدينية ، تعبث بها أيدي النهب والتلف ، فخشي أن تفقد بأجمعها ويحرم الناس من فوائدها ، فضمها جميعاً في مكتبة واحدة .

وانتقد طاهر الجزائري الأسلوب الأدبي السائد في عصره ، وأخذ يرشد الناس إلى نفائس الاعلاق من كتب المتقدمين وأمهات اللغة العربية التي كانت كنزاً دفيناً قل من سمع بها أو اطلع عليها ، فكان يبذل جهده لبعثها ونشرها ، وكذلك عرف أهمية التاريخ كمرآة للعصور الغابرة ومرقاة للاجيال الحاضرة ، فعني باحياء التاريخ العربي وإرشاد الطلاب إلى دراسته وانعام النظر فيه ، والدلالة على كتبه المفيدة والسعي لطبعها كي يتخذ الخلف من تجارب السلف نبراساً يهتدي بأنواره إلى الطريق القويم .

وكان يقاوم الظلم ، ويكره الاستعمار ، وينتقد السياسة العثمانية ، ويرى أن سيطرة الاجنبي على بلاد العرب هي التي أوقفت تطورها وأخرتها عن مسايرة ركب الحضارة ، إلا أنه لم يكن قانطاً من التحرر أو يائساً من الاصلاح ، وإنما كانت ثقته قوية بمستقبل الأمة العربية ، واستعدادها للنهوض من عثرتها ، متى أخذت

---

١ – انظر المرجع السابق ص ٥١ – ٧٧

بأسباب العلم ، ونشأ أبناؤها على التربية القومية الواعية التي تقوي القلوب وتشحذ العزائم وتمزق عن العيون غشاء الأوهام .

ومن التهم التي أخذت عليه وحورب بهـــا ، المروق من العثمانية ، والخيانة الوطنية والعمل على فصل البـــلاد السورية عن بقية المملكة . وقد توسل خصومه بذلك فألغوا منصبه في الحكومة — وكان مفتشاً عـــاماً في المدارس الأميرية — تخوفاً من انتشار أفكاره ، فازداد نشاطه ، وأخذ يعلن بصراحة ما كان يتحدث عنه بشيء من الحذر ، فدوهم منزله وهو غائب عن دمشق ، فأظلم الأفق في عينه وبادر بالرحيل إلى مصر [1] .

وكذلك كان شأن أديب اسحق (١٨٥٦ — ١٨٨٥ م ١٢٧٣ — ١٣٠٣ ﻫ) الذي غادر دمشق إلى بيروت فالقاهرة ، وكان من أنصار الحرية والشورى ، ودعاة اليقظة العربية ، ومن أقواله في هذا الصدد :

« ألم يكن في هذه الأقطار نفر من أولي العزم تبعثهم الغيرة والحمية ، على جمع الكلمة العربية ، فيتلافون حولها قبل التلاف ؟ بل مـــا ضرّ زعماء هذه الأمة لو سارت بينهم الرسائـــل بتعيين الوسائل ، ثم حشدوا إلى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد ... فهلموا ننشد الضالة ونطلب المنهوب ، لا نقوم في ذلك بأمر فئة دون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب . فنحن في الوطن إخوان تجمعنا جامعة اللسان ، فكلنا وان تعددت الافراد إنسان . أيحسبون ان ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يخافون أن يذهب ذلك الاجتهاد ، أم لا يعلمون أن مثل هذا الاجتماع منزهاً عن المقاصد الدينية ، منحصراً في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من أكثر النحل العربية ، يزلزل الدنيا اضطراباً ، ويستميل الدول جذباً وارهاباً ، فتعود للعرب الضالة التي ينشدون ، والحقوق التي يطلبون [2] »

---

١ ــ انظر فصل طاهر الجزائري في كتاب « السابقون » لقدري قلعجي

٢ - الدرر ص ٢٠١ ــ ٢٠٢

وكما ارتفعت في مصر أصوات عربيـــة تحرض العرب على النهوض وتحثهم على التحرر، ارتفعت في باريس أصوات مماثلة منها صوت نجيب عازوري المسيحي السوري الذي سنتحدث عنه في الفصل المقبل ، ومنها صوت شكري غانم المسيحي اللبنـاني الذي نشرت مجلة « مراسلات الشرق » بتاريخ ١٥ حزيران (يونيه) ١٩١٠ بياناً له شرح فيه الاسباب التي حملته على الدفاع عن بني قومه قال فيه :

«اني شقيق نائب سورية السابق الذي توفي في باريس وكان صديقاً حميماً لمدحت باشا أبي الدستور ، وقد دفعني الواجب المقـــدس أن أبسط بكل نزاهة واعتدال قضية العرب في تركيا التي يعتبر حلها فوق كل اعتبار لأنها تهم جميـع العثمانيين . وقد فعلت ذلك خدمة للمصلحة العامة ، والقضية ليست بجديدة .

« أمن حسن السياسة أو العـــدالة أن يمس حتى في أدق شعوره ذاك العربي الفخور الكريم والمقاتل الباسل ذو المجـــد التليد الذي يؤلف نصف شعب السلطنة العثمانية ، ولماذا يحاول القضـاء على نصف قوى الدولة من الثروة البشرية عفواً لوجه الله ؟ فإضعاف العربي يعني إضعاف تركية وبالتـــالي تحقير تاريخ ومدنية تجلبها الانسانية » .

وقد اتخذ شكري غانم لنفسه صفة المدافع عن حقوق العرب بعد أن فاجأ العالم بشاعريته الفذة . والواقع إن رواية « عنترة » التي وضعها باللغة الفرنسية ومثلت لأول مرة على مسرح الاوديون بباريس في ١٢ شبـــاط (فبراير) ١٩١٠ ، قد أحرزت نجاحاً باهراً لأنها لم تكن ظـاهرة أدبية وفنية وحسب ، بل ظاهرة سياسية أيضاً بالغة الخطورة جـاءت إبان معمعان الثورة في تركـية . وعنترة لم يمثل فيها ذاك الشاعر التائه المغرم برمـــال الصحراء بل كان رمزاً للبعث العربي وللوحدة العربية . وفي هذه المسرحية الرائعة يقول عنترة :

– إني أسير طائعاً لحكم الواجب المقـــدس الذي يملي عليّ خطة سيري ، فقد أخذت على عاتقي نصرة حصّاد كبار وقد يحل اليوم بدء الحصاد ...

ويسأله راعٍ : ولكن إلى أين أنت ذاهب ؟

فيجيب : إلى مملكة لا تزال تبنى . ويقيني أن بهاءها سوف يبهر العالم !

وقد حدد عنترة هذه المملكة بقوله :

« الوحدة العربية في قبضة سيد أوحد »

واتخذ الشاعر موت عنترة في الفصل الخامس من المسرحية مناسبة لتوكيد رأيه في مصير العرب :

ـ يجب أن يكون موتي حياة لأتباعي وللمجد ، لمجد العرب ، ويخط أحرفاً ذهبية في صفحة التاريخ ... ان مستقبل الوطن لا يقوم برجل واحد ، ومـا من قوة تقدر أن توقف شعباً عن مسيره ، فالعرب يثبون اليوم وثبة السباع ، وأراهم من خلال غشاء عيني يصعدون المراقي إلى المجد . ماذا يضير النسور الطموحة إذا فقدت ريشة من أجنحتها . يجب أن يولد الألم لتولد الحياة . يجب أن تموت القمم في الـتراب لتنمو ، فالحيـاة هي ثمرة من شجرة الموت . اذهب ، ستبصرني فيما بعد بارزاً في ثلم الردى . اذهب واحترس على القمحة الملقاة في التراب [1] .

وقد حاول عبد الحميد إخماد هذه الشعلة التي اضطرمت في صدور العرب ، باثارة التعصب الطائفي والقضاء على كل فكرة قومية ، وبلغ من تطرفه في هـذا السبيل جعله اللغة التركية لغة التعليم ، وكانوا يسمونها « اللغة العثمانية » لإيهام الطلاب العرب انها لغتهم باعتبارهم عثمانيين ، فقابل العرب ذلك بالاقبال على اللغة العربية وآدابها وعلومها ، باعتبارها الرابطة المشتركة فيما بينهم [2] ، وأحد المقومات الأساسية للقومية العربية ، ولأن النهضة الأدبيـة والعلمية هي الأساس الذي ترتكز عليه الحركات السياسية والسبيل القويم لدفع الأمم نحو سيادتها واستخلاص حقوقها [3] .

وبلغ من حماستهم لها أن وضعوا الأناشيد في التغني بهـا والحث عليها كقول أنيس المقدسي في مطلع أحد الأناشيد وكان لا يزال في سن الشباب :

لغـة العرب اذكرينا   واذكري مـا فات

---

١ ـ نهضة العرب ، التحرر فالاستقلال فالدولة ، ص ٣٢ ، انظر ايضا ترجمـة الياس ابو شبكة لمسرحية عنترة .

٢ ـ انظر المراحل التاريخية للقومية العربية ص ١٢ .

٣ ـ انظر قادة التحرير العربي في العصر الحديث ، ص ٥٥ .

كيف ننساك وفينا نفحـــة الحيــــاة ؟

وقد ترامى صدى هذه الحماسة إلى وادي النيل فقال حافظ ابراهيم من قصيدة كبرى على لسان اللغة العربية :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي ونادیت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب وليتني عقمت فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولمــا لم أجد لعرائسي رجالاً وأكفاء وأدت بنـــاتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسمـــاء لمخترعـــات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغوّاص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني ومنكم وان عزّ الدواء اساتي
فلا تكلوني للزمان فإنني أخاف عليكم أن تحين وفاتي
أرى لرجال الغرب عزّاً ومنعة وكم عزّ أقوام بعزّ لغات

ولعبد الحميد الرافعي وأبي الفضل الوليد وفؤاد الخطيب ومحمود غنيم وقسطاكي الحمصي ومعروف الرصافي والشاعر القروي قصائد ملتهبة في الدفاع عن اللغة العربية وبيان مزاياها والدعوة إلى التمسك بها ، أمام محاولات القضاء عليها أو الانتقاص منها [1] ، ويمكن تلخيصها جميعاً بأن اللغة العربية هي أحد المقومات الأساسيـــة للشعور القومي والرابطة الاساسية بين الشعوب العربيـة ، وقد أجمل الرصافي ذلك بقوله :

وتجمعنا جوامع كبريات وأكبرهن سيدة اللغات

وقد رافقت تلك السياسة الحميدية حركة ارهابية قلّ أن عرف التاريخ لها مثيلاً، ولكن بذرة الحرية كانت قد زرعت في أرض طيبة،وهيهات ان يستطيع الارهاب

١ ـ انظر الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ص ١٩٩ ـ ٢٢٠.

سحق غرسة الحرية إذا تعهدها أبطال يقتحمون الموت في سبيلها .

ومن هؤلاء الأبطال الذين لم يثنهم إرهاب عبد الحميد عن الدعوة لإيقاظ العرب والسعي لتحريرهم ، الشاعر الحلبي جبرائيل دلال ، ومن قصائده الذائعة قصيدة « العرش والهيكل » وهي تمتاز بجرأتها وصراحتها ، وكان قد نظمها في باريس فعبر عن آرائه في جور السلطان وشعوذة الكهنوت ، إلا انه ما لبث ان اعتقل وقضى في أعماق السجن ، وقد قال فيها منددا بالاستبداد الحميدي ، داعيا قومه إلى الثورة على الطغيان [1] :

فلم الخضوع لذي البغاة وما لها	عجباً تتيه بتاجها وقضيبها
هل إنها إلا أناس مثلنا	وبنا ومنا العزم في تغليبها
فالجيش من أولادنا لقتالها	والبذخ من أموالنا لمعيبها
يا غافلين تنبهوا من رقدة	طالت لسعد الوحش في تأديبها
هيا انهضوا وبطردها اجتهدوا فقد	ساد الدمار وعمّ من تخريبها
حتى يرى كل الورى فوق الثرى	بالأمن يرعى شاتها مع ذيبها

ومن أحرار ذلك العهد، شاعرا الرافدين الصنوان الطليعيان الزهاوي (١٨٦٣–١٩٣٦ م ١٢٨٠ – ١٣٥٥ ﻫ) والرصافي (١٨٧٥–١٩٤٥ م ١٢٩٢–١٣٦٥ ﻫ) وشاعر البوسفور والنيل معاً ولي الدين يكن (١٨٧٣–١٩٢١م ١٢٩٠–١٣٤٠ﻫ) الذي كان لا يرى حيث التفت إلا مأتم ذلك الوطن الغارق في لجة دماء أبنائه، وقد استحالت أشلاؤهم سفناً في ذلك اليم القاني :

أيا وطناً قد جرى الفساد به	متى يرينا اصلاحك الزمن
دفنت حياً وما دنا أجل	ما ضرّ لو دافنوك قد دفنوا
دماء أبنائك الكرام جرت	بحراً ، فأشلاؤهم لها سفن

وقد أنشد الزهاوي في الاستانة سنة ١٨٩٧ (١٣١٥ ﻫ) قصيدة اعتقل على

---

١ ـ الحركة الادبية في حلب ص ٧٣ ـ ٨٥ ، الاتجاه القومي في الشعر الحديث ص ٢٣ .

اثرها ثم أخرج من العاصمة التركية وأعيد إلى بغداد على ألا يبرحها ، كأنما خشي السلطان ان يذهب الشاعر إلى مصر ، وكانت قد سبقت له رحلة اليها، فيتسع المجال ليراعه في محاربة الاستبداد[1] وقد قال في هذه القصيدة مخاطباً المواطن العربي:

ألا فانتبه للأمر حتام تغفل | اما علمتك الحال ما كنت تجهل
أغث بلداً منها نشأت فقد عدت | عليها عواد للدمار تعجل
وما رابني إلا غرارة فتية | تؤمل إصلاحاً ولا تتأمل
تؤمل إصلاحاً وترجو سعادة | ألا باطل ما ترتجي وتؤمل
وما هي إلا دولة همجية | تسوس بما يقضي هواها وتعمل
فترفع بالإعزاز من كان جاهلاً | وتخفض بالإذلال من كان يعقل

ومن نفثاته الرائعة قوله بمخاطبة السلطان :

ان الرعية أغنام بحدّ لهم | ولاتك المستبدون السكاكينا
يا عدل ان التفاتاً منك يسعدنا | يا عدل ان ابتساماً منك يكفينا
ما جاءنا الشر إلا من تهاوننا | وعمنا الظلم إلا من تغاضينا
لا بدّ من فك ما قد شدّ من عقد | كف الاسار ـ بأيدينا ـ بأيدينا
ان الذين استحبوا قتل أنفسهم | فرّاً من الظلم ما كانوا مجانينا

أما الرصافي فكان أكثر إيجابية ، ولم يكن من رأيه ان ينتحر المظلوم وإنما ان يستشهد تحت علم العدالة ، والدفاع عن حقه ، ولا عذر للجبان ما دام الموت غاية كل حي :

يا عدل طال الانتظار فعجل | يا عدل ضاق الصبر عنك فاقبل
كيف القرار على أمور حكومة | حادت بنا عن الطريق الأمثل
حتام نبقى لعبة لحكومة | دامت تجرعنا نقيع الحنظل

---

(١) ـ الزهاوي للدكتورماهر حسن فهمي ص ٩٤ .

تنحو بنا طرق البوار تحيفاً وتسومنا سوء العذاب الأهول
ما بالنا منها نخاف القتل ان قمنا ، اما سنموت ان لم نقتل ؟..

وينظر الشاعر بطرف خفي إلى قول المعرّي بحكام زمانه :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فيولد منه معنى حديثاً جريئاً يلتقي في الوقت نفسه مع المعنى الذي ذهب اليه جبرائيل دلال في قصيدته الآنفة الذكر :

عجبت لقوم يخضعون لدولة يسوسهم في الموبقات عميدها
وأعجب من ذا انهم يرهبونها وأموالها منهم ، ومنهم جنودها

ومن المهاجر العربية ارتفعت أصوات ثائرة تدعو العرب إلى اليقظة وتحثهم على النهوض ومنها صوت ايليا أبو ماضي الذي قال في إحدى قصائده :

أدركت غاياتها كل الشعوب نهض الصين وما زلنا نيام

وقال في لوعة مرة :

متى كان جنكيز لقحطان سيداً فيمسي بنو هذا لذاك مواليا

وقال مستنكراً تحكم الأتراك بالعرب وهؤلاء هم الأكثرية في الدولة العثمانية :

إلى كم يحصرون الحكم فيهم وكم ذا يبتغون بنا احتكاما
ألسنا نحن أكثرهم رجالا إذا عدوا ، وأرفعهم مقاما

الفصل الرابع

الفجر الكاذب

كان الظلم والاستبداد الحميديان لا يشملان القوميات المغلوبة على أمرها ، وإنما كان بغي هذا الطاغية ينيخ على العنصر التركي نفسه ، يسوم الأحرار أياً كانت قوميتهم وجنسيتهم بغياً وعتواً. وكان المستنيرون من الأتراك ولا سيما أولئك الذين كحلوا أنظارهم برؤية الديار الأوروبية ، واحتكوا احتكاكاً مباشراً بالثقافة الغربية ، موضع المراقبة المستمرة والملاحقة الدائمة .

ولكن الظلمة مهما اشتدت ، والعسف مهما سيطر ، لن يحولا دون رؤية النور وتنسم أنفاس الحرية ، وكان عام (١٨٨٩ م ١٣٠٧ هـ) عام تمخض فكري لتيار جديد في أفكار الطليعة المثقفة في الديار العثمانية .. إذ يصادف هذا العام الذكرى المئوية للثورة الفرنسية وكان يوم ١٤ تموز من تلك السنة يوماً خالداً ، أوقد باريس شعلة من المهرجانات وفجرها مشاعر أفراح ومشاعل أعراس ، تمجيداً ليوم الحرية ، وقد لامس ذلك النور الوضاء شغاف قلوب أولئك الفتية الذين يدرسون في مدينة النور ، فقرروا ان يكون لهم كذلك يوم حريتهم .. وكان مدير معارف بروسة أحمد رضا ، في حاضرة فرنسة يشهد مهرجان النور ، فوقر في نفسه ان يتخلى عن وظيفته ، ويبقى خارج سجن العبودية ، مؤثراً العمل في الحاضرة الفرنسية ، حيث

أصدر صحيفة دعاها «المشورة» ودعا فيها إلى المبادىء الدستورية والحياة الديمقراطية.

وكانت ظلال النور هذه قد غزت فيما غزته قلوب فئة مختارة من طلاب كلية الطب في استانبول ، فعقدوا الخناصر فيما بينهم على إنشاء جمعية سرية تعمل لإعلان الدستور .

ثم كانت هناك وشائج روحية ما بين طلاب الكلية ومريدي أحمد رضا، تمخضت عن تشكيل جمعية واحدة باسم « جمعية الاتحاد والترقي العثمانية » وكان من أبرز القادة في تاريخها الطويل الضباط أنور ونيازي وطلعت وجمال ومصطفى كمال .

أما البيئة الصالحة والتربة الخصبة التي نمت فيهـا مبادىء تلك الجمعية فكانت مقاطعة مقدونية (التي تعرف بالولايات الثلاث) وذلك لأنها كانت تحت المراقبة الدولية من جهة ، وقد اجتمع فيها من جهة ثانية عدد كبير من العسكريين النابهين والمدنيين المثقفين . .

وبعد إعداد وتنظيم استمرا منذ سنة ١٨٨٩ (١٣٠٧ هـ) ، وكفاح صامت اتخذ أشكالاً مختلفة وأسماء متعددة وكانت له ضحاياه الكثيرون، قام الضباط الأتراك في مقدونية بحركة خاطفة لقيت التجاوب الكلي من سائر القطع ، وأخذت مدافع الابتهاج تجلجل في أنحاء الامبراطورية تحية لإعادة الدستور (المشروطية) ، بحيث لم يجد القابع على عرش البغي الا وخيال مدحت باشا يمسك بأنفاسه ، فسلم صاغراً بإعادة الدستور . ورافق إعلان الدستور في ٢٤ تموز (يوليه) سنة ١٩٠٨ (١٣٢٦هـ) ابطال شبكة التجسس ، وإلغاء نظام المراقبة وإخلاء سبيل المعتقلين السياسيين .

وقد تبع إعلان الدستور دعوة البلاد العثمانية إلى الانتخابات النيابية ، وتألف مجلس المبعوثان في دورته الأولى من ٢٧٥ نائباً ، بينهم ٦٠ نائباً للعرب و ٢٥ نائباً للالبان و ٢٤ نائباً لليونان و ١٢ للأرمن و ٥ لليهود و ٤ للبلغار و ٣ للصرب و ١ للفلاخ ، فكانت نسبة نواب العناصر غير التركية بمجموعها متعادلة تقريباً مع نواب العنصر التركي بمفرده [1] .

---

١ ـ البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١١٠ .

وقابل العرب الدستور بحماسة عظيمة ، وتناسوا في غمرة هذه الحماسة كل شيء، وانضموا إلى الترك قلباً وقالباً ، اعتقاداً منهم بأنه لم يبق في الدولة عرب ولا ترك ولا أرمن ولا أكراد بل صاروا كلهم عثمانيين ، متساوين في الحقوق والواجبات ، واتجهت أنظارهم إلى جمعيـــة الاتحاد والترقي اتجاهاً لم يعهد له مثيل في تاريخ الانقلابات [1] .

وكان المفكرون العرب ، ثقة بأحرار الأتراك ، أول من محضوا هؤلاء أخلص الود وأنبل العواطف ، لا سيما وانهم كانوا من مؤيدي حركتهم قبل انتصارها ومن المناضلين في سبيلها ، حتى ان أديباً عربيـــاً هو خليل غانم (اللبناني) قد أصدر في باريس صحيفة بالفرنسية باسم «تركية الفتاة» وان ضابطاً عربياً هو محمود شوكت[2] (العراقي) تولى قيادة الجيش الذي زحف من سلانيك واحتل استانبول في حركة سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ هـ) التي أسقطت السلطان عبد الحميد كما سنرى بعد قليل .

وقد تحولت أرجاء الامبراطورية على اختلاف أصقاعها وديارها إلى أعراس ومهرجانات أقيمت للحريـــة التي كان من عنادلها الشعراء ، ومن الناطقين باسمها الكتاب والخطباء ، وعلى رأسهم الزهاوي الناقم والرصافي الثائر ، اللذان لم يطرحا نقمتها فحسب وإنما راحا يغنيان الشعب فرحتها بسائر جوارحها ، وقد طغى عليها خاد الشعور ، حتى هاجت مدامع الزهاوي أمام جموع الشعب المبتهج ، وتمثل فيه صورة لليم الطامي الأمواج المتدفق التيارات :

وقفت والعين تبكي من مسرتها   أمام شعب من الأفراح عجاج
أمام بحر من الأفكار مضطرب   أمام جيش من الأصوات رجراج
قد أعلنت للورى حريـة فمضى   زمـان سخرة ذي أمر وكرباج
ان الشعوب إذا هاجت عواطفهـا   كالبحر يضرب أمواجـاً بأمواج

وقال الرصافي وقد أذهلته الفرحة وخيل اليه ان إعلان الدستور قد حقق كل

---

١ ـ ثورة العرب ص ٤٩ .

٢ ـ هو شقيق حكمت سليمان رئيس الوزارة العراقية عام ١٩٣٦ ـ ١٩٣٧ .

الأماني وقضى على جميع المظالم :

يا شرق بشراك أبدى شمسك الفلك وزال عنك وعن آفاقك الحلك
أضحى به القوم أحراراً قد اعتصموا من النجـــاة بحبل ليس ينتبك
ناد بـه القول عن أهليه مستمع والحق متبع والأمر مشترك

هذا في ديار الرافدين ، أما في أرض الكنانة فقد بلغت النشوة ذروتها على لسان كل من شوقي وحافظ اللذين راحا يكيلان المديح للسلطان عبد الحميد معتبرين الدستور هبة وعطاء من ذلك المستعلي على عرش الطغيان .

ومما قاله شوقي في قصيدته في الدستور العثماني :

بشرى البرية قاصيها ودانيها حاط الخلافة بالدستور حاميها
أسدى الينا أمير المؤمنين يداً جلّت كما جل في الاملاك مسديها
وليس مستعظماً فضل ولا كرم من صاحب السكة الكبرى ومنشيها
ان الندى والرضى فيه وأسرته والله للخير هاديه وهـــاديها
خلافة الله في أحضان دولتهم شاب الزمان وما شابت نواصيها

أما في سورية ولبنان فلندع حديث الشعور بنعمة الدستور لأحد كتاب ذلك العهد وهو سليم سركيس الذي كتب في جريدة « لسان الحال » في أول آب (أغسطس) سنة ١٩٠٨ (١٣٢٦ هـ) واصفـــاً أفراح الشعب ، واضعاً يده على مكمن الداء وسر الدواء :

« هذه أول مرة شعرت فيها بالوطنية التي يشعر بهـــا كل من قدر الوطنية قدرها بتزاور النـــاس من جميع الطبقات وهم فرحون منشرحو الصدور ، فاليوم شعر السوريون بطيب الحرية وأدركوا سوء مغبة الاستبداد والضغط ، وعرفوا أن التعصب الذي يفرق الكلمة يفرق القلوب. اليوم دروا ان أوروبة لم تستفحل صولتها إلا بالاتحاد ، ولا اتحاد مع التعصب [1] »

---

١ ــ الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ص ٤٦ .

ويلاحظ الاستاذ عمر الدقاق ان اعلان الدستور أحدث هزة في النفوس قفزت بالوعي إلى الأمام ، كما أدى إلى انطلاق أغاريد الشعراء لاهجة بالحرية التي طال احتباسها . ومع أن جميع شعراء العرب في شتى أقطارهم ومهاجرهم هللوا لاعلان الدستور الجديد ، فان هـــذا التهليل لم يبلغ لدى شعراء مصر المدى الذي بلغه في سائر البلاد ، وما ذلك إلا لأن مصر كانت غير خـــاضعة للحكم العثماني المباشر . ويبدو هذا الفارق بشكل أوضح فيما نُظم من قصائد إثر سقوط عبد الحميد . وإذا استثنينا ولي الدين يكن الذي عـــانى أهوال الاستبداد ، فان أكثر شعراء مصر ومنهم اسماعيل صبري وحافظ ابرهيم واحمد شوقي ومحمـــد عبد المطلب وأحمد محرم، أظهروا عطفاً بالغاً على السلطان المخلوع . وهم في ذلك إنما يتجاوبون مع مشاعر المصريين الذين ما زالوا حتى ذلك الحين يرجون خيراً في نظام الخلافة العثمانية [١] .

كما يلاحظ الدكتور أمجد الطرابلسي ان الحماسة التحررية الداعيـــة إلى تمرد العرب على الترك والانفصال عنهم ، قد فتر في فورة هذه الفرحة الدستورية ، لأن الانفصال لم يعد له في الظاهر ما يسوغه بعد ان جاء الدستور يطمئن المواطنين على حرياتهم ، ويعلن المساواة التامة بينهم على اختلاف مذاهبهم وأجناسهم ولغاتهم [٢] .

ومن أطرف ما رواه يوسف الحكيم ان نجيب بك مدير الشرطة والأمن العام في بيروت آنئذ ، كان يدخل المقاهي والمجتمعات التي يرتادها عامة الشعب ويقف خطيباً في موضوع الساعة ، وهو موضوع الإخاء الوطني ، طالباً ، كدليل على اعتناق مستمعيه هذا المبـــدأ ، ان يلقي كل واحد أرضاً ما يحمله من سلاح حين يضع هو منديله على عينيه ، فتم له ما أراده ، وبلغ ما جمع من الأسلحة في ذلك اليوم ملء مائة صندوق [٣] .

والواقع ان أبناء القوميات المضطهدة وفي مقدمتهم العرب ، قد استقبلوا ذلك الفجر الكاذب بكل مشاعرهم الصادقة وآمالهم الحارة ، متوهمين ان تاريخاً جديداً قد

---

١ ـ الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث ص ٢٧ .

٢ ـ شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام ص ٢٠ .

٣ ـ سورية والعهد العثماني ص ١٥٨ .

بدأ بإعلان الدستور ، وان هذا الدستور كفيل بإزالة جميع المساوىء والمظالم ، وإقرار شرعة العدالة والتآخي والمساواة .

ولعل الشيخ طاهر الجزائري الذي تحدثنا عنه في الفصل السابق ، وروينا كيف غادر دمشق إلى القاهرة هرباً من الاضطهاد العثماني ، هو المفكر الوحيد ، أو أحد المفكرين القلائل ، الذي لم يطمئن إلى العهد الجديد ، ورفض العودة إلى سورية ، لاعتقاده بأن الوضع فيها لم يختلف بالنسبة إلى العرب ، وكل ما حدث ان البلاد العربية قد انتقلت من استبداد إلى استبداد .

ان الحاكم المستبد إنما يريد الحرية وفقاً على مشيئته وإرادته ، أما مشيئة الآخرين وإرادتهم فلا قيمة لها في ميزانه ، ولا أثر لها في نفسه ، ولذا فان القابع في قصر يلدز عرف كيف يحرك جواسيسه وعيونه المرتدين حلة الدروشة ، واستطاع هؤلاء ان يحركوا جنود العاصمة فيثوروا في ٣١ آذار (مارس) ١٩٠٩ (١٣٢٧ ﻫ) بضباطهم ويقتلوا الكثيرين منهم وبينهم عدد من الضباط العرب ، ويهاجموا المجلس النيابي ، ويغتالوا وزير العدل والأمير محمد أرسلان أحد النواب العرب مرددين صائحين : « باشا سون شريعة محمدية » أي : « لتحيا الشريعة المحمدية [1] » .

ولكن تلك الثورة لم تستطع ان تتخطى جدران الاستانة ، وسرعان ما تحرك الجيش من مقدونية بقيادة الضابط العربي محمود شوكت فدخل الاستانة ، وأحال نيران تلك الفتنة إلى رماد بارد ، وأدال السلطان الأحمر عن عرشه ، فحمل منفياً إلى سالونيك اثر قرار اتخذه مجلس الأعيان ومجلس النواب مجتمعين ، وخلفه محمد رشاد الذي سمي السلطان محمد الخامس ، وكان كبير السن ضعيف الشخصية قليل الطموح ، فغدا لجمعية الاتحاد والترقي باسناد العرش اليه السيطرة التامة ، وكان ذلك في ١٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ ﻫ) .

وقد استند رجال الانقلاب في خلع السلطان عبد الحميد إلى فتوى شرعية

---

١ ـ انظر البلاد العربية والدولة العثمانية ص ١١٠ ـ ١١٣

أصدرها شيخ الاسلام محمد ضياء الدين أفندي ، وهذا نصها مترجماً إلى العربية :

« إن زيداً الذي هو إمام المسلمين قد طوى بعض المسائل الفقهية ومنع الكتب الشرعية وأحرقها ، وتصرف في بيت المال تصرفاً مقروناً بالاسراف والتبذير واعتماد الإيقاع بالرعية ظلماً وتقتيلاً وحبساً وتعذيبـــاً ، ثم أقسم بأن يرجع إلى الصلاح ، ولكنه حنث بيمينه وأصر على إحداث فتنة كبرى تلحق بأموال المسلمين خللاً كلياً وأثار بينهم القتال ، فتوالت الأخبار عن تغلبهم عليه واعتباره مخلوعاً ، وقد تحقق وجـود الضرر في بقائه والصلاح في زواله . فهل يجب والحالة هـــذه تنفيذ ما يراه أولياء الأمور من أرباب الحل والعقد من ترجيح بين تكليفه للاستقالة من الامامة والسلطنة وبين خلعه ؟ الجواب : نعم يجب ذلك [1] » .

ومن أروع ما قيل في سقوط عبد الحميد قصيدة فارس الخوري التي يقول فيها :

الله أكبر فالظـــلام قد علموا   لأي منقلب يفضي الألى ظلموا
لقد هوى اليوم صرح الظلم وانتقضت   أركانـه وتولت أهـــله النقم

أما شوقي فقد رثاه بقصيدة طويلة جاء فيها :

خطب الامام على النظيم   يعز شرحـــاً والنثير
شيخ الملوك وان تضعضع   في الفؤاد وفي الضمير
نستغفر الله لـــه   والله يعفو عن كثير
ونراه عنـــد مصابه   أولى ببـــاك أو عذير

أما كيف كانت سياسة أولئك الأحرار من رجالات جمعية الاتحاد والترقي ، بعد ان انفتح المجال أمامهم لتحقيق مبادئهم والعمل على إصلاح الفاسد ومعالجة المعتل في جسم الامبراطورية ، فتلك قضية تستدعي وقفة طويـــلة ، لأنها كانت نقطة التحول الأساسية في سياسة العرب تجاه الدولة العثمانية .

---

١ ـ سورية والعهد العثماني ص ١٦٨

لقد كان أعضاء ذلك الحزب السياسي الحاكم ، يرغبون في بناء دولة حـديثة ، وكانت النزعة القومـــية آنذاك قد بلغت الأوج في أوروبة ، فأقاموا دعائمها على ذلك الأساس ، ولكن ليس على قاعدة تـآخي القوميات ، مما يتنافى كل التنافي وطبيعة تركيب الدولة العثمانية ، التي تضم عناصر شتى ، وأعراقاً متباينة ، وبكثافة كبيرة جداً بالنسبة للعنصر التركي الحاكم ، ، وأكثرها ــ ولا سيما العنصر العربي فيها ــ ذات أمجاد تاريخية ، أين منها التاريخ التركي ؟

وبعد ان كانت الرابطة العثمانية تسوس الناس جميعاً بعصا الطغيان الفردي ، لا فرق في ذلك بين تركي وعربي أو غيرهما إلا من حيث الصبغة الدينية فحسب ، فقد أخذ الغرور العرقي ينفخ أوداج أولي الأمر ، وشرعت القرائح تنضح بالآراء التي تدعو إلى العرقية الطورانية [١] ، وتمجيد العنصر التركي وحده . فبعد ان كان أبو الوطنية نامق كمال يتمثل الوطن غادة حسناء يخاطبها بقوله :

« هذا أنت ؟ أنت ؟ أيتها [٢] الوطن الجميلة ؟.. »

ثم يخاطبها مستعطفاً وملحاً في وقت واحد :

« اذهبي .. أيتها الوطن .. تدثري بالسواد في الكعبـــة ، ثم ابسطي إحدى ذراعيك إلى روضة النبي ، ومدّي الثانية إلى المشهد في كربلاء .. واظهري على الكائنات على هذه الهيئة ، ولا ريب في ان الخالق نفسه يعشق هذه الهيئة ...

---

١ ــ نسبة الى طوران ارومة الترك والمغول القدامى ، وكان أول من لفت الانظار الى هذا الماضي البعيد المستشرق المجري قمبري ثم تلاه العالم الفرنسي اليهودي ليون كوهين، فقد كشفا عن أوليات التاريخ التركي المغولي الطوراني ، وتأثر بهما بعض أدباء الترك في القريم وجنوبي روسية والفوا جمعيات سرية تدعو الى « الجامعة الطورانية » وترمي الى انشاء امبراطورية تركية (لا عثمانية) تمتد من جنوبي البلقان الى الاناضول والقريم وجنوب روسية مجتازة ايران من الوراء الى التركستان على اختلاف بقاعه حتى جدار الصين .

٢ ــ رأى المترجم الاستاذ الحصري أن يستعمل صيغة التانيث لان الخطاب موجه الى الغادة الحسناء .

« ثم افتحي صدرك ، واخرجي منها شهداءك ، وانثريهم على الملأ ، وقولي : يا رب .. هؤلاء هم الشهداء الذين ضحوا بأرواحهم في سبيلك .. بينهم من استشهد في بدر ومن استشهد في حنين [1] » .

إذا بنا نسمع تلك الطنطنة على لسان الشاعر التركي أحمد أمين :

« أنا تركي ، ديني سام ، جنسي عظيم ، قلبي مفعم بالنار ... »

ونقرأ أحمد شريف في جريدة طنين يقول : « لا يزال العرب يلهجون بلغتهم ، وهم يجهلون اللغة التركية جهلاً تاماً ، كأنهم ليسوا تحت حكم الترك . فمن واجبات الباب العالي في هذه الحال ان ينسيهم لغتهم ، ويجبرهم على تعلم لغـة الأمة التي تحكمهم . فإذا أهمل هذا الواجب كان كمن يسعى إلى حتفه بظلفه ، لأن العرب إن لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم فانهم سيعملون عاجلاً على استرجاع مجدهم الضائع ، وتشييد دولة عربية جديدة على أنقاض دولة الترك [2] » .

لقد اتخذت الحركة الطورانيـة ثلاثة خطوط : أولاً تخليص التراث التركي الفكري من المؤثرات الفارسية والعربية ، ثانياً خلق صلة قوية دائمة بين أتراك الامبراطورية العثمانية والأتراك خارج الامبراطورية ، ثالثاً تفوق العنصر التركي وسيادته في الدولة العثمانية. وقد كان لهذا الخط الثالث أثره البعيد في اتجاهات الحركة العربية ومواقفها من الدولة العثمانية [3] .

ولم يختر رجال الاتحاد والترقي من الأنظمة إلا أسوأها وأشدها جوراً ، وهو نظام المركزية ، ولم يقف الأمر عند هـذا الحد ، وإنما عمدوا إلى جلب المغانم لأفراد حزبهم ، وحرصوا على ألا يضم مجلس المبعوثان من الأعضـاء إلا من

---

١ ـ محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ١٢٠

٢ ـ ثورة العرب ص ١٥٩

٣ ـ الدولة العثمانية والشرق العربي ص ٢٦١

عرف بالولاء لهم ، وشرعوا يرشحون الترك للنيابة عن الولايات غير التركية [1] ، واستهدفوا الديار العربية في الدرجة الأولى ، مما فسح مجال التنافس ما بين الشعبين التركي والعربي ، وشعر ابن العرب بأن التركي ينظر إليه نظرة استعلاء ، مما أدخل المرارة في نفسه . وهكذا صحّ في الاتحاديين القول بأنهم أحرار، ولكنهم يريدون الحرية لأنفسهم فقط !

واشتد تعصب الاتحاديين للغة التركية ، تعصباً ، يقول محمد جميل بيهم انه لم يقتصر على الأمور الجدية فحسب ، وقد شاهد بنفسه ألواناً من هذا التحيز، وفي جملة ذلك إيعازهم إلى أفراد الشرطة للتدخل كيما تكتب اللوحـــات فوق الحوانيت والمخازن باللغة التركية بدلاً من العربية . وكانت عنايتهم من أجل طغيان اللغة التركية على غيرها في المدارس أشد وأعظم [2] .

إلا ان الاتحاديين لم يكونوا فرسان الاصلاح وحدهم ، إذ غزا التيار الاصلاحي عقول فريق آخر من رجالات البلاد ، ويمكننا ان نعارض شخصية أحمد رضا رئيس جمعية الاتحاد والترقي بشخصية البرنس صباح الدين الذي انزعج عن الوطن هرباً مع والـــده الداماد محمود باشا ، وقد ساقته دراسته للأنظمة الاجتماعية إلى ان اللامركزية خير من المركزية وأبقى ، فألف جمعية سياسية عرفت باسم حزب الحرية والائتلاف تدعو إلى إقرار هذا النظام .

ويقول الدكتور نقولا زياده ان هذه الجماعة كانت تنظر إلى القضية من وجهة نظر عثمانية ، أو جامعة عثمانية إذا شئت . فقد كانت تحب ان يمنح غير الأتراك نوعاً من الحكم الذاتي ، وبذلك يحتفظ بهم ثروة وقـــوة للامبراطورية بدلاً من إثارتهم

---

١ ـ كان قانون الانتخاب العثمانـــي يسوغ لاي شخص مستكمل لشروط الانتخـاب ان يرشح نفسه عن اية منطقة شاء ، فصارت حكومات الاتحاد والترقي ترشح بعض منتسبيهـا الاتراك في الولايات العربية ، وتستعمل نفوذها لضمان انتخابهم ، وكثيرا ما كانت الامور تخرج من ساحة التنافس الشخصي او الحزبي الى ساحة التنافس العنصري والقومي وتأخذ شكل نضال بين التركي والعربي يوسع هـوة الخلاف بيـن الشعبين . انظر محاضرات فـي نشوء الفكرة القومية ص ١٧٣ ـ ١٧٤

٢ ـ العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ص ١٣٩

ضدها ، ورميهم في أحضان حركات مناوئة داخلية [1] .

ومن البدهي ان تلاقي فكرة اللامركزية هوى في نفوس النواب العرب وغيرهم من سائر الجنسيات ، مما جعلهم ينسحبون من حزب الاتحاد والترقي ، وينسلكون في صفوف حزب الحرية والائتلاف الذي شكل جناح المعارضة في مجلس المبعوثان ، وتسنم دست الحكم فترة قصيرة من الزمن ، والذي أخذت تتبلور تحت لوائه الشخصية العربية شيئاً فشيئاً ، ولكن حزب الاتحاد والترقي لم يلبث ان هيمن ثانية على البلاد ، وكشر عن زرق الأنياب ، إذ اعتمد هذه المرة سياسة التتريك وأعاد مظالم عبد الحميد إلى الأذهان ، حتى رأينا أمثال ولي الدين يكن وهو عثماني صميم يقول ، وقلبه يطفح أسى وألماً :

« قلت حين نبشوا لنا جيفة الدستور نؤازر هؤلاء القوم ، القائمين فينا بالأمر ، ربما أصابوا من حيث لا يشعرون . كم رمية من غير رام . وقلت اطمئني أيتها القلوب واسكتي يا ثائرات النفوس . ووقف اخواني العثمانيون يتفرجون ، فما راعنا إلا مذابح وفتن ، وغارات تتلوها غارات ، وصخب وضجيج ، بينا نواب الأمة يتجاذبون أطراف الفوائد كل يريد ان يسمن كبشه .

« إخواننا الذين يظللهم الدستور العثماني لا قبل لهم بمعارضة الحكام ، ثمّ شفار أرهفت ، وسيوف سلت ، تقتطف الرقاب كما تقتطف الثمار ... » [2] .

وقد تفرعت عن جمعية الاتحاد والترقي عدة جمعيات عنصرية تعمل على تتريك العناصر غير التركية ، منها جمعية « ترك اوجاغي » أي « العائلة التركية » ، و « ترك يوردي » أي « المملكة التركية » و « ترك درنكي » أي « ثبات الترك » و « ترك بلكيشي » أي « العلم التركي » ، وكانت وزارة الداخلية ووزارة الأوقاف تنفقان بسخاء على هذه الجمعيات [3] وكانت مهمة هذه الجمعيات محاربة اللغة العربية والآداب العربية ، ونشر الكتب القومية والأناشيد الحماسية بين الترك ، وتدريسهم

---

١ ـ مقدمة تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨ ص ٢٢

٢ ـ التجاريب ص ٢٤ ـ ٢٥

٣ ـ الاحداث العربية في تاريخها الحديث ص ٤٢

التاريخ الطوراني القديم ولا سيما تاريخ هولاكو واوغوز وجنكيزخان ، وإفهامهم ان الترك أعظم أمة في الدنيا ، وقد اختارتها الأقدار لسيادة العالم [1] . وقد قامت بحملة واسعة لإرغام النـــاس على تغيير أسمائهم ، فمن كان اسمه محمداً أو سليماً أو حسيناً أو سعيداً صار اسمه تيموراً أو جنكيزاً أو هولاكو أو اوغوز الخ ... وشاعت الأناشيد الحماسية على ألسنة النشء الجديد ، ومنها النشيد الرسمي الذي كان يردده طلاب المدارس المدنية والحربية وهو يبتدىء بهذا المطلع :

جنكز خانك بايراغي	انلي شانلي صانلا ندي
آيت خـانك بايراغي	حربده بويله اكلا تدي

أي : لقد تموجت أعلام جنكيزخان في جو المجد والشرف ، وأرشدتنا أعلام آيت خان إلى نهج الطريق المجيد في الحرب .

انتقامي اله مزسك تركلك بزه نافله
صوصتره لم بابقو شلري تيشير بو ولوله

أي : لا يحق لنا ان ندعى أتراكاً ما لم ننتقم من أعدائنا . فلنسكت البوم عن نعيقه وليكفنا ما سمعناه من الضجيج والنحيب ..

والأغرب من هذا كله الدعاء الجديد الذي ألفته جمعية «ترك يوردي» وجعلت الترك يستعملونه في منازلهم ومدراسهم ، ثم قررت استعماله في الجوامع في الاستانة والأناضول وهذه ترجمته :

« أيها الإله القدير على كل شيء انعم على الترك بالصحة والعافية ، واحسن اليهم

---

١ – بلغ الغرور من اعضاء هذه الجمعيات مبلغا لا يتصوره العقل ، فبينما كانت جيوش البلقانيين امام شطلجة تهدد كيان الدولة كان أحدهم أحمد اغايف بـك ينشىء سلسلة مقالات في جريدة « تصوير أفكار » قال فيها « ان على تركية ان تهتم بشؤون ايران أعظم اهتمام لان ايران طريقنا الى الهند والصين » (انظر ثورة العرب ص ١٣٩) .

بذئب أبيض [1]، واشملهم برعاية مولانا السلطان الأعظم .

« وأنت يا مملكة طوران الجميلة المحبوبة ارشدينا إلى الطريق المؤدية اليك لأن جدنا اوغوز الكبير ينادينا .

« أيها الإله القادر على كل شيء أنر طريق طوران أمامنا ، واجعل أمتنا كالورد الناضر ، واهدنا الصراط المستقيم [2] .

ولا يقل اثر الصحافة في هذا المضمار عن أثر الجمعيات ، بل كان أعظم فعلاً وأبعد مدى ، إذ كانت تعمل على تعزيز القومية الطورانية، وتتحامل على القوميات الأخرى ، وتحض الحكومة على مقاومتها والقضاء عليها ، ولا يخفى ان الصحافة الحرة قد ولدت مع الدستور وترعرعت في ظله ، ولم تكن وقفاً على دعاة القومية التركية بل نشأت صحف عربية وأرمنية ويونانية والبانية فأخذت تجهر بالشكوى من تصرفات أقطاب العهد الجديد ، مطالبة بإزالة الظلم النازل بأبناء قومها ، داعية إلى إنصافهم واحترام قوميتهم ورد حقوقهم اليهم . وكانت صحافة الترك ترد عليهم وتسفه آراءهم ، وتندد بمطالبهم ، وهكذا شهدت الامبراطورية في السنة الثانية للدستور حرباً قلمية شعواء تدور بين الصحافة التركية وصحافة القوميات الأخرى ، وكل ينقر على وتر ، ويذكي الحماسة القومية في صدور أبناء أمته [3] .

ومن أبرز الصحف العربية التي خاضت هذه المعركة وقابلت الحملات الطورانية بمثلها ، جريدة النهضة في بغداد لمزاحم الباجه جي ، والمقتبس في دمشق لمنير الريس ومحمد كرد علي ، والمفيد لعبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني في بيروت ، والاتحاد العثماني للشيخ أحمد طباره في بيروت [4] .

ومما نشرته الصحافة التركية لكتابها المتطرفين قول أحدهم : « ان المصلحة تقضي على حكومة الاستانة باكراه السوريين على ترك أوطانهم ، وان بلاد العرب

---

١ ـ الذئب الابيض اله من آلهة الترك الاقدمين وقد كان شعارا لهم أيضا .

٢ ـ للتوسع في هذا الموضوع انظر كتاب ثورة العرب ص ١٣٨ ـ ١٥٩

٣ ـ الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٥

٤ ـ العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ص ١٥٣

ولا سيما اليمن والعراق ، يجب تحويلها إلى مستعمرات تركية لنشر اللغة التركية، التي يجب ان تكون لغة الدين . ومما لا مندوحة لنا عنه ، الدفاع عن كياننا ان تحول جميع الأقطار العربية إلى أقطار تركية ، لأن النشء العربي الحديث صار يشعر بعصبية جنسية ، وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب ان نحتاط لها من الآن .»

وقال كاتب آخر: « ان العرب لا يزالون يلهجون بلغتهم وهم يجهلون اللغة التركية جهلاً تاماً ، كأنهم ليسوا تحت حكم الترك ، فمن واجبات الباب العالي في هذه الحال ان ينسيهم لغتهم ويجبرهم على تعلم لغة الأمة التي تحكمهم ، فإذا أهمل هذا الواجب كان كمن يسعى إلى حتفه بظلفه ، لأن العرب لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم ، فانهم سيعملون عاجلاً أو آجلاً على استرجاع مجدهم الضائع ، وتشييد دولة عربية جديدة على أنقاض الترك [1] » .

وهكذا انهارت الأحلام في العهد الجديد ، وتبددت الآمال التي عقدت على الدستور ، واتضحت أضاليل دعوة الاصلاح المزعوم الذي نادت به جمعية الاتحاد والترقي ، لأن المساواة وهي المبدأ الأساسي من مبادىء الدعوة لم يوضع موضع التنفيذ ، وانتشر نتن العفونة التي تعيشها الدولة العثمانية حتى زكم الأنوف .. وزاد الأمر هولاً موقف تلك الدولة من ديار العروبة على الصعيد الدولي وتخاذلها أمام أطماع الغرب في تلك الأصقاع قبل الحرب العالمية الأولى .

وكانت شكاوى العرب في سنة ١٩١٠ (١٣٢٨ هـ) تنحصر في ما يلي :

١ ـ إقصاء عدد كبير منهم عن الوظائف التي كانوا يشغلونها في الاستانة ولاسيما في وزارتي الخارجية والداخلية بحكم قانون التنسيق ، بحيث تناول هذا التنسيق جميع الموظفين من أبناء العرب عمداً، فكان الاتحاديون يكتبون في جدول التنسيق حرف (ع) أمام اسم كل موظف من أبناء العرب ليعرف المنسقون جنسيتهم .

٢ ـ عدم دعوة أبناء العرب إلى أي اجتماع غايته التأليف بين العناصر العثمانية .

٣ ـ عدم إدخال أي عربي من أعضاء الجمعية الاتحادية في اللجنة المركزية في

---

١ ـ الامة العربية للدكتور البطريق ص ٩٥ ـ ٩٦

سلانيك حتى الضباط العرب الذين كانوا أول من أعلن الدستور .

٤ — عدم قبول أي عربي من أعضاء الجمعية في المذاكرات السياسية التي كانت الجمعية تجتمع لأجلها في الاستانة .

٥ — عدم قبول أي عربي في اللجان المركزية الاتحادية وتحويل جمعية الاتحاد والترقي من جمعية عثمانية إلى جمعية تركية بحتة .

٦ — انتزاع وزارة الأوقاف من وزير عربي وإسنادها إلى وزير تركي بحيث لم يبق أحد من أبناء العرب في الوزارة .

٧ — استبدال الولاة والمتصرفين والقضاة من أبناء العرب بولاة ومتصرفين وقضاة من الترك ، وعدم تعيين أي موظف عربي أو عارف باللغة العربية في سورية والعراق .

٨ — معارضة الاتحاديين لكل مشروع علمي أو أدبي في البلاد العربية . مثال ذلك انهم عملوا على حل جمعية « النهضة السورية » التي تألفت في نابلس لإنشاء مدرسة منظمة فيها .

٩ — مناهضتهم للغة العربية مناهضة غريبة في بابها فقد نشر سفير الدولة في واشنطن سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ هـ) إعلاناً حظر فيه على العثمانيين المقيمين في أميركا مخاطبة السفارة بغير اللغة التركية مع علمه بأن الجالية السورية هناك لا يقل عددها عن نصف مليون ، وانه ليس بينها رجل واحد يحسن اللغة التركية [١] .

وانتشر نتن العفونة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية ، وقد هال الدول الغربية التي كانت تنظر إلى أقطار الامبراطورية العثمانية على انها تركة « الرجل المريض » ، تدفق الدم الجديد في جسم تلك الدولة ، كائناً ما كان عليه فساد أوضاع الامبراطورية ، فسارعت تكيل لها الضربات المتتالية القتالة بغية الإجهاز عليها ، فحركت الولايات الأوروبية ضدها في ثورات متتابعة كان من نتائجها انحسار ظل الامبراطورية العثمانية عن أوروبة وقد احتلت بريطانية قبرص سنة ١٨٧٨ (١٢٩٦ هـ) ومصر

---

١ — ثورة العرب ص ٥٢ — ٥٣

سنـــة ١٨٨٢ (١٣٠٠ هـ) وضمت النمسة اليها البوسنة والهرسك سنـــة ١٩٠٨ (١٣٢٦ هـ) واستولت ايطالية على طرابلس الغرب بعد ان ناضل العرب فيهــا نضالاً مستميتاً بقيادة الشريف السيد أحمد السنوسي والقائد عزيز علي المصري سنة ١٩١٢ حين تركهم الجنود العثمانيون يلاقون وحدهم مصيرهم المشؤوم . ثم امتدت مخالب الدول الأجنبية تعمل في القلب ممهدة للغزو السياسي والعسكري بالغزو الاقتصادي ، مستهدفة بالدرجة الأولى ديار العروبة ، فاستطاعت إفرنسة ان توطد نفوذها الأدبي في كل من سورية ولبنان ، وتنتزع من الدولة العثمانية امتياز إنشاء مرفأ بيروت ، وسكة حـــديد دمشق – حلب ، ودمشق – بيروت . وتمكنت بريطانية ان تبرم مع الدولة العثمانية اتفاقية إنشاء شركة الملاحـــة في شط العرب ، رغم معارضة نواب بغداد والبصرة الذين هالهم ان تكون ربوع الرشيد والمأمون ميدان المساومة. وأما إلمانية فقد استحصلت على امتياز مد سكة حديد الأناضول– بغداد ، في حين كان الأتراك يشددون التنكيل على الديار اليمنية ، التي استعصت عليهم .. والأنكى من ذلك ان الأحداث قد أثبتت إقدام رجالات الدولة على سحب أكثر حامياتها من طرابلس وبرقة لضرب الثورة اليمنية . فخسرت ذلك الصقع ،ولم تستطع ان تخمد تلك الثورة .. وهل من حاجة إلى القول بأن المؤامرة الصهيونية على فلسطين أخذت ترى النور منذ أيام الاتحاديين ...

كل ذلك دفع العرب للتفكير جدياً بكتابة صفحة تاريخهم بأيديهم وبطريقتهم الخاصة ، وبصورة مستقلة عن الدولة العثمانية ، ولم تكد تغيب شمس يوم لتشرق من جديد ، إلا والشعبان الأساسيان في تلك الدولة يزدادان بعداً عن بعضهما ، لفك ذلك الوثاق الذي شد كلًا منهما إلى الآخر طوال أربعمائة عام ..

على اننا إذا كنا قد أسهبنا في بيان النزعات العنصرية التركية وأثرها في إثارة النزعات القومية لدى العرب وغيرهم من الأمم التي كانت الدولة التركية تفرض سيطرتها عليها،فنحن حرصاء ألا يتوهم القارىء انه لولا تطرف القومية التركية وغلو دعاتها ، لما قدر للقومية العربية وغيرها من القوميات المضطهدة ان تعلن عن ذاتها ، فقد كان العصر كما قلنا عصر القوميات ويقظة الشعوب . وشعورها بوحدة كيانهـا

ووحدة مصيرها ، وتطلعها إلى الاستقلال والسيادة والتحرر ، ومثلما كانت مظاهر القومية التركية حافزاً للقوميات المضطهدة إلى الكفاح، كان كفاح هذه القوميات ووعيها لذاتها القومية وعزمها على الدفاع عن هذه الذات أمام محاولات القضاء عليها، واندفاعها في النضال من أجل تحقيق أهدافها في الاستقلال والتحرر ، حافزاً للقومية التركية ، وهي القومية الحاكمة ، إلى مزيد من التعصب والتعالي والاندفاع أكثر فأكثر في العدوان والإرهاب ، مما أدى إلى ثورة الشعوب البلقانية وتحررها في سنة ١٩١٢ (١٣٣١ هـ) كما أدى إلى ثورة الشعوب العربية وتحررها خلال الحرب العالمية الأولى .

الفصل الخامس

المنظمات والجمعيات العربية

تبددت الأحلام الحسان بعد ان تولى الاتحاديون الحكم وكشفوا القناع عن سياستهم العنصرية المتطرفة ونياتهم المريبة ، وشرعوا باضطهاد العرب وغيرهم من المواطنين غير الأتراك ، فكان هذا الاضطهاد حافزاً جديداً لنهضة العرب الذين آمنوا بالحرية وناضلوا من أجلها ، فانتقلوا إلى أسلوب جديد من الكفاح ، وهو تأليف الجمعيات السرية والعلنية في الاستانة والقاهرة وبيروت ودمشق وبغداد .

وكان مطلب العرب بادىء الأمر إقرار المساواة بين الأتراك والعرب في الحقوق والواجبات ، وقد أتاح انتخاب مجلس المبعوثان لعدد من النواب العرب ان يدافعوا عن هذا الحق البسيط من حقوقهم أمام ممثلي الامبراطورية العثمانية ، فأثار ذلك غضب حزب الاتحاد والترقي ، واشتبك الفريقان يوماً في مشادة عنيفة إثر خطاب جريء لنائب دمشق شكري العسلي ، وانتهت هذه المشادة بصفعة أليمة وجهها شفيق المؤيد نائب دمشق الآخر إلى طلعت باشا زعيم الحزب ، ولم يصبر الاتحاديون طويلاً على أخذ الثأر ، إذ قضوا بشنق العسلي والمؤيد في دمشق ذاتها فيما بعد ، ولكن تلك الصفعة وما تلاها من أحداث انتقامية إرهابية أثارت مشاعر العرب وأذكت حماستهم ، فانتقلوا من طلب المساواة إلى المطالبة باللامركزية .

ومن مطلب الاصلاح إلى مطلب اللامركزية والحكم الذاتي ، انتقل العرب إلى طلب الاستقلال ، ثم تنادوا إلى الثورة لبلوغ ذلك الهدف العظيم. وهذه لمحة سريعة عن الجمعيات السرية أو العلنية التي تألفت داخل الوطن العربي وخارجه وناضلت في سبيل تحقيق أمانيه .

لقد كثرت الجمعيات الأدبية والحلقات الوطنية في بيروت ودمشق ، في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين، وكان لها أثر كبير في النهضة العربية، وبعث الثقافة العربية ، وإيقاظ المواطنين العرب .

ولعل أبرزها « الجمعية العلمية السورية » التي أسسها في بيروت عام ١٨٦٨ (١٢٨٥ ﻫ) الأمير محمد أرسلان ، وكان من أبرز رجال عصره علماً وأدباً وخلقاً ، ويبدو ان عمل هذه الجمعية لم يقتصر على الناحية العلمية بل تعداها إلى إثارة الوعي الوطني عن طريق بعث التراث العربي والاعتزاز به [١] .

أما الجمعيات السياسية المنظمة فيصعب ان نعين على وجه التحديد بدء تكوينها كما يصعب تعيين الجمعية التي أرسلت الصيحة الأولى في وجه الاستعمار العثماني. ويتحدث جورج انطونيوس والأمير مصطفى الشهابي في شيء من الغموض عن جمعيتين اثنتين لعلهما كانتا منطلق العمل السياسي المنظم في بلاد الشام .

وخلاصة ما يرويه جورج انطونيوس ان جمعية سرية قد تألفت في بيروت سنة ١٨٧٥ (١٢٩٢ ﻫ) وأنشأت فروعاً لها في بعض المدن اللبنانية ، وكان عمل أعضائها مقصوراً على الاجتماعات السرية التي كانوا يتبادلون فيها الآراء ويبحثون الخطط ، وعلى نشر أفكارهم السياسية بوسائلهم واتصالاتهم الشخصية . وبعد ان قضوا ثلاث أو أربع سنوات وهم يتآمرون متهامسين في الخفاء ، أدركوا ان استمرارهم في الاقتصار على تلقين أنفسهم هذه المبادىء لن تكون له من جدوى إلا زيادة حماستهم هم أنفسهم فقط ، فعزموا على توسيع نطاق دعوتهم ، واختاروا الوسيلة الوحيدة التي كان من الممكن ان تتاح لهم في ظل الحكم الاستبدادي التركي اليقظ ، وهي لصق

١ ـ سطور من الرسالة ص ٣٦

المنشورات في الشوارع ، من غير ان يكون عليها ما يدل على مصدرها . وكانت هذه المنشورات تتضمن تنديداً عنيفاً بمساوىء الحكم التركي ، وتهيب بالمواطنين العرب ان يثوروا عليه ويطيحوا به .

ولم يذكر جورج انطونيوس اسم هذه الجمعية ، وإنما سماها « جمعية بيروت السرية » للتعريف بها ، كما انه لم يذكر من أسماء أعضائها سوى اسم الدكتور فارس نمر الذي قال انه صاحب الفضل الأكبر في معلوماته عنها ، وقد حدثه بالتفصيل عن كيفية تأسيسها وحوادثها الرئيسية وأسماء أعضائها الاثنين والعشرين ، إلا انه لم ينقل الينا من ذلك شيئاً [١] .

أما الأمير مصطفى الشهابي فيقول ان « الجمعية الخيرية » التي تأسست في دمشق في أواخر أيام مدحت باشا سنة ١٨٧٨ (١٢٩٥ هـ) تعد أول أساس قام عليه التعليم الحديث في عاصمة الأمويين ، وان النهضة الأدبية الحديثة في تلك العاصمة تبدأ في الحلقة التي كان واسطة عقدها الشيخ طاهر الجزائري ، وكان من أعضائها رفيق العظم والشيخ سليم البخاري والشيخ جمال القاسمي وعطا الكيلاني والأمير شكيب أرسلان ، ومحمد كرد علي وغيرهم . وكان إلى جانب هذه الحلقة الأدبية حلقة سياسية سرية مؤلفة من عرب وأتراك ، فمن العرب ضابطان في الأركان هما أسعد درويش الطرابلسي وسليم الجزائري ، ومنهم شكري العسلي وفارس الخوري وعبد الوهاب الانكليزي وغيرهم ، أما الأتراك فكان منهم أمير اللواء بدري بك ومدير المعارف حسين عوني بك ، وكانت غاية هذه الحلقة أو الجمعية السعي لنشر الدستور ، أي لجعل الحكم شورى في الدولة العثمانية ، وكان لهم اتصال وثيق برجال « تركية الفتاة » الذين قاموا فيما بعد بانقلاب سنة ١٩١٨ (١٣٣٧ هـ) .

ويضيف الأمير مصطفى الشهابي انه كانت هنالك حلقة أخرى تألفت في سنة ١٩٠٤ (١٣٢٢ هـ) من بعض الشبان النابهين ، وكان من أركانها الدكتور صالح قنباز والأمير عارف الشهابي ومحب الدين الخطيب ، والدكتور صلاح الدين القاسمي ،

---

١ ــ انظر يقظة العرب ص ١٤٩ ــ ١٥٥

وعثمان مردم بك ، وكانت لهؤلاء الشبان خطة قومية وضعوها بعد تفكير، وساروا عليها وتحملوا تبعتها بصبر وأناة . وكان الظاهر من خطتهم مدارسة آداب اللغة العربية ، وتاريخ الأمة العربية ، وإلقاء محاضرات في هذه الموضوعات وتدريسها ، وافتتاح مدارس وطنية وغرف قراءة ، وتلقين أسس القومية في المدارس الوطنية ، لكن المستتر من أعمالهم إنما كان الدعوة إلى انـتزاع حقوق العرب المهضومة من أيدي الترك الغاصبين ، أما ضمن الجامعة العثمانية وكان ذلك الأصلح في نظرهم ، واما بالانفصال عن الدولة العثمانية إذا لجأ العرب إلى الانفصال عنها .

ويقول الأمير مصطفى الشهابي ان هذه الحلقة الصغيرة كانت متصلة بالأعضاء العرب من الحلقة الكبيرة الآنفة الذكر ، وكانت تستمد النصائح منهم لأنهم كانوا أكبر سناً وأكثر خبرة . ثم اتصل بعض أعضائها بشباب بيروت المتعلمين كالشهيدين عبد الغني العريسي ومحمد المحمصاني وبعض تلامذة كلية الشيخ عباس الأزهري والجامعة الأميركية وبالتلامذة العرب في استانبول [1] .

وقد أشار الدكتور صلاح الدين القاسمي في خطاب ألقاه في دمشق في مطلع سنة ١٩١٠ (١٣٢٨ هـ) إلى جمعية كان قد أسسها محب الدين الخطيب وفريق من إخوانه باسم « جمعية النهضة العربية » في استانبول وإنشاء فرع لها في دمشق ، فتحدث عن ظروف تأسيسها وغاياتها وبعض أعمالها ، ويبدو من هذا الحديث انها الحلقة الصغيرة التي أشار اليها الأمير مصطفى الشهابي أو انها امتداد لها ، وقد قال الدكتور القاسمي في خطابه :

« بدأت الجمعية بادىء بدء صغيرة ، متبعة ناموس النشوء العام في ارتقائها ، فكانت ذرة حية فعالة ، تسعى في ان تلف حولها أبناء الأمة العربية جمعاء ، وان هذه الذرة كان مهدها الأول محيط القسطنطينية ، ومولدها ٧ ذي القعدة عام ١٣٢٤ هـ (٢٣ كانون الأول ١٩٠٦) حيث ردّ الفعل يهيىء للانسان أسباباً مريعة كبرى قلما يعرف لها لأول وهلة معنى .

---

[1] انظر محاضرات في الاستعمار ج٢ ص ٣٥ ــ ٣٧ ، محاضرات في القومية العربية ص ٥١ ــ ٥٢

« فكان أولئك الأصدقاء الذين انصبغت رابطة صداقتهم بصبغة « جمعيـــة » يجتمعون في غرفة أحدهم ، ويقرأون في ليلة من كل أسبوع درساً عربياً غايته إحياء نفوسهم بإحياء اللغة العربية ، لأنهم كانوا يعلمون ان اللغة من أحكم الصلات بين البشر ، وانها من أعظم عوامل النهوض والارتقاء في حياة الأمم العلمية والاجتماعية والسياسية .

« وكانوا بعد ان كثر عددهم يمشون على قانون عرفي سنوه فيما بينهم سراً ، فكان يضع كل واحد من الأعضاء في كل ليلة قطرات قليلة من المال يقتصدونها من مداخيلهم .

« وبعد فان هذه الجمعية ما زالت تتقدم بهمة أعضائها ومثابرتهم ، حتى قويت لحمة الارتباط بينهم ، وعلى هذه النسبة قويت آمالهم وميولهم ، فكانت أول حفلة أقامتها الجمعية هي من قبل المركز العام في منتزه الحديقة البصرية في القسطنطينية في ٥ جمادى الآخرة عام ١٣٢٥ هـ — ١٦ تموز (يوليه) ١٩٠٧ م .

« وقد ألقى محب الدين الخطيب ، مؤسس هذه النهضة ، خطاباً عنوانه « واجباتنا » والأخ عارف الشهابي قصيدة عنوانها « نحن والاغيار » .

« وكان لبعض أعضاء الجمعية أصدقاء في دمشق لهم من الثقة فيهم ما يؤهلهم لأن يلتحقوا بهم ويؤلفوا لهم فرعاً في الفيحاء . فبعث الأخ محب الدين الخطيب رسالتين في بريد واحد . الواحدة للأخ صلاح الدين القاسمي والثانية للأخ لطفي الحفار ينبئهما عن تأليف الجمعية في القسطنطينية ، ويقترح عليهما ان يشتركا معهم ، وكان قد أشار الكاتب على كل منهما بأن يري أحدهما كتابه للآخر ، فاجتمع هذان معاً وتذاكرا ملياً ، وقرّ رأيهما في الختام على الالتحاق بالمركز الأول في القسطنطينية ، وقاما بتأسيس فرع لها مؤلف من خمسة أعضاء ، فكانوا يجتمعون ليلتين من كل أسبوع ويوفرون شيئاً من المال في صندوق صغير .

« لم يمض على ذلك إلا حقبة من الزمن لا تزيد على ثلاثة أشهر تقريباً حتى اجتمع أغلب أعضاء المركز في العطلة المدرسية بالفرع المؤسس بدمشق . ومن ثم توحد الفرع والمركز وقرّ رأي الجمعية على جعل المركز العام في دمشق حاضرة الشام ،

وتعاقدوا جميعاً على خدمة المبادىء الأصلية ، بعد ان توثقت بينهم عرى الاتحاد والوئام .

«وقد أقام الأخ صلاح الدين العظم في ٧ رجب عام ١٣٢٥هـ(١٧ آب-اغسطس ١٩٠٧ م) مأدبة في أرض الوادي بدمشق ، في حفلة ضمت أغلب أعضاء الجمعية . وقد ألقى الأخ رشدي الحكيم خطاباً في « التقدم الذاتي » ، والأخ ذكي الخطيب خطاباً في « الانسان والتربية » والأخ صلاح الدين القاسمي خطاباً عنوانه « العلم والاجتماع » والأخ لطفي الحفار في « اللغة العربية » والأخ محب الدين الخطيب في « الدين والاصلاح » وارفضّت الحفلة وقد عاهد بعضهم بعضاً على خدمة الأمة العربية وأبنائها[1] . »

وثمة حلقة أخرى كانت أحد منابع النور في دمشق ، وقد تحدث عنها فخري البارودي في فصل عقده في مذكراته عن يقظة الروح العربية ، فقال ان الشعور القومي كان قد بدأ يتغلغل بين صفوف الطلاب حوالي سنة ١٩٠٤ — ١٩٠٦ (١٣٢٢ — ١٣٢٤ هـ) وأخذ بعض هؤلاء في مكتب عنبر يتمردون على المعلمين الاتراك ، كما كان الشجار يحتدم بين الطلبة الاتراك وزملائهم العرب . وكان قد بدأ يتكون في دمشق جمهور من الشباب من خريجي المدارس العالية كالطب والحقوق والمكتب الملكي ، وهو أعلى مدرسة لاخراج الموظفين الاداريين . وكانوا يعقدون اجتماعات خاصة ، ويخوضون في أحاديث جديدة غير مألوفة عند الدمشقيين آنذاك . فبينما كان الدمشقي يومئذ من أية طبقة ، لا يتحدث إلا عن طعام يومه، وعن الاشكال التي أكلها وكيفية طبخها والدعوات التي دعي اليها، والحفلات الكبيرة التي أقامها وجهاء البلدة، كان هؤلاء الشبان الناهضون يتحدثون عن أوروبة وتقدمها وعلومها وعن نهضات الشعوب ، والشكوى من ظلم الحكومة ، واستبداد السلطان عبد الحميد ، وسرد الحكايات عن اغراق الاحرار في بحر

---

١ ــ الدكتور صلاح الدين القاسمي ، اثاره : صفحات من تاريخ النهضة العربية في اوائل القرن العشرين ، ص ٤ ــ ٦

مرمرة ، وتعذيب الألوف من الشبان المطـــالبين بالاصلاح » و كنا نسمع هذه الأحاديث في مجالس الشبان كلما سنحت لنـــا فرصة بالاجتماع اليهم ، ومن بينهم السادة شكري العسلي وعبد الوهاب الانـكليزي وسليم الجزائري والاستاذ محمد كرد علي والدكتور عبد الرحمـــن شهبندر ، وعلى رأسهم شيخ أحرار العرب ذلك الحين الشيخ طاهر المغربي الجزائري ، وهو شيخهم وشيخنا ، وله أكبر فضل في تنوير الابصار والبصـــائر ، ودفع العرب في طريق التقدم ، وهو أول من فتح مدارس البنات في دمشق . وكان يحضر اجتماعـــات الشلة الشيخ سليم البخاري ، والشيخ جمال القاسمي ، والشيخ عبد الرزاق البيطار ، وهم من الاحرار المجددين ، وكانوا جميعاً موضع نقمة الحكومة .[١] »

ولكن التاريخ يتحدث عن حركة عربية استقلالية سابقة لهذه الجمعيات ، وهي بحد ذاتها ــ بالاضافة إلى ما رويناه في الفصول السابقة ــ تبرهن على ان تأريخ حركة البعث العربي والتنبه القومي في البلاد العربية ، بمجيء البعثات الأميركية ، العلمية والتبشيرية إلى لبنان ، وهو الأمر الذي ذهب اليـــه جورج انطونيوس في كتابه « يقظة العرب » وشايعه فيه عشرات المؤلفين الذين تأثروا به واقتبسوا عنه، تحديد فيه الكثير من المبالغة والغلو[٢] .

وقد روى عادل الصلح قصة هذه الحركة في كتابه « سطور من الرسالة » ، نقلاً عن والده منح الصلح فقال : « قال والدي منح الصلح فيما كان يحدثني به : كان الوعي العربي قبيل الحرب الروسية عام ١٨٧٧ ــ ١٨٧٨ وأثناءها ، ينمو في سورية باضطراد ، وقد كان وضع الدولة المضطرب ، وهـــذا الوعي القومي النامي في

---

١ ــ مذكرات البارودي ج ١ ص ٥٤

٢ ــ يرجع جورج انطونيوس التنبه القومي واليقظة العربية الى مجيء البعثات الاميركية العلمية والتبشيرية ، الى لبنان (انظر يقظة العرب ص ١٥ و ٧١ و ٩٦ و ١١٧ و ١١٨ و ١٥١) وهذا تحديد فيه كما قلنا كثير من المبالغة ، والواقع ان اليقظة العربية قد بدأت تباشيرها قبل ذلك بكثير، وقد أنجبت دمشق وحلب وبيروت وبغداد وغيرهـا مـن عواصم العروبة كثيرا من المفكرين وأنشئت فيها أندية علمية وصحف أدبية قبل التاريخ الذي حدده وأصر عليه .

سورية ، حافزين أهابا بأهل البلاد ليتداولوا في ما يجب عمله لإنقاذ بلادهم ، وتألفت لهـــذا الغرض حركة سياسية كان محركها الرئيسي أحمد باشا الصلح ومن أعضائها السيد محمد الأمين والشيخ علي الحر الجبعي وأحمد عباس الأزهري وابرهيم الجوهري وحسن تقي الدين الحصني ، والحاج علي عسيران وشبيب باشا الأسعد الوائلي والحاج حسين بيهم ، وقد اتصل أحمد الصلح بعدد كبير من زعماء سورية ، وتنادى الجميع إلى عقد مؤتمر في بيروت ، ثم تلاه مؤتمر ثان في دمشق ، وقرر المؤتمرون العمل لتحقيق استقلال البلاد الشامية وترشيح الامير عبد القادر الجزائري [1] ليتولى الملك على هذه البلاد . « لقد اختار أهل الديار الشامية الأمير عبد القادر الجزائري ليكون على رأس حركتهم ورئيساً للدولة التي عزموا على انشائها ، وذلك لشرف نسبه ، ولأنه بطل قومي مجاهد ، وسياسي قدير فذّ ، ورجل علم وأخلاق ومكارم ، ولأنه سبق ان أنشأ دولة عربية قوية في بلاد المغرب الأوسط ، وناضل في الدفاع عنها ضد الاستعمار نضالاً كان أسطورة ذلك الجيل وآية أعجوبته ، واحتل بذلك في الامة العربية مرتبة عز نظيرها . وقد اصطفاه أهل الديار الشامية دون أن يخطر لأحدهم انه ليس من أهل المشرق ، وأن المشرقي أولى منه بهذه الولاية ، لأن النزعات الاقليمية لم يكن لها أي اعتبـــار في ذلك الزمن ، فكان ابن الجزائر وابن دمشق وبغداد وبيروت وسائر بلاد العرب مواطناً عربياً قبل أي شيء آخر » وأهم ما في هذا الأمر أن الزعيم اللبنـــاني يوسف بك كرم علم بهذا الموضوع وكتب إلى عبد القادر الجزائري من منفاه في رومـــة رسالة يقول فيها أنه ليس من سبيل إلى انقاذ البلاد العربية إلا اتحادها تحت راية الأمير ورئاسته ، ودعا الأمير – إذا لم

---

١ – هو المجاهد الجزائري المعروف الذي قاوم احتلال الجزائر من قبل الفرنسيين خمسة عشر عاما أبدى خلالها ضروبا رائعة من البطولة ، ولما هادن الفرنسيين بعض امراء المغرب الاقصى ضعف أمر عبد القادر ، فاشترط شروطا للاستسلام رضي بها الفرنسيون ، وقد نفي الى طولون سنة ١٨٤٧ (١٢٦٣هـ) ثم الى انبواز حيث زاره نابوليون الثالث واطلق سراحه فانتقل الى الشرق واستقر في دمشق واكتسب فيها مكانة عالية ولا سيما عندما هب اثر فتنة سنة ١٨٦٠ الى حماية المسيحيين وكانت له في ذلك مواقف فريدة في التاريخ .

توافق الحكومة العثمانية على ذلك – للعمل على سلخ البلاد العربية عن جسم الدولة العثمانية . ثم توالت الرسائل من يوسف كرم إلى الأمير عبد القادر بهذا المعنى مع توضيح كيفية اعداد الاذهان الغربيـــة لتقبل هذا الحدث الخطير وكيفية تنظيم الحكم داخل الوحدة التي تشمل البلدان العربية مع احتفاظ الاقاليم بميزاتها الخاصة ضمن الوحدة الشاملة [١] .

ومن الجمعيات السياسية الرائدة ، الجمعية التي أسسها نجيب عازوري سنة ١٩٠٤ (١٣٢٢ هـ) في باريس باسم « رابطـــة الوطن العربي » وغايتها تحرير بلاد الشام والعراق من سيطرة الأتراك . وكان نجيب عازوري وهو مسيحي من سورية متصرفاً في القدس ، ثم تخلى عن عمله وانتقل إلى باريس حيث أقام حتى وفاته سنة ١٩١٦ (١٣٣٥ هـ) وأصدر مجلة شهرية بالفرنسية اسمها « الاستقلال العربي » .

وقد وجهت هذه الرابطة نداءات حارة إلى العرب تحضهم على القيام بالثورة ثم وضح نجيب عازوري أفكاره في العام ١٩٠٥ (١٣٢٣ هـ) في كتاب نشره باللغة الفرنسية بعنوان « يقظة الأمة العربية في آسية التركية » وهو يقول فيه :

« تتمخض الليـــالي في تركية عن انقلاب سلمي عظيم . فالعرب الذين يسيطر عليهم الاتراك بقوة الارهاب المستندة على سلاح التفرقة في صفوفهم بسبب المذاهب والأديان قد تيقظوا وشعروا بقوة انسجـــامهم الوطني والتاريخي والعنصري ، وهم يبغون الانسلاخ عن شجرة عثمان المسوسة وتأسيس دولة مستقلة [٢] »

ويقول أيضاً : « هنالك أمة عربية ، أمة واحدة تضم المسيحيين والمسلمين على حد سواء . وليست المشاكل الدينية التي تنشأ بين مختلف أبناء الطوائف ، سوى مشاكل سياسية تثيرها الدول الاجنبية في سبيل منافعها الخاصة . وليس المسيحيون

---

١ – سطور من الرسالة ص ٩١ وما بعدها ، أنظر أيضا يوسف بك كرم فـي المنفى لسمعان الخازن ، لبنان ويوسف كرم لاسطفان البشعلاني ، تاريخ جبل عامل لمحمـد جابـر آل صفا ، أعيان الشيعة ج ٤٣ ص ٣٠٠ .

٢ – نهضة العرب : التحرر فالاستقلال فالدولة ص ١٨ ، انظـر أيضا يقظـة العـرب ص ١٧٢

أقل عروبة من المسلمين . وعلى هذه الأمة العربية أن تستقل عن الترك لما ألحقوا بها من أضرار جسام فلولاهم لكان العرب من أرقى أمم العالم . ولا أمل يرجى من أن تصلح الامبراطورية نفسها لتضمن للعرب مكانة فضلى . ولو أمكن الاصلاح لظل العرب لها موالين . ولكن عبد الحميد الثاني لا يريد أن يغير سياسته ، ورجال تركية الفتاة لا يصلون إلى السلطة . ولذا كان الاستقلال مخرجاً . وما على العرب والكرد والارمن إلا أن ينشقوا عن هذه الامبراطورية لأنها مهددة بالانهيار ان عاجلاً أو آجلاً ، بسبب ضعفها الداخلي وتدخل الدول الاوروبية في شؤونها[1] »

وفي خريف سنة ١٩٠٨ (١٣٢٦ هـ) أنشأ بعض وجوه الجالية العربية في استانبول « جمعية الإخاء العربي العثماني » تأييداً لجمعية الاتحاد والترقي ، ومؤازرة لها في الحفاظ على مبادىء الدستور ، وسعياً لتأمين حقوق العرب في العهد الجديد . وقد أصدرت الجمعية جريدة باللغة العربية تنطق بلسانها وتحمل اسمها . إلا ان جمعية الاتحاد والترقي ما لبثت أن حلت هذه الجمعية بعد خلع السلطان عبد الحميد متهمة إياها بالاشتراك في حركة عصيان ٣١ اذار (مارس) ١٩٠٩ (١٣٢٧ هـ)

وقد أسس هذه الجمعية عارف المارديني (والي دمشق في العهد الاتحادي بعد ذلك) وصادق المؤيد ، وشفيق المؤيد ، ويوسف شتوان ، وشكري الأيوبي ، وشكري الحسيني .

ولما كان معظم المنتسبين إلى فروع جمعية الإخاء العربي في الولايات العربية ممن آزروا حركة عصيان ٣١ آذار المشهورة ، لذلك فان الاتحاديين بعد ان قمعوا هذا العصيان المسلح ، قد أغلقوا جمعية الإخاء .

وقد جاء في المادة الأولى من قانون الجمعية الأساسي: « اما مقصد جمعية الإخاء العثماني فهو معاونة جمعية الاتحاد والترقي في سبيل المحافظة على أحكام القانون الأساسي (الدستور) وجمع كلمة الملل العثمانية بدون تفريق في الجنس والمذهب، وتمكين الرابطة الجامعة بينهم لأجل خدمة الدولة العثمانية وإصلاح الشؤون المختلة ،

---

١ ـ المراحل التاريخية للقومية العربية ص ١٧ ـ ١٨

ثم السعي لإعلاء شأن الأمة العربية ، واتخاذ جميع الوسائط والتدابير لنشر أنوار العلوم والمعارف بين أبنائها ، كتأسيس مدارس وطبع جرائد وغير ذلك ، وتزييد ثروة الأهلين ببذل النصح والارشادات اللازمة لتأسيس معامل وشركات زراعية وصناعية وتجارية ، والاجتهاد بإقناع أهل البـــداوة للاقلاع عن عاداتهم المستهجنة وعداواتهم المستحرة بينهم ، وإسكانهم في محلات ثابتة، وتعويدهم على مزاولة العوائد والحرف الحضرية ، وتنوير عقولهم بالعلم ، وصيانة حقوق أبناء العرب جميعاً من الغدر والاعتساف ، وتبليغ شكاياتهم ومستدعياتهم إلى مراجعها الرسمية إذا لم تلق حسن القبول عند المأمورين المختصين بالنظر فيها ، وصرف المقدرة بكل ما يمكن من الأمور الخيرية ، والسعي في تأييد العدل والحرية والمساواة بين عناصر الأمة العثمانية وإزالة الضغائن وسوء التفاهم من بينهم » .

وفي سنة ١٩٠٩ (١٣٢٧ هـ) تأسس « المنتدى العربي » في الاستانة ، ومن أبرز أعضائه عبد الكريم الخليل وعارف الشهابي ويوسف حيدر وسيف الدين الخطيب وجميل الحسيني ورفيق رزق سلوم وأحمد عزت الأعظمي وعبد الوهاب الزوتيني ، وعبد الوهاب الانكليزي وتوفيق البساط وسليم الجزائري ، وأمين لطفي الحافظ ، ومحمد الشنطي ، وأحمد طباره ، ورشدي الشمعه ، وجرجي حداد ، وسعيد عقل ، وباترو باولي .

وكان لهذا النادي فضل كبير في ضم شتات الطلاب العرب ، وتلقينهم المبادىء الوطنية ، وإفهامهم حقوق البلاد العربية ، وإعدادهم لخدمة أمتهم ولغتهم . كما كان صلة الوصل بين أفراد الجالية العربية في استانبول ، وملتقى القادمين اليها من أنحاء العالم العربي وقد بلغ عدد أعضائه عدة آلاف ، وأنشئت له فروع كثيرة في الشام والعراق .

ويقول أسعد داغر : « أنشىء المنتدى الأدبي وكان الغرض منه إيجاد رابطة ثقافية بين الطلبة العرب ، ولكنه بدأ يتحول إلى مركز سياسي منذ تبدلت سياسة جمعية الاتحاد والترقي مع العرب . ولم يخف ذلك على الترك ، فلجأوا إلى سياسة المجاملة خصوصاً بعد ان أصبح عبد الكريم الخليل معتمداً للشبيبة العربية ، فقد

ظنوا انه أصبح في إمكانهم السيطرة عليها بالــتردد على ناديها وإبداء العطف على معتمديها والقائمين بأمرها [1] . »

وقد أصدر المنتدى مجلة باسمه كانت مجال أقلام شبان العرب وأدبائهم في كل ما يتصل بالعروبة وتاريخها وحقوقها ولغتها وأمانيها ، وغدت مظهراً من مظاهر الفكرة ودعامة من دعائم حركتها . وعلى صفحات هذه المجلة نشرت أولى القصائد والأناشيد التي تشيد بأمجاد العرب وتعرب عن أمانيهم ، والتي كان شبان العرب يرددونها ويتغنون بها في اجتماعاتهم الخاصة والعامة [2] .

وإلى جانب « المنتدى العربي » تأسست في استانبول في السنة نفسها ، جمعيـة سرية باسم « القحطانية » تضم عدداً من المدنيين والعسكريين العرب . وكانت هذه الجمعية تدعو إلى ان تتألف الدولة العثمانية من جزئين مستقلين استقلالاً تاماً في الأمور الداخلية ،الواحد عربي والآخر تركي. وتكون الدولة عربية تركية في إطار عثماني ، على غرار امبراطورية النمسة والمجر ، فيحمل السلطان الخليفة حينئذ تاجين: تاجاً عربياً وآخر تركياً . ويبدو ان بعض المنتسبين إلى هذه الجمعية لم يتقيدوا بمبدأ السرية الذي التزمته ، فشاع أمرها ، واضطر مؤسسوها إلى حلها دون ان يتخذوا قراراً بذلك ، وانضم بعض أعضائها فيما بعد إلى جمعية « العهد » أو جمعية «العربية الفتاة » . ومن أبرز أعضاء الجمعية « القحطانيـــة » سليم الجزائري ، وأمين عادل ارسلان ، وخليـــل حماده ، وأمين كزما ، وصفوت العوا ، وعلي النشاشيبي ، وشكري العسلي ، وعبد القادر الخرسا ، وعلي الارمنازي ، ومحمد العجم ، وسليم عبد الهادي ، ونور الدين القاضي [3] .

وفي سنة ١٩١١ (١٣٣٠ هـ) التقى في باريس عـــدد من المفكرين وخريجي الجامعات أو طلابها ، منهم الدكتور أحمد قدري ، ومحمد رستم حيدر ، ورفيـق

---

١ ــ مذكراتي على هامش القضية العربية ص ٣٥

٢ ــ حول الحركة العربية الحديثة ج ١ ص ٢٤

٣ ــ انظر الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ١٠ محاضرات عــن القومية العربية ص ٧٠ ، يقظة العرب ص ١٨٦

التميمي ، وعوني عبد الهـــادي ، وعارف الشهابي ، ومحمد المحمصاني ، وعبد الغني العريسي ، وصبري الخوجه ، وتوفيق الناطور ، وكانوا يجتمعون في غرفة الدكتور أحمد قدري في شارع استراباد ، ويسمونها « قنصلية العرب » . وفي هـذه الغرفة التي كانت تضج بحيوية الشباب والحماسة الوطنية ، تألفت أعظم جمعيـــة وطنية سرية عربية وهي « جمعية الأمة العربية الفتاة » وقد عرفت باسم « العربية الفتاة » وأحياناً « الفتاة » ، وكانت أقوى الجمعيات السرية العربية ، وأعمقها أثراً في تاريخ النهضة .

وبعد انتهاء سني الدراسة أو سني الاختصاص ، انتقل الدكتور أحمد قدري وعارف الشهابي إلى سورية ، ومحمد المحمصاني وعبد الغني العريسي إلى لبنان ، فأصبح للجمعية مركزان رئيسيـان في دمشق وبيروت يعملان على نشر مبادئها الاستقلالية ، وسرعان ما اتسع نشاطها ، وتركز النضال القومي فيها ، وتكاثر عدد المنتسبين اليها . ومن أبرز هؤلاء فيصل بن الحسين، وزيد بن الحسين، وشكري القوتلي، وياسين الهاشمي،وجميل المدفعي،ومولود مخلص،وعلي جودة الأيوبي، ورضا الركابي ، وعزة دروزة ، ورفيـــق سلوم ، وعمر حمد ، وتوفيق البساط ، وصالح وسعيد ويوسف وابرهيم حيدر، ومحب الدين وسيف الدين الخطيب، ونسيبوفوزي وسامي البكري ، وفخري البارودي ، وأحمد مريود ، وأمين وعبد الوهاب ميسر، وشكري الشوربجي ، وخالد وأسعد الحكيم ، وصدقي ملحس ، وعمر الاتاسي ، ومحمد الشريقي ، ومعين الماضي ، وتحسين قـــدري ، وزكي ومحمد علي التميمي ، وتوفيق الناطور ، وبشير القصار ، وبشير النقاش ، وكامل القصاب ، وسعيد الباني، ورشدي الامام الحسيني، ورشدي الشواغزة ، وسليم عبد الرحمن، وحافظ كنعان، وأحمد المناصفي ، وابرهيم هاشم ، ومحمد العفيفي ، وتوفيق فايد ، وجميل مردم ، وصبحي الحسيبي ، ورشيد الحسامي ، وتوفيق السويدي ، واسماعيل وفائز وبهجة ومصطفى من الأمراء الشهابيين .

ويمكن اعتبار « الفتاة» قمة التطور في سير كفاح العرب والاعراب عن أمانيهم وتعيين أهدافهم ، وكانت هذه الأهداف واضحة صريحة تنزع إلى استقلال البلاد

العربية وتحريرها من السيطرة التركية أو أية سيطرة أجنبية أخرى .

وقد امتاز أعضاء هذه الجمعية بالجرأة والصلابة والشجاعة الفائقة ، وظل أمرها سراً لا تطوله السلطة التركية بالرغم من تعرض الكثيرين من أعضائها للسجن والتعذيب والاستشهاد، لحرص الجمعية على التكتم والسرية التامة، واختيار أعضائها ممن عرفوا بحسن الخلق وقوة النفس والتشبع بالفكرة القومية والإخلاص لها .

يقول الأمير مصطفى الشهابي : « وقد قال بعضهم ان هذه الجمعية كانت عند العرب شبيهة بجمعية « جون ترك » أي « تركية الفتاة » وهو الاسم الذي كان يطلق على جمعية الاتحاد والترقي عند الأتراك . وفاتهم انه كان بينهما فارق كبير ، وهو ان الجمعية العربية إنما كانت تعمل لتخليص الشعوب العربية من إرهاق الأتراك الظالمين ، اما الجمعية التركية فقد كانت تعمل لاستبقاء نير الاتراك في أعناق العرب ، مع ما يتبع هذه السياسة الغاشمة من تجاهل لحقوق العرب وللغتهم ولكل مشخصاتهم القومية [1] » .

ولما تولى الحكم حزب الحرية والائتلاف ، تشجع القائلون باللامركزية على إعلان مطالبهم ، فتألفت في بيروت سنة ١٩١٢ (١٣٣١ هـ) « الجمعية الاصلاحية » بزعامة أحمد مختار بيهم ، وسليم سلام ، وأيوب ثابت ، والشيخ أحمد طباره ، ووضعت في أوائل سنة ١٩١٣ لائحة تتضمن مطالب العرب، وخلاصتها الاعتراف بأن تكون العربية لغة رسمية في دوائر الولايات الحكومية، وان تعين العاصمة رؤساء تلك الدوائر على ان يكونوا عارفين باللغة العربية، أما سائر موظفي الولاية فيكونون من أبنائها. وان يؤلف مجلس تمثيلي للولاية تكون العربية لغته، ويكون له سلطة محلية واسعة منها إقرار ميزانية الولاية التي يتألف دخلها من ضرائب حددت في اللائحة. وبهذه الميزانية تتولى الولاية الأعمال الحكومية التي لها صبغة محلية كالمعارف والزراعة والتجارة والأوقاف والصحة والأشغال العامة . أما المؤسسات التشريعية والحكومية الكبرى كالمجلس النيابي ومجلس الأعيان ومجلس الشورى

---

١ ـ محاضرات في الاستعمار ج ٢ ص ٤٤

والوزارات فتبقى كلها في العاصمة الخ ..

وقد تركت هذه اللائحة صدى قوياً في البـــلاد العربية ، وعقدت اجتماعات تأيدية لها في دمشق وحلب وعكة ونابلس وبغداد والبصرة . وأسفرت هـــذه الاجتماعات في البصرة وبغداد عن وضع لائحتين للاصلاح على غرار لائحة بيروت ، وكان يقود حركة النضـــال فيها طالب النقيب ، وحمدي ومزاحم الباجه جي ، ويوسف السويدي . ولكن الاتحاديين ما لبثوا ان عادوا إلى الحكم، فعطلوا الجمعية وقاوموا الحركات المؤيدة لها ، فكان لذلك رد فعل شديد تجلى في إضراب بيروت وبعض المدن السورية ، وصدرت الصحف بيضاء ما خلا مكان الأمر الصادر بحل لجنة الاصلاح فانه نشر في الصدر مطوقاً بالسواد ، فعمدت السلطة حينئذ إلى تعطيل الصحف واعتقال الزعماء البارزين ومنهم الشاعر اسكندر العازار، فزاد الهياج وأدى إلى مظاهرات صاخبة تألفت في مدن مختلفة من بلاد الشام احتجاجاً على أعمال القمع، مما اضطر السلطة إلى إطلاق سراح المعتقلين وإعـــلان قانون جديد للولايات يمنح الهيئات التمثيلية المحلية مزيداً من السلطات [1] .

وقد كتب مراسل جريدة « الطان » الباريسية في بيروت إلى صحيفته في ٢٧ آذار (مارس) عام ١٩١٣ (١٣٣٢ هـ) تعليقاً على هذه الأحداث قال فيه :

«يصعب جداً وقف هذه الحركة الثورية التي لم تقتصر على ولاية بيروت فحسب، بل عمت جميع الأقاليم العربية . وقد باءت محـــاولة الحكومة القضاء عليها بفشل ذريع . واستدعي إلى بيروت شكري بك العسلي نائب دمشق السابق وزعيم هذه الحركة،وعرضت الحكومة عليه منصب معاون حاكم اللاذقية فأجاب: «لا نهدف إلى مناصب ذات ريع ، وإنما نطلب إصلاحات جـــدية تضمن نفاذها الدول الأجنبية.وهذا رأي جميع السوريين والشعوب القاطنة على ضفاف الفرات وسواحل البحر الأحمر [2] » .

---

١ ـ محاضرات في القومية العربية ص ٨٣ ، يقظة العرب ص ١٩٠ ، ثـــورة العرب ص ٦٢ ، العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب ص ١٦١

٢ ـ نهضة العرب : التحرر فالاستقلال فالدولة ص ٢٩

ومن الجمعيات العربية ذات الأثر الفعال « جمعية البصرة الاصلاحية » و«النادي الوطني العلمي » في بغداد ، وقد أسس الأولى السيد طالب النقيب نائب البصرة في مجلس النواب العثماني وأحد زعماء حزب الائتلاف . أما « النادي الوطني العلمي » فقد أسسه مزاحم الباجه جي وانتسب اليه كثير من الشبان وعمل على نشر المبادىء القومية ، وأصدر مؤسسه جريدة باسم « النهضة » لم يصدر منها سوى ١٢ عدداً ثم أغلقها الاتحاديون وأمروا بالقبض على صاحبها فهرب إلى البصرة ولجأ إلى السيد طالب النقيب .

ويقول مؤلف كتاب « ثورة العرب » ان الحكومة التركية قامت بمحاولة لاغتيال طالب النقيب ، فعينت لهذا الغرض ضابطين من كبار الضباط الاتحاديين في وظائف كبيرة في البصرة ، وهما فريد بك الذي جعلته قائداً لموقع البصرة وعاكف بك الذي عينته قائداً للدرك وأرسلت معهما عدداً كبيراً من الفدائيين ، فما ان استلموا زمام وظائفهم حتى جعلوا يبعدون ضباط العرب إلى الأناضول ليتسنى لهم تنفيذ أوامر الحكومة ، ولكنهم وقعوا في الشرك الذي نصبوه لزعماء العراق ، فسلم طالب النقيب وأصحابه ، وقتل أنصاره فريد بك وتشتت شمل أعوانه ، كما قتلوا بديع بك نوري متصرف لواء الناصرة ، وأخفقت مؤامرة الاتحاديين إخفاقاً ذريعاً [1] .

ولم يقتصر تأليف الجمعيات الوطنية على بلاد الشام ، إذ ألف سنة ١٩١٢ (١٣٣١ هـ) عدد من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين المقيمين في القاهرة في مقدمتهم رفيق العظم ، واسكندر عمون ، والدكتور شبلي الشميل ، ومحب الدين الخطيب ، ومحمد رشيد رضا ، وفؤاد الخطيب ، وسامي الجريديني ، وسليم عبد الهادي ،

---

١ ـ صدر كتاب ثورة العرب سنة ١٩١٦ (١٣٣٥ هـ) على انه تأليف أحد اعضاء الجمعيات العربية » والمعروف ان مؤلف الكتاب هو اسعد يوسف داغر ، اما بديع نوري فهو شقيق الاستاذ ساطع الحصري (أنظر ثورة العرب ص ٧٩ وحديث توفيق السويدي في ملحق « الحياة » الخاص بالثورة العربية الكبرى ويقول السويدي أن النقيب هو مؤسس نادي بغداد وان اسمه النادي الادبي) .

وحافظ السعيد ، ونايف تللو ، وعلي النشاشيبي ، وحقي العظم ، «حزب اللامركزية» وأنشأوا فروعاً له في بلاد الشام ، وكان يدعو إلى إعطاء البلاد العربية حكماً ذاتياً على ان تظل مرتبطة بالدولة العثمانية ، فتقوى بمؤازرتهم ، وتتمكن من مقاومة الدول الأجنبية . والراجح ان هذه الجمعية كانت على اتصال وثيق بالجمعية الاصلاحية في بيروت التي مر ذكرها .

وقد جاء في المادة الثالثة من قانون الجمعية : « ليس هذا الحزب خفياً ، وليس فيه ما يعد من الأسرار ، فهو ينشر مقصده المبني على المطالبة باللامركزية الواسعة جهراً وعلانية دون الخشية من أحد ، لاعتقاده يقيناً ان الدولة لا تبقى في العالم السياسي إلا إذا بنيت حكومتها على أساس اللامركزية الادارية » .

وعلى الرغم من ان الجمعية لم تكن سرية ، وقد أعلنت نظامها ودعوتها جهراً ، فان فروعها في البلاد العربية كانت سرية ، وكان نشاطها واتصالها بالمركز العام يجريان بتكتم شديد ، وكان الاتحاديون بعد ان عادوا إلى الحكم يرصدون حركات الجمعية وفروعها ، وكان أعضاؤها أثناء الحرب من أهداف بطشهم وتنكيلهم [1] .

ويقول جورج انطونيوس « ان قيمة هذه الجمعية في تاريخ الحركة العربية تتمثل في انها أول تجربة تخوضها الحركة في ميدان العمل المنظم . فقد مضت ثلاث سنوات والمعركة بين الاتحاديين – بسياستهم في التوحيد في المركز – وبين العرب الذين ينادون بالحكم الذاتي ، متقطعة متفرقة كعادة العرب في حروبهم ، وجاء تأسيس الجمعية محاولة لتنظيم الجهود وجمعها في جهد واحد متسق متواصل [2] » .

وكذلك لم يقتصر العمل الوطني والتكتل القومي على المدنيين ، إذ قام عدد من الضباط العرب في الجيش العثماني سنة ١٩١٣ (١٣٣٢ هـ) بتأليف جمعية سرية استقلالية باسم «جمعية العهد» وقد أسس هذه الجمعية علي المصري ومن أبرز أعضائها

---

١ ـ حول الحركة العربية الحديثة ج ١ ص ٣٥

٢ ـ يقظة العرب ص١٨٦

سليم الجزائري ، وجميل المدفعي ، ونوري السعيد ، وياسين الهاشمي ، وجعفر العسكري ، ومحمد اسماعيل الطباخ ، وعارف التوام ، وخالد الحكيم ، ومصطفى وصفي، وأمين لطفي الحافظ ، ومولود مخلص، وطه الهاشمي ، وعلي جودة الأيوبي، ومحي الدين الجبان، ويحيى كاظم ، وعبد الله الدليمي ، وشريف الشريف ، وحميد الشالجي ، وصادق الجندي ، وعلي النشاشيبي ، واسماعيل الصفار ، وتحسين علي ، وعبد القادر سري ، وعلي رضا الغزالي ، ورشيد الخوجه ، وحمدي ومزاحم الباجه جي .

يقول الأمير مصطفى الشهابي : « ومعظم هؤلاء كانوا رجال حرب وثورة وعقيدة وطنية ، وهذا شيء كثير ، وقد هلك منهم نفر في الثورات المختلفة ، وكان لهم في القضية العربية تأثير لا يفوقه إلا تأثير الفتاة [١] . وقد كشف الترك النقاب عن جمعيتهم إبان الحرب الكبرى الأولى فقتلوا بعضهم ، وشتتوا شمل بعض في أنحاء الدولة بعد ان سلبوهم قيادة المهم من القطعات العسكرية [٢] » .

ولم يشترك في هذه الجمعية من المدنيين سوى الأمير أمين ارسلان ، وكان فيها عدد كبير من العراقيين ، ولها فرعان أحدهما في بغداد والآخر في الموصل ، وقد مثلت بين العسكريين الدور الذي مثلته جمعية «العربية الفتاة» بين المدنيين، ولم يكن بين الجمعيتين اتصال حتى كانت سنة ١٩١٥ (١٣٣٤ هـ) فاتصلتا ووحدتا مواردهما وجهودهما لإعداد الثورة [٣] .

ولعل من المفيد ان نختم هذا الفصل بمقتطفات من ثلاثة من المناشير العديدة التي كانت توزعها الجمعيات العربية السرية يومذاك، وهذه المناشير الثلاثة كلها من مناشير جمعية « العهد » [٤] . وإلى القارىء مقتطفات من المنشور الأول :

« استيقظوا يا بني قحطان فنحن على عتبة ثورة كبرى .. ومن يظل نائماً يمت .

---

١ ــ التقت الفتاة والعهد فيما بعد وتوحد عملهما في العهد الفيصلي بدمشق .
٢ ــ محاضرات في الاستعمار ج ٢ ص ٤٦
٣ ــ تاريخ الامة العربية عصر الانبعاث ص ٥٢
٤ ــ انظر نهضة العرب : التحرر فالاستقلال فالدولة ص ٢٣ ــ ٢٧

ومن يمت خاملًا يذهب بلا أثر .

« متى تعون وتتنبهون ، فان بلادكم تباع للأجنبي وأراضيكم تدخل في حوزة الألمان والفرنسيس ؟..

« عيونكم تجللها الغشاوة وأنتم أرقاء لأسياد ظالمين .. أنتم قطيع من الأغنام يجزونه ويحلبونه ثم يرسلونه إلى المجزر . بلادكم مزرعة أتتهم بطريق الميراث وأهلها عبيد لخدمة الأرض !

« تفوقون الأرمن بالعدد أضعافاً مضاعفة ولكنهم يتمتعون باستقلال ذاتي وأنتم ما زلتم عبيداً لحفدة هولاكو وجنكيزخان الذين أطاحوا بمملكة بغداد ، وأبناء تيمورلنك الذي أشاد إبان موقعة حلب برجاً من ثمانين ألف جمجمة عربية .

« وهم لأجل الدفاع عن الامبراطورية البيزنطية يضحون بشرف نسائكم وحياة أبنائكم وأموال بلادكم . ولأجل الاحتفاظ بنعيم ملذاتهم يهرقون دماءكم في اليمن والكرك وحوران ، وبأمرهم تسفكون دماء إخوتكم ...

« ما قيمة الحياة بلا حرية .. وما هو الضمان الذي تأمنونه من العلم العثماني ؟.. أيها العرب تقلدوا سلاحكم . ويا بني قحطان جردوا سيوفكم واطردوا من أرضكم المقدسة أولئك الذين يستغلونكم ويحتقرونكم .. ويبغضون جنسكم ولغتكم . وقد قال الله تعالى : الظالمون هم الكافرون .

«أيها العرب المسلمون. الظلم ليس من شيم الاسلام.. ويا أيها العرب المسيحيون والاسرائيليون اتحدوا واخوانكم المسلمين . ومن يقول لكم ان هؤلاء يؤثرون الترك عليكم فما هو إلا خداع لئيم عدو العرب .

« أيها العرب لقد أقسمت جماعة من الفدائيين على قتل من يقتل العرب .. وإنا لا نريد الاصلاح على أساس اللامركزية . ان الاصلاح الذي نبغيه يعني بعث مجدنا الغابر .. ومنهاجنا الذي نقتفيه يعني : « دولة عربية مستقلة في الكل وعن الكل . »

وهذا موجز لمنشور آخر :

« .. أجيلوا النظر في تاريخ حياتكم تجدوا ان ضغط الطغاة على أنفاسكم بعنفه الظالم الذي لا مثيل له في العالم لم يهادنكم ولا يوماً واحداً .

« أتمر بخاطركم ذكريات الاندلس ؟ وهل تذكرون كيف ان آخر ملوك العرب استنجد بسلطان الأتراك ليدفع الغزو عن بلاده وكيف ردّه هذا السلطان على أعقابه يتعثر بأذيال الخذل والفشل ؟

«ولما تمر بالمخيلة هذه الخواطر ويعلم ان زوال مملكة الإسلام في اسبـــانيا سببه استنكاف الترك المسلمين عن مد يد النصرة اليها . وان القضاء على السلطة الإسلامية كان قضاء على المدنية العربية . وان ثمرات عبقريتنا ومكاتبنا ومصنفاتنا العلميـــة والأدبية ألقاها الأتراك كلها في الدجلة والفرات . وان تونس والجزائر بتخليهم عنها صارتا إلى فرنسا رغم تضحية مئات الآلاف من العرب . قلنا لما يمر كل ذلك بالخاطر كيف لا تهتز النفوس اشمئزازاً وتثور الأفكار غضباً ؟ كيف يسعنا ان نصافح بعد اليوم تركياً من أبناء«تركيا الفتاة»الذين باعوا أملاك العرب بالمزاد العام قطعة بعد أخرى . ومن هو ذاك العربي الذي يعرف ان الأتراك هم سبب شقائه ولا يحتقر ذاته وبني جنسه ان لم يغمد سيفه في صدورهم،هم البرابرة هادمو كيانه؟..

«قذف طلعت وشريكه بالجنود العرب إلى العراق واليمن ليهدروا دماء إخوتهم كما تهدر دماؤهم بدورهم هم أيضاً .

« ثم يؤدي هؤلاء الطغاة من حصيلة الضرائب التي يستنزفونها من دمائنا نفقات البعثات المؤلفة من أتراك وأرمن ويهـــود التي يوجهونها إلى الجامعات الأوروبية لإكمال تحصيلها بينما أولادنا يهملون .. ومن فوائد العلم يحرمون .

«وهم أيضاً يحاولون جهدهم لنزع تقاليدنا القومية من حياتنا الخاصة واخماد أنفاس مدنيتنا .

« ما هي الصلة التي تربطكم بالأتراك . وما الذي أفدتموه من السلطنة العثمانية ؟ أتعتقدون بأنهم مؤمنون ؟ أفي إمكانكم أن تعتبروا مؤمنين أناساً يدمرون معابدكم ويبيعون بلادكم ، ويرهنون ولاية الحجاز العربية لكي تتوافر الاموال بين أيديهم فيهبون ما يهبون إلى الفتيات التركيات ؟

«ان الواجب يقضي بألا تؤدوا الضرائب وأن تبتاعوا السلاح إلى أن تنظف البلاد من المدمرين .

« وقد علمنا التاريخ بأن الاستقلال لا يمنح بل يؤخذ عنوة وجزيته الدماء .

وهذا موجز لمنشور ثالث أحدث تاريخاً من الأولين وجد معها ضمن اضبارة الدعوى التي أقيمت بعاليه (لبنان) لمحاكمة المتهمين من العرب بالتآمر على الدولة العثمانية :

« أيتها الأمة النبيلة : إقبلي تحية من يعيشون بين ظل القدر وبين ضياء النفس وقوة الرجاء .

« واعلمي أن السياسة الاجنبية قررت على ما يظهر غل الاتراك بسلاسل العبودية . فقد حرمتهم من استقلالهم القضائي وأصبح القانون العثماني لا يسري إلا على العثمانيين ، ومن استقلالهم الاقتصادي إذ لم يعد باستطاعتهم فرض الضرائب أو احداث موارد جديدة إلا بموافقة الاجانب ، ومن استقلالهم العسكري إذ لم يعد يسمح لهم بتنظيم جيوشهم أو تعزيز أسطولهم كما يشاءون . وأخضعت أراضيهم للنفوذ الاجنبي حتى أنهم لا يستطيعون ادخال أي تعديل عسكري على نظام عاصمتهم المسيطرة على المضيقين بدون موافقة الدول المجاورة .

«وقد فقدوا حرية الادارة الداخلية بحيث لا يمكنهم تعيين موظف غير مرغوب به من الجوار . كما فقدوا حرية السياسة الخارجية لأنهم مرغمون على اتباع سياسة الوزارات الاجنبية . وثمة أيضاً العبودية المالية التي تقضي بأن تكون حياتهم أو معاملتهم رهن مشيئة البلدان الاجنبية .

« فتركيا والحالة هذه أصبحت اسماً لغير مسمى إذ إن بقاءها يتوقف على ارادة الغير ومن يفكر بامكان بقائها بعد الانهيار لهو مجرد من الذكاء . أما من يريد إخضاع بلاده لأمة مستعبدة فهو خائن .

« كانت اليونان اقليماً من الأقاليم العثمانية وما أن خلعت النير عنها وتحررت حتى سارت في معارج التقدم وكانت أسرع في النجاح من الاتراك . وكذلك اقليم الجبل الاسود المحرر فانه خير قدوة للمستعبدين . ثم الصرب الذين لم يكادوا ينفصلون عن الاتراك حتى هاجموهم كالأسود والبلغار الذين ظفروا باستقلالهم وإنشاء دولة فتية قوية . وأما الرومان فبعد انفصالهم عن السلطنة العثمانية أصبحوا محور التوازن في

البلقان . وبالجملة فان جميع الأقاليم التي انفصلت عن جسم الدولة العثمانية أسرعت بانشاء حكومات نظامية على أساس صحيح وسليم. كما بقيت جميع الاقاليم الأخرى المندمجة في هذه الدولة رازحة تعاني الشقاء والانحطاط . وللعرب حظ كبير بالنجاح لأن مستواهم الثقافي يفوق مستوى الشعوب البلقانية وقت استقلالها . وليثق العرب بأنهم سوف يقضون على دسائس السياسيين ويعلنون الثورة ويقلبون الدولة رأساً على عقب ويرفعون علمهم الخفاق على جميع البلاد العربية .

« أيتها الأمة النبيلة .

«تنازلي بقبول تضحية الذين يعيشون بين ظلام الليل وبين بياض النفس وخضرة الرجاء » .

الفصل السادس

المؤتمر العربي في باريس

قبل خمسة عشر قرناً إلا قليلاً ، كان الملك الضليل امرؤ القيس في طريقه إلى استانبول من بلاد الاناضول فشاهد ضريحاً لغريب مثله ، فهاج في نفسه خاطر الشعر ، فتفجر من أعماقه بهذه الجملة : « وكل غريب للغريب نسيب ... » وهذا القول إذا ما أخذناه من حلبة الأدب والشعور الانساني العام ، لندخله في الأطر السياسية ينقلب إلى هذا المعنى : المظلوم أخو المظلوم ، وطالب الحرية شقيق طالب الحرية ، والتعسف العنصري لا بد من أن يقابل بالعمل للتحرر السياسي والتنظيم الاجتماعي من قبل جميع الذين يتعرضون لذلك التعسف ويعانون ذلك الظلم .

ولم يكن العرب وحدهم هم الذين ينشدون الحرية والنور والسعي لطرح نير الاستبداد الاتحادي ، وإنما كانت هناك كذلك القوميات المختلفة التي منها الأرمن الذين أشربوا الروح القومية وعرفوا بنضالهم للذود عن حقوق قوميتهم ، وكان لهم عام ١٩١٣ (١٣٣٢ ﻫ) مؤتمر عام عقدوه في سويسرة . وتدفع الظروف ثلاثة من أحرار العرب الذين يدرسون في باريس وهم جميل مردم ، وندره حداد ، ومحمد محمصاني ، إلى دخول قاعة المؤتمر ... ولم يشعر المؤتمرون بأن ضيوفهم عرب ، حتى

رحبوا بهم ترحيب الأخ بأخيه ... أليسوا سواسية بحمل نير الاستعمار التركي ؟..
وارتد الضيوف الثلاثة إلى مدينة النور ، تخالجهم فكرة واحدة هي : لمَ لا يكون للعرب مؤتمرهم كذلك ؟ ... واجتمعوا ببـــاقي اخوانهم فكانت خواطر الجميع وآراؤهم واحدة حول هذا الموضوع .

وكان من أهم أغراض هذا المؤتمر « تعريف الاجانب عامة والفرنسيين منهم بوجه خـــاص ، أن العرب قد عقدوا العزم على الدفاع عن بلادهم ضد أي هجوم خارجي ، فرنسيـــاً كان أو غير فرنسي ، وتذكير الدولة العثمانية بوجوب العمل السريـع في تطبيق الاصلاحات اللامركزية في البلاد العربية [1] »

وسرعان ما حُضر للمؤتمر وهيء له ، ووجه هذا النداء إلى سائر أصقاع العروبة حاملاً اليها آمال العروبة :

« نحن الجالية العربية في باريس ، قد أوقفتنا منـــاظرات الجرائد الاوربية ومغامز الساسة في الاندية العمومية ، على استقراء ما يجري من المخابرات الدولية بشأن البلاد العربية ، وأخصها زهرة الوطن سورية ، ولم يبق بين جمهور الناطقين بالضاد من لا يعلم أن ذلك نتيجة سوء الادارة المركزية .

« فحدا بنـــا الأمر إلى الاجتماع — وعددنا ينيف على الثلثمائة في هذه المدينة — فجرى البحث عن التدابير الواجب اتخاذها لوقـــاية الارض (المترعة بدم الآباء العظام ، ورفات الاجداد الأباة) من عادية الاجانب ، وإنقـــاذها من صبغة التسيطر والاستبداد ، واصلاح أمورنا الداخلية على ما يتطلبه أهل البلاد من قواعد اللامركزية ، حتى يشتد بها ساعدنا وتستقيم قناتنا ، فينقطع بذلك خطر الاحتلال والاضمحلال وتنفى مذلة الرق ، وتخفت نأمة الاستعباد ، ويظهر للاعين بجـــاة الشعوب اننا أمة عيوف الضيم ، لا تستنيم لذل ولا تستكين لمسكنة .

« وبعد المداولة تقرر عقـــد مؤتمر للعرب يقوم به سوريون ، فتفد اليه وفود أكابر من البلاد العربية وعقلاء أفاضل من السوريين المهاجرين لمصر واميركا الجنوبية

---

١ ـ القضية العربية للاعظمي ج ٤ ص ٩٥

واميركا الشمالية والبلاد الاوروبية فتتمثل فيه الامة العربية المنتشرة في أقطار الارض ، وتحق كلمة التضامن الاجتماعي والسياسي لهذه الأمة في هذا المؤتمر حيث نبسط للامم الاوروبية اننا أمة مستمسكة ذات وجود حي لا ينحل ، مقاوم عزيز لا ينال ، وخصائص قومية لا تنزع ، ومنزلة سياسية لا تقرع . ونصارح الدولة العثمانية بأن اللامركزية قاعدة حياتنا ، وأن حياتنا أقدس حق من حقوقنا ، وأن العرب شركاء في هذه المملكة . شركاء في الحرية ، شركاء في الادارة ، شركاء في السياسة ، وأما في داخلية بلادهم فهم شركاء أنفسهم .

« ومن ثم انتخبت الجالية لجنة ادارية (وهي الموقعة على هذا) لتقوم بالعمل ، فوضعت خطة المؤتمر وما سيجري فيه من المباحث على مشهد من أبناء الوطن المجيد وبعض من كبار الأوروبيين وممثلي الصحف الأوروبية والاميركية . وهذه هي المسائل التي ستكون أساس المذاكرات :

١ – الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال .

٢ – حقوق العرب في المملكة العثمانية .

٣ – ضرورة الاصلاح على قاعدة اللامركزية .

٤ – المهاجرة من سوريا وإلى سوريا .

« ومتى تمت المناقشات حمل المؤتمر قراراته إلى حيث يتحتم عليها التصديق ويحق التنفيذ .

« وبعد فإننا ندعو كل من يخفق قلبه لأمة العرب ، صغيراً أو كبيراً ، أن يلبي داعي الوطن ، ولا سيما أرباب الزعامات في مقاعد الجمعيات ، فعليهم نعتمد وإليهم نتجه، فاما أن ينضموا إلى وفود المؤتمر واما أن يبعثوا اليه بالرسائل البرقية أو الكتابية يظهرون فيها ارتياحهم لنبل الغاية ، واشتراكهم في شريف المقصد ، حتى يدلي المؤتمر لدى الأمم بحجته وتستوثق قوته بقوة أمته . وهنالك ينشق اليقين ، فيطل على هذه الأمة فجر الحياة من بين اتساق الغسق وركام الظلمات .

« وسلام على من تلقى هذا النور فما أغشاه . ومن عرف واجبه فأداه .

« لجنة المؤتمر العربي : عوني عبد الهادي ، ندره مطران ، عبد الغني العريسي ،

شكري غانم ، جميل معلوف ، محمد محمصاني ، شارل دباس ، جميل مردم بك[1] » .

المراسلات تكون باسم كاتب اللجنة ، وهذا عنوانه :

Abdel Gani Araïssi - 17 Rue Claude Bernard - Paris

ولم تلبث الوفود أن أخذت تترى على العاصمة الفرنسية ليس من ديار العروبة فقط ، وإنما من المهاجر الاميركية كذلك (المكسيك والولايات المتحدة) وكان أول الوافدين اليها الشيخ عبد الحميد الزهراوي الذي أجمعت عليه الاراء ليرئس هذا المؤتمر التاريخي العظيم ، ويتحدث باسمه ، وقد أدلى هذا الشيخ الجليل لمندوب جريدة « الطان » الفرنسية بتصريح خطير يعبر أصدق تعبير عن أهداف المؤتمرين ، والمقصد الذي يهدف اليه العرب جميعاً ، ويسعون لتحقيقه ، والموقف الصحيح من الدولة العثمانية فقال :

« إن ما حدث في ولايات الدولة العثمانية باوروبا من الحوادث الخطيرة ، دعانا إلى التفكير وإمعان النظر في الحالة الجديدة التي دخلنا فيها ، واتخاذ الوسائل الضرورية لاتقاء نتائجها ...

« إن العرب يؤلفون عنصراً مهماً بعدده ، هذا إذا لم نقل عنه أنه أهم العناصر العثمانية كلها ، ولهذا العنصر العربي ميزة بين العناصر الأخرى ، بوحدة لغته وعاداته ومصالحه وميوله ... وان هذه الخصائص والصفات قد أحدثت له حقوقاً كانت مهملة حتى الساعة ... ولذلك قمنا نطلب بصفتنا عثمانيين : أن نشترك في الادارة العامة ، وأن نعرض على حكومتنا بصفتنا عرباً مطالب خاصة بقوميتنا وحالاتنا ...

« ويهمني أن أصرح قبل كل شيء ، بأن هذا المؤتمر ليس له صفة دينية ، ولذلك ترى عدد أعضائه المسلمين والمسيحيين متساوياً ، وعلى كل فان فكرة الاتحاد بين المسلمين والمسيحيين قد ولدت . وأيدتها حوادث بيروت ... وهي التي ولدت فكرة هذا المؤتمر

---

١ ـ المؤتمر العربي الاول ، ص ٩

وأجاب السيد الزهراوي على سؤال لكاتب « الطان » فقال :

« كان يحق للحكومة العثمانية ان يتكدر خاطرها من عقد هذا المؤتمر ، لو اننا طلبنا الانفصال عنها مثلاً . أما نحن فنريد عكس ذلك .. ومطالبنا منها مطالب حقة تؤول إلى تحسين حال الدولة والعنصر العربي معاً ، ونحن لا نرى حقنا قاصراً على عرض هذه المطالب فقط ، بل نعتقد ان الواجب يقضي علينا تنفيذ هذا الأمر بالفعل ، وتلك هي الطريقة الوحيـــدة التي تمكننا من ان نحفظ صرح الدولة من السقوط . »

وأجاب السيد الزهراوي على سؤال آخر من الصحفي :

« ان الرابطة الدينية قد عجزت دائماً عن إيجاد الوحدة السياسية . وأنا لا أرجع إلى التاريخ لأبرهن على هذا ، بل حسبي ما لدينا من الشواهد الحاضرة :

« انظر إلى الحكومتين العثمانية والفارسية كيف لم تقو رابطتها الدينية على إزالة اختلاف بسيط من بينها ، وهو الاختلاف المتعلق بالحدود .

« ثم ان الرابطة الدينية لا توجد إلا حيث توجد حكومة إسلامية . والعاطفة الإسلامية لم تقدر مرة من المرات ان تحمل أميراً مسلماً على التنازل عن حقوقه لأمير آخر من المتدينين بدينه ، حتى لو كان هذا خليفة .

« فنحن العرب لا نتمسك بالوحدة السياسية لأجل الرابطة الدينية ، بـل رغبة منا في إيجاد مجموع عثماني قوي ، يرتقي فيه مجموعنا العربي بدون حـــائل يقف في طريقه وأملاً بقيام حكومة رشيدة تكون لنا مشاركة في أمورها ، والدولة العثمانية هي التي تقدر ان تحقق رغباتنا ، فيما إذا عملت بلوازم الاصلاح الذي نصر عليه ، أما إذا ظلت بعيدة عن ذلك ، فاني أصرح هنا كما صرحت في القاهرة : بأن خطتنا معها تتغير تمام التغيير [١] ...

وكانت الوفود التي اشتركت في المؤتمر مؤلفة على الشكل التالي [٢] :

---

١ ـ المؤتمر العربي الاول ص ١٧ ـ ٢٢ ، ثورة العرب ص ٧٠ ـ ٧٢

٢ ـ مؤتمر الشهداء ص ٧٧ ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٦

عبد الحميد الزهراوي واسكندر عمون ، عن اللجنة العليا لحزب اللامركزية في مصر .

سليم علي سلام وأحمد مختار بيهم وخليل زينية والشيخ أحمد حسن طباره والدكتور أيوب ثابت ، عن الجمعية الاصلاحية العمومية في بيروت .

توفيق السويدي وسليمان عنبر عن العراق .

محمد حيدر وابرهيم حيدر ، عن بعلبك .

نجيب دياب ونعوم مكرزل والياس مقصود عن المهاجرين العرب في الولايات المتحدة الأميركية .

عباس البجاني ، عن المهاجرين في المكسيك .

شكري غانم ،وعبد الغني العريسي،وندره المطران، وعوني عبد الهادي،وشارل دباس، وخير الله خير الله ، وجميل مردم بك ، ومحمد المحمصاني ، عن الجالية العربية في باريس .

عبد الكريم الخليل ، عن الجالية العربية في الاستانة .

وجاء في كتاب « مؤتمر الشهداء » ان أصحاب هذه الأسماء ، كان لهم وحدهم حق الاقتراع والانتخاب لأنهم يمثلون أحزاباً وجمعيات وجوالي معينة يحملون منها التفويض ليتكلموا باسمها ، وقد اشترك في المؤتمر كثيرون من التجار والطلبة الذين كانوا في فرنسة ، وتكلم بعضهم ، ولكنهم كانوا « مشاهدين» لا يحق لهم الاقتراع. وما ان بدأ التعارف الشخصي والاحتكاك الفكري بين الجماعة ، حتى لوحظ تياران رئيسيان ، كلاهما عربي مخلص ، ولكن مفهوم القومية بينهما مختلف ، والأهداف القومية بينهما غير متقاربة بالنسبة إلى ظروف ذلك الزمان : التيار الأول يقوده أعضاء اللجنة الباريسية التي هيأت المؤتمر وحضّرته فكانوا أصحاب نعرة قومية قوية بارزة ، ومن الحق والانصاف ان نخص من هؤلاء الثانية بالذكر ثلاثة من ألمع الأدمغة العربية هم عبد الغني العريسي ، ومحمد المحمصاني ، وندره مطران ، أما التيار الثاني فقاده وفد الجمعية الاصلاحية العمومية في بيروت . وكان عبد الحميد الزهراوي واسكندر عمون مندوبا حزب اللامركزية في مصر ، صلة الوصل بين

التيارين ، ولكنها أقرب إلى الثاني . وقد يقول قائل : ان التيار الأول كان روح الشباب المتحمس والتيار الثاني روح التعقل والأخذ بالحسنى . وفي هذا القول بعض الحقيقة . ولكن الفارق الرئيسي بينهما هو ان جماعة باريس ، ولا سيما الطلاب منهم ، كانوا مشبعين بالفكرة القومية من الناحية الثقافية ، مشبعين بمبادىء حقوق الانسان والمواطن ، يعيشون في محيط طليق حر ، تقدست فيه حريات الفكر والقول والمعتقد إلى المدى الأقصى . بينما وفد الاصلاحيين البيروتيين — وقد جرؤ وحده على السفر من المملكة العثمانية ، وانها لمغامرة فذة في ذلك العهد — كان يعيش في ظل القوانين العثمانية وإدارة الوالي .. فكان من المعقول ان يجاري وفد بيروت جماعة باريس في شعورها القومي القوي ، ولكنه لا يماشيها في تهديداتها الانفصالية عن السلطة[1] .

وقد عقد المؤتمر أولى جلساته في ١٨ حزيران (يونيه) سنة ١٩١٣ (١٣٣٢ هـ) في قاعة الجمعية الجغرافية بشارع سان جرمان ، وتلقى خلال انعقاده عدداً كبيراً من برقيات التهنئة والتأييد من مختلف المدن العربية ولا سيما من المدن السورية . وكان روحه المتأججة وشعلته المتوقدة ، عبد الغني العريسي الذي ألقى خطاباً سياسياً قانونياً حول حقوق العرب في المملكة العثمانية وقد وافق رئيس المؤتمر على كل ما جاء فيه ، وناقشه المؤتمرون وكلهم نَفَس ثوري وعاطفة ملتهبة ، لكن دون ان يفقد هذا الحماس ، الروح العلمية الواقعية التي اتسمت بها المناقشة . ونظراً لأهمية هذا الخطاب ، وقيمته التاريخية ننقل ما جاء فيه :

« الحق في كل تكوين سياسي قائم على نوعين: حق فرد وحق جماعة. والجماعات كثيرة ، وأجلها مكانة جماعة الشعوب ، فللشعوب حق غير حق الأفراد ....»

« ان الجماعات في نظر علماء السياسة لا تستحق هذا الحق إلا إذا جمعت ، على رأي علماء الألمان ، وحدة اللغة ووحدة العنصر ، وعلى رأي علماء الطليان: وحدة التاريخ ووحدة العادات ، وعلى مذهب ساسة الفرنسيس : وحدة المطمح السياسي.

---

١ — المرجع السابق ص ٧٨ — ٧٩

« فإذا نظرنا إلى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا ان العرب تجمعهم وحدة لغة ، ووحدة عنصر ، ووحدة تاريخ ، ووحدة عادات ، ووحدة مطمح سياسي ، فحق العرب بعد هذا البيان ان يكون لهم على رأي علماء السياسة جميعاً دون استثناء : حق جماعة ، حق شعب ، حق أمة ...

« تتساءلون عن ماهية هذا الحق لجماعة الأمة العربية ، فبياناً لهذا الحق أقول :

« أول حق لجماعة الشعوب : حق الجنسية [1] .

« فنحن العرب قبل كل صبغة سياسية : حافظنا على خصائصنا وميزاتنا وذاتنا منذ قرون عديدة رغماً مما كان ينتابنا من حكومة الاستانة من أنواع الادارات ، كالامتصاص السياسي أو التسخير الاستعماري ، أو الذوبان العنصري ، فكل ما تذرعت به الاستانة من الوسائل لم يؤد إلى غير نتيجة واحدة هي الحرص على مكانة حق الجماعة ، وإحياء هذا الحس الشريف النبيل ، حس الجنسية ، فاقتفاء للماضي نقرر : مناهضة كل ما يؤول إلى إضعاف القومية ، والتذرع بكل ما فيه حياة لخصائص العرب وميزات العرب .

« فنحن كتلة حية قائمة بذاتها وخاصتها ، لا تدع أية قوة تمس بناء هذا الركن الركين .

« تعودت الحكومة التركية ان تعامل الجنسيات العثمانية معاملة الغالب للمغلوب على قاعدة (حق الفتح) فنحن نصرح على رؤوس الأشهاد بأنه إذا كان في استطاعة الحكومة ان تدعي (حق الفتح) في بلاد البلقان مثلاً ، فلا تستطيع ان تدعيه لاحقاً ولا حقيقة ، في البلاد العربية . لأنها قد تثبت قدمها في بلادنا بمساعدة من سلفنا ، كما يعرف ذلك كل متعمق في التاريخ ، ولهذا ننكر كل الانكار (حق الفتح) . فإنما نحن قاعدة هذه الدولة من قبل ومن بعد ، لا أسرى مسخرون .

« آلينا على أنفسنا ان نحافظ في هذه المملكة على مكانتنا ، على جنسيتنا ، على

---

1 ـ بريد القومية

مساواتنا ، فلا أرض بعد اليوم تستعمر ، ولا أمة تسخر ، فإنما نحن الرعاة لا الرعية ..

« اعتادت الحكومة ان لا تستنفد قوانا إلا لمعالجة ضعفها ، ولا تستجبي أموالنا إلا لسد عوزها ، وبعبارة جامعة : انها لا تستجمع رؤوسنا إلا لتعلونا بها . فنصرح اليوم بملء الأفواه : اننا خلقنا قبل كل شيء لأنفسنا ، وما دمنا بحاجة لأنفسنا فلا يجب ان نضحيها إلا لأنفسنا . فان طريقة « استعمار الاستئثار » خليقة بالقرن التاسع عشر، ولكن القرن العشرين يتطلب وجود هيئة بشرية شريفة أكثر بصيرة واعترافاً بحقوق الأمة ...

« إذا ثبت للعرب حق الجنسية ، وحق الوجود السياسي ، فللعرب حقوق رئيسية تتعلق بقوى الدولة الثلاث :

١ ـ بالسلطنة، ٢ ـ بالقوة التشريعية، ٣ ـ بالقوة الاجرائية ..

« ١ ـ أما ما يتعلق بالسلطنة ، فاننا نصرح أمام العالم الأوروبي بأننا لا نفكر فيه ما دام الدستور جارياً على معنى الدستور ، ولا تتطرق الينا فكرة الانفصال عن هذه السلطنة ما دامت حقوقنا فيها مرعية محفوظة . فارتباطنا بالدولة يتراوح إذن بين ضمان هذه الحقوق ، فان كثر ، فكثر . وان قل ، فقل ..

« ٢ ـ القوة التشريعية : ان هذه القوة تتألف في المملكة من مجلس الأعيان ومجلس النواب ..

« فمجلس الأعيان أعظم المظاهر غمطاً لحقوقنا . امعنوا النظر أيها السادة، تجدوا اننا ، معشر العرب العثمانيين ، نبلغ ثلاثة عشر مليوناً ، أي أكثر من نصف أهل المملكة وليس لنا سوى خمسة أعضاء في ذلك المجلس . فنحن نطلب تمثيلنا فيه على استحقاق ، حفظاً لكرامتنا ومنزلتنا السياسية ، ولأمر آخر أشد ارتباطاً بحقوق الجماعات ، وذلك ان حق الجماعات قائم على قاعدة « لا قانون قبل تمثيل » فما دام هذا المجلس قسماً من القوة التشريعية ، وما دام عددنا لا يمثلنا فيه ، فاننا نعذر في نظر علماء الحقوق فيما إذا اعتقدنا ان كل قانون لا يوضع بمشاركة أبناء العرب يكون غير مستوفي الشروط من حيث الحق والعدل . ولهذا نحتج أشد الاحتجاج على هذا

الغمط ، ونأبى ان يكون حظنا في تدبير أنفسنا موكولاً إلى رأي غيرنا .

«مجلس النواب: يتساءل الناس عن قلة نواب العرب في هذا المجلس مع ان أعددنا يفوق عدد غيرنا في المملكة . فإذا عرفنا ان انتخاب النواب أصبح بين أيدي من احتكروا السلطة واستلموا الادارة زال العجب، وصح ان نقول عن هذه الطريقة: انها طريقة « تعيين النواب» لا انتخاب النواب ، وما دام أقدس حق للأمة مغموطاً وهو حق التمثيل ، فاننا نعذر فيما إذا صممنا ان نتذرع بالوسائل التي تصون حقوقنا في هذا المجلس ، سواء في زيادة نوابنا أو حرمة تمثيلنا. وإذا كنا قد صبرنا فيما مضى، فان جرح السياسة الداخلية لم يبق مساعداً على هذا الصبر .

« عار أيها القوم ان تحيا أمة على عاتق آخرين ، وعار ، أكثر شؤماً، ان ترضى الأمة بزوال مكانتها لترميم كيان غيرها . والحق كل الحق ان تدوم الموازنة بين الجماعات كلها ، فلا يأكل الكبير الصغير ، ولا يتنقص الصغير الكبير . لهذا المبدأ نطلب ان تكون الانتخابات حرة ، بعيدة عن كل مداخلة ، وان يشرع بإحصاء للنفوس جدي جديد ، فقد علمتنا الحكومة حتى اليوم انها تتقاعس عن هذا الاحصاء لئلا يزداد عدد النواب العرب في مجلس الأمة ..»

« صرح بعض رجال الحكومة التركية منذ عهد ليس ببعيد : ان العراق ينبغي ان يكون له نظام خاص، لا يحق له من بعده ان يوفد عنه نواباً لمجلس الأمة، بحجة انه لم ينل من المدنية حظاً يؤهله للنيابة كبقية الولايات .

« تلك أيها السادة طريقة جديدة لتقليل نوابنا ، معشر العرب العثمانيين . ما صدقوا والله بأن العراق منحط بمدنيته عن باقي الولايات ، فهذا العراق ، منذ عرف ، لم تجر فيه المذابح الأهلية الدينية .. ان عربي العراق مهما كان قريباً من الفطرة الأولى فهو أشد نشاطاً ، وأحسن استعداداً ، وأوفر ذكاء ، مما غيره يتصورون .. فلتتدبر الحكومة قليلاً فانها إذا أقدمت على هذه الفعلة ، فالعرب ، لا يعدمون وسيلة لصيانة حقهم المشروع ...

« ٣ ــ القوة الاجرائية : ان حق الجماعات يتطلب من الأمة ان تؤلف الحكومة ، وان لا تتألف الحكومة إلا من الأمة ..

« أما تأليف الوزارات في مملكتنا فقائم على غير هذا الحق . وقد جرت عادتهم كلما تألفت وزارة ان لا يبخلوا علينا بمركز واحد ، أو انهم يبخلون بتاتاً ، وعليه فاننا نعتبر بعد اليوم ان وزارة تؤلف علىهذه الصورة غير مستوفية الأركان، في نظر حق الجماعات أو حق الشعوب ، لأنها لا تمثل إلا قسماً من الأمة . فالوزارة في علم الحقوق العامة لا تكون وطنية إلا إذا مثلت أبناء الوطن جميعاً،ولا تكون شرعية إلا إذا جمعت فيها ارادة المجتمع كله ، فتخصيص الوزارات بفريق دون غيره عمل لا نرضاه بوجه من الوجوه ، بصفتنا قسماً أكبر في هذه الدولة . ان حق الجماعات يخول للعنصر الذي لا يمثله ممثلون في القوة الاجرائية ان يبقى في ريب من انه ركن من أركان المملكة ..

« سمعنا كثيراً من رجال الحكومة ان أمر الوزارات أمر أهلية وكفاءة .. ألا فليقلعوا عن هذه النغمة لأن الذين استلموا منا الأمور حتى الآن قد ظهرت مقدرتهم في السنين الأخيرة واننا لا نظن أحداً يجسر على القول بأن في فطرة العرب ما ينافي الكفاءة .

« نحن نطلب قسطنا المشروع من كل وزارة ، حتى لا تكون غريبة عنا ولا نكون غرباء عنها . نطلب ذلك بما لنا من حق الاشتراك في تسيير أمور الدولة كما هي الحال في كل قانون أساسي ، ونطلبه أيضاً عملاً بمبدأ حفظ الحياة الوطنية ، والكيان الجنسي ، فقد رأينا كثيراً من المعاهدات الدولية فرضت على رجال دولتنا وفيها ما فيها من الغبن للبلاد العربية . وكما رأينا ذلك في الماضي نراه في الحاضر . ولهذا لا يسع العرب بعد اليوم إلا ان يروا بأم أعينهم وان يديروا مع رجال الاستانة مصير بلادهم ، فان حفظ الذات واستقلال البلاد وشرف العنصر ، يدفعنا إلى ان نطالب بهذا الحق بكل ما لدينا من قوة . فالبلاد العربية لا تكون بعد اليوم مسداً للمطامع الأجنبية عن بلاد أخرى !..

« ان من قواعد الحكومات الحديثة ان تكون بين الأمة والوزارة وحدة مطلقة ، فلا تنتهي دائرة الوزارة إلا في دائرة الأمة ، كما ان دائرة الأمة ينبغي ان تحيط بأطراف دائرة الوزارة ، وأي يوم تنهار فيه هذه القاعدة ، فالوزارة يومئذ

غير شرعية . ولعل رجال الاستانة يقولون : اننا سنسمح لكم بمركز أو بمركزين في الوزارة ، أما نحن فرواد حق ويقين ولنا حق الاشتراك في الحكم بكل معانيه، ويتم هذا بأن يكون لنا من المراكز الوزارية على نسبة مكانتنا في الدولة .

« هذا ما لنا من الحق في القوة الاجرائية على وجه الاجمال . أما فروعها فحقنا قد غمطته حكومة الاستانة فيما يتعلق بكل النظارات ، لا سيما ادارة الداخليـة ، فانكم لا تجدون سوى وال عربي واحد في نحو من ثلاثين ولاية .. وهكذا يمكننا ان نقول عن بقية ما يتعلق بالوزارات الأخرى . ان حقنا مغموط ما دام نصف الوظائف في الاستانة وكل الوظائف في بلادنا ليس بأيدينا ..

« ولنا الحق الصريح فيما يتعلق بالنافعة،ففيها أمر حيوي لا نستطيع السكوت عليه،فكل قرض يقترض من الدول الأجنبية للأمور النافعة،فيه لنا حظ مشروع ، لأن هذه القروض تعقد باسم المملكة ، وما دمنا نؤلف نصف المملكة فلنا حق بأن نصرف نصف القروض للمشروعات العامة في بلادنا العربية ..

« وحق آخر هو حق اللغة ، فاننا أكثر تمسكاً بمطالبنا المتعلقة بها ، ويمكننا إجمالها بأن تكون لغتنا رسمية في البلاد العربية بمادة قانونية ، تذكر في القانون الأساسي ، لا في قانون حكومة موقت يمكن إلغاؤه من حين إلى آخر بتقلب الوزارات المستعجلة ...

« هذا ما لنا من حق جماعة الأمة العربية . فان كنا لم نستطع قبل اليوم ان نحيا فقد استطعنا كل الاستطاعة ان لا نموت . أما بعد اليوم ، فاننا عقدنا النية على ان نحيا على مبدأ : كل أمة لها حظ من الحياة تستحقه . فحظنا الأول نتيجة ما كنا في الماضي،أما حظنا في الحاضر والمستقبل فسيكون حظ أمة تطلب حياة الرجولة، حياة الأمم الحية ، حياة الشعوب الراقية ..

« وقصارى القول : اننا نعتـــبر حكومات الاستانة غير مستوفية الشروط والأركان ، من وجهة العدل ، ما دام حقنا غـــير محفوظ . فالحكومات في نظر « إعلان حقوق الانسان » لا تكون مشروعة إلا إذا احترمت حق الأفراد ، فمن باب اولى حق الجماعات وحق الشعوب ...

« نطلب هذا كشركاء في الدولة ، شركاء في القوة الاجرائية ، شركاء في القوة التشريعية ، شركاء في الادارة العامة . اما في داخلية بلادنا فنحن شركاء أنفسنا: في أموال المعارف ، أموال النافعة ، أموال الأوقاف ، حرية الاجتماع ، حرية الصحافة ، وذلك لا يكون إلا بتوسيع صلاحية المجالس العمومية ..

«اما طريقة الوصول إلى هذه الحقوق فسنتخذ لها الوسائل الشرعية كلها ، وأي يوم تسعى حكومة الاستانة لإخفات أصواتنا بالقوة والقهر ، فاننا نتخذ طريقة تفشل معها أثرة رجال الحكومة . فليفكروا قليلاً : فان النبي محمد عليه الصلاة والسلام لم يخضع العرب بضغط ولا قوة ، وإنما استطاع استمالتهم بمعقول القرآن ، وتحقيق مبدأ العدل والمساواة والإخاء ..

« على هذا السبيل قد ربطنا قلوبنا ، وتعهدنا بالتبعة الشخصية ، والتضامن الاجتماعي ، ان نتخذ كل الوسائل تحقيقاً لهذه الحياة الشريفة ... فالغاية في السياسة تشفع للوسيلة، ولا سيما فيما إذا كانت غايات شرف ونبل،غايات حق وعدل...[1] »

ثم تتالى الخطباء فعبروا عما يجيش في أعماقهم من الأماني القومية – بصرف النظر عن المذهب والدين– والانضواء تحت راية العروبة فقط ، وتقديم شأن القومية على الرابطة الدينية،مستشهدين بمواقف تاريخية عديدة وأهمها موقف العرب النصارى من جيوش الفتح الاسلامي التي قادها أبو عبيدة الجراح وخالد بن الوليد ، وتنكبهم للامبراطورية الرومانية ، برغم ما يربطهم بها من مذهب ودين ، ذلك لأنهم رأوا بوشيجة القومية رباطاً أشد وأحكم من كل وشيجة أخرى، فكان مما قاله ندره حبيب مطران :

« ان العرب منذ الفتح الاسلامي ، لم يخنعوا لسلطة فاتح أذلهم وعاملهم معاملة الأغيار ، بل انهم عاشوا في بلادهم مستقلين بلسانهم وأحوالهم الوطنية ، معتقدين انهم مشتركون في الحكم بفضل جامعة الدين ..

« ان الاستبداد الذي عهدناه نحن لم يكن الا منذ خمسين سنة بعدما ذكرناه

١ – المؤتمر العربي الاول ص ٤٢ – ٤٥ ، مؤتمر الشهداء ص ٨١ – ٨٩

من المذابح السورية . فالذين يقولون بانعدام قابلية العرب السياسية وفقدانهم حب الاستقلال وعزة الحرية مخطئون في باطن الامر وفي الحقيقة ..

« بعد هذا لننظر في التضامن الاجتماعي، هل وجد ولم يزل موجوداً، بين مسلمي العرب ومسيحييهم ، اذا كانت النعرة الجنسية فضيلة اصلية في النفس فلست ادري لأمة اشد تأثراً بعواملها من الأمة العربية ..

« لما قدم ابو عبيده بن الجراح وخالد بن الوليد بجيوش العرب المسلمين الى الشام وجدا الغسانيين وهم عرب نصارى ، يحرسون أبوابها ، يتقدمهم ملكهم المسيحي جبلة بن الايهم ، الا ان هؤلاء بدلاً من قتال المسلمين ، والوقوف في وجوههم ، عطفوا عطفة الأخ فتركوا الجامعة الدينية والرابطة السياسية اللتين كانتا تقضيان عليهم بها موالاة الروم ، وخطبوا ولاء الناطقين بلسانهم من بني ابيهم العرب ، فمهدوا لهم السبل ، وفتحوا الطرق ومكنوهم كل التمكين من فتح البلاد ..

« ولعمري ان ما أبداه نصارى غسان من العصبية العربية في هذا الشأن الخطير ، لاعظم شاهد على ان العرب متحمسون بالجنس قبل الدين ، وهي فضيلة الشعوب الحية التي لا تريد ان تموت [1] .. »

وخطب اسكندر عمون في « الاصلاح على قاعدة اللامركزية » فقال: « كانت بلادنا ، ولا اريد بها الا البقية الباقية من الممالك العثمانية، مأهولة منذ القدم بعشرات الملايين من الناس، بل كان كل جزء منها حيناً من الدهر مقراً لدولة دانت لها الشعوب والامم ، فهي مهد الحضارة ومنبع العلوم ومهبط الوحي ، فما الذي اصابها حتى تحولت رياضها الى قفار ، وحل بها الفقر بعد الغنى ، وتبدل فيها العلم بالجهل ، وتولاها الضعف والذل بعد المنعة والعز ، وهجرها اهلوها رغبة في البلدان النائية .

وركز اسكندر عمون على مطلب العرب الاساسي آنذاك : اللامركزية وفوائدها، مبيناً ان العرب ما طلبوا ولن يطلبوا الانفصال عن جسم الدولة العثمانية، وانما هم ناشدو اصلاح حقيقي ، وهم مستعدون للتضحية والفداء في سبيل تحقيق

---

١ — انظر النص الكامل لخطاب ندره حبيب المطران في مؤتمر الشهداء ص ٩١—٩٩

هذا المطلب العادل :

« ان حاجتنا نحن معشر العثمانيين الى اللامركزية اشد من حاجة كل أمة أخرى اليها . ذلك لان امتنا مكونة من عناصر متباينة في اصولها ، ولغاتها ، وتاريخها واخلاقها ، وحاجاتها ، وعاداتها ، وكل فريق منها ادرى بحاجاته الخاصة من سواه ، فلا يمكن ان تحسن ادارتها يد واحدة، ولا يمكن ان ينطبق على حاجتها قانون واحد ..

« وهنالك أمر خطير لو لم يكن في الحكم المركزي عيب سواه لكفى وحده للقضاء عليه ، ذلك ان المركزية لا يمكن ان تتفق مع الحكم الدستوري ، في بلاد كان فيها ذلك التباين الذي ذكرناه ..

« وهذا التنافر هو السبب الحقيقي في خيبة الآمال التي كانت معلقة باعلان الدستور ، وهو السبب في حل مجلس المبعوثان واهماله حتى الآن ، وفي قيام المجالس العسكرية بجانبه ، او على آثاره ، وفي كم الافواه، والحجر على الاقلام ، ومعارضة كل اجتماع ومناهضة كل دعوة الى الاصلاح ، حتى رأينا اننا لم نكن أبعد قط عن الدستور منا عنه بعد اعلانه !..

« توهم بعض انصار النظام المركزي من اخواننا الاتراك ان الغرض من النهضة العربية الانفصال عن الدولة ، وهو أمر بعيد عن الصحة، فان الأمة العربية لا تريد الا استبدال شكل الحكم الفاسد الذي كاد يودي بالدولة ، بالحكم الذي يرجى منه وحده الصلاح والنجاح ، لنا ولهم ، وهو الحكم على قاعدة اللامركزية . ولو كانت الهيأة الحاكمة اليوم من صميم قريش لكان موقفنا معها نفس موقفنا هذا ..

« اما اذا أبت الأمة التركية الا الهلاك ، فالعرب معذورون فيما اذا هم تمردوا قبل ان يلقوا بنفسهم معها في الهوة ! ...

« اننا نريد حكومة عثمانية ، لا تركية ولا عربية ، حكومة يتساوى فيها جميع العثمانيين في الحقوق والواجبات ، فلا يستأثر فريق بحق من الحقوق ، ولا يحرم فريق من حق من الحقوق ، لا بداعي الجنس ولا بداعي الدين ، عربياً كان أو تركياً ، ارمنياً أو كردياً ، مسلماً أو مسيحياً أو درزياً ...

« هذه هي فوائد اللامركزية التي نطلبها ، فاذا نفذ الاصلاح بمقتضاهـا ، أمنا غوائل الحدثان واسترجعنا باذن الله مركزنا القديم بين الأمم الكبرى .

« هذه هي قاعدتنا السياسية الجامعة ، وان كان لا بد لهـذه القاعدة ايضاً من شهداء ، فكلنا لها مستعدون [1] .. »

والقى الشيخ احمد طبارة خطاباً حول الهجرة من سورية واليهـا ، والبواعث اليها ، والعوامل التي حملت الكثيرين من المواطنين من النزوح الى ديار الهجرة نتيجة لما اصابهم من الظـلم والعسف ، والتقهقر الاجتماعي ، والفقر المادي ، معتمداً على جداول احصائية ، مبيناً كيف كانت الديار السورية موطن السكنى لعشرين مليون نسمة ، ثم تقهقر هذا الرقم ، الى ثلاثة ملايين ، مما يتنافى كل التنافي مـع سنة العمران ، حتى خلص الى القول :

« فيا عجباً هل تبدلت الارض غير الارض، وهل طرأ على سماء سورية التي كانت تضم عشرين مليوناً شيء ، شيء خارق للعادة ، حتى باتت تضيق عن ٣ ملايين ، أم ان السوري المتفاني في محبة بلاده قد انقلب حبه لها قلى وبغضاً حتى هجرها ؟ ..

« كلا ، ثم كلا ، ان الارض لم تتغير ، ولم تتبدل، ولم تزد، ولم تنقص، ولكن العدل يفسحها ، والحيف يضيقها ، كما ان السوري ما زال ، ولن يزال ، يحن الى وطنه ويفديه بكل عزيز وغال ... »

ثم ركز حديثه على النقطة التي اثارها الاستاذ اسكندر عمون بان الغرض الوحيد الذي يرمي اليه المؤتمرون هو الاصلاح ، والاصلاح وحده ، فقال : نحن اذا طلبنا الاصلاح فإنما نطلب هذه الحياة السياسية الشريفة ، نطلب الاصلاح لنكون العنصر الاقوى كما اننا العدد الاوفى في جسم دولتنا العثمانية .. ولا نرضى عن دولتنا العثمانية بديلًا ، ولا برهان على ذلك اقطع من طلبنا للاصلاح الذي به حياتنا وحياتها معاً . ولو كنا نبغي الانفصال عنها كما يرجف المرجفون لتركنا الحال تجري على ما ترى من سيىء الى أسوأ وهي بطبيعتها سائرة في طريق الاضمحلال ، فليقل عنا القائلون

١ – مؤتمر الشهداء ص ١٠٦–١٠٩

ما شاءوا ان يقولوا فان التاريخ لا يظلم أحداً وهو يسجل لكل انسان عمله : ان خيراً فخيراً وان شراً فشراً...

« وأي الفريقين أكثر حباً واصدق وطنية ؟ هل من يطلب صلاحك واصلاحك لتحيا ، أم من يخفي عنك داءك لتموت ؟[1] ..»

وكان للعراق كذلك صوته في المؤتمر،وكان صوت العراق فيه وحامل تحيته اليه السيد توفيق السويدي الذي أيد باسم هذا القطر الشقيق المؤتمر وما سيتمخض عنه من قرارات قائلًا :

« اني اؤكد لكم أيها الاخوان ، ان أخوانكم العراقيين ليسوا أقـــل شعوراً بضرورة الاصلاح ، ولا أقل استعداداً للنهضة من اخوانهم السوريين في الدفاع عن حقوق العرب المشروعة، وان الغاية واحدة والكلمة واحدة، لاجل انقاذ الوطن وطلب الحياة السعيدة لهذه الأمة الكريمة . فالعراقيون يفتخرون بضم صوتهـــم وقواهم الى أصوات وقوى اخوانهـــم في كل البلاد العربية في طلب الاصـــلاح اللامركزي لكم[2] ..»

اما السيد نجيب دياب الذي مثل المهاجرين العرب الى الديار الاميركية ، فقد تكلم موضحاً ان المهاجرين يتحرقون شوقاً الى العودة لديار الوطن ، ولكنهـــم يودون ان يعودوا الى بلاد تنعم بالحرية والرفاهية، لا بلاد ترسف بقيود الاستعباد، وتعاني الضائقة المخنقة ..

وقال : « ان امانينا ان نعود الى سورية فنرى أمة حية، ونشاهد فيهـا الرقي الحقيقي ، حتى اذا تطلعنا الى هنا وهناك نرى المسلم يخلص النية للمسيحي ،والمسيحي يحافظ على ولاء المسلم ، نرى الوطنية وقد نشر لواؤها وارتفعت رايتهـــا ، نرى الصحافة الراقية تحارب الجهل باقلام حرة ، وتقتل جراثيم التعصب الذميم ، وترشد القوم الى سواء السبيل، نرى الهناء بكل معانيه ، والمساواة بين الغني والفقير ، نرى

---

١ – المرجع السابق ص ١٠٣–١٠٦

٢ – المرجع السابق ص ١٠٢

حكومة عادلة من الشعب وللشعب، وشعباً يعمل للوطن ولا يهتم بالنكايات والافساد والوشايات والتقرب من الولاة فيحرق لهم البخور ويحني لهم الهام .. »

ومن أهم ما جاء في المناقشات ان مختار بيهم لفت انظار الاعضاء الى ان رجال الاستانة يظنون ان النهضة العربية يمكن اعتراضها بتوظيف بضعة أشخاص من العرب: « لذلك ينبغي لنا، مع ما نحن فيه من المطالبة بحقوقنا ، ان نسلك الطريق الذي افتتحه قبلنا الفاضلان سليم أفندي علي سلام وشكري بك العسلي، وهو طريق رفض كل وظيفة تعرض على رجالنا قبل تنفيذ الاصلاح المطلوب » وقد أيده شارل دباس في ذلك واقترح على أعضاء المؤتمر ان يرتبطوا بعهد شرف على الا يقبلوا أية وظيفة الا بعد ان يجاب المؤتمر رسمياً الى مطالبه .

وعلق محبوب الشرتوني على مطلب جعل اللغة العربية رسمية في الولايات العربية فطلب ان تعلن « اللغة العربية رسمية في كل البلاد ، ولا سيا وهي لغة القرآن الكريم ، ولسان العنصر العربي الذي هو الأكثر عدداً». وقد اعترض عبد الغني العريسي على ذلك بقوله: « اما جعل اللغة العربية رسمية من دون التركية فاجحاف بحقوق الاتراك ، ونحن انما نطلب تحقيق حقنا بالمحافظة على لغتنا ، وتحقيق الحق لا يكون بنقض حق آخر ! .. »

وروى نعوم مكرزل صاحب جريدة « الهدى » ومندوب حزب « النهضة اللبنانية» انه كان لاحدى العجائز ببغاء تصرخ دائماً هكذا: « ارحمها يا الله » فتشاءمت العجوز وشكت أمرها الى أحد رجال الدين ، فقابل هذا بناتها فأخبرنه ان والدتهن أصبحت عاجزة سيئة الاخلاق والتصرفات ، خشنة ظالمة ، مستبدة انانية ، تكاد تميتهن جوعاً ، وتسحقهن عسفاً ، وتحرمهن كل لذة وحرية وسعادة ، ولما كنّ بارات بها ، ولا يرغبن في الاساءة اليها ، كنّ يقلن هذه العبارات التي تراجعها الببغاء . فلما سمع رجل الدين الحديث قال : « ارحمها يا الله في ملكوتك ، وأخذت الببغاء تردد قوله . قال نعوم مكرزل : « فالمهاجرون بمنزلة صاحبنا رجل الدين . وقولهم في دولتهم كقوله في العجوز الظالمة المخرفة ، ولكنهم لا يتوقعون ان تستبدل بالعجوز عجائز ، كما وقع للعثمانيين مع الاتحاديين الذين أصبحوا كلهم

سلاطين ! ... »

ثم خلص المؤتمر الى اتخاذ القرارات التالية :

١ – ان الاصلاحات الحقيقية واجبة وضرورية للمملكة العثمانية ، فيجب ان تنفذ بوجه السرعة ..

٢ – من المهم ان يكون مضموناً للعرب التمتع بحقوقهم السياسية ، وذلك بان يشتركوا في الادارة المركزية للمملكة اشتراكاً فعلياً .

٣ – يجب ان تنشأ في كل ولاية عربية ادارة لا مركزية تنظر في حاجاتها وعاداتها .

٤ – كانت ولاية بيروت قدمت مطالبها بلائحة خاصة صودق عليها في ٣١ كانون الثاني ١٩١٣ باجماع الآراء ، وهي على مبدأين أساسين هما : توسيع سلطة المجالس العمومية ، وتعيين مستشارين أجانب . فالمؤتمر يطلب تنفيذ وتطبيق هذين الطلبين ..

٥ – اللغة العربية يجب ان تكون معتبرة في مجلس النواب العثماني، ويجب ان يقرر هذا المجلس كون اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية ..

٦ – تكون الخدمة العسكرية محلية في الولايات العربية إلا في الظروف والاحيان التي تدعو للاستثناء الاقصى .

٧ – يتمنى المؤتمر من الحكومة السنية العثمانية ان تكفل لمتصرفية لبنان وسائل تحسين ماليتها .

٨ – يصادق المؤتمر ويظهر ميله لمطالب الأرمن العثمانيين القائمة على اللامركزية .

٩ – تبلغ هذه القرارات للحكومة العثمانية السنية .

١٠ – وتبلغ أيضاً هذه القرارات للحكومات المتحابة مع الدولة العثمانية .

١١ – يشكر المؤتمر الحكومة الفرنسوية شكراً جزيلاً لترحابها الكريم بضيوفها .

واقر أعضاء المؤتمر ملحقاً بهذه القرارات جاء فيه :

١ – اذا لم تنفذ القرارات التي صادق عليها هذا المؤتمر فالاعضاء المنتمون الى لجان الاصلاح العربية يمتنعون عن قبول أي منصب كان في الحكومة العثمانية ، الا

بموافقة خاصة من الجمعيات المنتمين اليها .

٢ – ستكون هذه القرارات برنامجاً سياسياً للعرب العثمانيين ولا يمكن مساعدة أي مرشح في الانتخابات التشريعية (النيابية) إلا اذا تعهد من قبل بتأييد هذا البرنامج وطلب تنفيذه .

٣ – المؤتمر يشكر مهاجري العرب على وطنيتهم في مؤازرتهم له ، ويرسل لهم تحياته بواسطة مندوبيهم [١] .

وختم الشاعر اللبناني شكري غانم جلسات المؤتمر بخطاب حماسي رائع جاء فيه:

« يا أبناء وطني ، يا أبناء تلك السلالة العربية المجيدة ، يا من فرقت الحكومات بينكم في الأمس ومزقت وحدتكم ، ثم جمعت بينكم المصائب اليوم، انه ليتحد معكم جيران تجمعهم واياكم لغة واحدة ومصالح واحدة، وقد انابوني للتكلم بلسانهم لاني أخ لكم ولهم : هؤلاء هم اخوانكم اللبنانيون الذين أحبوا ان يوآزروكم في عملكم هذا ، لا يحملون في قلوبهم كرهاً ولا حقداً ، يخلصون مثلكم ، ويأسفون على تلك الاغلاط والجرائم التي وقعت في السنة الستين بتحريض الاتراك ، وكانت سبباً في انحطاط الدولة العثمانية . وان أسف اللبنانيين يمازجه أمل عظيم بنيل مطالبهم ومطالبكم ، ونحن بفضل اتحادنا وتعاضدنا ناجحون » .

يقول الدكتور عبد العزيز الدوري : « وان نحن سمينا هذا الوعي العربي بالقومية العربية ، فان الجديد فيها هي رغبة العرب كامنة في تقرير مصيرهم وتحقيق كيان خاص بهم بإرادة مشتركة وعمل مشترك . وهذه الوجهة تمثل الناحية السياسية للقومية العربية . وكان دور المثقفين أو « الفئة المتنورة » كما سماهم الزهراوي ، هو انهم وجهوا هذا الوعي القومي بتقديم دافع فعال للحركة، دافع النهضة والاستقلال. وهذا الهدف يمثل خطوة جديدة في مسيرة الوعي القومي أعقبت ركوداً طويلاً ولم يظهر إلا نتيجة للظروف الاجتماعية والسياسية التي أحاطت بالعرب في أواخر القرن

---

١ – ثورة العرب ص ٧٢–٧٣ ، مؤتمر الشهداء ص ١١٢ – ١١٤ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٧–١٨،محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ١٨٠–١٨١، مذكراتي على هامش القضية العربية ص ٥٩ – ٦٠

التاسع عشر وأوائل القرن العشرين [1] » .

ولم ينس المؤتمرون ان يؤكدوا للحكومة الفرنسية ، رغم ما يحملون نحوها من الاحترام ، انهم لا يريدون ان يكونوا من مطاياها ، وانهم يعملون لخدمة أمتهم فحسب ، وكان رسول المؤتمر إلى وزارة الخارجية الفرنسية ، الأستاذ مختار بيهم ، الذي أبلغها بلسان المؤتمر ما يلي :

« اننا نحترم الفرنسيين ، ولكننا لا نرضى ان يكونوا رؤساء علينا ، بل نرغب في معاضدتهم في إصلاح أحوالنا ، بشرط ان نبقى عثمانيين ، وليس السوريون كما قيل لكم يفتحون صدورهم لفرنسة ... »

يقول ساطع الحصري : « ويتبين من بعض الوثائق التي نشرتها الحكومة التركية، ان وزير خارجية فرنسة بيشون تألم من هذه النتائج، وكتب إلى القناصل يقول : « ان الحركة الاصلاحية العربية قد انقلبت علينا ولذلك يجب عليكم ان تتظاهروا بمساعدتها لكي تكسبوا قلوب الأهلين ، على ان تسعوا في الخفاء للقضاء عليها [2] » .

وهكذا كان الصقر العربي أمنع من ان يُصاد بأحابيل السياسة الاستعمارية الأوروبية .. مما دفع وزارة الخارجية الفرنسية إلى الإيعاز لقناصلها بأن يتظاهروا بمعاضدة الحركة الاصلاحية ، ويعملوا ما استطاعوا على تخريبها .

---

١ ــ الجذور التاريخية للقومية العربية ص ٨٤
٢ ــ محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ١٨٩

الفصل السابع

الأتراك يمزقون آخر المواثيق

ارادت السلطات العثمانية ان تقف بادىء الأمر ، موقف اللامبالاة من أعضاء المؤتمر العربي في باريس استصغاراً لشأنهم ، بينما كانت تحاول تحريض الحكومة الفرنسية لتمنع عقد المؤتمر على أرض فرنسة ، وتبذل جهدها في التنديد بالقائمين به وحمل انصارها على مهاجمتهم والتشنيع بهم .

وبينما كان مؤتمر باريس منعقداً سعى بعض الانتهازيين لتأليف حزب في دمشق باسم حزب الاصلاح لمناوأة مؤتمر باريس،لتقوية دعاية القائلين من الاتراك بان هذا المؤتمر يعمل بوحي الدول الأجنبية .

وقد حملت الصحف الاتحادية حملة عنيفة على المؤتمر ومما قالته جريدة « طنين » لسان حال الجمعية : « لما كررنا القول وأعدنا التصريح بأن الفئة التي تتظاهر تارة في سورية وتارة في مصر وفي باريس ، بالغيرة على مصالح العرب وعشق العربية والهيام بأمثال ذلك هي فئة ليست من العربية في شيء ، وما هي إلا آلة للفساد ، وعبارة عن طائفة عجيبة في أطوارها . لما قلنا ذلك حمل علينا بعض الصحف العربية حملة شعواء . فبينا لا نتكلم عن العرب والعربية إلا بما يشف عن الميل الشديد ، وإذ تلك الصحف تلقبنا بأعداء العرب الألداء ، ولا تتردد في تسميتنا « المعول العظيم

لهدم كيان الأمة العربية » . وأما نحن فلا نحاول نفي هذه التهم لاننا إذا توخينا ذلك نكون قد خدمنا هذه الشتائم والمطاعن من حيث نريد الاعراض عنها . فان كتاباتنا في المسألة العربية كانت نوراً استضاء العرب، فقاموا يداً واحدة يدافعون عن الحقيقة ويردون كيد المزورين في نحورهم فكانت نتيجة ذلك ضد ما يعمله الخونة المارقون .

« الحق يعلو ولا يعلى عليه ، فالأنباء التي وردت من البلاد العربية اثبتت بألمع برهان ان الغاية التي كنا ولا نزال نتوخاها في كتاباتنا أثرت تأثيراً عظيماً في سورية . فقد رأينا دمشق ، فضلاءها وعظماءها ، قد هبت من رقدتها رادة التهم الشنيعة التي الصقها بها المنافقون، فقد نشرنا أمس برقية منهم اطلع القراء على اسماء موقعيها فاذا هم كبار أعيان دمشق مهد الحضارة العربية . هم العلماء الاجلاء والأشراف العظماء وأرباب الزهد والتقوى ، فكم يكون خذلان الالاعيب العربية في باريس .

« ان هؤلاء المؤتمرين باسم العرب النجباء الذين نظموا بروغرامهم وأعدوا معدات الاختلال ، وأخذوا يوزعون النشرات السرية ، ستكون لهم عاقبة اليمة جداً . والذين قاموا يصيحون في وجههم يصح لكل منهم ان يتكلم عن ولاية عربية برمتها . اسمعوا ما يقول هؤلاء العظماء : « ان الذين يرسلون الاحتجاجات ليسوا من العرب في شيء ولا صفة لهم ولا شأن فقد طلبوا من الحكومة آمالاً لا ينالوها فهبوا الآن يعادونها ، وهم عبارة عن فتيان بلا عقل ولا أدب ولا أخلاق . هؤلاء، كما انهم لا شيء في الهيئة الاجتماعية،فهم أيضاً غير مندوبين من العرب ولا صفة لهم ولا وكالة . فنحن نشكر أعيان الشام وعظماءها ألف شكر لانهم ارشدونا الى الحقائق [1] » .

هذا ما قالته « طنين » وأما الجمعية الاتحادية فقد اوعزت الى فرعها في دمشق بأن يمطر الحكومة وابلا من برقيات الاحتجاج ، فلبى طلبها وانهالت البرقيات على

---

١ — ثورة العرب ص ٧٦ — ٧٧

الباب العالي بعضها بتوقيع وبعضها بغير توقيع ، و كلها على النسق التالي :

« ان القائمين بفكرة الاصلاح في سورية هم فئة من المتشردين الفارين من وجه الحكومة السنية ، فجميع أهل سورية ، مسلمين ومسيحيين ، يكذبون افتراءاتهم ، ويظهرون للحكومة امتنانهم وسرورهم من طراز الادارة الحاضرة التي أعلت شأن الدولة ورفعت منار الدين ! »

ولكن ردود الفعل التي أحدثها المؤتمر العربي في قلب البلاد العربية ، كانت أكبر من ان تقابل بالتجاهل والافتراء ، لا سيا وان نسبة السكان العرب في كيان الدولة العثمانية قد تكاثرت جداً بعد انسلاخ البـاقين عنها ، كما ان كثيراً من الاصلاحيين الأتراك غير الاتحاديين كانوا ينادون باللامركزية وهو الشعار الأساسي الذي انضوى تحته الزعماء العرب ، ولهذا فقد رأت السلطات التركية ان تستمع ، أو تتظاهر بالاستماع ، لصوت العقل والمنطق قبل ان يفلت زمام الأمور من أيديها، وأوفدت إلى باريس مدحت شكري بك الأمين العام لجمعيـة الاتحاد والترقي ، وخولته صلاحية الاتفاق مع الزعماء العرب ، وعندما اتصل هـذا الموفد بأعضاء المؤتمر لمس سلامة النية لدى هؤلاء الزعماء الذين ينشدون الاصلاح الجذري الذي ينشده الكثيرون من القادة الأتراك ، ولذلك عاد إلى استانبول وبرفقته عبدالكريم الخليل أحد الأعضاء البارزين في المنتدى العربي ، بغية إتمام تلك المفاوضات مـع وزير الداخلية طلعت بك الذي لم يستنكر مطالب العرب ، وإنما كرسها بالاتفاقية التي وقعت بينه وبين عبد الكريم الخليل ، وتشكل هـذه الاتفاقية أول وثيقة رسمية يقر فيها المسؤولون الأتراك بشرعية المطالب العربية ، وإلى القارىء بنودها، كما وردت مترجمة عن النص التركي :

صورة الاتفاقية المعقودة بين المركز العام للاتحاد والترقي وبين هيئة الشبيبة العربية .

المادة ١ — يكون التعليم الابتدائي والاعدادي (أي الثانوي) باللغة العربيـة في جميع البلاد العربية . كما يكون التعليم العالي أيضاً باللغة الأكثرية. وإنما يكون تعليم اللغة العثمانية إجبارياً في المدارس الاعدادية .

المادة ٢ – يشترط في رؤساء المأمورين بوجه عام ان يكونوا واقفين على اللغة العربية . واما سائر المأمورين فسيعينون من قبل الولاية. إلا ان الحكام ومأموري العدلية الذين يتولون أعمالهم بإرادة سنية (أي بإرادة ملكية) سيعينون من المركز . واما الولاة فمستثنون من القيد السالف الذكر .

المادة ٣ – ان العقارات والمؤسسات الوقفيــة المشروط صرفها إلى الجهات الخيرية المحلية ، ستترك إلى مجلس الجماعات المحلية ، على ان تدار من قبلها وفــق شروطها الخاصة .

المادة ٤ – أمور النافعة (الأشغال العامة) ستترك إلى الإدارة المحلية .

المادة ٥ – ان الافراد العسكريين سيؤدون خدماتهم العسكرية في وقت السلم داخل البلاد العربية ، في دوائر مناطق الجيش التي ينتسبون اليها . إلا ان الجنود الذين لا بد من إرسالهم في الحالة الحاضرة إلى الحجاز والعسير واليمن ، سيرسلون من جميع الولايات العثمانية ضمن نسبة معينة .

المادة ٦ – ان المقررات التي تتخذها مجالس المديريات العامة ضمن صلاحيتهــا القانونية ستكون نافذة على كل حال .

المادة ٧ – سيقبل كمبدأ أساسي ، ان يكون في الوزارة ثلاثة من العرب على الأقل . كما انه سيكون في الدوائر المركزية عـدد مماثل لذلك من العرب بصفة مستشارين أو معاونين وسيعتبر من الأسس المقررة : ان يكون في كل من لجان المأمورين ، وشورى الدولة ، ومجلس المشيخة الاسلاميــة ، ومجالس سائر الدوائر المركزية ، اثنان أو ثلاثة من العرب . كما يكون في كل وزارة أربعة أو خمسة موظفين من درجات مختلفة أيضاً من العرب .

المادة ٨ – سيكون في الحالة الحاضرة خمسة ولاة وعشرة متصرفين من العرب كما انه ستزال المغدوريات الـــتي قد تكون لحقت بالموظفين في الدوائر الملكية والعدلية والعلمية الذين لم يرفعوا بالنسبة إلى سائر زملائهم ، وأما فيما بعد فسيكون تعيين الموظفين وترفيعهم وتأديبهم وفق قانون خاص .

المادة ٩– سيعين في مجلس الأعيان من العرب بنسبة اثنين عن كل ولاية عربية.

المادة ١٠ — سيعين في كل ولاية مفتشون متخصصون من الأجانب في الدوائر والمصالح التي تحتاج إلى ذلك. وستقرر صلاحيات هؤلاء المفتشين وواجباتهم بنظام خاص يكفل الحصول على الفوائد الانضباطية والاصلاحية المطلوبة والمنتظرة منهم.

المادة ١١ — النقص الموجود حالياً في ميزانيات الدوائر التي تركت ادارتها في الولايات، سيسد عن طريق إضافة الموارد الكافية لميزانية الولاية وسيخصص نصف حصيلة ضريبة المسقفات إلى الادارات المحلية، على ان تصرف لأمور المعارف[1].

عبد الكريم الخليل، طلعت

ثم أراد طلعت بك ان يؤكد حسن نوايا الأتراك تجاه العرب فألقى في الوليمة التي أولموها على شرفه الكلمة التالية:

« أود ان أصرح للملأ ان موقفنا من نظام اللامركزية كان مبنياً على أوضاع الشعوب البلقانية. اننا كنا نعلم نزعات تلك الشعوب ونواياها، وكنا نخشى ان يؤدي نظام اللامركزية إلى تسهيل وتسريع انفصالهم عنا.. ولكن الآن.. وقد انفصلت تلك الشعوب عن الدولة فعــلًا لم نعد نرى ما يستوجب الاستمرار في سياسة المركزية التي كنا نتبعها قبلًا، لأننا نعرف نزعاتكم الحقيقية، فلا نتردد في المضي معكم إلى آخر حدود التساهل في سبيل تطمينكم على صيانة حقوقكم. ولأننا نعتمد على إخوتكم نستطيع ان نتفاهم معكم في جو من المــــودة الصميمة، سياسة جديدة[2] ... »

وكل ما رجاه طلعت بك ان تبقى الاتفاقية طي الكتمان، ريثما تتاح الظروف لإخراجها إلى النور.. ولكن هل برّ الأتراك بوعدهم ؟.. سؤال كان الجواب عليه فاجعة من فواجع العرب العظمى...

لقد أقامت الشبيبة العربية في الاستانة مأدبة فخمة حضرها كبار العرب والترك وخطب فيها عبد الكريم الخليل مرة أخرى، داعياً إلى إزالة سوء التفاهم بين الشعبين

---

١ — محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ١٩١—١٩٢

٢ — المرجع السابق ص ١٩٣

« العربي والتركي . وأبرق إلى باريس داعياً أعضاء المؤتمر العربي لزيارة الاستانة لتوضيح المقررات ومراقبة تنفيذها . وجاء رئيس المؤتمر عبد الحميد الزهراوي إلى استانبول وتم الاتفاق بينه وبين الحكومة الاتحادية على تنفيذ بعض الاصلاحات ، وصدر مرسوم بتسمية عبد الحميد الزهراوي ، ومحمد بيهم ، ويوسف مرسق ، وعبد الرحمن اليوسف ، ومحي الدين النقيب ، وأحمد كيخيا أعضاء في مجلس الأعيان ، وعين شكري العسلي ، وعبد الوهاب الانكليزي ، وناجي السويدي ، وأمين التميمي في مناصب رفيعة .

وعندما تألف وفد يضم بعض رجالات العرب لزيارة الباب العالي ليشكر للحكومة وعودها ويطالبها بالتعجيل في البر بها وتنفيذها ، وقف عبد الكريم الخليل أمام الصدر الأعظم يقول : « .. فالشبيبة تشكر لكم هذا العمل العظيم الذي تعده فاتحة سعادة ورفاه لهذا الملك المحبوب ، فلتطمئن فخامتكم وهيئة الوكلاء الكرام لأن الأمة العربية التي تقدر هذه القرارات حق قدرها تسعى جهد طاقتها وتبذل جميع مساعيها لرقي هذا الوطن المشترك وسعادته ونجاحه . ولهذا أرجو تنفيذ قرارات الاصلاح بأقرب ما يمكن ، ولكن أتجرأ على ان أشرك شكري بذكر بعض ما تتمناه الأمة العربية مستميحاً العفو من لدن فخامتكم : ان بقاء الادارة العرفية في بيروت منذ سنتين يدعو إلى الأسف ، واننا نلتمس رفعها ، ونرجو رفع المنع عن الصحف المصرية والسماح بنشر الجرائد المحلية المقفلة لأننا لا نشك في إخلاصها لهذا الملك ، وذلك رغبة في تعميم الشكر وانتقاله من قلوب الناس إلى أعمدة الصحف ، ولأنها بإيفاء وظيفتها الوطنية تسهل وظيفة الحكومة كثيراً . وهناك مسألة ثانية وهي مسألة بيع الأراضي المدورة – الجفالك – في البلاد العربية ولا سيما فلسطين ، لأن دخول الأجانب اليها وحرمان أهاليها من مواردها مما لا ترضونه فخامتكم ، فألتمس من حنان الحكومة السنية اتخاذ قرار قطعي موافق في هذا الشأن . »

وتعددت الوفود العربية التي زارت الاستانة للاعراب عن ابتهاج العرب بالوعود التي قطعت لهم ، والدعوة إلى تنفيذ الاصلاح على جناح السرعة لأنه الطريق الوحيد

لترقية البلاد وإنماء ثروتها وإسعاد سكانها، ومن أعضاء هذه الوفود سليم سلام والشيخ أحمد طباره ومختار بيهم . ولكن الحكومة الاتحادية التي تظاهرت بالإخلاص للعرب كانت في الباطن تضمر لهم الشر وتدبر لهم مكيـــدة في السر ، فقد استدعت بعض صنائعهـــا السوريين الى الاستانة وكلفتهم معاكسة احـــرار العرب ، والمجاهرة بان البلاد العربية لا تحتاج اصلاحاً . فما وصلوا الى الاستانة حتى حملوا حملة شديدة على القائمين بالاصلاح ، فصرح أحدهم لمحرر « تصوير افكار » بانهم لم يأتوا الى الاستانة من تلقاء أنفسهم وان الحكومة استقدمتهم اليها لمشاورتهـــم في أمر الاصلاح ، وقال ان العرب يأسفون جداً لانخداع الحكومة ومسالمتها لشبيبة عربية ليست على شيء من الوطنية غايتها تسليم البلاد الى الأجانب والقضاء على الدولة والاسلام والمسلمين . وقال ثان منهم ان الحكومة وضعت يدها بيد شبان مارقين خائنين لا يعبأ بهم ولا يحسب لهم حساب . أما الثالث فكان يسعى دائماً الى اقناع الرأي العام بأن الأمة العربية كافة في قبضة كفه وكف أصحابه، وقد أجمعوا كلهم على مطالبة الحكومة بابقاء الحال على ما كانت عليه ، حتى أن أحدهم قال لاحـــد محرري الصحف ان بقاء اللغة التركية لغة رسمية في البلاد العربية من مصلحة العرب أنفسهم لانهم اذا كتبوا الاستدعاءات العربية وارسلوها الى الاستانة طالت مـدة اقامتها وقد تظل السنين الطوال فيكون العرب من الخاسرين !

وقال امين سعيد ان أعضاء هذا الوفد قد انضموا في الاستانة الى اولئك الذين كانوا يرون وجوب تأييد الدولة وشد أزرها في كفاحها الخارجي ، وعدم ازعاجها باثارة مشاكل داخلية. وقد شنوا غارة كبيرة على طلاب الاصلاح في عاصمة السلطنة، وشوهوا سمعتهم في نظر الرأي العام التركي ، واظهروهم بمظهر المأجورين للأجانب ، المتطوعين في خدمتهم ، العاملين على تسليم البلاد اليهم [1] .

والى جانب هذين الفريقين : فريق المعتدلين الذين كانوا يحاولون التوفيق بين مطالب العرب ومصالح الترك، وفريق النفعيين الذين استكثروا على بني قومهم حتى

---

١ - الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٥٣

وعود الاصلاح، كان هنالك فريق المتطرفين الذين تمثلهم جمعية العربية الفتاة التي كانت قد بدأت تستقطب الاحرار والمناضلين العرب في كل مكان ، وقد رأت الجمعية في الحلول التي توصل اليها الفريق الأول مسائل ثانوية بالنظر لمطالب العرب الأساسية ، وهكذا قابلت الشبيبة العربية بالاستياء تعيين عبد الحميد الزهراوي في مجلس الأعيان وهو رئيس المؤتمر العربي ، وعدته خرقاً لمقررات باريس ، واستدعت معتمدها عبد الكريم الخليل الى اجتماع كبير عقد في دار « المنتدى العربي » وحضره ما يقارب الف عربي لاستجوابه بهذا الشأن ، باعتباره مسؤولاً عن سياسة التقارب ، وطلب عبد الكريم من الحاضرين تأليف لجنة خاصة ليفضي اليها بما يعرفه من أسرار تدعوه الى انتهاج هذه السياسة . وانتخبت في الحال لجنة مؤلفة من نجيب شقير ، وسيف الدين الخطيب، وجلال البخاري ، وصبحي حيدر، واسعد داغر، للاجتماع به والاطلاع على وجهة نظره واعلان رأيها في ذلك .

وفي اللجنة الخاصة التي عقدت جلستها السرية في ٧ كانون الثاني سنة ١٩١٤ (١٣٣٣ ه) واستمرت من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى الثالثة ليلاً ، قال المناضل الشاب ان التعاون بين العرب والترك كفيل بصد خطر استعماري آخر يهدد البلاد العربية من الغرب، ومن الممكن الافادة من هذا التعاون المحدود لتحقيق مطالب العرب وتعزيز نهضتهم ، وليس في الامكان تحقيق ذلك إلا بالاستقرار ، اذ يحمل الشعب الحكومة العثمانية على عدم تنفيذ مقررات مؤتمر باريس البتة ، وما قامت به الحكومة العثمانية في الوقت الحاضر ليس إلا مقدمة للاصلاح المنشود .

وكان عبد الحميد الزهراوي قد أعلن استعداده للاستقالة من مجلس الأعيان اذا طلب منه ممثلو الشبيبة العربية ذلك ، فقال عبد الكريم الخليل في ذلك الاجتماع السري ان وجود الزهراوي في مجلس الأعيان خير من عدمه ، لأنه يفيد داخل المجلس أكثر مما يفيد خارجه، وانه لم يقبل هذا المنصب إلا عملاً بالاتفاق السري المعقود بين عبد الكريم الخليل وبين الحكومة التركية باسم المؤتمر ، لتعيين بعض زعماء العرب في مناصب عالية لمساعدة الحكومة في تحقيق الإصلاح .

وبعد هذا الاجتماع الصاخب اتخذت الشبيبة العربية قراراً بتأييد وجهة نظر

عبد الكريم الخليل في شيء من التحفظ ، إلا ان الضجة لم تنته اذ وقع الخلاف حول هذا الموضوع بين الاصلاحيين أنفسهم ، واحتجت بعض الهيئات السورية في المهاجر على قبول عبد الحميد لمنصبه ، وطلب بعضها فصله من حزب اللامركزية . ولكن عبد الحميد الزهراوي ما لبث ان بسط وجهة نظره بوضوح في كتاب بعث به الى السيد رشيد رضا أحد كبار الاصلاحيين العرب في مصر، كما ان رفيق العظم رئيس اللجنة العليا لحزب اللامركزية رد على احتجاج الهيئات السورية في المهاجر ببيان مسهب ختمه بقوله : « .. على اننا ما دمنا طلاب اصلاح لا طلاب عنت أو وظائف فلا نرى من حسن الرأي ان تطلبنا الحكومة للتفاهم ، وتلين لنا القول ، وتعترف لنا بكثير من الحقوق التي لم تك ترضى ان تصغي لطالبيها منذ سنين ، ونرميها بالكذب ونباعد بيننا وبينها لغير سبب ما لم يقم لنا دليل قاطع على انها تفعل ذلك رياء لا صدقاً، وانها تفعل في غد ضد ما تقوله اليوم، ومتى قام لنا الدليل على ذلك كان لنا معها شأن غير شأننا اليوم ، وليس في قرارنا على تعيين السيد الزهراوي في الأعيان مانع يمنعنا من الاستمرار في الخطة الصالحة لقومنا ووطننا متى ثبت لنا انها تريد الوقوف عند هذا الحد من الاصلاح ، كما انه ليس في تعيين الزهراوي ما يوجب ريب اخواننا أعضاء جمعية الاتحاد السوري فيمن تظن فيهم الزعامة كما جاء في احتجاجهم المذكور، وهذا اذا كان الاحتجاج يعني فيما ورد فيه اخوانهم الاصلاحيين بمصر ، اذ الذي اقوله عن نفسي وعن اخواني هنا هو انه ليس هناك شيء يفصلنا عن حظيرة الاصلاحيين ، وليس لاحدنا مطمع بغير الاصلاح الذي ننشده بكل وسيلة من الوسائل المشروعة » وهكذا خفتت الضجة وطوي هذا الموضوع [1] .

لقد ربح ابطال العروبة ولا ريب الجولة الأولى، ولو على الصعيد الحقوقي والسياسي فقط ، وارغموا الدولة التركية على الاعتراف بحقوق العرب ، وفساد نظام المركزية ، ولكن ذلك الاعتراف بقي طي الكتمان كما بينا ، وارفضت الاجتماعات والجانبان العربي والتركي على أحسن ما يمكن من المودة المتبادلة ! ..

---

١ – انظر فصل عبد الحميد الزهراوي في كتاب « السابقون » لقدري قلعجي .

ولكن العرب انتظروا على غير طائل ، اخراج الاتفاقية العربية التركية الى حيّز الوجود ، حتى بدا للعرب بأن الدولة غير آبهة بانفاذ ما صادقت عليه ، ولعل من أهم الأسباب التي حدت بها الى اتخاذ هـذا الموقف انقسام السلطة الحاكمة على نفسها فيما يتعلق بنقطة جوهرية في القاعدة التي يجب ان يستقيم عليها عمود الحكم واتجاه الدولة ، وقد كان فرسان الحلبة الثلاثة الأولون متنافري الأهواء ، مختلفين في الرأي ، فكان طلعت باشا من القائلين بفكرة الجامعة العثمانية ، وانور باشا ممن ينادون بالجامعة الاسلامية ، وأما جمال باشا فكان عرقياً لا يؤمن إلا بالقومية التركية فقط .

وفي اطار هذا النزاع ، وفي تلك الدوامة من المتناقضات المذهبية ، والنزعات السياسية ، كانت تتأرجح القضية العربية ، في حين كانت النزعة العرقية تأخذ مداها في عاصمة الدولة ، وكانت أبواق المنادين بالطورانية ، تطغى على أصوات المنادين بالاخوة العثمانية أو الرابطة الاسلامية ، حتى على أعواد المنابر في المساجد .. ولم يتورع أحد القادة الاتراك ، والبلاد على أبواب الحرب من ان يقول :

« لا أمل لنا بعد الآن بان نحكم البلاد العثمانية كمستعمرة تركية ، ولا سيما البلاد العربية التي فتحها أجدادنا بالسيف ، لان حكومتنا صارت دستورية لسوء الحظ ، لاننا نحن الاقلية في الدولة ، فاذا خضنا غمار الحرب الاوروبية وحالفنا النصر قضينا على العناصر غير التركية أعظم قضاء ، وكفلنا الحكم لعنصرنا زمناً طويلًا ، واذا انكسرت جيوشنا وضاعت بلادنا فلا نخسر شيئاً ، لأن مستقبل الدولة ليس لنا ، ولان الحكم ذاهب من يدنا على كل حال [١] .. »

وأما صاحب جريدة اقدام « التركية » وأحد النافخين بنار العرقية فقد كتب يقول في جريدته تلك : « ان الاتراك لهم الحق في ان يحكموا العرب تماماً ، كما يحكم الفرنسيون أهل الجزائر ، وكما يحكم الانكليز الهند [٢] .. »

---

١ — مؤتمر الشهداء ص ٢٤ - ٢٥

٢ — المرجع السابق ص ٢٩

ولم يتورع بعض حملة الاقلام من المؤرخين الاتراك عن الدعوة الى سياسة تهجير العرب من ديارهم ، ونشر التركية في ربوعهم .

وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل ان التعصب العرقي قد أعمى اولئك الادعياء حتى ان أحدهم وهو أستاذ التربية العسكرية في الكلية الحربية في العاصمة لم يتورع ان يخطب في صف الضباط ، وكثير منهم من أبناء العرب ، نافثاً سمومه العرقية على هذا الشكل :

« اود أيها السادة ان القي عليكم كلمة في غاية الأهمية بمناسبة الحوادث العظيمة التي وقعت في الغرب ، فأظهرت لنا معاشر الترك أموراً لم تخطر في بالنا من قبل وكانت عبراً ينبغي ان نعتبر بها .

« فان البلجيك الصغيرة تجاسرت على محاربة المانيا العظيمة ، ووقفت بجيش لا يزيد على مائة ألف جندي أمام أعظم جيش ذكره تاريخ بني البشر ، فحالت دون القضاء على حليفتها فرنسا .

« لذلك لا يسعنا ، نحن الاتراك أعداء البلجيك ، إلا ان نطأطىء رؤوسنا اجلالاً لها واحتراماً لجيشها الباسل .

« ولكن أتعلمون أيها الأصدقاء لماذا أوقفت البلجيك تيار الجيش الألماني العظيم ؟ أوقفته لانها كانت تحاربه باسم القومية واسم الوطن..

« أوما تعلمون لماذا عظمت فرنسا وانكلترا والمانيا وسدن العالم ، وصرن أعلى أمم الأرض مقاماً ، وأكثرها ثراء ؟ لانهن خضن معترك الحياة باسم القومية لا باسم الدين .

«فعلينا أيها الاعزاء ان نظهر من الآن وصاعداً أمام العالم بصفة القومية المقدسة وان نضرب بالعصبية الدينية عرض الحائط .

« .. نحن أيها السادة أتراك ، واني لأعجب من تسميتنا عثمانيين . فمن هو عثمان الذي ننتسب اليه ؟ انه تركي جاء منري آلتا ، واجتاج هذه البلاد بجيشه التركي . فانتسابنا الى أصله أشرف من انتسابنا اليه .

« ولقد خدعنا بجهل أسلافنا في الماضي فبئس أسلافنا الذين أنسونا قوميتنا ..

«انكم أيها الاعزاء ستلحقون بالجيش قريباً وستكونون أساتذة جنودنا الأبطال،

فعلموهم انهم ترك اذا حاربوا العدو من أجل الترك ، وتحت العلم التركي ، ينتصرون عليه ويحرزون ما احرزته البلجيك من المجد والفخر .

« وتأكدوا ان التركية خير لنا من الاسلام ، وان التعصب للجنسية من أكبر فضائل الهيئة الاجتماعية .

وقد أجابه أحد ضباط العرب قائلاً : « تعلم أيها القائد ان للامم الشرقية تقاليد لا يمكن الاغضاء عنها ، وقد حفظت الجنسية العثمانية هذه التقاليد وكفلت سلامة الدولة الى الآن . فتتريك العناصر العثمانية ، أو انكار قوميتها عليها ، يؤدي الى اضمحلال الدولة في القريب العاجل . فأنا احتج على هذا الكلام ، وأقول بكل صراحة : ان الرابطة الاسلامية العثمانية هي الرابطة الوحيدة التي تربطنا بالترك . ولما كنت حضرتك تعلمني الآن ان هذه الدولة تركية وان هذا العلم الذي عهدت اليّ بالدفاع عنه هو تركي ، أي انه علم أجنبي عني ، فقد قضيت على قوتي المعنوية قضاء مبرماً ، وأخمدت كل عواطفي الوطنية ، لاني انا وأبناء العرب ، وجميع أبناء العناصر غير التركية ، لا نحارب في جنب الترك الا لمقاصد متحدة وذودا عن حياض الاسلام والعثمانية » .

فأجاب القائد قائلًا : « اعلم ان الحقيقة غير العواطف ، فانك وان تكن عربياً فانت وعنصرك العربي من تبعة تركيا . ألم يستعمر الترك بلادك ؟ الم يفتحوها بالسيف ؟ ان العثمانية التي تتخذها حجة لك هي حيلة اجتماعية يستعملها الضعيف للوصول الى غايته. أما الدين فلا شأن له في السياسة ، وسننهض قريباً باسم التركية، وتحت العلم التركي ، ونلقي بالدين جانباً لانه من الامور الشخصية الثانوية . اما أنت وأبناء جنسك فعليكم ان تعرفوا انكم ترك وانه ليس في العالم قومية عربية أو وطن عربي » .

وقد احتج ضباط العرب الذين سمعوا هذه الخطبة الحربية ، وطلبوا عزل القائد الاستاذ ، فلم تعبأ الدولة باحتجاجهم ، ولم تجبهم الى طلبهم ، بل اتخذت التدابير اللازمة للتخلص منهم ، فقذفت بهم الى ميادين القتال وعرضتهم لرصاص العدو بلا

سبب الا رغبتها في محوهم ، ليتسنى لها بعد ذلك قتل الفكرة القومية في بلادهم [1].

وكان من البدهي كذلك ان يعتمد اولئك الطغاة على سيف الارهاب والبطش رغم تحذير الناصحين ، وضاعت صرخات العقل والمنطق التي أطلقهـا المفكرون الاتراك أنفسهم ، وعلى الرغم من ان طلعت بك كان عثماني النزعة ، الا انـه كان يقول بسياسة العنف التي انتقدها مرّ النقد الدكتور رفيق رضا ، أحد أعلام الفكر العثماني،والمنادين بالاصلاح والذائدين عن روح الدستور ، والذي صرح لمحرر جريدة « بروغره دي سالونيك » منذ سنة ١٩١٠ (١٣٢٨ ﻫ) بما يلي :

« أنا على اتفاق تام مع الجمعية على ان البلاد في حاجة الى حكومة قوية ولكني أخالفها في استخدام القوة ، واذا كان وجودي في المجلس قضى عليّ بأن أحمل على طلعت بك الممثل الأكبر للجمعية في الوزارة، وصديقي ورفيقي منذ الساعة الاولى في جمعية الاتحاد والترقي ، فذلك لاعتقادي بأن الواجب عليّ ان افعل ما فعلت . ولو سكت كما سكت سواي لكان ذلك خيانة لا يغتفرها الوطن لي. ان الدستور يكون كلمة لا معنى لها ما لم تحترم الحرية السياسية والحقوق الاساسية ، وحرية القول والكتابة والخطابة ، واذا لم يعامل العناصر كلها معاملة واحدة بمقتضى أحكام الدستور [2] .. »

وزاد الموقف سوءاً ان الحكومة العثمانية عندما خاضت الحرب العالمية الأولى الى جانب المانيا ضد الحلفاء ، اعتمدت ناظر البحرية جمال باشا (أحمد جمال) قائداً للفيلق الرابع ، ومنحته الصلاحية المطلقة في حكم سورية الطبيعية (سورية ولبنان وفلسطين وشرق الاردن) وهو المعروف بكرهه الشديد للعرب ، وبتعصبـه العرقي للاتراك .

وهكذا كانت طريق أحـرار العرب تفترق أكثر فأكثر عن طريق أحرار الترك ، وكان ذلك الهدف المزدوج المتناقض الذي نصبه عبد الكريم الخليل وبعض شباب العرب لانفسهم ، لا بد من ان يطغى أحد شقيه على الآخر .. فأما ان يسير

---

١ — ثورة العرب ص ١٤٤

٢ — مؤتمر الشهداء ص ٣٠

عبد الكريم واخوانه مع الاتراك متناسين مطالب العرب ، وامـــا ان يتمسكوا بمطالب العرب فلا يتحولوا عنها أو يفرطوا فيها ..

وكان بديهياً ان تظفر الفكرة القوميـــة في ذلك الصراع النفساني الذي عاناه روادها الأول ومناضلوها الابرار ..!

وحين أعلنت الحرب العالمية الأولى وجاء عبد الكريم الخليل الى سورية للدعوة الى التفاهم بين العرب والترك ، والوقوف صفاً واحداً في وجه الخطر الاستعماري الهاجم من الغرب ، لم يستطع الشاب الذي شهد ما يعانيه العرب من ظلم الاتراك إلا ان يقول : كلا .

لقد قالها كلمة قوية جريئة في وجه جمال باشا حين اجتمع به في القدس على أثر اخفاق حملة القناة في الثاني من شباط (فبراير) سنة ١٩١٥ (١٣٣٤ ﻫ) .

لقد قال عبد الكريم لجمال باشا ان الشعب العربي لا يطمئن الى دعوة تركية لان فعلها يناقض قولها ، وأعمالها تخالف مواثيقها ، وهو فوق ذلك ضعيف الثقة في ان تستطيع تركية صيانة البلاد العربية من الخطر الهاجم . وأجاب السفاح بزمجرة مهددة رهيبة ، وطلب من الشاب في كثير من الازدراء ان يطمئن العرب، ويثبت ايمانهم بقوة الجيش التركي ، ويدعوهم الى الخضوع والسكون .

وعاد عبد الكريم ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً ، وانما فعل الشيء الكثير في انهاض الهمم وإلهاب المشاعر ، وبث الايمان بان بعث العرب آت لا ريب فيه [1]..

١ — انظر مقال عبد الكريم الخليل لقدري قلعجي في العدد ١٢ من مجلة العربي .

الفصل الثامن

الشريف حسين هو الأمل

ظلت حكومة الاستانة تمالىء العرب وتخدرهم بالوعود ، وتعاملهم بسياسة اللين تارة وسياسة العنف طوراً ، حتى اوائل سنة ١٩١٤ (١٣٣٣ ﻫ) فاذا بها تنتقل الى البطش السافر ، وتضع برنامجاً جديداً يقوم على التشدد في تطبيق سياسة التتريك بصورة حازمة ، وشل الحركة الاصلاحية وحل الاحزاب والنوادي العربية ، وبذل كل جهد ممكن للقضاء على القومية العربية .

وهكذا افترقت طريق احرار العرب عن طريق زعماء « تركية الحديثة » مرة أخرى ، وكان الفراق هذه المرة نهائياً وحاسماً لا رجعة عنه ، بعد ان نقض الاتراك المواثيق والعهود التي لم يكن في نيتهم تنفيذها قط ، وبعد شهور معدودة فقط من تلك المهزلة ــ المأساة التي كان عبدالكريم الخليل وعبد الحميد الزهراوي أول ضحاياها، ولم تقم بعد ذلك أية محاولة من قبل احرار العرب للاتفاق مع الاتحاديين .

وكان العرب قد قاموا بنشاط جديد ، ونصبوا لانفسهم أهدافاً جديدة . فالمنتدى العربي أخذ يميل الى اعتناق فكرة الاستقلال ، وجمعية العهد أصبحت ذات نشاط سري واسع بين أفراد الجيش وكبار الضباط العرب ينتظرون اشارة منها لتنفيذ أهدافها ، وجمعية الفتاة قد تركز فيها النضال السري بين المدنيين وضمت

الى صفوفها نخبة الاحرار في جميع ديار العروبة ، وكان ياسين الهاشمي همزة الوصل بين الجمعيتين .

وكان ميل تركية الى الاشتراك في الحرب العالمية الأولى الى جانب المانية بدافع من تهوس الطغمة العسكرية من الاتحاديين ، قد اثار مخاوف جديدة في نفوس القادة العرب ، نظراً للمصير الذي ستتعرض له بلادهم خلال هذه الحرب وفي نهايتها باعتبارها جزءاً من الدولة العثمانية . وكان من رأي هؤلاء القادة ان تلتزم تركية الحياد في تلك الحرب العاصفة ، لانها ستعاني فيها حصاراً اقتصادياً لا قبل لها بتحمله ، وتضطلع باعباء عسكرية فادحة ، بعد ان ظهر عجزها في حربي طرابلس والبلقان ، وهي في جميع الأحوال لن تستطيع الدفاع عن البلاد العربية اذا هاجمها عدو قوي ، واذا كان الترك يريدون ان يقامروا بمستقبلهم ويغامروا ببلادهم، فليس من مصلحة العرب بأية صورة ان يزج بهم في تلك المغامرة أو المقامرة ، واذا كان لا بد للسفينة العثمانية من ان تغرق فلتغرق وحدها ، وليحرص العرب على الا يندفعوا معها الى الهاوية .

وقد ارسل الشريف حسين أمير مكة وحامي الحرمين ، الى السلطان محمد رشاد كتاباً بهذا الصدد ، اشار فيه الى ضعف الدولة بعد الحروب البلقانية ، ووصف فيه وضع اوروبة والاتفاقات القائمة بين دولها ، ومما جاء فيه : « ان دخول الحرب الى جانب الالمان يؤلف خطراً كبيراً لعدم وجود حدود برية مشتركة ، ولأن المانية لا تستطيع امداد الجيوش العثمانية بالمعدات التي تحتاج اليها ، وعدا هذا فالاقطار المترامية الى الجنوب من جسم الدولة ، كاليمن والبصرة والحجاز ، محاطة من كل جانب بقوات بحرية لدول الأعداء . وقد تتكل الدولة في الدفاع على حمية أهلها ، وهم ليسوا منظمين ولا مسلحين بالشكل الذي يستطيعون معه مقاتلة جيوش اوروبة المنظمة» وقد ختمه بقوله: « انني استحلف جلالتكم بالله الا تدخلوا الحرب، وان تعلموا بانني اعتقد في كل من يرى الحرب الى جانب الالمان ، عدم التمييز أو الخيانة العظمى » . ولكن أي كتاب أو رسالة كان يمكنها وقف تلك الشرذمة العسكرية الطورانية المأخوذة بالروح العسكرية الالمانية ، عن جر بلادها الى

الهاوية ! ؟

وقد جاء في مذكرات الملك عبد الله انه زار وهيب باشا والي الحجاز زيارة ود ومجاملة بعد اعلان الحرب ، فقال وهيب باشا انه تلقى أمراً بأن يسأله رأيه بشأن اعلان الدولة الحرب على روسية وانكلترة ، فقال الشريف انه يعتـذر عن اعطاء جواب شفهي ، ويطلب ارسال السؤال اليه خطياً ليجيب خطياً ، ثم قال : « واني كجندي شريف لست بخـائن حتى أشير على الدولة بدخول حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل ، ونحن محاطون هنا بالدول العظمى ذات البحرية القوية ، وانتم ستشغلكم جيوش روسية وجيوش الانكليز بمصر ، مع انكم غير متصلين بحليفتكم المانية من البر ، وصربية معادية ورومانية معاديـة مثلها ». ورد وهيب باشا وهو يمس لحيته : « انها ورقة نريد ان نقذف بها على مائدة الميسر ! » فقال له : « ان هذا لعجيب .. أو تقامرون بالأمة كلها [1] ! ؟ »

ومع اعتقاد الحسين ان اعلان الحرب هو خرق عظيم وخيانة للامانـة ، وان البلاد بأجمعها لا ترضى عن حرب ضد روسية وانكلترة وفرنسة ، فقد كان يرى انه في حالة دخول تركية الحرب فان عليها ان تقوي جيش اليمن وتمده بالمؤونة والذخيرة التي تكفيه مدة لا تقل عن ثلاث سنوات ومثل ذلك في الحجاز وعسير ، بما يكفيها خمس سنوات على الأقل ، وان لم تفعل ذلك فهي ستضع البلاد في أحرج مركز قد يفضي الى ما لا تحمد عقباه . ويعلق الاستاذ طه شرف على ذلك بقوله : « وهـذه آراء من السداد والحكمة بحيث ترينا مقدرة هذا الشريف في ادراك وفهم التيارات السياسية العالمية وقتئذ [2] . »

وكان قادة الرأي العام العربي يتطلعون الى الشريف حسين بن علي الهاشمي أمير مكة وحامي الحرمين ، ويعقدون آمالهم عليه ، ويعتبرونه أبا العرب ورمز إبائهم وكرامتهم ، ويرون فيه الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يجسد طموحهم ويقودهم في

---

١ – عبد الله بن الحسين : مذكراتي ص ٩٩

٢ – الاحداث العربية في تاريخها الحديث ص ٥٥

معارك الحرية والاستقلال، مضطلعاً بعبء الجهاد ومسؤولية القيادة ، لانه جمع الى جلال الملك وشرف النسب وعلو المكانة الارادة الحازمة والجرأة النادرة والوطنية الصادقة .

ولما يئس قادة العرب من الوصول الى أي تفاهم مع الاتراك ، وقنطوا من ايقاف العربة التركية المنطلقة على ذلك المنحدر الرهيب ، انتدبت جمعية العهد وجمعية الفتاة في شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٥ (١٣٣٤ ﻫ) ، السيد فوزي البكري للسفر الى مكة ومقابلة الشريف حسين ، كي ينقل اليه مشاعر العرب وآمالهم واتفاق الزعماء في سورية والعراق وكبار الضباط العرب في الجيش التركي ، على القيام بثورة على الدولة العثمانية تنتزع للعرب حريتهم وتستعيد لهم استقلالهم ، وتطلع اولئك الزعماء والضباط الى ان يتولى الشريف حسين قيادة تلك الثورة ، واستعدادهم لارسال وفد من قبلهم الى مكة أو استقبال رسول من قبله في دمشق للاتفاق على الخطط والبحث في التفاصيل [١] .

وقد كان لمكة المكرمة دائماً حرمة خاصة ووضع متميز ، باعتبارها مهد الدعوة الاسلامية ومنطلق الدين الحنيف ، وكان الاتراك الذين يحكمون باسم الدين في حاجة مستمرة الى تأييد مكة ومناصرة اشرافها الذين توارثوا الحكم فيها منذ مئات السنين ، فابقوا لهذه الامارة نوعاً من الاستقلال الذاتي ، وكانوا يعاملون حكامها باحترام مشوب بالخوف والحذر ، فأمير مكة يتمتع في التشريعات بأسمى مقام ، فهو في صف الصدر الأعظم في الاستانة والخديوي في مصر .

وكان آخر هؤلاء الاشراف وأقواهم شخصية ، وارجحهم رأياً ، وأبعدهم أثراً ، الحسين بن علي بن محمد بن عبد المعين الذي يتصل نسبه بالامام الحسين بن علي بن ابي طالب ابن بنت الرسول . وكان والده الشريف علي عضواً في المجلس الأعلى بالاستانة، ثم منح رتبة وزير وعين في مجلس شورى الدولة ، وقد تنقل نجله الحسين في حداثته بين مكة والاستانة .

---

١ – انظر يقظة العرب ص ٢٣٢ – ٢٣٣

ولما توفي والده أقام في كنف عمه الشريف عبد الله أمير مكة، وكان قد تأدب وتفقه ونظم الشعر، ومارس ركوب الخيل وصيد الضواري، فأحبه عمه الشريف عبد الله، وزف اليه ابنته عبدية خانم، ووجهه في المهمات، فطاف في انحاء جزيرة العرب، واحكم صلته بالقبائل العربية [1].

وانتقلت الامارة بعد وفاة عمه الشريف عبد الله الى عمه الثاني الشريف عون. يقول أمين الريحاني: « وفي أيام الشريف عون ظهرت مواهب ابن أخيه الحسين فتلألأ ذكاؤه واشتد عزمه، وكان في شعوره ومساعيه عربياً كريماً، غيوراً على قومه وبلاده، لجوجاً متهوساً، ولا غرو وعمه الشريف عون كان يومئذ مثاله الأعلى. فراب الاستانة أمره، فاستدعي اليها سنة ١٣٠٩هـ ليكون ضيفاً على البادشاه [2]. »

وكان من عادة السلطان ان يستضيف كل شخصية متوهجة يرى في وجودها بعيداً عن الاستانة خطراً عليه، فكانت هذه الضيافة نوعاً من الاسر في قفص ذهبي هدفه استمالة تلك الشخصية الخطرة، باغراقها في فيض من الحياة المترفة، ومراقبتها باستمرار لمنعها من القيام بأية حركة معادية، وقد اقترنت «استضافة» الشريف بنفي مريديه المشتركين معه في استنكار مظالم الاتراك الى ازمير، وهم مفتي مكة عبد الرحمن سراج، ونقيب الاشراف علوي بن أحمد السقاف، والشيخ عابد مفتي المالكية، والشيخ عبد الله الزواوي أحد مدرسي الحرم الشريف.

وهكذا منح الشريف حسين في الاستانة رتبة الوزارة كأبيه وعين مثله عضواً في مجلس شورى الدولة، وادخل انجاله مدرسة الانجال على نفقة السلطان، وهي مدرسة خاصة بأبناء السلاطين والشخصيات الكبيرة.

وقد ادرك الشريف منذ البدء الهدف من تلك الضيافة التي استمرت سبع عشرة سنة، فتقبلها صامتاً، ولقن ابناءه وجوب التحلي بالصبر والسكينة الى ان تحين الفرصة للقيام بالدعوة القومية، والعمل على تخليص البلاد العربية من ربقة الظالمين

---

١ — قاموس الاعلام ج ٢ ص ٢٧١
٢ — ملوك العرب ج ١ ص ٥٩

الاتراك ، وفي طليعتهم هذا الخليفة الطاغية الذي يتستر بالدين ويرهق أبناء جلدتهم العرب عسفاً وجبروتا [١] .

وتقول الرحالة مسز ستيورت ارسكين : « كان الحسين قوياً عنيداً جسوراً ، كثير الزهد في هذه الحياة المترفة التي ينعم بها السلطان . وكانت اقامته في العاصمة التركية حيث اعتاد الناس احناء رؤوسهم لارادة رجل واحد ، من أهم الأسباب التي غذت عواطفه الاستقلالية وحبه للحرية [٢] . »

وكان من مظاهر الاصلاح في الفترة القصيرة التي اعقبت اعلان الدستور ، تعيين الشريف حسين أميراً على مكة . وكان أميرها يومئذ الشريف علي بن عبد الله بن محمد بن عبدالمعين،فلما وقع الانقلاب العثماني خشي ان يبطش به الاتحاديون فاستقال من منصبه ولجأ الى مصر ، وخلفه الشريف عبد الإله فتوفى بعد تعيينه بيومين .

يقول جورج انطونيوس :« وكان الحسين شخصية بارزة موقرة، وهو أمر لا بد منه لرجل من سلالة رسول الله ويعيش في عاصمة الاسلام. وفضلاً عن شرف محتده، فان تقواه ومسلكه الرفيع ، وطريقة حياته المستقيمة النقية . كل ذلك اكسبه احترام عدد كبير من المعجبين لهذا السبب ، بل ايضاً لسبب أهم هو ما كان معروفاً من كره السلطان له ، اختاره أعضاء جمعية الاتحاد والترقي الذين كانوا في الحكم ليكون شريفاً لمكة بدل الشريف الحاكم . ولقد عارض عبد الحميد هذا التعيين ، وأكد ببعد نظره الثاقب ان الحسين حين يتولى منصباً مهماً كهذا المنصب لن يكون مجرد آلة ، ولكنه سيصبح قوة دافعة بل ربما أصبح خطراً مهـــدداً . ولكن لم يصغ أحد لتحذيره، فأبحر الحسين الى الحجاز،وكان عمره آنئذ ثلاثاً وخمسين سنة [٣] . »

ويقول حافظ وهبه : « ان الشريف حسيناً قد امتازت أيام امارتـه بالتواضع والعدل والغيرة على أهل مكة والدفاع عن مصالحهم ، كما انه اشتهر أيضاً بالشجاعة، وعلو النفس ونقاء الذيل [٤] . »

---

١ – تاريخ الامة العربية ، عصر الانبعاث ص ٤٢

٢ – الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ١٨

٣ – يقظة العرب ص ١٧٨

٤ – جزيرة العرب في القرن العشرين ص ١٥٧

وقد اظهر الحسين منقوة الشخصية،وحسن السياسة واستقلال الرأي،والاضطلاع بأعباء المنصب الذي عهد به اليه، والتمسك بصلاحياته ومسؤولياته ، أكثر مما توسم الاتحاديون ، بل أكثر مما أرادوا . فقد تبين له خلال ممارسته لعمله ان بعض اسلافه قد فرطوا في كثير من حقوق ذلك المنصب ، فأخذ يعمل لاستعادتها ، ودخل في صراع صامت عنيد مع ممثلي السلطة التركية استمر أعوامـــاً طويلة ، حتى يئست حكومة الاستانة من ترويضه ، وقررت التخلص منه ، ولكن دنو الحرب العالمية الأولى ، وحاجاتها الى معونة الشريف واستغلال نفوذه جعلاها تتراجع عن عزمهـا وترجىء قرارها .

وكان أقطاب العرب في الاستانة يتابعون باهتمام علاقة السلطان بالشريف ، والباب العالي بامارة مكة ، وينظرون اليها كرمز لتحسن العلاقات أوترديها بين العرب والترك . ولما شعروا بالمؤامرات تحاك من حول الحسين لاضعاف نفوذه أو انتقاص صلاحياته أو عزله من منصبه، ارسل اليه نواب العرب في مجلس المبعوثان بالكتاب التالي :

« الى السيد السند المعظم والشريف الأعظم حسين باشا أمير مكة أدامه الله

« نحن نواب العرب في مجلس المبعوثان ، نقرك على امارة مكة ، ونعترف لك دون سواك بالرئاسة الدينية على جميع الأقطار العربية ، لانك الآن خلاصة بيت الرسول صلى الله عليه وسلم . واجماعنا هذا هو بالنيابة عن أهل بلادنا ، نجهر به عند الحاجة . والله يحفظك لامتك ويساعدك لدفع الشر عن دينك [٢] . »

وكتب اليه السيد طالب النقيب كتاباً قال فيه :

« صرح لي أعداء لغتنا وامتنا وأخصهم خليل بك باننا نحن العرب ان لم نذعن لارادتهم وتعليماتهم نساق الى المشانق سوق الانعام.وقد اتصل هذا التهديد بعلم ممثلي الشعب العربي فاشمأزوا وسخطوا واحتجوا بلهجة نارية أدت الى وقف جلسة البرلمان المنعقدة في ذاك اليوم . وسوف يصف لكم ولدكم الشريف عبد الله شفاهاً الشراسة

---

١ – ثورة العرب ص ٧٨

التي امتاز بها هؤلاء الانذال .

«وثقوا يا صاحب السيادة بأن جميع النواب العرب يعضدونكم بكل ما تملكه قلوبهم والسنتهم من قوة ، وهم يقرون بامتنان حسناتكم العديدة في بلاد الحجاز منذ تبوئكم مقام امارتها . وإنا نعترف بمدى حماسكم لايماننا وشعبنا . ونحن على استعداد لان نثور معكم ان اردتم خلع النير الذي يطوق العرب وشئتم تحريرهم من ربقة الاستعباد .

«واتشرف بأن اضع طياً بياناً موقعاً من نوابنا العازمين عزماً أكيداً على الدفاع عن الأمة العربية،وهم يعترفون بسيادتكم خليفة للنبي (ص) وحامياً وحيداً مسؤولاً عن البلاد العربية .

ونعلم ان هذا البيان يتضمن قراراً خطيراً ، فليقض القدر بما يشاء ، والسلام[1]»

ويصف فيلسوف الفريكة شخصية الشريف حسين وصفاً دقيقاً رائعاً يعطينا صورة حية لذلك الرجل الكبير الذي تعلقت به آمال العرب في تلك الفترة العصيبة من حياتهم وفي ذلك المنعطف الخطير من تاريخهم ، فيقول :

« من عادة المصورين انهم بصناعتهم يحسّنون في بعض الاحايين صور الناس . ويظهر عفواً في رسوم بعض الناس شيء من الحسن قلما يبدو في وجوههم . أما رسم الملك حسين الذي نشر في اوروبة واميركة اثناء الحرب فهو لا يشبهه،ولا يمثل ما في وجهه من البشاشة وقد مازجها شيء من الغم ، ومن الجلال المقرون، باللطف وليس فيه تصنع واعتناء .

« كانت دهشتي الثانية [2] اني اجتمعت بمليك كنت اظنه من رسمه رجلاً قطوباً جافاً قاسياً . فكذب ذلك الرسم الوجه منه والحديث . أجل ان في محيا الملك حسين سيماء جلال طبيعي لم اشاهد مثله في غيره من ملوك العرب . بل فيه تتجلى روحانية شرقية قرنت بالتأدب الغربي ، ولا غرو ، وهو من بني نمي من سلالة

---

١ — نهضة العرب ، التحرر فالاستقلال فالدولة ص ٢١

٢ — روى الريحاني قبلاً ان دهشته الاولى كانت اكتشافه وجود الهاتف في مكة .

الرسول، وقد أقام عشرين سنة في الاستانة. ان في وجهه كما في حديثه إذن عنصرين من الانس والكياسة مما غاب ويا للعجب في رسمه ، الأول أخلاقي نبوي ، والثاني اجتماعي اكتسابي فهو رقيق الأديم صافيه ، عـــدل الانف دقيقه ، له جبين رفيع وضاح يظهر بكمال بهائه عندما يرفع العقال ويلبس العمامة،وفي ناظريه نور يشع من حدقتين عسليتين تحيط بهما هالة زرقاء . وله فوق ذلك ابتسامة ما عرفت أجذب منها للقلوب غير ابتسامة خصمه ابن سعود السلطان عبد العزيز .

« اما صوته فألطف من النور في عينيه . وأما أنامله فان فيها دليلًا أفصح وأصدق مما في كتب الانساب على طيب الارومة والشرف الأثيل . وقد كبرت هـــذه المحاسن في نظري لأنها عارية من مظاهر الأبهة والجلال . فانك لا تمـــيز الملك عن أحد مشايخ العرب إذا كان مسافراً لولا عقال من الحرير أصفر فوق كوفية أخف اصفراراً منه . وهذا العقال ارث ثمين ، وهو عقال بني نمي ، عقال بيت الشريف ، بل تاج الملك فيه . وإذا اعتم الملك فلا ترى فرقاً بينه وبين أحد الأعيان أو العلماء لولا ذؤابة عمامته البيضاء . هاك في القيافة مظهراً من مظاهر الديمقراطية التي يشاهدها السائح في كل ملوك العرب وأمرائها [1] .. »

ويكمل الريحاني هذه الصورة البارعة في مكان آخر فيقول : « وطالما استمالتني إشارة مولاي اللطيفة فملت بعقولي إلى السر في يديه وفي ناظريه، وكنت كالمسحور في فيض من المغناطيس يسيل من أنامله ومن نظراته . وما السياسة وما الحقائق ، وما الحكمة كلها ، عند سحر ينسيك شقشقات الناس وخزعبلات الأمم .

« أجل ، ان لمولاي صاحب الجلالة الهاشمية والغوامض السياسية ، وقفات في حديثه تزري بالفصاحة والبيان ، واشارات تفك طلاسم الكهان ، ونظرات تقيد منك العقل والجنان يبسط يديه اشباعاً إذا أحس من نفسه انه افحمك ، ويضمهما إلى صدره تلطفاً إذا توقع منك جواباً ، ويعالج عقاله أو يحرك عمامته إذا رأى منك فتوراً أو إدباراً، ويغير جلسته على الديوان إذا اوجس فيك الملل،فماذا تهمك معانيه ومقاصده وهو أمامك السحر والحلال مجسداً [2] . »

---

١ ــ ملوك العرب ج ١ ص ٢٦ ــ ٢٧
٢ ــ المرجع السابق ص ٣٤

وقد جاءت تلك الرسالة الشفهية التي حملها فوزي البكري إلى الشريف من قبل قادة الحركة العربية ، في الوقت الذي كانت تدور بينه وبين اللورد كتشنر والسير رونالد ستورز ، مباحثات تعرض على الشريف المساعدة البريطانية فيما إذا قام بثورة على تركية ، وكان الشريف يجيب بتشجيع غامض دون أن يعد بشيء أو يقطع في شيء للتأكد أولاً من ان هذه المساعدة ستؤلف ضماناً كاملاً لاستقلال العرب ، وقد فتحت هذه المباحثات الأولية التي لم تكن بالنسبة للفريقين سوى نوع من « جس النبض » باب الأمل أمام الشريف في التحرر القومي بالنسبة إلى الولايات العربية كلها بعد أن كان أمله يقتصر في البدء على استقلال الحجاز. وبينما كان يشاغل الأتراك بالرسائل التي تعلن ولاءه، كان يدرس موقف الانكليز من جميع الوجوه ، ويوفد مبعوثين في الخفاء برسائل منه إلى الادريسي في عسير والإمام يحيى في اليمن وابن سعود وابن الرشيد في نجد والمرغني في السودان ليسبر غورهم ويعرف موقفهم [1] .

وهكذا تعلقت بمكة وأميرها الشريف حسين ، آمال الحلفاء وآمال تركية والمانية، وآمال قادة العرب الذين وجدوا في تلك الحرب فرصتهم الوحيدة لاعلان الثورة وخوض المعركة ، فقرروا توحيد الجهود العربية لانتهاز تلك الفرصة السانحة.

لقد كانت تلك الرغبة أو الدعوة التي حملها فوزي البكري من دمشق إلى مكة [2] تتجاوب تجاوباً عميقاً مع مشاعر الشريف حسين وأفراد أسرته ، الذين كانوا يتطلعون منذ عهد بعيد إلى تحطيم النير العثماني ويرون أن من واجبهم — وهم أبناء الأسرة التي يتصل نسبها باعرق ارومة عربية ، والتي طالما قادت العرب إلى مجالي الرفعة وساحات المجد — ان يعملوا على تحرير تلك الأمة من إسارها ، وان يبذلوا في سبيل ذلك الروح والدم .

---

١ — انظر تفاصيل تلك المباحثات الاولية في يقظة العرب ص ٢٠٤ ، الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ١٢٤ الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ٤٠.

Lawrence d'Arabie Par Benoist - Méchin P. P. 87 - 90 .

٢ — يروي أسعد داغر أن قادة حزب العهد وحزب الفتاة في استانبول ارسلوا في الوقت نفسه شريف الفاروقي احد الضباط العرب ، الى مصر للاتصال من هنالك بالشريف حسين وحثه على الثورة وتأييده فيها (مذكراتي على هامش القضية العربية ص ٨٣) .

ومع ذلك فان الشريف كان أشد حذراً من أن يفصح عن تأييده للخطة الثورية أمام رجل غريب ، فلم يجب بشيء ولم ينبس بسؤال ، واكتفى كما يقول جورج انطونيوس بتسريح نظره من النافذة كأنه لم يسمع شيئاً. ولكن المجال الذي فتحته تلك الرسالة الشفهية ، كان هو المجال الذي يبحث عنه .

وما هي إلا أسابيع قليلة حتى أوفد الأمير فيصل بمهمة خاصة إلى الاستانة بعد أن أبرق إلى الصدر الأعظم بذلك ، وكان الغرض الظاهر من رحلة الأمير زيارة الاستانة ، أما الغرض الحقيقي منها فكان زيارة دمشق للاتصال بزعماء العرب للاطلاع على حقيقة موقفهم ومدى استعدادهم . ووصل الأمير إلى دمشق في٢٦ آذار (مارس) ونزل في دار عطا باشا البكري بالرغم من الدعوة التي تلقاها من جمال باشا بأن يكون ضيفاً على القيادة العامة. وكان أول ما فعله انه انضم إلى جمعية الفتاة عن طريق نسيب البكري أحد أعضائها البارزين ، وأقسم يمين الولاء لمبادئها وأهدافها ، كما اجتمع باقطاب جمعية العهد التي كانت تتعاون مع الجمعية الأولى وفق خطة قومية موحدة ، وأعلن انضمامه اليها وأقسم يمين الولاء لها . وقد امتلأت نفسه بما لمس من روح قومية جياشة ، ومن عزيمة ماضية على اضرام نار الثورة في بلاد العرب لنيل حريتها وانتزاع استقلالها .

وكان قادة الحركة العربية يعملون على أن تكون سورية منطلق الثورة ، لأنها تزخر بالقوى الواعية المتحمسة المتفهمة لأهداف الحركة والمؤمنة برسالتها ، وقد اتصلوا بزعماء القبائل وذوي المكانة وضموهم إلى صفوفهم ، فكان من رجال الحركة نواف الشعلان شيخ قبائل الرولة ، ونسيب الأطرش من شيوخ الدروز ، وفرحان الميدا شيخ مداين صالح ، وأبو سليم فرحان المغوش شيخ خلخلة ، وغيرهم من ذوي النفوذ في سورية على اختلاف الطبقات والمذاهب .

وأراد الأمير فيصل معرفة قوة الحركة العربية في سورية ، فاجتمع بياسين باشا الهاشمي رئيس أركان حرب الفيلق الثاني عشر وصلة الوصل بين جمعية العهد وجمعية الفتاة ، وسأل عن المساعدة التي تحتاجها سورية كي تشترك بالحركة التحررية عندما تأزف الساعة ويدعى العرب إلى الجهاد ، فأجابه ياسين باشا :

— ان سورية لا تحتاج إلا إلى عزم الحسين على ترؤس الحركة التحريرية

العربية [1] .

فكان لهذا الجواب أعمق الأثر في نفس الأمير ، لأن الرجل الذي تلقى منه الجواب كان يملك صفة التكلم باسم الجيش المرابط في سورية وهو يتألف بأكثريته من العرب .

وكانت جمعية الفتاة قد أعدت قائمة بأسماء الأشخاص الذين يجب أن يجتمع اليهم ويستمع إلىأقوالهم لأنهم يمثلون سورية تمثيلاً صحيحاً،وكان بين هؤلاء ياسين الهاشمي، وعلي رضا الركابي ، ونسيب الأطرش ، ونواف الشعلان ، وعبد الرحمن شهبندر ، وأحمد قدري، ومحمد الشريقي، وقد تحدثوا باسم الفرق العسكرية العربية، وجمعية الفتاة ، وجبل الدروز ، والقبائل العربية في سورية ، والشباب الوطني المثقف ، وكانوا يجمعون على أن الوقت قد حان لاعلان الثورة ، وانهم لا ينتظرون سوى أن يقود والده هذه الحركة ويقوم على زعامتها ورئاستها .

وتحدث الدكتور عبد الرحمن الشهبندر عن مقابلته للأمير في مقال كتبه عنه إثر وفاته جاء فيه : « لما أعلنت الحرب العالمية ، عدها الاتحاديون فرصة سانحة لتطبيق منهاجهم السياسي فكشروا عن انيابهم وهاجمونا مهاجمة عنيفة في عقر دارنا ، مهدوا لها السبيل بالدعايات التي تجوز على أهل العقائد الوهمية . حينئذ اتخذ الطموح في البيت الهاشمي وجهة قومية صريحة لا مواربة فيها ، وقد تجلت لي على أتم مظاهرها يوم قابلت المليك الفقيد في بيت المرحوم عطا باشا البكري في دمشق في صيف سنة ١٩١٥ ، ودار الحديث بيننا حول القضية العربية ومظالم الاتحاديين والعلاج الشافي من تلك الاوصاب ، وقد بدت لجميع من اختلوا به من العاملين ، روح الثورة على وجهه ، ولكن الضغط يومئذ كان يتطلب منتهى الحذر في المتكلمين والمستمعين لأن أقل بادرة تبدر من المرء تكفي لجره إلى المشنقة [2] . »

ثم أنشأ الأمير يتباحث مع أقطاب جمعية العهد وجمعية الفتاة حول الخطة التي

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٤٦ ، انظر ايضا اسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ص ٦٥

٢ ـ المقتطف ، أكتوبر ١٩٣٣

يجب انتهاجها لإعلان الثورة ، والوصول بها إلى غايتها . وقد أبلغهم أن بريطانية تعرض مساعدتها على العرب ، وسألهم إن كانوا يوافقون على قبول هذه المساعدة ، وما هي الشروط التي يرون من الواجب أن تكون أساساً لعقد اتفاق مع بريطانية لهذا الغرض .

وكان الأمير فيصل صريحاً كل الصراحة في عرض الموقف بكل تفاصيله ، وقد أوضح لزعماء العرب أن والده الشريف حسين لا يزال ينظر بحذر شديد إلى عرض بريطانية، في حين أن شقيقه الأمير عبدالله أشد تحمساً له وهو يرى فيه الفرصة السانحة لانتزاع أماني العرب ، بينما هو يتخوف من مطامع الدول الاوروبية في البلاد العربية . وبعد أن وضع الأمير هذا الأمر بين أيدي الزعماء العرب ، تابع رحلته إلى الاستانة ، تاركاً لهم الوقت الكافي لدراسته واتخاذ قرارهم فيه .

وعلى اثر ذلك عقد أقطاب الجمعيتين اجتماعاً قرروا فيه أن يقوم الحسين بن علي بمفاوضة بريطانية باسم العرب ، وأن يتحالف معها على أساس اعترافها باستقلال البلاد العربية الخاضعة للدولة العثمانية في دولة حرة موحدة ، وإلغاء جميع الحقوق الممنوحة للاجانب والمعروفة باسم الامتيازات الاجنبية ، وعقد معاهدة دفاعية في نهاية الحرب بين بريطانية والدولة العربية المستقلة ، ويكون التفضيل لبريطانية في المشاريع الاقتصادية التي يقوم بها العرب . فلما عاد الأمير فيصل إلى دمشق في ٢٣ ايار (مايو) ، أبلغوه قرارهم هذا ، وسلموه خارطة تعين الحدود الجغرافية للدولة العربية التي يجب أن يتجه السعي لنيل الاستقلال على أساسها وضمن حدودها،وتشمل هذه الحدود جميع الولايات العربية الخاضعة للحكم العثماني يومذاك . وأعلن زعماء العرب للامير فيصل انهم يعتبرون الشريف حسين ممثل الشعب العربي ، وتعهدوا بأن تبادر الفرق العربية المرابطة في بلاد الشام إلى اعلان الثورة في جميع أنحاء البلاد ، متى اتفقت بريطانية مع الشريف على الشروط المذكورة .

وهذا هو نص الميثاق الذي وضعه أقطاب جمعيتي الفتاة والعهد ، وحمله الأمير فيصل إلى والده ، وفاوض الشريف حسين المسؤولين البريطانيين على أساسه :

١ ـ اعتراف بريطانية العظمى باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود

التالية : شمالاً : خط مرسين – أضنه إلى ما يوازي خط العرض ٣٧ شمالاً ، ثم على امتداد خط بيريجيك – اورفه – ماردين – مديات – جزيرة ابن عمرو – العمادية إلى حدود ايران .

شرقاً : على امتداد حدود ايران إلى خليج العرب جنوباً .

جنوباً : المحيط الهندي (باستثناء عدن التي يبقى وضعها الحالي كما هو) .

غرباً : على امتداد البحر الأحمر ثم البحر الأبيض المتوسط إلى مرسين .

٢ – الغاء جميع الامتيازات الاستثنائية التي منحت للأجانب بمقتضى الامتيازات الأجنبية .

٣ – عقد معاهدة دفاعية بين بريطانية العظمى وهذه الدولة العربية المستقلة .

٤ – تقديم بريطانية العظمى وتفضيلها على غيرها من الدول في المشروعات الاقتصادية [١] » .

والطريف أن الأمير فيصل قد سجل نص ميثاق دمشق ، في ورقة صغيرة جداً وطلب من أحد أعوانه أن يضعها في حذائه ويخيط عليها بطانة الحذاء ، ثم سافر إلى القدس ليودع جمال باشا ويستأذنه في السفر ، ثم يتابع رحلته إلى مكة فيصلها في ٢٠ حزيران (يونيه) وقد فارقه تردده السابق وأخذ يحث والده على اعلان الثورة وقبول مساعدة بريطانية إذا وافقت على ميثاق دمشق .

يقول الملك عبد الله : « ثم ترادفت الوفود إلى الحجاز من القطر الشامي ، وعرضوا على الشريف في مكة ما الناس فيه من سوء حال ومستقبل مظلم ، مع الظلم والاضطهاد والنفي والابعاد ، حتى جاءت الحرب السابقة ، وجاء جمال باشا بسلطانه وعدوانه إلى دمشق ، فضاقت الأرض بما رحبت ، وخاف بأسه كل عزيز وذليل » .

لقد كان الحسين بن علي كما يقول أمين الريحاني « أكبر ملوك العرب سناً وأظهرهم جلالاً وأرفعهم من الوجهة الدينية مقاماً [٢] » وهذا ما جعل الانظار تتجه اليه والآمال تعقد عليه . وقد أشار الاستاذ ساطع الحصري إلى ذلك بقوله : « ان

---

١ – يقظة العرب ص ٢٤٣

٢ – ملوك العرب ج ١ ص ٥٧

امارة مكة المكرمة كانت تتمتع بمركز تاريخي مهم ، يجعلها صالحة لاثارة الثورة وقيادتها ، وعلى الخصوص فان الأمير الأخير ـ الشريف حسين باشا ـ نفسه كان قد اكتسب شخصياً نفوذاً كبيراً خلال امـــارته الطويلة ، لأنه لم يترك فرصة تمر دون أن يستفيد منها لتقوية الامارة تجـــاه سلطة الولاية ، وكل هذا يجعله أقدر وأكفأ الرجال على تزعم الثورة بصورة معنوية [1] . »

أما الأمير مصطفى الشهابي فيقول بعد أن يتحدث عن وضع الأسرة الهاشمية : « ويتضح من ذلك ان أسرة الحسين الهاشمي كانت يومئذ أعلم الأسر العربية الحاكمة بماهية القضية العربية ، وبمداها البعيد وبأفقها الواسع ، فلا غرابة إذن في أن يلجأ رجال القضية العربية إلى الأسرة المشار اليها ، ولا غرابة في أن يتبنى الحسين وآله تلك القضية [2] »

ويتحدث عزة دروزه عن العوامل العـــديدة التي حفزت الحسين إلى الثورة فيقول : « لقد كان الحسين نفسه في الاستانة في ظروف اعلان الدستور ، وتأثر بطبيعة الحال بما بدا من نشاط عربي وانتشر من فكرة قومية عربية ، وبما ظهر من بوادر نيات الترك وخاصة الاتحاديين ، وكان نيّر العقل بعيد المطمح ، ثم صار أمير مكة الرسمي ، وتعقب وهو في هذا المنصب الخطير ما وقع من أحداث عربية وما كان من تجهم الاتحاديين لهـــا وخطوتهم الحاسمة عقب اعلان الحرب إلى التنكيل برجالات العرب والقضاء على الحركة العربية وما بدا منهم في هذا السبيل من قسوة وبغي . فلا جرم أن يكون قد رأى أن الحرب قد تكون فرصـــة سانحة لانقاذ العرب وتحقيق أمانيهم في الاستقلال والحرية والكرامة . ولعله رجح أن تُغلب الدولة العثمانية فحفزه هذا على اغتنام الفرصة السانحة . ولقد كان انجال الحسين في الاستانة مع أبيهم وصار بعضهم نواباً بعد أن استلم منصب امارة مكة ، فما لا ريب فيه انهم تأثروا هم الآخرون بالحركة العربية ونشاطها في الاستانة وأحداثها في البلاد الأخرى ، فكانوا عوناً لأبيهم في ما أقدم عليه من خطوة خطيرة مدفوعين

---

١ ـ محاضرات في نشوء الفكرة القومية ص ٢٠٥
٢ ـ محاضرات في الاستعمار ج ٢ ص ٥٣

بتأثرهم بطبيعة الحال ، ولقد كان لنجله الثاني عبدالله ملك الاردن الآن ، ولنجله الثالث المغفور له ملك العراق بنوع خاص جهد في هذه الخطوة . فقد كان الأول مبعوثاً عن الحجـــاز في مجلس النواب بعد تعيين والده أميراً لمكة ، وشهد تطور الحركة العربية قبل نشوب الحرب وبعده ، واتصل ببعض الجمعيات السرية وتبنى غاياتها ، ولمس من جهة أخرى ما كان من تجهم الاتحاديين لها وسوء نواياهم نحوها ونحو العرب ، ثم ما كان من تجهمهم نحو والده ، فحفزه كل ذلك على التفكير في استسناح فرصة الحرب للخطوة الحاسمة [1] . »

---

١ ــ حول الحركة العربية الحديثة ج ١ ص ٤٩

الفصل التاسع

في ظلال المشانق

بينما كانت المباحثات مستمرة بين مكة ودمشق ، شرعت تركية بحركتها الارهابية الغاشمة في البلاد العربية ، على يد جمال باشا السفاح وأمثاله من القادة المتعصبين الذين كانوا يضمرون الحقد الرهيب للشعوب غير التركية في الامبراطورية العثمانية مسلمة ومسيحية على السواء .

فبحجة الضرورات الحربية نقضت تركية المادة ١٤ من نظام لبنان الأساسي الذي ضمنته اوروبة ، واحتلت أراضيه احتلالاً عسكرياً ، وبعثرت القوى المحلية الخاصة به ، وفرضت عليه حاكماً تركياً بدلاً من الحاكم المعترف بـه من الدول العظمى ، وأرسلت إلى المنفى أكثر من أربعة آلاف وجيه من لبنان وبيروت وبعلبك ، وأخذت تصدر أحكام الاعدام قتلاً وشنقاً ، وضربت الحصار على الجبل فهلك بالمجاعة ألوف اللبنانيين [1] إذ منعت البواخر الأميركية المحايدة التي أرسلها المهاجرون العرب موسوقة بالأطعمة إلى أهلهم من انزال شحناتها إلى السكان الجياع ، وحظرت صرف الحوالات المالية على دول الحلفاء وكانت أكثر المعاملة بها ، وتركت

1 ـ انظر تفصيل ذلك في « بيروت ولبنان في عهد آل عثمان » ص ٢٣١ وما بعدها .

الحبل على الغارب لنفر من محتكري الاقوات يوردونها للجيش بينما الاطفال يموتون جوعاً ، وكان هذا التضييق عاماً في جميع بلاد العرب [1] .

واشتدت الضائقة الاقتصادية في الحجاز، إذ أغلقت أبواب البحر وانقطع الحجاج ونفد القليل مما كان في البلاد من زاد ، فضجت الناس ، وهلك الكثيرون من الجوع ، ومنحت الحكومة التركية وهيب باشا القائد التركي في الحجاز سلطات واسعة بغية الحد من سلطان الشريف حسين وانجاله ، تمهيداً للبطش بهم ، وقد اكتشف الأمير علي بن الحسين هذه المؤامرة حين وقعت في يده مصادفة مكاتبات سرية كانت تدور بين وهيب باشا وحكومة الاستانة للفتك بالشريف وأولاده والقضاء على النزر اليسير من الاستقلال الذي كان يتمتع به الحجاز بين الولايات العربية وكانت هذه المكاتبات سابقة لاعلان الحرب ، ويبدو أن اشتراك تركية في الحرب قد حال دون تنفيذها بغية اشتراك امراء الهاشميين والقوات العربية التي يستطيعون تجنيدها في معاركها في البلاد العربية .

ويروي الأمير سعيد الجزائري انه زار مكة في تلك الأيام وحل ضيفاً على الشريف وكان الأمير سعيد من دعاة التعاون مع الدولة العثمانية في تلك الحرب باعتبارها مركز الخلافة العثمانية ، فمضى يقنع مضيفه بذلك ، فاذا بالشريف يصارحه بنقمته على الأتراك ويندد بجرائمهم ويؤكد على ضرورة التحرر من نيرهم واستبدادهم . « وقد بلغ الحنق والغيظ من أمير مكة أقصى حد حتى أن أعضاءه أخذت تختلج عند ذكر هذه المآسي » فقال الأمير سعيد: « ولكنك يا شريف ، أنت ثاني رجل في الدولة العلية بعد الخليفة، وإذا حدث للحكومة حادث فلا أحق منك أن يتقلدها لنسبك من رسول الله ، ولمقامك العظيم عند جميع المسلمين ، ومن لنا أمير غيرك إذا أصيبت الخلافة » ووعده بأن ينصح جمال باشا اثر عودته إلى دمشق بأن يغير منهجه ويعدل سياسته [2] .

وفي العراق أعدم الجنرال نور الدين باشا القائد العام للقوات التركية في ما بين

---

١ ـ الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ٣١

٢ ـ جهاد نصف قرن ص ٥٩

النهرين وفي بغداد ، ١٠٥٥ شاباً من أحرار العراق ، عدا الذين قضوا شنقاً وماتوا في الصحارى. ولما خلف خليل بك، نور الدين باشا واستولى على كوت العمارة، أمر بشنق أربعين وجيهاً واهداء نسائهم إلى ضباطه وجنوده ، ولكـــن هؤلاء النسوة العربيات آثرن الموت على العار ، فقذفن بأنفسهن إلى دجلة وحملت مياه النهر جثثهن إلى شوارع المدينة . وانقض القائد عاكف بك بسبعة طوابير على بلدة الحلة التي يقطنها ثلاثون ألف نسمة ، فأبادهم جميعاً ولم ينج منهم سوى عدد قليل فـــر إلى البصرة [1] .

وفي سورية كشفت السلطات التركية عن بوادر مؤامرة واسعة النطاق تحاك في الخفاء ولها مراكز في دمشق وبيروت وبعلبك ومدن أخرى ، وهدفها أعلان الثورة على الأتراك والمناداة باستقلال العرب ، فاتخذت التدابير الصارمـة ، وبثت الارصاد في كل مكان ، وألقت القبض على نخبة من شباب سورية ولبنان، وحكمت عليهم بالاعـدام ، فساروا إلى الموت باسمين وهم يرددون : « لا تبنى الدول إلا على الجماجم ، وهذه جماجمنا أساس لدولتنا العربية ، فنحن باسم العرب نحيا وباسم العرب نموت ، وبموتنا تحيا الأمة العربية » .

لقد قبض جمال باشا على البلاد بيد حديدية ، وبث العيون في ربوعها ، وغطاها بشبكة من الجواسيس يتربصون بالمواطنين الدوائر ، ويحصون عليهم الأنفاس ، وإذا اعيتهم الحيلة بجمع تلك المعلومات اختلقوها من مخيلاتهم .

وكان من الطبيعي أن يستهدف هؤلاء الجواسيس ، الشبان المثقفين الذين حملوا راية العروبة ودعوا إلى التحرر من نير الاستعمار .

وكان من جملة التقارير التي أرسلت اليه تقرير مفاده أن بعض أعضـــاء المنتدى يعملون على اخراج الدولة العثمانية من البلاد ، وإقامة دولة عربية ، وان ثمة فرقـة عسكرية مجهزة أحدث تجهيز ، مهمتها إغلاق الحدود ما بين سورية وتركية .

ويقول جمال باشا في مذكراته أن بعض الأشخاص زاروه وقالوا له : « انكم

---

١ ـ نهضة العرب : التحرر فالاستقلال فالدولة ، ص ٦١

وضعتم ثقة كبيرة في جماعة الاصلاح وخولتموهم حرية مطلقة في البـــلاد ولكنني أخشى أن يكونوا اساءوا استعمال تلك الثقة ، فان رضا بك الصلح وعبد الكريم الخليل ينظمان عصياناً في جهتي الطيبة وصيدا ، ولو تفضلتم بإجراء تحقيق لتبينتم صحة كلامي » وقد أمرت بإجراء تحقيق فأثبت صحة ما قيل ، فأمرت بالقبض على رضا الصلح وعبد الكريم وشركائهما .

« وعثر موظفو المراقبة على كتب واردة من القاهرة تحث متنوري العرب على الثورة بدعوى أن تركية سوف تخرج من الحرب مخضودة الشوكة فتصبح البـــلاد العربية عرضة لاستيلاء الأجانب فيقتضي أن يذود العرب عن استقلالهم المهدد ، وقد استنتجت من ذلك ان جماعة الاصلاح لم يعدلوا عن العصيان في سورية وفلسطين ، كما عجبت لما أظهره عبد الكريم وجماعته من الولاء للحكومة منذ اعلان الحرب حتى الآن » .

ولم يكن من المعقول تبرير اعتقال طائفة من خيرة شباب العرب اعتماداً على تقارير الجواسيس والنفعيين وحسب ، ولذلك عادت السلطات التركيـــة إلى عتيق دفاترها ، واستحضرت ذاكرتها قصة المؤتمر الذي عقد في باريس ، واتخذته ذريعة لاعتقال العديد من المثقفين وأعلام الرأي والفكر ، وان كان ذلك المؤتمر قد اتخذ الصفة الشرعية والقانونية لأن طلعت بك فاوض عبد الكريم الخليل ، على ضوء مقرراته ، فضلاً عن أنه من « الجرائم » التي شملها العفو العام الذي أصدره عام ١٩١٣ (١٣٣٢هـ) السلطان محمد رشاد .

ولكن هل للمستعمر منطق يركن اليه ، وهل للقانون عنده من حرمة ، وهكذا سيق أعضاء المنتدى وأعضاء حزب اللامركزية ممن طالتهم يد البغي إلى الديوان العرفي في عاليه ، وأعدم السفاح ثلاث قوافـــل من أحرار العرب الذين قاوموا الاستبداد العثماني ودعوا إلى تحطيم القيود التي كبل بها شعوبهم مئات الأعوام .

وقد أمر السفاح الديوان العرفي بعاليه بأن يقضي بإعـــدام القافلة الأولى في العشرين من آب (اغسطس) سنة ١٩١٥ (١٣٣٤هـ) ، وكانت تتألف من أحد عشر شهيداً ، فنصبت المشانق في ساحة البرج ببيروت التي سميت فيما بعد « ساحة الشهداء »

وطوقتها كتائب الجند ، وجيء بالمعتقلين من سجن عاليـــه إلى دائرة الشرطة في بيروت ، وترفق الحرس بهم فلم يمروا بالساحة الرهيبة لئلا يروا مشانقهم ! !

وفي دائرة الشرطة حشر المعتقلون في غرفة صغيرة وتلي عليهم حكم الاعـــدام وسمح لهم بكتابة وصاياهم .. وتركت هذه الوصايا وديعة لدى دائرة الشرطة لتسلم إلى أهلهم الذين لا يعلمون من أمرهم شيئاً .

وقبل ان ينبثق الفجر في ذلك اليوم المشؤوم ، سيق المحكومون إلى ساحـــة الاعدام بين صفوف من الجند ، وكان يمثل الحكومة العثمانية في هذه المأساة رضا باشا قائد فرقة عاليه وأعضاء الديوان العرفي ومدير البوليس محي الدين بك ، وقـد ازدحمت في الساحة أشتات من الناس تسامعت بالنبأ فمنها من جاء للفرجة ومنها من جاء والنقمة تزخر في صدره وتصرخ في ضميره .

وكان أول من صعد إلى سلم المشنقة عبد الكريم الخليل ، فأجـــال بصره في الحاضرين وقال : « إذا كان جمال باشا يتهمنا باضرام الثورة لاستقلال العرب ، فلا بد من ضحايا لهذا الاستقـــلال ، ولكن نحن أول الضحايا .. » ثم هتف بحماسة : « يا أبناء بلادي ، نحن أمة تسعى للاستقلال والتحرر من نير الترك . فيا أرض وطني احفظي ذكرانا،وأنت يا سماء بلادي احملي إلى كل عربي سلام هؤلاء الشهداء، وقولي لهم أننا عشنا في سبيل الاستقلال، ونموت في سبيل الاستقلال .. » واختنقت بقية الكلمات في حلقه لأن الكرسي كانت قد هوت من تحت قدميه ..

وجاء دور الأخوين محمد ومحمود المحمصاني ، فتعانقا وصعدا إلى منصة الاعدام معاً ، ولفظا روحيهما البريئتين في وقت واحد ، وقـال محمود بينما كان الجلاد يربط الحبل في عنقه : « يشهد الله أن ما فعلته وما قمت به انما كان عن اعتقاد راسخ بانني أخدم بلادي وانقذها .. لقد كنت في السجن أعرب تاريخ استقلال ايطالية التي تحررت بدماء أخوين شهيدين ، فما أسعد حظنا أنا وأخي محمود إذا كان موتنا حياة للأمة العربية » .

وقال نور الدين القاضي وهو يصعد إلى المشنقة : « قولوا لأخي ألا يبكي عليّ لأني أموت ميتة الأبطال ! » .

وكذلك قضى بقية أفراد القافلة : عبد القادر الخرسا ، وصالح حيدر ، وعلي الارمنازي ، وسليم الأحمد عبد الهادي ، ومحمود العجـــم ، ونايف تللو ، ومسلم عابدين .. لقد قضوا جميعاً والابتسامة لا تفارق ثغرهم ، لأنهم كانوا يؤمنون بأن أرواحهم لن تزهق عبثاً ، وان الأمل الذي قضوا في سبيله لن يلبث حتى يتحول إلى واقع حي .

وأشرقت الشمس بعد قليل لتشهد إحدى عشرة جثة معلقة في الهواء ، وكأنها أحد عشر شاهداً على استبداد العثمانيين ونذيراً لدولتهم بالزوال . ثم جـــاء الأمر فحملت هذه الجثث المباركة على « الطنابر » إلى رمال الصنائع حيث حفر لكل منها حفرة اودعت فيها ، أما الأخوان محمصاني فقد ضمتها حفرة واحدة .

وقد برر جمال باشا اعدام هؤلاء الشبان الأحرار بما أورده عن كل منهـــم في كتاب « الايضاحات السياسية » :

١ ــ عبد الكريم الخليل : كان مع رضـا الصلح في كل تحريكاته أثناء الحرب العامة ، خلاف ذلك فانه كان من الداخلين في جمعية اللامركزية وفي تشكيلاتهـا السرية ، وسافر إلى مصر واشترك في مذاكرات اللامركزية .

٢ ــ صالح حيدر : كان رئيساً لبلدية بعلبك وهو ذو نفوذ في المنطقة التابع لها ووجوده على رأس بلديـــة بعلبك ساعده على تعزيز موقف الحزب اللامركزي ونشر الدعايات له . وقد كان عاملاً خطراً ضد الدولة العثمانية ومن أكبر المساعدين على ايجاد التفرقة بين الترك والعرب .

٣ــ مسلم عابدين : كان يكاتب حقي العظيم ، وكان من الداخلين في جمعيته ، وكان معتمداً للجمعية في اللاذقية .

٤ ــ نايف تللو : كان من ضمن الداخلين في الجمعية ومعتمداً لهـــا في البقاع ، وقد اعترف أنه أدخل أشخاصاً فيها .

٥ ــ محمد المحمصاني : أحد مؤسسي فرع بيروت للامركزية ، وقد أبرزت له نصوص الكتب التي كتبها في الطعن بالادارة العثمانية وفي الشكاية من ظلم الأتراك وأذاهم ، فاعترف بصدورها منه .

٦ – محمود المحمصاني : كان من الذين دخلوا في اللامركزية وأحد دعاتها السريين ، وقد أدخل فيها عدداً من الأشخاص ، وتسلم أختام فروعها في سورية ووزعها وكان يدير فرع بيروت .

٧ – عبد القادر الخرسا : كان من الداخلين في اللامركزية وجاء باختامها من مصر إلى بيروت وكان هو نفسه من أعضاء فرع بيروت .

٨ – محمود العجم : كان من الداخلين في فرع بيروت للامركزية كما اعترف هو نفسه وكان يؤدي التقاسيط الشهرية بانتظام ، واعترف أنه قرأ المنشورات .

٩ – سليم الأحمد عبد الهادي : كان معتمداً للامركزية في قضاء جنين .

١٠ – نور الدين القاضي : كان من أعضاء اللامركزية ، وكان يأخذ أختام الفروع ويسلمها إلى الفروع المختصة بها، وكما كان يتسلم الكتب والمنشورات الواردة من البريد الفرنسوي .

١١ – علي الارمنازي : اعترف بأنه كان على صلة باللامركزيين ، ثم ادعى بأنه انفصل عنهم . وكان معتمداً للحزب في حماه وقد جاءه نوري القاضي بالختم [١].

وحكم في هذه القضية بالاعدام غيابياً على حافظ السعيد نائب يافا في مجلس المبعوثان ، والشيخ سعيد الكرمي مفتي طولكرم ، وحسن حماد وغيرهم . وقد ابدل حكم الاعدام الصادر على الأول والثاني بالسجن المؤبد لتقدمها في السن ، ومات الأول في السجن وأفرج عن الثاني في نهاية الحرب بعد اقامته نحو أربع سنوات سجيناً في قلعة دمشق .

تلك كانت القافلة الأولى ، أما القافلة الثانية من الشهداء فقد أعدمت في الساحة نفسها ، في السادس من أيار (مارس) سنة ١٩١٦ (١٣٣٥ هـ) وكان أفرادها قد نقلوا من عاليه إلى بيروت وهم ينشدون الأناشيد الحماسية ، متغنين بالقومية العربية، مشيدين بالحرية التي نذروا لها دماءهم الطاهرة الزكية .

وكان عمر حمد أصغرهم سناً وأشدهم حماساً ، وهو لا يفتأ يثير إباءهم العربي

---

١ – ايضاحات سياسية ص ١١٥

وعزتهم الوطنية بقصائده الثورية .. وعندما أخذ رجال الشرطة يلبسون المحكومين القمصان البيضاء جعل عمر حمد ينشد النشيد السائر يومذاك :

نحـــن ابنـــاء الألى   شادوا مجـــداً وعـلا
نسل قحطان الأبي   جـــد كل العـرب
لسنا نرضـــى الأسر
قد عشقنا المجد من صغر   فلن نرضى بذلـــه
كل من يبغي علينا أمره   بالظـــلم قـــل له
حاشا نرضى الأمـــر

وعبثاً حاول الجلادون كم فمه ومنعه من الغناء ، فقد أصيب بنوبة من الحماسة ارغمت رجال الشرطة على التراجع أمام تلك الكبرياء الوطنية المقبـــلة على الموت بشجاعة وحماسة ليس لهما نظير .

وكان طليعة الشهداء سعيد عقل وباترو باولي وجرجي الحداد ، وقد صرخ رفاقهم حين ساقهم الجند : « خذونا إلى المشنقة سوية ، فما أحلى الموت في سبيل الحريـــة والاستقلال ! »

وحين أخذ الطبيب يفحص أجسام المحكومين الثلاثة ، التفت اليه باترو باولي وقال ساخراً : « كان أولى بكم أن تحاكمونا بعدل من أن تفحصوا أجسامنا .. هلموا أسرعوا فما نحن بخائفين . » وكان رجل الشرطة المكلف بحراسة المحكومين قد جاء بكاهن ماروني ودعا باترو باولي وجورجي حـــداد إلى تتميم واجبها الديني معتذراً بقوله : « لا يوجد الآن كاهن من الروم ، فاعترفا أمام هذا الكاهن » فقال باترو لرفيقه : « وما ضرنا يا أخي إذا اعترفنا أمام الكاهن الماروني؟ نحن نقوم بواجبنا الديني ، وربنا يغفر لنا عن يد كاهنه الماروني كما يغفر بواسطة كاهـــن ارثوذكسي ، ووالله لو قدّر لي أن اتمم واجباتي الدينية عن يد شيخ مسلم لما تأخرت ! » .

وتقدم سعيد عقل من منصة المشنقة باباء وقال : « غفر الله لمن ظلمني ، وأسأل ربي أن يكون دمي الذي تراق آخر نقطة منه ، حياة لبلادي وشرفـــاً لاسرتي

وأولادي » .

ثم جيء بعبد الغني العريسي وعمر حمد وعارف الشهابي [1] وكان ثلاثتهم من طلاب الكلية العثمانية ، وقد أصروا على الموت سوية ، فقال عمر بالفرنسية : « بلغ يا رضا باشا حكومتك الظالمة ان ظلمها سيكون سبباً في تقويض بنيانها » ثم قال بالعربية : « أموت شجاعاً .. شلت يمينك يا جمال .. وليحيَ العرب .. »

وأشار رضا باشا إلى الجلاد أن يسرع في عمله ، فدفع بالكرسي من تحته قبل أن يحكم الحبل في عنقه،فهوى إلى الأرض، وسال الدم من جرح أصيب به في رأسه، وأطبق عليه الجند فطعنوه بسيوفهم وعلقوه على المشنقة من جديد .

واستنكر عبد الغني هذه الوحشية ، فصرخ غاضباً : « ان الانسانية ستنتقم منكم .. » وأراد الجلاد أن يعجل في وضع الحبل في عنقه قبل أن يتم كلامه، فانتهره قائلاً : « احترم يا هذا ارادة رجل يموت ! » فقال الجلاد : « من يسمع كلامك وما الفائدة منه ؟ .. » فلم يلتفت اليه وتابع قائلاً : « بلغوا جمال باشا أن الملتقى قريب ، وان أبناء الرجال الذين يقتلون اليوم سيقطعون في المستقبل بسيوفهم أعناق أبنائك الأتراك ، وان الدول لا تبنى على غير الجماجم ، وان جماجمنا ستكون أساساً لاستقلال بلادنا .. ثم قال : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .. وأشهد أن الخلافة للعرب إن شاء الله ! » .

وجاء دور توفيق البساط فسار إلى الموت وهو يردد : « ألا مرحباً بارجوحة الشرف ، مرحباً بارجوحة الأبطال .. مرحباً بالعمد التي تستند اليها الأمم في استقلالها .. مرحباً بالموت في سبيل الوطن الحر .. » وقد وضع بيده الحبل في عنقه ورفس الكرسي من تحته .

وكان سليم الجزائري وأمين لطفي الحافظ من كبار الضباط ، فسيقا إلى ساحة الاعدام بثيابها العسكرية وهما ينشدان، وقال سليم الجزائري قبل أن يشنق مخاطباً رضا باشا : « قل للخنزير جمال ان لا يفرح بموتي لان روحي ستظل حية ، وستعلم

---

١ – قبض على عبد الغني العريسي وعارف الشهابي وعمر حمد وتوفيق البساط في مدائن صالح وهم يحاولون الهرب الى الحجاز للانضمام الى الشريف حسين .

أبناء البلاد دروس الوطنية من وراء القبر » .

ثم صعد أمين لطفي الحافظ إلى المنصة متضاحكاً يرسل النكات ويهزأ بالدولة التركية وارتبك الشرطي وهو يضع الحبل في عنقه ، فسخر منه وقال له بلهجته المصرية : « ألم تتعلم الاعدام يا واد ؟ مش تحط الحبلة بفن ونزاكة على الأقل .. جزاء خدماتنا للدولة ! » .

وألقى الشيخ أحمد طبارة وهو على سدة المشنقة قصيدة ثورية كان قد نظمها في الطريق بين عاليه وبيروت .

وتبعهم إلى عالم الخلود بقية أفراد القافلة: محمد الشنطي ، وسيف الدين الخطيب ، وجلال البخاري ، وعلي النشاشيبي .

ثم نقلوا إلى رمل الصنائع فدفنوا حيث ووري من قبلهم شهداء القافلة الأولى .

وفي ذلك اليوم نفسه ، بل في تلك الساعة نفسها ، كانت تعدم في دمشق القافلة الثالثة من أولئك الأبطال الميامين ، وهي تتألف من شكري العسلي ، وعبد الحميد الزهراوي ، وعبد الوهاب الانكليزي ، ورفيق رزق سلوم ، ورشدي الشمعة ، والأمير عبد القادر الجزائري ، وشفيق المؤيد .

وقد تقدموا إلى المشانق برباطة جأش نادرة المثال ، وكان في مقدمتهم شفيق المؤيد وهو أكبرهم سناً ، فألقى خطبة بليغة موجزة بيّن فيها الغاية الشريفة التي كان يسعى إلى تحقيقها رجال العرب ، أما شكري العسلي فتلا قوله تعالى : «ولا تحسبن الله بغافل عما يفعل الظالمون». وقد شتم عبد الوهاب الترك والاتحاديين المجرمين. وكان شاعر حمص الرقيق رفيق سلوم هادئاً مطمئناً وهو يقول : «مساكين هؤلاء الظُلاّم » .

وكان جمال باشا قد أمر بإعدام عبدالحميد الزهراوي دون محاكمة باعتباره عضواً في مجلس الأعيان ولا تجوز محاكمته إلا بأمر السلطان ! ولما أزيح الكرسي من تحت قدميه انقطع به الحبل ، فرفع مرة ثانية وشده الجلادون شداً قوياً ، ففاضت

روحه وهو يردد : « لينتقم الله من الظالم للمظلوم » [1] .

وقد استطاع عبد الغني العريسي أن يرسل إلى أصدقائه إثر اعتقاله في مدائن صالح وهو في طريقه إلى الحجاز للالتحاق بالشريف حسين ، الرسالة الوصية التالية الموجهة إلى جميع العرب ، وقد حرصنا على نشرها نظراً لاهميتها التاريخية ولأنها تصور الأوضاع السائدة في تلك الفترة ومشاعر أحرار العرب ازاءها ، قال الشاب الشهيد :

« يا بني يعرب ويا سلالة قحطان ، يا نسل الأكارم الأماجد ، ويا خلف الاشاوس الصيد الذين دوّخوا العالم بعزمهم وملكوا الدنيا بعدلهم ، يا ذوي الهمم الشماء والنفوس العصماء والمآثر الغراء ، يا أباة الضيم ويا حماة الذمار حافظي العهود ، يا أيها الأخوان المنتشرون في جميع انحاء العالم المعمور وأقطاره ، سلام .

أوجه خطابي هذا اليكم ، وأنا على شفير هاوية الموت ، وبين براثن الوحش التركي الذي خرب بلادكم ، ودمر بيوتكم ، ويتم أطفالكم ، ورمل نساءكم، وامتهن حريتكم ، وحبس ملاك الحياة وقوامها عن أطفالكم المعولين وأولادكم الصارخين ، ليقدمها طعاماً لاطماعه وليقيت بها أبناء عنصره الخبيث . أوجه اليكم خطابي هذا من بادية الشام ، من بين مضارب أخوانكم الأعراب الأسود ، الذين عليهم المعوّل الأكبر في انقاذ البلاد ، ودك عرش الظلم والبغي والجور وكل فاحشة ومنكر .

وقد لا يصلكم كلامي هذا قبل وصول منعاي ، لأن الأتراك الظالمين الكفرة قد أصدروا أحكامهم الجائرة عليّ وعلى عشرات غيري من خيرة أبناء سورية ، وبعد ما أفلت من أيديهم وأصبحت حراً حيث تتجلى الحرية بأسمى مظاهرها بين خيام الأسود ومضارب الظباء ، أرى الواجب عليّ يدعوني إلى نواحي الشام، واني مبكر غداً بعد أن أعهد إلى أخي في الجهاد ... النجدي، في ابلاغكم خطابي بالطريقة التي

---

١ ــ الكلمات التي اوردناها على لسان الشهداء هي الكلمات الحرفية التي نطقوا بها في لحظاتهم الاخيرة وقد رجعنا فيها الى مؤتمر الشهداء ص ١٧٠ ــ ١٧٦ وفيه ذكريات شخصية لفايز الخوري وذكريات احمد ناصر الذي حضر اعدام الشهداء في بيروت كما رواها ميشال زكور ، وثورة العرب ص ١٧٨ ــ ١٨٠ والثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٨٣ ــ ٩٣ وعشت وشاهدت ص ٢٤٣ ــ ٢٥٠ ونهضة العرب : التحرر فالاستقلال فالدولة ص ٥٦ ــ ٦٥

يراها ، فان تيسر لي الخلاص والإفلات مرة ثانية اتممت الواجب ، والا فحسبي انني خدمت أمتي وبلادي حتى آخر نقطة من دمي ، ولست بالفدائي الأول الذي يموت اليوم في سبيل القومية العربية ، فالرفاق كثروا ، والغاية النبيلة التي نقوم بها وندعو اليها تقتضي ضحايا كثيرة ، لأن أركان الحرية والاستقلال لا تتثبت إلا على الدماء الذكية ، ولا تصان بغير النفوس الأبية ، فلا تيأسوا إذا بلغكم ان مئات من نخبة رجال الامة العربية قتلوا ، فالغد يتلوه غد أيضاً ، وبعد غد فرج إن شاء الله .

ستسمعون ، وربما سمعتم ، بما ترتعد له الفرائص وتقشعر له الأبدان من الفظائع التي يمثلها أبناء جنكيزخان المغولي وسلالة تيمورلنك الوحش الضاري ، في الأمة العربية النجيبة ، لأنهم قد قرروا إفناء الشعب السوري برمته حتى الأطفال ، وهم منذ أشهر عاملون على احتكار الاقوات تحت سلطتهم العسكرية ، وقد قرروا أيضاً محق العراقيين الأباة ، ولكنهم في العراق اقصر يداً مما هم في سورية .

ربما خلت سورية من ثلثي سكانها الحاليين ، لأن من ينجو من المشنقة يميتونه تجويعاً وهزالاً ، ومن كتب له عمر في دفتر القدر ينفونه إلى الأناضول والروملي ، فيندغم هناك في العنصر التركي ، ويصبح تركياً بعد قليل من الزمن لا يذكر أحفاده أصلهم الشريف ، وقد باشر هؤلاء الكفرة الذين رفع العرب مجدهم وصانوا عرشهم، إذلال العرب وإبادتهم، فاعملوا السيف والمشنقة، ونفوا عائلات كثيرة من سورية ولبنان المحبوبين ، وأخذوا يعدون معدات الهلاك ويفرغون البيوت ويخلون القرى والمدن — في سورية المفداة — من سكانها لكي يسكنوا مهاجري الأكراد والأتراك ، ويعيدوا بواسطتهم تمثيل المأساة المفجعة التي مثلوها بالعنصر الأرمني الشريف الباسل ، بالأمة العربية .

لقد حاولوا قتل لغتنا ، وجربوا أن يميتوا عاطفتنا القومية ، وبذلوا الجهد في تتريكنا فلم يفلحوا ، كل هذا ونحن صابرون صبر الكرام ، أما وقد باشروا ابادتنا وإجلاء من يبقى من المزارعين والعمال عن البلاد السورية إلى حيث يفقد جوهر عنصره الشريف ، فلا صبر على هذا ولا طاقة .

ان قائد الفيلق الرابع جمال باشا الجاسوس الأكبر ، قد عرقل بحيلة مساعينا

وأخر قيامنا ، فانه بعد خيبته بغزوة مصر واسترجاع القطر الشقيق إلى العبودية ، تظاهر بالميـــل إلى العرب وأسرّ إلى عشرات من كبار الشعب السوري انه يريد الاستقلال بسورية ، وقد ألمع مرات في الولائم الخـــاصة التي كانت تقام له إلى استقلال سورية ،وحث المتنفذين على النهوض والقيام وشق عصا الطاعة على الحكومة، فوثق كثيرون منا به ، ولكن البعض الآخر منا لم يأمن غدره ولا تغافل عن تنبيه اخوانه إلى الحذر من الوقوع في حبائل مكره ، وقد تمكن بهذه الأساليب الخداعة والأكاذيب السياسية من اكتشاف بعض دخائل السوريين ، فأعمل فيهم السيف ، وأمعن فيهم قتلاً ، ولكن سيفـــه ومشنقة دواوينه العسكرية ، وأحكامه الجائرة ومنكراته الفظيعة هذه كلها ، كانت أكبر مساعد لنا على دعوتنا ، وأعظم منشط لنا في جهادنا ، وهي ان تكن أخرت أوان القيام به ، إلا انها وطدته وثبتته ودعتنا إلى التحفظ والتعقل والروية والتفكير .

نحن الآن نطلب حياتنا من براثن الموت . ان خطتنا منظمة كما يجب ، وستجود سورية بالمبشرين بدين الاستقـــلال العربي .. والفرج معقود على أسنة الأسل ، ومكتوب على شفار بيض الظبى . الفرج يأتي من البادية والجذوة الميمونة المتقدة الآن في الحجاز هي فاتحة البركات للبلاد العربية جمعاء .

لا تلبث نجد ان تثور ، والأسد العراقي ان يثب عندما تصل اليه الامداد ، والشبل السوري الضعيف المحبوس في قفصه الحديدي ستهبه النخوة القومية وتكسبه الغيرة الجنسية قوة وعزماً ، فيكسر قضبان سجنه الفولاذي ، ويحطم بقوائمه رأس مقيده ، وقد لا ينقضي الخريف وتهب عواصف الشتاء إلا وتثور زوابعنا وتنقض صواعقنا على هامات الظلام الأوغاد الاجلاف العلوج .

فيا اخواني الأعزاء المهاجرين في الأصقاع البعيدة عن مظالم الأتراك وجورهم ، أطلب اليكم باسم القومية الشريفة التي ننتمي اليها ، ان لا تتقاعسوا ولا تتقاعدوا ولا تتصاموا عن نداء الوطنية والحرية والاستقلال العذب الذي يدعوكم إلى الاتفاق، إلى الاتحاد ، إلى التعاضد، إلى الوئام ، إلى الانضمام والالتفات لما فيه خيركم وخير بلادكم ، ونجاة ذويـــكم وحريمكم وأعراضكم من الدمار والفناء والموت والانتهاك

والدنس .

اعلموا ان اخوانكم هنا يقدمون أرواحهم ويضحون نفوسهم في سبيل القومية ، فلا تضنوا أنتم بالاتحاد والاتفاق ، والتمس منكم ان لا تفترقوا فرقاً وطوائف ، فاليوم لا مسيحي ولا مسلم ولا يهودي ولا درزي ولا وثني ، بل الجميع عرب وفي العرب وللعرب، لا لبناني ولا بيروتي ولا شامي ولا حلبي ولا حمصي ولا حموي ، فحظ بيروت هو حظ لبنان وحظ الشام وحلب وفلسطين والعراق والحجاز واليمن.

اني لعلى ثقة مما أقول فلا تشكّوا ، وحدوا جمعياتكم ، وحدوا أفكاركم ، وحدوا آراءكم ، وفقوا بين مشاربكم واذواقكم ومساعيكم .

ادعوكم أيها الاخوان المحبوبون ، اينما كنتم وحيثما اجتمع منكم عشرة ، ان تبادروا إلى تأليف جمعيات باسم سورية تتعارفون بها وتتفاهمون وتكرسون مما رزقكم الله من خيراته وبركاته ونعمة أمواله لأجل سورية الجديدة ، لأجل سورية المستقلة . »

أما جمال باشا فقد أذاع إثر اعدام الشهداء في ٦ أيار (مايو) بياناً رسمياً جاء فيه:

« جرى القصاص على بعض الأشخاص المنتسبين إلى الحزب المتشكل في مصر والممالك العثمانية ، تحت تمويه عنوان « حزب اللامركزية » ، والذين حوكموا في ديوان حرب العرفي بعاليه ، كنت كتبت في البيان الذي نشرته في أوائل اغستوس سنة ١٣٣٣ بأن التحقيقات جارية بصورة دقيقة، بحق أعوانهم الأشرار الذين لم يكن قبض عليهم قبلاً ..

وسيق إلى ديوان حرب عاليه الأشخاص الذين ظهر أن لهم علاقة في هذه المسألة بدرجات متفاوتة، مع من تبين أن لهم دخلاً في المساعي الخائنة، التي تدل على اشتراكهم مع العدو ، ضد الخلافة الاسلامية واستقلال الوطن ، بتنفيذهم ترتيبات الجمعية ، وتشبثاتها وأعمالها ..

وفي ختام التحقيقات والمحاكمات التي أجراها الديوان العرفي في عاليه ، صدرت الأحكام المقتضاة بحق المظنون فيهم من الموقوفين والفارين، كل على حسب اشتراكه في ترتيبات هذه الجمعية ، التي غايتها أو مقصدها سلخ سورية وفلسطين والعراق عن

راية السلطة العثمانية وجعلها إمارة مستقلة ..

فحكم بالاعدام على شفيق بن أحمد مؤيد العظم ، والأمير عمر ابن الأمير عبد القادر (الجزائري) وعمر بن مصطفى حمد ، ورفيق بن موسى رزق سلوم ، ومحمد بن حسين الشنطي ، وشكري بن بدري علي العسلي ، وعبد الغني بن محمد العريسي ، وعارف بن محمد سعيد الشهابي ، وتوفيق بن حمد البساط ، وسيف الدين بن أبي النصر الخطيب ، والشيخ أحمد بن حسن طبارة ، وعبد الوهاب بن أحمد الانكليزي ، وسعيد بن فاضل عقل ، وباترو باولي ، وجرجي بن موسى الحداد ، وسليم بن محمد سعيد الجزائري ، وعلي بن الحاج عمر النشاشيبي ، ورشدي بن أحمد الشمعة ، وأمين لطفي بن محمد حافظ ، وجلال بن سليم البخاري .

لثبوت اشتراكهم في هذه التشبثات ، بالدرجة الأولى وبصورة فعلية ..

وحكم على من تبين دخولهم في الدسيسة بصورة فرعية وهذه أسماؤهم والاحكام عليهم :

سليم بن مصطفى مظلوم ، بالاعتقال بالقلعة خمس سنين . توفيق بن محمد الناطور ويوسف مخيبر حيدر ، بعشر سنين ، حسين خليل حيدر ، بخمس عشرة سنة . رياض ابن رضا الصلح بنفي مؤبد ، الأمير طاهر بن أحمد الجزائري بعشر سنين في الكورك .

وحكم على الذين مع كونهم لم يفهموا المقصد والتثبت الحقيقي ، ثبت وجود مساع لهم مع هذه الجمعية بصورة محسوسة ، اما بسائق الجهل ، أو التصلف ، وانما لم توجد عليهم وثائق تنور « وجدان » الهيئة الحاكمة وتثبت مجرميتهم واشتراكهم وهما رضا الصلح وأسعد حيدر ، باعادتهما إلى منفاهما » .

وأعطي القرار بمنع محاكمة وبراءة كل من: محمد أفندي، وكامل الهاشم، وابرهيم القاسم ، وسامي العظم ، والشيخ جمال الدين الخطيب ، وعبد الحميد معلم الرسم ، ومحي الدين فريجه ، والبيطار حسين صبري ، ورشدي الغزي ، وعاصم بسيسو الغزي ، وعزت الاعظمي ، ومصطفى الكيلاني ، وعبد الرحمن جنون، والدكتور حسام الدين ، ونجيب شقير ، والشيخ فتح الله ، والدكتور أحمد قدري ، وسليم

الطيارة ، وجميل الحسيني ، والمفتي سعيد أفندي الباني ، وسليم الشمعة ، وسليم البخاري ، وفائز الخوري ، ورشيد الحشمي ، وعمر الأتاسي ، والبكباشي علي رضا ، والدكتور أمين قزما ، وسعيد عدرة ، والدكتور عبد الحفيظ، واليوزباشي جميل ، وفريد باشا اليافي ، وعثمان العظم .

وبعد ان عدد البيان أسماء الأشخاص الذين منعت محاكمتهم أو برئت ساحتهم قال : « ومن الذين صدر بحقهم حكم الاعدام وهم شفيق المؤيد والأمير عمر الجزائري ، وشكري العسلي وعبد الوهاب الانكليزي، ورشدي الشمعة ، ورفيق رزق سلوم ، قد جرى اعدامهم في هذا الصباح في الشام ، والآخرون جرى اعدامهم في بيروت ، وسائر المجرمين صار سوقهم إلى منفاهم وحبوسهم . وعلى هذه الصورة تقرر إذن في سورية وفلسطين ، السكون والأمن المحتاج اليهما « إلى الأبد » .

ومما هو جدير بالتقدير ان ادارة هذه التشبثات لم تتسع ، بالنظر لما جبل عليه العنصر العربي النجيب من الصداقة والطاعة والصلابة الدينية العارية من شوائب الظنون والشكوك بأسرها ، بل حصرت بين بعض أشخاص مسلمين ومسيحيين لا أهمية لهم ، ولا يكاد يتجاوز عددهم المئتين من المحكوم عليهم حديثاً وقديماً ، وجاهياً وغياباً .

وبناء على الصلاحية التي تخولني إياها المادة الثانية من القانون المؤرخ في ١٤ آذار سنة ١٣٢١ ، المتضمن التدابير التي ينبغي للجهة العسكرية التوسل بها في وقت النفير العام ضد الخارجين على الحكومة واجراءاتها ، فاني ساع في إبعاد أولئك الأشخاص الذين يتخذون حقوق الدولة ومقدساتها ملعبة في سبيل منافعهم الشخصية مع من لهم علاقة معهم من أسرهم وعائلاتهم من قريب أو بعيد ، إلى بعض ولايات الأناضول .

وقد اتخذت الأسباب الكافلة لإعاشة هذه العائلات ورفاهيتهم في المحال التي ينفون اليها ، وتحت عناية الحكومة السنية وعاطفتها ، وسيعطون هناك أراضي وأملاكاً قيمتها تعادل أملاكهم وأراضيهم التي يملكونها في سورية .

وإني أوصي جميع الأهلين في سورية وفلسطين بالسكينة والطمأنينة، على انه من الآن وصاعداً لم يبق محل لاجراء التعقيبات والابعاد إلى الولايات العثمانية في حق أحد مطلقاً ما لم تظهر وثائق قوية تدل على خيانته . »

قائد الفيلق الرابع وناظر الخارجية أحمد جمال [1] »

أما الذين صدرت أحكام الإعدام بحقهم غيابياً دون ان تستطيع السلطات التركية القبض عليهم فهم : رفيق العظم ، حقي العظم ، الشيخ سعيد رضا ، داود بركات ، فارس نمر ، الدكتور شبلي الشميل، خليل مطران ، ابرهيم النجار، جورج عبد المسيح ، جبرايل اصاف ، نجيب عازوري ، جورج بحري ، الأمير خليل ابو اللمع ، خليل بولاد، حبيب بولاد ، نجيب البستاني، أمين البستاني، يوسف البستاني، فيليب سمان ، نجيب قطان ، نجيب قريصاتي ، جورج دوماني ، جورج قريصاتي ، كميل اده ، جان عيد ، نجيب غناجه، الدكتور غرزوزي ، نعمة الله غانم،روفائيل غرة ، ميشال لطف الله ، الدكتور يوسف كحيل ، يوسف الخازن ، جورج خير ، رشيد خياط ، ادمون ملحمه ، الدكتور خليل مشاقه ، يوسف سمعان صيدناوي ، الياس حنين ، سليم شميل ، ماريوس شميل ، يوسف حبيب زنانيري ، الياس زهار ، ألفونس زينية ، فؤاد الخطيب ، قسطنطين يني، حسن حمادة ، عبد الحفيظ الحسن ، رزق الله أرقش ، سليم ثابت ، عزت العابد ، شكري غـانم ، بشارة البواري ، اسكندر سرسق ، ادوار كرم ، جبرائيل حداد ، سيمون أبو شنب ، قيصر أبو شنب ، أسعد باسيلا ، نجيب أيوب ، الفريد ليان ، أسعد مفرج ، أنطون أرقش ، نجيب موسى ، دياب سليم بولس ، الأمير أمين مجيد ارسلان ، سعيد مخيبر ، رشيد تقي الدين، يوسف صموئيل. وجميعهم من السوريين واللبنانيين الذين رحلوا إلى مصر أو أوربة أو أميركة باستثناء عزيز المصري [2] .

وأعدم عدد آخر من الشهداء بصورة مفردة هم الخوري يوسف الحايك، وفيليب

---

١ ـ ثورة العرب ص ١٦٤ ـ ١٦٧ الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٧١ ـ ٧٣

٢ ـ الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٦٢

الخازن ، وفريد الخازن ، ويوسف بشارة الهاني ، وانطوان زريق ، وسليم زريق ، ومسعود الهليل ، وعبد الله الضاهر .

أما الذين قضوا في المنافي أو في الطريق اليها ، فأكثر من ان يحصى عددهم ، رجالاً ونساء وأطفالاً .

وقد بكى الشعراء تلك الباقة الفواحة من الأزاهير التي ذوت على أعواد المشانق ، في قصائد لاهبة لعل أروعها قصيدة الزهاوي « النائحة » وهي تقارب المائة والستين بيتاً وقد سماها أنيس المقدسي « معلقة الشهداء » ومما قال فيها :

على كل عود صاحب وخليـــل ... وفي كل بيت رنة وعويـــل
علاها وما غير الحميـــة سلم ... شباب تسامى للعلى وكهول
لقد ركبوا كور المطايا يحثهم ... إلى الموت من وادي الحياة رحيل
رجال عليهم من سنا الفضل رونق ... وللمجـــد فيهم غرة وحجول
مشوا في سبيل المجد يحدوهم الردى ... وللحق بين الصالحين سبيـــل
قبـــور ببيروت وأخرى بجلق ... تجر عليهـــا للرياح ذيول
سرت روحهم تطوي السماء لربها ... وما غير ضوء الفرقدين سبيـــل
لعمرك ليس الأمر ذنباً أصابه ... قصاص ، ولكن يعرب ومغول

وبعد ان يصف مظالم الأتراك يحيي العرب وزعيمها الشريف حسين وأنجـــاله الأبطال بقوله :

وكان لأخذ الثأر قد ثار ضيغم ... له في مغار الغابتين شبول
أغرّ كريم الأصل من فرع هاشم ... فطاب له فرع وطابت أصول

ولكن مواكب الفداء لا تبعث على البكاء بل تستثير الاعتداد والكبرياء ، ولا تدعو إلى النواح وإنما تهيب إلى النضال والكفاح ..

وقد كانت قوافل الشهداء تسير إلى الموت بخطى ثابتة متحدية ، وتستقبل أعواد المشانق وهي تزهو وتبتسم ..

لقد كانوا يبتسمون للفجر الصادق الذي انبثق في تلك الأيام الخالدة من أيام البطولة العربية ، ونبعت منه جداول الخير والحرية والكرامة واختفت معه آخر خيوط الليل الطويل ..

وكانت البلاد العربية تشخص إلى بيروت ودمشق زائغة البصر، وتنصت واجفة القلب ، لتتلقى عن أولئك الأحرار السابقين سر البطولة وعظمة التضحية وشرف القدوة !..

الفصل العاشر

أمانة قومية في يدي الحسين

رأى قادة الأتراك في الحرب الكبرى ، وفي محالفة المانية لهم ، فرصة سانحة لخنق القوميات التي تيقظت في امبراطوريتهم المترامية ، والقضاء على نزعات التحرر ، والقاء الرهبة والهول في قلوب المخالفين والمعارضين لحكمهم ، فأهلك طلعت وانور نحو مليون نسمة من الارمن تقتيلاً وتجويعاً واغراقاً في دجلة والفرات ، وانها كا على دروب المنافي التي سيقوا اليها في هجرات جماعية اجبارية شاقة . وأخذ جمال باشا ينفذ في البلاد العربية خطة مماثلة للقضاء على القومية العربية تلك الغرسة الكريمة التي تأصلت جذورها وتعالت اغصانها وتفتحت براعمها .

وقد اقترنت أحكام الاعدام التي اصدرها بأحكام النفي والإبعاد فقبض في شهري آذار ونيسان (مارس وابريل) سنة ١٩١٦ (١٣٣٥ هـ) على أفراد ثلاثماية أسرة من أسر سورية ولبنان وفلسطين ، وسيقوا إلى الأناضول رجالاً ونساء وأطفالاً ، بعدما صودرت أملاكهم وأموالهم فوزعوا على مدنه وقراه قاصيها ودانيها فمنهم من أرسل إلى ولاية قونية ، ومنهم من أرسل إلى أنقرة وأرسل غيرهم إلى ديار بكر وبروسة وأضنة وسيواس وقسطموني [١] .

١ ـ الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٧٣

ولم يكن القصد من إبعاد هذه الأسر اتقاء خطرها وإضعاف الحركة الوطنية وحسب، بل كان القصد الأول تشتيت العائلات العربية وزرعها في مناطق تركية صرفة كي تفقد قوميتها مع الأيام وتندمج في القومية الطورانية.

إلا ان جمال باشا قد زعم ان هذا التدبير إنما هو تدبير احتياطي، ثم تلطف فقال انه انما أرسل النساء والأطفال مع الرجال «لكي يعيشوا بشكل عائلة ولا يكونوا في حالة سيئة [1].»

وكانت السلطات التركية تكشف عن خطتها الافنائية بأعمالها الارهابية المتتابعة وتدابيرها الاحتياطية المختلفة، وفي مقدمتها نقل زكي باشا الحلبي وهو أحد كبار الضباط العرب من قيادة الجيش الرابع الذي تشمل دائرة نفوذه العسكرية والادارية البلاد الممتدة من جنوبي طوروس حتى اليمن أي مقاطعات كيليكية وسورية ولبنان وفلسطين والحجاز، فقد عين زكي الحلبي مرافقاً للامبراطور غليوم وأسندت قيادة الجيش الرابع إلى جمال باشا. وكان أول ما فعله جمال باشا في دمشق انه حل كتيبة ضباط العرب الشبان وعددهم ٨٠ شاباً من خريجي المدارس العالية، وأرسل رجالها إلى ميادين القتال في الدردنيل والقوقاس، فقتل معظمهم في الميادين النائية وكانت الفرق العسكرية العربية ٢٣ و ٢٥ و ٢٧ تؤلف الفيلق التركي السادس وقاعدته دمشق والفرق العسكرية العربية ٣٣ و ٣٥ و ٣٧ تؤلف الفيلق التركي الثالث وقاعدته الموصل، فأرسلها جميعاً إلى غاليسية للاشتراك مع النمسويين والألمان في صد الهجوم الروسي المندفع من جبال الكاربات.

وكانت السلطات التركية قد اعتقلت عزيز المصري في الاستانة، وهو من مؤسسي جمعية العهد ومن رواد الفكرة العربية، وكانت علاقته بالشبان العرب في العاصمة التركية علاقة المعلم بتلامذته أو الأب ببنيه، وقد امتاز بشخصيته القوية وكانت حياته سلسلة من المغامرات العسكرية والوطنية، ومنها اشتراكه في القضاء على فتنة ٣١ آذار (مارس) وخلع السلطان عبد الحميد بقيادة الجنرال محمود شوكت.

---

١ ـ ايضاحات ص ١١٣ ـ ١١٥

وقد أثار اعتقاله استنكاراً شديداً في الأوساط العربية لمكانته الرفيعة وخدماته المتعددة للدولة . وقد كثرت الشائعات حول اعتقال عزيز المصري وقيل انه سيقتل في معتقله كما قيل انه سيقدم إلى المحاكمة، وظلت قضيته المظهر الوحيد تقريباً لنشاط الحركة العربية في الاستانة طوال مدة اعتقاله ، وقد استمر هـــذا الاعتقال من ٩ شباط (فبراير) سنة ١٩١٤ (١٣٣٣ هـ) إلى أوائل آب (اغسطس) من تلك السنة ولم تنفع جميع الالتماسات التي قدمت للافراج عنه ، ولم تطلق الاستانة سراحه إلا بعد تدخل سفير بريطانية فيها ، فبادر بالرحيل إلى مصر .

وكان الامبراطور غليوم قد أهدى قنديلًا ليعلق على ضريح صلاح الدين الأيوبي، فتقرر ان يحتفل بوضعه ليلة القدر (٢٧ رمضان ١٣٣٣ أيلول – سبتمبر ١٩١٥) وان يخطب في هذه الحفلة الدكتور عبد الرحمن شهبندر بالعربيـة والوالي خلوصي بالتركية والبارون اوبنهايم مندوب الامبراطور غليوم بالفرنسية (في الجامــع الأموي) وتختم الحفلة بكلمة من جمال باشا. وانتهز الدكتور شهبندر هـذه المناسبة فتحدث عن صلاح الدين وعدله وسعة صدره وإنصافه حتى في معاملة أعدائـه وقال: «وما على جمال باشا إذا أراد أن يحفظ التاريخ اسمه كما حفظ اسم صلاح الدين إلا ان يسير على منواله في العفو والرحمة والرأفة بالناس » ، فما كاد ينتهي من خطابه حتى تقدم جمال باشا إلى المنبر غير متقيد بنظام الحفلة وقال: « ليس السلطان صلاح الدين الذي أسهب في مدحه الدكتور شهبندر الخليفة الوحيد في عظمته ، بل ان التاريـخ حفظ اسم السلطان سليم بين كبار الخلفاء أيضاً مع انه فتك بأخوته وبأهله وبرجال دولته لأنه وجدهم قد تآمروا عليه وهددوا المملكة الاسلامية وسيأخذ القانون مجراه في معاقبة الذين تجرأوا على معاداة الدولة والتآمر على سلامتها [1] » .

وكان الوالي خلوصي بك صديقاً للدكتور شهبندر وغيره من قادة الحركة العربية بدمشق،وكان قد احتج إلى الباب العالي على استبداد جمال باشا وانتهاكه حرمــة القوانـين ، وطلب ان يؤذن له بالسفر إلى الاستانة إذا لم يوقف السفاح عند حد ،

---

١ ـ الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٧٠

فتلقى إذناً بالسفر وخرج الدكتور شهبندر يودعه فأشار عليه بمغادرة دمشق في أقرب وقت، فلم ينقض وقت قصير حتى سافر الشهبندر إلى البصرة ثم انتقل منها إلى مصر.

وعلى الرغم من ان جمال باشا كان قد وعد في البيان الذي أصدره إثر إعدام الشهداء في بيروت ودمشق بأنه «من الآن فصاعداً لم يبق محل لاجراء التعقيبات في حق أحد مطلقاً ما لم تظهر وثائق قوية تدل على خيانته» فانه ما لبث ان قبض على شكري باشا الأيوبي والشيخ صالح الرافعي وفارس الخوري نائب دمشق يومئذ وعمر الرافعي والشيخ عبد القادر كيوان وسعدي الملا ورشيد الرافعي وعبدالحميد باشا القلطقجي وشكري القوتلي والدكتور أحمد قدري. وكان الاثنان الأخيران من أقطاب جمعية العربية الفتاة، أما الآخرون فمن الناقمين على الاستبداد العثماني.

وقد عذب المعتقلون عذاباً شديداً في خان الباشا بدمشق حتى خشي شكري القوتلي وهو أمين الجمعية وبين يديه مستنداتها ووثائقها وأسماء أعضائها، ان ينتهي به التعذيب في ساعة من ساعات الضعف إلى الافضاء بما اؤتمن عليه من أسرار تبيد ما لا يقل عن ثلاثمائة شاب من خيرة شباب العرب. فقرر ان يفتدي بنفسه هذا العدد الكبير من رجالات المستقبل ودعاماته القوية، وان يزيل بالانتحار الهواجس التي جاشت في نفسه خوفاً عليهم وعلى الحلم الذي تعهد غرسه بدموع عينيه ودماء قلبه.

ووضع السجين خطته للانتحار، وكانت تقضي بالتودد لحارس السجن والكتابة لأسرته للعناية بأمره ورشوته بالمال والمعونة، حتى استطاع الحصول منه على موسى بحجة انه يريد ان يحلق ذقنه، فإذا به يصلي صلاة الموت على نفسه، ثم يقطع شريان يده اليسرى ويستلقي على الأرض فاقد الوعي..

ومر السجان بغرفته فشاهده على تلك الحال فارتجف واتسعت حدقتاه، وهرول إلى الطبيب يستدعيه لإنقاذه. ونقل الجريح فوراً إلى المستشفى حيث أجريت له الاسعافات التي أبعدت عنه الخطر وأعادت اليه الحياة[1].

وقد صدر قرار الديوان العرفي بدمشق بتبرئة المتهمين، وحمله رئيس الديوان

---

١ - انظر مقال شكري القوتلي لتدري قلعجي في مجلة العربي، العدد ٢٣

فخر الدين بك إلى جمال باشا فغضب والقاه في وجهه قائلاً : « أنا أريد عقوبة لا براءة» المحاكمة فاعيدت مجدداً وحكم بتبرئة بعض المتهمين وادانة بعضهم، إلا أن ديوان التميز العسكري بالاستانة ما لبث ان نقض الحكم وبرأ المتهمين جميعاً لأن الجرم المنسوب اليهم لم يخرج إلى حيز التنفيذ. وكان الباب العالي قد قرر على أثر فظائع جمال باشا أنه لا يجوز اعدام المحكومين السياسيين قبل ارسال قضاياهم إلى الاستانة لابداء الرأي فيها .

والواقع ان موقف المناضلين العرب أمام المحققين الأتراك كان من أروع صفحات الكفاح العربي ، فقد تفنن هؤلاء في أساليب الارهاب والتعذيب دون ان يستطيعوا انتزاع كلمة واحدة من اولئك المناضلين تضر باخوانهم أو بشيء إلى قضيتهم . وقد حوكم شهداء ٦ أيار (مايو) ١٩١٥ (١٣٣٤ هـ) على انهم من أعضاء حزب اللامركزية والواقع ان معظمهم كانوا من أعضاء «العربية الفتاة» وهي الجمعية التي كانت تقود المعركة في وجه الأتراك . فحقق معهم وحكم عليهم وعلقوا على أعواد المشانق ، دون ان تعرف السلطات شيئاً عن « العربية الفتاة »، وظلت تجهل أمرها حتى أعلنت الثورة .

وقد نسب إلى عبد الغني العريسي انه اعترف بأسرار كثيرة تدين اخوانه ، والواقع ان افادة العريسي كان لها أثرها القوي في ابعاد الظنون عن «العربية الفتاة» وحصر الاهتمام بمقررات مؤتمر باريس والجمعية الاصلاحية في بيروت، مما هو معروف ومدون في الصحف، إلا ان المحققين استغلوا أقواله هذه واستندوا عليها في الحكم عليه بالاعدام نظراً لجهلهم ما كان منشوراً منها في الصحف [1] وهكذا ضحى العريسي بنفسه لانقاذ جمعيته واخوانه .

ومن أروع ما يرويه الدكتور أحمد قدري أن سيدة محجبة ترتدي السواد زارته ذات ليلة بعد استشهاد اولئك الأبطال وقالت له بصوت راعش أنها شقيقة الشهيد

---

١ ـ أنظر الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٧٥ ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٥٢ ، محاضرات في الاستعمار ج ٢ ص ٤٣

صالح حيدر وكانت أسرة الدكتور ترتبط مع أسرة صالح حيـــدر بصلة المودة والجوار حين كان والده قائداً لمنطقة بعلبك وأضافت ان شقيقها قضى ضحية الواجب نتيجة لتسرب بعض الوثائق إلى أيدي السلطات وينبغي لقادة الحركة العربية مضاعفة الحذر والاحتياط كي لا تقع ضحايا جديدة . ونظراً لثقته بها فقد قابل طلبها بكل ارتياح ورجاها ان تقصد إلى بيروت لتتصل بفاطمة شقيقة المرحومين محمد ومحمود المحمصاني كي تأخذ أوراق الجمعية ومستنداتها من المكان المودعة فيه وهو قبر ولي بالقرب من بيت المحمصاني ثم تحرقا الوثائق وتنبئاه بنتيجة الأمر . ولم تتأخر الفتاة عن الشخوص ليلاً إلى بيروت وانفاذ ما طلب منها بكل دقة. وقد لاقت لدى شقيقة الشهيدين محمد ومحمود المحمصاني كل مساعدة وعطف « ولو وقع أي تقصير في هـــذه المهمة لكان الشنق بلا ريب نصيب معظم الأعضاء العاملين في الحقل الوطني ، إلا ان شجاعة هاتين السيدتين المثكولتين وحسن نيتها كان من أشرف الأعمال الوطنية وآية رائعة من الاخلاص والقيام بالواجب [1] . »

وكان أمير مكة قد هالته تلك السياسة الارهابية التي انتهجتها تركية، فأوفـــد نجله الأمير فيصل إلى دمشق مطالباً بالعفو عن المتهمين السياسيين ومنح سورية مـا تطلبه من نظام لا مركزي ، وعزز ذلك بالبرقيات المتعددة التي أثارت جمال باشا وأنور باشا اللذين كانا يحثانه على تعبئة المتطوعين وإعلان الجهاد، وكاد موقفه هذا يؤدي إلى اعتقال الأمير فيصل وزجه في عداد الشهداء .

وقد جاء في برقيته إلى أنور باشا ما يلي :

« ان خروج الدولة العليـــة منصورة من الحرب الحاضرة يتوقف على اشتراك جميع العناصر العثمانية فيها ولا سيما العرب والجانب الأهم من ميادين القتـــال في بلادهم وتأييدهم لها قلباً وقالباً في نضالها .

ويلوح لي ان ارضاء الشعب العربي يتوقف على مداواة قلبه الذي جرحه اتهام

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٤٤

عدد كبير من أبنائه بتهم سياسية مختلفة والقبض عليهم ومحاكمتهم أمـــام المحاكم العسكرية بالدواء الآتي :

١ – اعلان العفو العام عن المتهمين السياسيين .

٢ – إنالة سورية ما تطلبه من نظام لا مركزي .

٣ – جعل إمارة مكة وراثية في أولادي وإبقائها على حالتها الحاضرة .

فاذا قبلت هذه المطالب فاتعهد بحشد القبائل العربية بقيادة أبنائي في ميدان العراق وميدان فلسطين ، وإذا لم تقبـــل فأرجوكم ان لا تنتظروا مني شيئاً سوى الابتهال للحق جل وعلا أن يهب الدولة النصر والتوفيق . »

وأجابه أنور باشا بالرد التالي :

« وصلت برقيتكم الهاشمية القائلة ان احراز النصر يكون باشتراك جميع أبناء الأمة قلباً وقالباً .

ولما كان طلب اعلان عفو عن بعض المتهمين، وتطبيق نظام اللامركزية في سورية، واستبقاء إمارة مكة في شخصكم السامي وفي أولادكم، خارجاً عن اختصاص سيادتكم فالاستمرار في طلبه ليس من مصلحتكم في شيء .

واني ابلغكم انه لا بد من ان ينال الموقوفون عقابهم ، كما ان حقوق سيادة ملجأ الخلافة ستظل في الحجاز على ما كانت عليه وكما هي في جميع الممالك الشاهانية، وأوصيكم ملحاً بأن تستدعوا ولدكم علياً الموجود في المدينـــة إلى مكة، وترسلوا المجاهدين الذين وعدتم بارسالهم إلى دمشق ليكونوا بقيـــادة ولدكم فيصل بك . وبديهي انـــه سيظل ضيفاً على الجيش الرابع حتى نهاية الحرب . والأمـر لمن له الأمر » .

وكان واضحاً من برقية أنور باشا انه قرر احتجاز الأمير فيصل واستبقاءه لدى الجيش الرابع كرهينة حتى تنتهي الحرب، لارغام الشريف حسين على تنفيذ مطالب القيادة التركية وتوقفه عن القيام بأية حركة معادية . وقـــد أدرك الشريف ذلك فأجاب على برقية أنور باشا بالبرقية التالية :

« لقد أرسلت نجلي فيصلاً إلى دمشق اعتماداً على شرف الدولة ولست أرجو ان

يعود إلي الآن ، على ان سوق المتطوعة إلى دمشق يتوقف على وصوله إلى المدينة ورؤية هؤلاء له ، وسيدعى نجلي علي إلى مكة قريباً [1] . »

أما جمال باشا فقد أرسل إلى الشريف بالبرقية التالية :

«لقد نمي إلي خبر برقيتكم إلى أنور باشا،فأنتم تطلبون أن تكون الإمارة وراثية في أسرتكم ، وان يمنح أشخاص عديدون العفو الشاهاني بعد ان قامت البراهين على خيانتهم للوطن وللأمة .

وليس بممكن اجابة الجزء الثاني من طلبكم لضرره بالمصالح العامة ، فالحكومة التي تصفح عن الخونة جديرة بأن تتهم بالضعف،كما ان عفوها يغري كثيرين بالخيانة. ولو اطلعت على الوثائق التي ظهرت في المحكمة لرأيت إلى أي حد وصل المتهمون .

وأما فيما يختص بجعل الإمارة وراثية في أسرتكم فالفرصة ليست مناسبة للمطالبة بذلك، وأظنكم تعرفون بأن الاعراب عن مثل هذه الرغبات ونحن في إبان الحرب حيث تستهدف جميع قوى الانسان عقلية وجسدية لاشد العناء ، من رجل يتبوأ مركز الشرافة وفي أعظم بقعة من بقاع الدولة العثمانية ، لا بد ان يكون له أسوأ وقع في نفوس الجمهور ، واعتقد انه ما كان ينبغي لكم ان تطلبوا مثل هذا الطلب ولو كنتم على حق ، فموارد الأمة ينبغي ان تحشد لغرض واحد، وهو احراز النصر النهائي .

ولو فرضنا ان الحكومة لبت طلبك لمجرد الرغبة في الحصول على مصادقتك في هذه الأوقات العصيبة ، فماذا يمنعها ان تعاملك بالشدة والقسوة لو انتصرت في ختام الحرب.وعلى كل فيجب ان تعلم ان الرجال الذين أسسوا الحكومة الحاضرة والذين تجرأوا على القيام في وجه السلطان عبد الحميد لا يصفحون عمن يجترىء على شل حركتهم في هذه الحرب، وقد دخلوها لمصلحة العالم الاسلامي. وهم في الوقت نفسه لا يتأخرون عن استحصال جزيل الانعام من جلالة الخليفة لكل من عمـــل ابتغاء

---

١ ـ عبد الله بن الحسين : مذكراتي ص ١٠٥ ، الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ١١١ ، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ٤٨

مرضاة الله ولتحقيق غاياتنا المقدسة [1] . »

وكان الأمير فيصل قد وصل إلى دمشق في شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٦ (١٣٣٥هـ) يرافقه خمسون فارساً، ونزل وإياهم جميعاً ضيوفاً على آل البكري للاشتراك في الثورة التي ستشتعل فيها . وسرعان ما أدرك اضطراب الوضع في سورية، وتشتت القوى العربية فيها، وتعاظم ضغط الارهاب على المناضلين الذين يعدون العدة للثورة الكبرى . كما أدرك انه غدا رهينة في يد جمال باشا . فأخذ يداري السفاح ويظهر له الود والولاء ، ولما أطلعه هذا على برقية والده وانتقد أمامه تدخل أخيه الأمير علي في شؤون الحكومة بالمدينة، أظهر أسفه الشديد، وأكد ان والده لا يجيد التركية ولا ريب في ان المترجم قد عجز عن فهم النص العربي فحرفه ووعد بالكتابة إلى أبيه في ذلك .

إلا ان جمال باشا يؤكد في مذكراته ان الأمير فيصل إذا كان قد أسف لمطالب أبيه التي تتعلق بجعل الامارة وراثية في اسرته ، فانه لم يكف عن المطالبة باصدار عفو عن المعتقلين السياسيين . وقد جاء في هذه المذكرات : « واصدرت محكمة عاليه حكمها في القضية الكبرى (قضية ٦ أيار ـ مايو) ونحن لا نزال نتبادل الرسائل مع الحسين، فجاهد فيصل لينال عفواً للمحكوم عليهم، وكان يزورني كل يوم ويحول مجرى الكلام إلى قضية العفو، وسمعت انه كان يعنف أعيان دمشق الذين يذهبون لزيارته لعدم سعيهم لانقاذ مواطنيهم. ودعاني ذات يوم للغداء معه في القابون، وكان ذلك في أوائل شهر (ابريل) ، فدار الحديث حول موضوع العفو أيضاً ، فسألته: « هل عرفت تفاصيل ما فعله هؤلاء ؟ » فقال : « كلا » فقلت له : « لو عرفت التفاصيل لأسفت أشد الأسف على توسطك للحصول على عفو لهم » .

« وتلقيت بعد أيام رد الشريف حسين على برقيتي، وهو يلح في اصدار العفو لأن صدوره في مصلحة الحكومة ويشكو من تصرفات محافظ المدينة بصري باشا ، ويقول انه يأبى ان تسلب منه حقوق منحه اياها الخليفة . وكثرت في الوقت نفسه

---

١ ـ انظر مذكرات جمال باشا ص ٢٨٥ وما بعدها .

شكاوى بصري باشا من تصرفات الشريف علي وسعيه لتأليب العربان واستمالتهم .

فدعوت فيصلاً وأطلعته على رد أبيه وعلى سلوك أخيه وقلت له : « لا استطيع ادراك غرض والدك من استعمال اللهجة التي يستعملها في هذه الأيام، ولا غاية أخيك من الخطة التي يسير عليها في المدينة ، فمن الجهة الواحدة تعلنون انكم عاملون على تجهيز المتطوعين وارسالهم للاشتراك في حملة القناة فتمدكم الحكومة بالمال والرجال ، وتدل أعمالكم من الجهة الأخرى على ميلكم إلى الانفصال ، وقد بدرت بوادره من أبيك وأخيك. فاذا أردتم ان تظلوا أصدقاءنا فيجب ان تراعوا قوانين الصداقة، وإلا فاعلنوا ثورتكم واحملوا سلاحكم . وإذا كنتم لا تضمرون الشر، فاكتب إلى أخيك فليحضر إلى هنا في الحال ، وليكف عن الاعتداء على سلطة المحافظ » .

فأجابني بأنه سيسوي الخلاف بين هذا وأخيه ، وسيدعوه للقدوم إلى دمشق كما أنكر ما نسبته اليهم من الميل إلى الثورة .

ولا ريب في ان فيصلاً قد أدرك غرض جمال باشا من استدراج الأمير علي القدوم إلى دمشق، ليكون رهينة أخرى في يده للضغط على الشريف حسين، وارغامه على التخفيف من غلوائه والاسراع إلى تلبية مطالب القيادة التركية باعلان الجهاد وارسال المتطوعين العرب إلى ميادين القتال. فلم يطلب من أخيه المجيء إلى دمشق بل أخذ يعمل على مغادرتها، فكاتب والده وأخاه وعرض عليهما الأمر، وتم الاتفاق بينهم على ان يوعز الأمير إلى المتطوعة ، الذين جاءوا معه من الحجاز وكان يقودهم بنفسه ويقيم في المدينة انتظاراً لتكامل عددهم كي يزحف بهم إلى القناة، بان يطلبوا استقدام الأمير فيصل من دمشق كي يسير معهم إلى ميدان القتال، فأبرق زعماء المتطوعين إلى القيادة التركية انهم في شوق إلى الزحف وانهم يرجون ان يكون الأمير فيصل على رأسهم. ثم زار الأمير جمال باشا وأبلغه أن أخاه علياً تلقى أمراً من أبيه بأن يسافر إلى القناة ، وانه يود ان يذهب إلى المدينة فيجيء مع أخيه والمتطوعة إلى القدس، فاجاز له جمال ذلك، وقال له: « سر على رأس وفد واستقبلهم باسمي وعد بهم واسع للاصلاح والتوفيق » .

وهكذا نجا الأمير فيصل من شرك جمال باشا ، وغادر دمشق في منتصف شهر

أيار (مايو) على رأس وفد مؤلف من الضابطين التركيين كاظم بك وآصف بك ومن نسيب البكري والشيخ عبد القادر الخطيب، وكان ذلك بعد اعدام القافلة الكبرى من الشهداء في دمشق وبيروت الذي قضى على بقايا التردد في نفس الأمير، وأثار ألمه على ما يعانيه المناضلون العرب ، ونقمته على الجلادين الظالمين .

ولما بلغ الأمير فيصل وهو في دار البكري نبأ اعدام شهداء ٦ أيار، وتلا أحد الحاضرين قصة الفاجعة كما روتها جريدة « الشرق »، دوت اسماء الضحايا الواحد والعشرين دوياً مروعاً،وظلت تتردد في الجو الساكن الذي كان يخيم على ذلك اليوم من أيام الربيع في غوطة دمشق . وانقضت دقائق طويلة في صمت واجم لا يقطعه سوى دعوات خافتة . ثم قفز فيصل واقفاً كمن أصابه مس مفاجىء،وانتزع الكوفية من على رأسه وقذف بها على الأرض، وداسها بعنف وصاح: طاب الموت يا عرب.. طاب الموت [1] !

وكان أقطاب الحركة الوطنية في سورية قد عقدوا اجتماعاً في دار البكري قرروا فيه ان سورية لم تعد قادرة على اعلان الثورة ، بعد ان اشتد الارهاب التركي فيها ، وأرسلت الفرق العسكرية العربية إلى الميادين النائية للتخلص منها وإبادتها،واعدمت جمهرة من حملة الفكرة العربية وطلائع يقظتها،وان على الحجاز ان يتولى المبادرة بهذه المهمة القومية المقدسة،وأبلغوا الأمير فيصل قرارهم هذا ليحمله إلى الشريف حسين.

وينوه الباحثون بهذا التحول في اتجاه الحركة العربية،واتجاه الأقطاب العرب إلى الحجاز ليكون منطلق الثورة،بعد ان كانت خططهم ترمي إلى اضرام نار الثورة في سورية على ان تحظى بتأييد الشريف حسين وتزعمه لها . فقد رأوا ان الأوضاع الجديدة تحول دون القيام بعمل ذي شأن في سورية « فقرروا أن يلتفوا كلهم ، جمعياتهم واحزابهم وكل من نجا منهم من مذابح الاتحاديين ، حول زعيم كبير من زعمائهم البعيدين عن سيطرة الأتراك والأجانب ، وان ينظموا تحت امرته قوة عربية كافية للوقوف في وجه الاتحاديين وانقاذ الأمة من مخالبهم،فلم يروا أكبر نفساً

---

١ ـ يقظة العرب ص ٢٨٥

وأمضى همة من سيادة الشريف الأعظم الحسين بن علي شريف مكة وأميرها المعظم، وقد ألفوا سيادته مدركاً لشعور الأمة العربية التي يعد نفسه منقذهـا ، والمسؤول عنها، والمشارك لها في عواطفها وأميالها، فألقوا عنده عصا الترحال، مستغيثين مستنجدين، فكان خير من أغاث وأنجد [1] . »

ويقول الدكتور أحمد قدري أحد أقطاب «العربية الفتاة» بعد أن يشير إلى تلك الأوضاع : «... فلم يعد في امكاننا القيام بأي عمل يذكر بعد تشتيت قوانا [2] . »

ويقول أسعد داغر أحد العاملين في القضية العربية : « وقد قررت جمعيـة الفتاة –التي تحولت فيما بعد إلى حزب الاستقلال– بعد ان اتفقت مع حزب العهد، على دعوة العرب إلى الالتفاف حول زعيم من زعمائهم البعيدين عن سيطرة الترك ، وتأليف قوة كافية للوقوف في وجه الاتحاديين ، وإنقاذ الأمة وتأمين استقلالها ، فوجهوا أنظارهم إلى الشريف الحسين بن علي الذي ألفوه مدركاً لشعور الأمـة العربية وعاملاً على تمهيد السبيل لإغاثتها [3] . »

ويقول الأمير مصطفى الشهابي الذي رافق الحركة العربية في مختلف أدوارهـا وكان شقيقه الأمير عارف أحد شهدائها : « .. وجعل الأتراك يعاملون العرب بسياسة الإفناء السريع ، ويسمونها «إفناي سريع سياستي» فكان لا بد من ثورة عربية تنقذ العرب من الفناء . ولكن كيف السبيل إلى ثورة ناجحة ؟ فالشام كان مكتظ الرحاب بالجنود الأتراك ، وقد أخذت الحكومة التركية منذ اشتراكها في الحرب تبعثر فرق الجند العربية وتوجهها إلى الدردنيل والبلقان والأناضول وقناة السويس . ولهذا لم يكن في الإمكان ان تقوم قائمة لثورة تثيرها جمعية « العهد » وجمعية «الفتاة» في الشام أو في العراق » ثم يقول : « فكر الاستقلاليون العرب في هذه الأوضاع فوجدوا ان لا سبيل إلى الثورة في غير الحجاز . وقد كانوا كما ذكرت على اتصال

---

١ ــ ثورة العرب ص ١٨٧

٢ ــ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٥٠

٣ ــ مذكراتي على هامش القضية العربية ص ٨٢

وثيق بفيصل بن الحسين الهاشمي . وكان المشار اليه أخاً لهم في « الفتاة » . ولم يكن الحسين وأولاده جهلاء، فقد كان السلطان عبد الحميد دعا الأب إلى الإقامة في فروق فمكث فيها ثماني عشرة سنة ، فتعلم أولاده الأربعة وهم علي وعبدالله وفيصل وزيد، العلوم الحديثة، وتثقفوا ثقافة عربية غربية، وقد أتيح لهم في هذه المدة الاطلاع على وسائل المدنية الحديثة، وعلى السياسة العالمية، وسياسة الدول الأوروبية مع الأتراك وسياسة الأتراك الاتحاديين مع العرب [1] » .

ويقول سليمان موسى الذي تخصص بدراسة هذه الحقبة من تاريخ العرب: « كان ياسين الهاشمي ورفاقه يعتمدون على الكتائب العربية المرابطة في سورية وعلى زعماء البدو وجبل الدروز ، ولكنهم كانوا يبحثون عن زعيم كبير يلتف العسكريون والمدنيون حواليه وينضوون تحت رايته. ومن هنا وقع اختيارهم على الشريف حسين فاتصلوا به وأخذوا يحرضونه على أن يتولى قيادتهم لإعلان الثورة العربية الشاملة[2] » .

وبعد ان بقي أعضاء الوفد عدة أيام في المدينة ، عادوا إلى سورية وتخلف عنهم الأمير فيصل بحجة ان ثمة أعمالاً هامة تضطره إلى البقاء بضعة أيام أخرى إلى جانب أخيه . وقد اتفق مع نسيب البكري على ان يرسل اليه متى تقرر إعلان الثورة برقية يقول فيها : « ارسلوا الفرس الشقراء » .

وكان آصف بك المستشار العدلي للجيش الرابع، وهو أحد الضابطين اللذين رافقا فيصل بن الحسين إلى الحجاز، قد اختلى به في المدينة وقال له: « إذا كنت تستطيع ان تنجو بنفسك فانج ولا تعد إلى دمشق ، فهم يضمرون لك الشر، واني أقول لك هذا كرامة لجدك الراقد في هذه الروضة [3] . »

ثم شخص الأمير فيصل إلى مكة، فأطلع والده الشريف حسين على تردي الأوضاع في سورية ، وما يعانيه أبناؤها من اضطهاد واستشهاد ، وأبلغه قرار أقطاب الحركة العربية بأن سورية لم تعد قادرة على إعلان الثورة وان الثورة ، يجب ان تعلن من

---

١ ـ محاضرات في الاستعمار ج ٢ ص ٥٢

٢ ـ الثورة العربية الكبرى ، وثائق وأسانيد ص ٢٢٦

٣ ـ الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ٣٩

الحجاز ، وأنهم يضعون بين يديه هذه الأمانة القومية المغموسة بدماء الألوف من شهداء العرب الذين عاشوا لها وقضوا من أجلها ، وهم على يقين بأنهم يضعون هذه الأمانة المقدسة بين يدين شريفتين .

وقد بادر الشريف حسين إلى دعوة أشراف الحجاز وأعيانه إلى اجتماع حضره أربعمائة منهم، وبسط لهم ما يعانيه العرب في كافة ديارهم، وما يطمحون اليه من حياة عزيزة كريمة ، وما يعقدونه من آمال كبار على الحجاز مهد البعث العربي الأول . فلم يتردد الحاضرون في موافقة الشريف على إعلان الاستقلال وإضرام نار الثورة .

وقال لهم الشريف : إذا أردتم ان تولوا زعامتكم رجلاً غيري فاني أول من يعترف به ويضع سيفه في خدمته .

فأجمعوا على المناداة به زعيماً أعلى [1] .

وهكذا انتقلت الحركة العربية من عهد التعبئة الروحية إلى عهد التعبئة المادية ، ومن طور الاعداد والتنبيه إلى طور العمل والتنفيذ ، وبدأ ضباط العرب وأحرارهم ومتطوعوهم يفدون إلى مكة قاطعين الصحاري والجبال والبحار ، في عشرة أيام أو عشرين أو ثلاثين يوماً وأحياناً في مائة يوم .. وكان بعضهم يأتي من القفقاس أو إيران أو الهند ، كما جاء آخرون من مصر والسودان . ولقد مثلت الجمعيات العربية دوراً رئيسياً في تنظيمات الثورة لأنها أمدتها بالكثيرين من القادة والأجناد :

أبى السيف إلا انتقاماً لها — وخاف على الضيم خسرانها
أثار بني هاشم في الحجاز — وانطق في الترب حسانها
كتائب هبت تلبي الدعاة — وتطوي القفـار وكثبانها
برمح يرن وعضب يئن — ينبه في الترك وسنانهـا
هو الثار أدركه الثائرون — أشجى فروقاً وسلطانها [2]

لقد كانوا يقبلون إلى مكة من كل بقعة عربية لكي ينضموا إلى أول جيش عربي

---

١ ــ نهضة العرب • التحرر فالاستقلال فالدولة ، ص ٦٧

٢ ــ من قصيدة « الشهداء » لخير الدين الزركلي .

في العصر الحديث يستظل بالراية العربية ، ويناضل تحت قيادة أمير عربي في سبيل هدف عربي يعبر عن أمنية العرب ويحقق طموحهم ويجمع شتاتهم .. وقد تحول الشريف حسين في نظرهم جميعاً إلى أمل ومثل ورمز .

وقد عبّر الشعراء عن ذلك أروع تعبير، فقال عارف الزين مخاطباً القائد المرتجى:

أرض الجزيرة قاصيها ودانيها — أصبحت أنت حماها يا ابن حاميها
يا منقذ العرب والأيام عابسة — سرت بأعمالك الدنيا ومن فيها
نشرت ألوية للعرب ظافرة — شلت يد في بلاد الغرب تطويها
بيضاء سوداء خضراء بحمرتها — حيوا الحسين وحيوا من يحييها

وقال فؤاد باشا الخطيب :

حيّ الشريف وحيّ البيت والحرما — وانهض فمثلك يرعى العهد والذمما
واسمع قصائد ثارت من مكامنها — ان شئتها شهباء أو شئتها رجما
فمن يكن عن اباء الضيم في صمم — فليسمع اليوم صوتاً يحسم الصمما
يا ابن النبي وأنت اليوم ناصره — قد عاد متصلاً ما كان منفصما
والتف حولك أبطال غطارفة — شم الأنوف يرون الموت مغتنما
فاصدم بهم حدثان الدهر معترضاً — سداً من الترك ان تعرض له انهدما
إيه بني العرب الأحرار ان لكم — فجراً أطل على الأكوان مبتسما
يستقبل الناس من أنفاسه أرجاً — ما هب في الشرق حتى أنشر الرمما
تلك الحياة التي كانت محجبة — في الغيب لا سأماً تخشى ولا سقما
سارت مع الدهر من بدو ومن حضر — حتى استتب فكانت نهضة عمما
من ذلك البيت، من تلك البطاح، على — تلك الطريق، مشت أجدادكم قدما

وقصائد الشعراء العرب في الوطن والمهجر في تحية الثورة وزعيمها الأكبر أكثر من ان تحصى ومنها قصيدة رقيقة لرشيد أيوب يقول فيها :

من أقاصي الروم نهديك السلام مع نسيم السحر
يا شريفاً كلما ناح الحمام فوق غصن الشجر
صاحب السيف الصقيل المستهاب في دياجي المحن
أنت من قوم لهم تعنو الرقاب من قديم الزمن
خضتها حرباً على الباغي تدور بكماة أسد
وتركت الترك أصحاب الفجور عبرة للأبد
فأدر يا أيها الساقي الكؤوس جاء وقت الطرب
واسقنا من خمرة تجلو النفوس من ظلام الكرب
واصغ للبلبل ان لاح الصباح صاح فوق القضب
فلتعش للعز في تلك البطاح دولة العرب

ويقول الأستاذ أنيس المقدسي ان هذه الثورة كان لها « في البلدان العربية (ما عدا مصر) نتائج معنوية خطيرة أهمها انها أذكت في نفوس الناس العصبية الجنسية، ووضعت في أيديهم سلاحاً فعالاً للمطالبة بإعادة مجدهم التليد، فأصبح الملك حسين في الأدب العربي (في سورية والعراق) بطل العرب والمطالب الأكبر بحقوقهم[1] » .

---

١ ـ الاتجاهات الادبية في العالم العربي الحديث ، ص ١٤٧

الفصل الحادي عشر

حوارُ الأسدِ والثعلبْ

اجتمعت جميع الدوافع لتحمل الشريف حسين على اعلان الثورة . فمن الناحية الشخصية كان طموحه واباؤه يدفعان به إلى تحدي ممثلي السلطة التركية ، واستعادة ما انتزعه هؤلاء من حقوق الشرافة في عهود اسلافه، وقد اشتد هذا الصراع عندما اكتشف الشريف ان ممثلي هذه السلطة يبيتون الشر له ولاولاده، وان مؤامرتهم على حياته لم يصرف النظر عنها ، أو تؤجل إلى وقت آخر ، إلا لان ظروف الحرب قد اقتضت موادعته ومصانعته .

ومن الناحية القومية كان كل شيء في البلاد العربية يهيب به إلى الخروج على الدولة العثمانية، وخوض المعركة الدامية في سبيل حرية العرب واستقلالهم، وقد جاءت أحكام الاعدام على نخبة من شبان العرب ، كان الأمير فيصل أخاً لهم وشريكاً في كفاحهم، فالهبت ضميره وأثارت مشاعره. ثم كان آخر الحوافز قرار أقطاب الحركة الوطنية في سورية بأن على الحجاز ان يتولى المبادرة في اعلان الثورة، وان على الشريف حسين ان يتولى قيادتها وزعامتها، واتجاه أدباء العرب إلى استصراخ أرض الجزيرة العربية، واستثارتهم رجالها لنجدة اخوانهم في البلاد العربية :

أجزيرة العرب انصتي لصراخنا   واشفي جراح المدنف المتألم

أوليس من هضباتك انبثق الضحى ومشى محمد في الصراط الاقوم؟
أين الرجال ، أليس فيك بقية منهم لتغسل عار قومي بالدم ؟
كانوا إذا نودوا ليوم كريهة لبوا سراعـــاً كالقضاء المبرم

ومن الناحية الدينية كان الأتراك يحرفون الشريعة الاسلامية، ويحولونهـــا إلى اتكالية ودروشة،وتسكع واستسلام،وتعصبوا كراه،وهم يضطهدون اللغة العربية التي هي لغة الكتاب العزيز ، ويستذلون العرب وفي الحديث الشريف : إذا ذلت العرب ذل الاسلام .

ومن الناحية الاقتصادية اشتدت الأزمة في الحجاز،بعد ان أغلقت أبواب البحر ، وانقطعت مواكب الحجاج، ونفد القليل بما كان في البلاد من زاد ، وبدأت المجاعة تهدد البلاد بكارثة رهيبة إذا لم ترفع بريطانية حصارها عن البحر .

وكان من الواضح ان العرب لا يستطيعون ان يخوضوا حرباً عسكرية ضد الدولة العثمانية إذا لم يتحالفوا مع دولة تمدهم بالأسباب المادية التي تدعم قواهم المعنوية والبشرية . وكان أقطاب الحركة العربية في سورية قد فوضوا الشريف حسين كما رأينا بمباحثة بريطانية باسم العرب ضمن شروط محـــددة تضمن للعرب حريتهم ووحدتهم،وعلى هذا الأساس وضمن هذه الشروط دارت المراسلات بين السير هنري مكماهون مندوب بريطانية السامي في مصر والشريف حسين ممثل القومية العربية .

وكانت بريطانية ، بل كانت أوروبة ، قد انتبهت منذ وقت بعيد إلى ظهور القومية العربية وانتشار الوعي القومي في البلاد العربية، فقد كتب الممثل السياسي البريطاني بجدة في ١٠ أيار (مايو) سنة ١٨٨٢ (١٣٠٠ هـ) إلى وزارة الخارجية البريطانية : « لقد علمت ان فكرة الحرية أصبحت الآن تحرك عقول الناس حتى في مكة. وتسربت إلي بعض الأنباء عن وجود خطة معينة لتوحيد نجد وعرب الجزيرة العراقية بزعامة منصور باشا وعسير واليمن بزعامة علي بن عابد [1] » .

وأشار الرحالة الأوربيون إلى ما لمسوه بأنفسهم من يقظة المواطنين العرب

---

١ ـ يقظة العرب ص ١٦٢

وتطلعهم إلى الحرية والوحدة والاستقلال ، فكتب جبرائيل شارم الذي زار بلاد الشام سنة ١٨٨٢ (١٣٠٠ ﻫ) عن الروح الجديدة التي شاهدها : « .. انتشرت روح الاستقلال انتشاراً واسعاً ، وكان الشبان من المسلمين خلال إقامتي في بيروت منهمكين في تنظيم الجمعيات لإنشاء كثير من المدارس والمستشفيات والعمل على النهوض بالبلاد. ومن أهم صفات هذا النشاط انه بريء من وصمة التعصب الطائفي، فقد عمدت تلك الجمعيات إلى قبول النصارى وإشراكهم في العمل القومي . أما الأتراك فقد نحوا عن هذا الميدان » . ورحل فرنسي آخر سنة ١٨٨٣ (١٣٠١ ﻫ) هو دنيس دي روفير رحلات واسعة في البلاد العربية في شمال افريقية وعلى طول شواطىء البحر الأحمر وخليج العرب، وسافر في نهر دجلة حتى بغداد ورأى مظاهر القلق والاضطراب في جميع أنحاء العالم العربي ، فكتب : « .. لقد وجدت في كل مكان شعوراً ثابتاً عاماً ، هو بغض الأتراك .. وبدأت تتبلور بالتدريج فكرة القيام بعمل جماعي مدبر للتخلص من نيرهم الكريه . وتلوح عن بعد مظاهر حركة عربية حديثة النشأة ويوشك هذا الشعب الذي كان حتى الآن مهيض الجناح ان يطالب عن قريب بمكانته اللائقة في مستقبل الاسلام [1] . »

وفي سنة ١٩١٤ (١٣٣٣ ﻫ) لاحظ مدرس الماني قوة القومية العربية بين الأماني العديدة المحلية في أجزاء تركية التي تتكلم العربية فقال : « من الواضح ان هناك شعوراً قومياً عربياً يمكنه ان يوحد بين الشعوب عبر حواجز العقائد الدينية ، ان عصر القومية الواعية لم يصل في الشرق العربي إلى الأجزاء الأكثر تقدماً فحسب بل إلى كل المساحة التي تتكلم العربية . وحقيقة انه حتى الأمراء في الجزء الشمالي من شبه الجزيرة العربية يؤيدون فكرة اتحاد الأراضي العربية في شكل اتحاد، يثبت ان الوعي بأمة عربية قد نفذ فعلاً إلى داخل شبه الجزيرة. وذلك معناه بوضوح ان حل المشاكل الاقليمية في هذه الأراضي التي تهدد بأن تكون ذات أهمية عالمية بسبب موقعها الاستراتيجي، لم يعد يمكن حله من وجهة نظر القوى

---

١ ـ المرجع السابق ص ١٦١

الكبرى وإنما داخل اطار برنامج القومية العربية في مجموعه فقط [١] » .

وقد أدركت بريطانية أهمية القوة الفتية الصاعدة وحاجتها إلى مساعدتها في حربها مع الدولة العثمانية، بعد أن رأت النفوذ الالماني يتعاظم فيها ويظفر بمد سكة حديد بغداد، وأحست بما في ذلك من تهديد موجه إلى مقامها في الخليج العربي والهند. وكانت ثورة العرب على الترك، إذا تحققت، عاملاً قوياً في تحطيم النفوذ الخرافي الذي يتمتع به السلطان العثماني في البلاد الاسلامية بوصفه خليفة المسلمين .

يقول لودز: «كان هناك خطر جسيم هو استغلال الناحية الدينية، فان الباب العالي لجأ في صراعه مع الحلفاء إلى ما أسماه « الجهاد الديني » قصد اثارة الرعايا المسلمين الخاضعين للحلفاء عليهم، وهو سلاح تعرف انكلترة خاصة خطره، وتعرف في الوقت نفسه ان الحجاز وهو مركز الاشعاع للعالم الاسلامي ، يستطيع ان يقذف بحممه الملتهبة بين مسلمي الهند ومسلمي افريقية وغيرهما، فيطيح بما للحلفاء من نفوذ بين المسلمين هناك . وعلى ذلك كان نقل كرة الدعاية الدينية من أرجل الاتراك إلى أرجل الحلفاء أو الموالين لهم، واجباً ملزماً يحتم على انكلترة ان تبذل الكثير في سبيل تحقيقه، ومن ثم سعت سعياً حثيثاً في جذب أكبر شخصية اسلامية في ذلك الحين اليها ، وقد وجدتها في الشريف حسين أمير مكة المكرمة الذي كان يتمتع بمركز ديني ومركز عربي لم يدانه فيه أحد من زعماء المسلمين في ذلك الحين ، فلم يكن بد أمام انكلترة من جذب الحسين الزعيم المسلم العربي وربطه معها بمعاهدة [٢] . »

وإذا كانت تركية تثير العالم الاسلامي بادعائها ان الاسلام معرض للخطر ، من جراء مساهمتها في الحرب إلى جانب المانية، وان من واجب كل مسلم محاربة الحلفاء لانهم يحاربونها، فان في وسع بريطانية ان تحارب بالسلاح نفسه إذا ما حالفت الشريف حسين سليل الأسرة الهاشمية وأمير مكة قبلة المسلمين، وان تحول الدعاية التي تستغلها المانية لاثارة المسلمين عليها إلى دعاية مضادة ضد الألمان والأتراك .

وكانت الاتصالات التي قامت بها السلطات البريطانية في مصر مع السيد رشيد

---

١ ـ عصر القومية ص ١٢٥

٢ ـ القول الحق ص ١٠

رضا وعزيز المصري ، والمفاوضات التي قام بها ريجنالد وتجت مع السيد علي الميرغني وبعض الشخصيات البارزة في السودان ، والمباحثات الأولية التي دارت بين الأمير عبد الله بن الحسين واللورد كتشنر وروناالد ستورز ، قد اقنعت بريطانية انهـا لن تستطيع انتزاع شيء من العرب إذا لم تقدم لهم العهود الكافية على تحقيق مطالبهم. ونتيجة لذلك فوض مجلس الوزراء البريطاني السير هنري مكماهون ممثلها في مصر بمفاوضة الشريف حسين واصدار بيان يتفق مع مطالب العرب .

وتنوه نجلا عز الدين بأن من الضروري ان نؤكد هنا ونتذكر دوماً ان الحسين كان معترفاً به كناطق باسم العرب على أساس بروتوكول دمشق ، وقد نص هـذا البروتوكول في وضوح على ان الهدف هو الاستقلال ، وكان التحالف مع بريطانية معلقاً على شرط قبولها استقلال العرب [1] .

وعلى الرغم من ذلك كان هنري مكماهون كثير التحفظ، شديد المخادعة والمراوغة، لا يخطو خطوة أو يتفوه بكلمة قبل ان يرجع إلى الحكومة البريطانية يعرض عليها ما تلقاه من رسائل ومقترحات ، فتضع الجواب بنفسها وتبعث به اليه فيرسله بدوره إلى الشريف حسين . ولم يكن هذا بأقل منه تحفظاً ودهاء ، وكما كان مكماهون يرجع إلى حكومته كان الشريف يرجع إلى ميثاق دمشق، ولا يخطو خطوة أو يتفوه بكلمة إلا إذا كانت متفقة مع الميثاق روحاً ونصاً . ويلاحـظ عزة دروزة ذلك بقوله : « ويبدو في النصوص أثر الاتصال بين الحسين ورجال الحركة العربية واضحاً سواء في الحدود أو في المواد الأخرى أو الخاتمة، بل نكاد نقول ان المشروع أو اكثره من وضعهم حيث يبدو الفرق واضحاً بين اسلوبه واسلوب الحسين المعروف [2] . »

وقد تجلى في هذه الرسائل التي استغرق تبادلها ثمانية أشهر النضال بين قوتين كل منهما في حاجة إلى الأخرى ، إلا ان الواحدة تحاول ان تظفر بعون الأخرى بلا ثمن أو بوعود مبهمة يمكن تأويلها عند الاقتضاء التأويل الذي تريده ، والثانية تريده عهداً واضحاً صريحاً بتأييد استقلال العرب .

---

١ ـ العالم العربي ص ١٣٦

٢ ـ حول الحركة العربية الحديثة ج ١ ـ ص ٥٢

وكان السير مكماهون يتخيل في بدء المراسلات انه يفاوض أميراً طامحاً يمكن اغراؤه بالالقاب، وترضيته بالتملق والاطناب في الاطراء والمديح، فأجابه الشريف حسين : « أما هدفنا يا فخامة الوزير فهو أن نطمئن إلى ان الشروط الأساسية لتأمين مستقبلنا ستبنى على أساس الحق والواقع لا على الاسراف في تنميق العبارات والألقاب » وأراد أن يلهيه عن القضايا الأساسية التي تتعلق بتحديد الدولة العربية والاعتراف باستقلالها موحدة كاملة، بالتلويح له بالخلافة، معتقداً ان مطامعه الشخصية قد تلهيه عن مطامحه القومية، فأجابه في شيء من التهكم : « أما الخلافة فالله يرحمها ويحسن عزاء المسلمين فيها » .

وقد حاول مكماهون مع تأكيده على حسن نوايا بريطانية تجاه العرب، وموافقتها على قيام دولة عربية ، التهرب من بحث مسألة الحدود، بحجة ان ظروف الحرب لا تسمح بمعالجة هذا الموضوع، لا سيما وان بعض هذه الحدود ما تزال في يد الأتراك، متجاهلاً ان العرب انما يريدون الثورة لانتزاع هذه الأراضي من أيدي الأتراك، ولو لم تكن في قبضتهم لما كان هناك مبرر للثورة، وما أروع الجواب الذي تلقاه مكماهون من الشريف على ذلك إذ قال : « ان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من ارضائه ومفاوضته بعد الحرب، بل هي مطالب شعب يعتقد ان حياته في هذه الحدود، وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد» ثم يكرر هذا المعنى في الرسالة نفسها فيقول: « وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة، انكم لا تشكون قط بأني لست أنا شخصياً الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا، بل هي مقترحات شعب بأسره » .

وهكذا ايقن مكماهون، بل أيقنت الحكومة البريطانية، انها لا تفاوض في شخص الشريف حسين أميراً طامحاً يمكن الهاؤه بالمناصب ، أو خداعه بالألقاب ، بل تواجه شعباً متمسكاً بحقه، مؤمناً بقضيته، يعرف ماذا يريد ولماذا يناضل، ولا يمكن أن يتراجع عن مطالبه أو ينثني عن أهدافه، وان هذا الشعب المؤمن المناضل قد تجسد في شخص الشريف ، فهو انما يتكلم باسمه ويستمد قوته من قوة ذلك الشعب بأسره .

والواقع ان المتأمل لا بد من ان يدهش لصلابة الشريف ورباطة جأشه وقوة

ايمانه، حين يراه في ذلك الموقف الرائع، وهو يوجه الرسائل وينتظر الأجوبة ، من أجل تحديد كلمة غامضة أو توضيح أمر مبهم،ويصر على هذه الناحية ويأبى التنازل عن تلك ، بينما هو يعاني ضغط الوضع السياسي الملتهب في سورية ، وضغط الوضع الاقتصادي المتأزم في الحجاز، ويرى إلى تعاظم القوات التركية في المدينة، ويعرف ان هذه القوات ليست موجهة إلى اليمن كما تزعم القيادة ، بل انهـــا تنتظر الفرصة السانحة للفتك به وبعرب الحجاز،كما يعرف ان بريطانية التي يقف منها ذلك الموقف قادرة في ظروف الحرب السائدة على ان تميت شعبه جوعاً وتمنع مواكب الحجاج من الوصول إلى الديار المقدسة .

وفي هذه المفاوضات التاريخية يتخذ الأسد البريطاني صفات الثعلب الماكر،فيفر مراوغاً ويكر مخادعاً، بينما تتجلى في المفاوض العربي الذي لا يملك سوى الايمان بعدالة قضيته، صفات الأسد النبيل، المدافع عن حقه،الزائد عن عرينه، الواثق بأن كل كلمة تصدر عنه أو عن الفريق الذي يفاوضه، هي كلمة شرف من المفروض في كل منهما ان يبذل دمه في سبيلها ..

وأمام هذا الموقف الصلب، رأت بريطانية ان تحسم الموضوع،فأكدت للشريف انها تعترف بقيام دولة عربية في جميع المناطق الواقعة داخل الحدود التي ذكرهـــا « حيث بريطانية العظمى مطلقة التصرف بدون ان تمس مصالح حليفتها فرنسة » ورأى الشريف وقد ضمن تعهدات ايجابية عن المسألة الأساسية الخاصة بالدولة العربية المستقلة ، ان يرجىء البت في تحفظات بريطانية بشأن المناطق التي تقول ان لفرنسة مصالح فيها ولا تستطيع ان تنفرد في تقرير مصيرها ، على ان يعاد النظر في ذلك بعد الحرب، وان لا يُفهم منه « امكان أي تساهل يكسب فرنسة أو سواها شبراً من تلك الجهات .

ولم توضح شروط التعاون العسكري في المراسلات لأن المفاوضة بشأنها كانت شفهية،وهي شروط لم يتردد الشريف حسين في قبولها والوفاء بها لأنها تتفق وأهداف العرب. ويقابل هذه المعونة ان يمد الانكليز الشريف حسين بما يحتاج اليه في حروبه من سلاح ومال . أما من الناحية السياسية فيمكن تلخيص الامور التي تم الاتفاق

عليها بين الفريقين بالبنود التالية :

١ – تعترف بريطانية بقيام دولة عربية موحدة مستقلة بكل معاني الاستقلال[١]. يحدها شرقاً حدود ايران والخليج العربي ، وغرباً البحر الأحمر والحدود المصرية والبحر الأبيض المتوسط، وشمالاً الحدود الشمالية لولايتي حلب والموصل، وجنوباً المحيط الهندي ، باستثناء مستعمرة عدن .

٢ – تحفظت بريطانية بشأن المناطق التي تقع غربي مناطق دمشق وحمص وحماة وحلب كالاسكندرونة ولبنان، باعتبار ان لفرنسة مصالح فيها، وقبل الشريف هذا التحفظ على ان يُنظر بشأن هذه المناطق فيما بعد ، والا يعتبر قبوله هذا تنازلاً عن شبر واحد منها لانها عربية صرف وليس من فرق بين المسلم العربي والمسيحي العربي فكلاهما من نسل واحد . وكانت اشارته إلى المواطنين المسيحيين دليلاً واضحاً على ان المقصود هو لبنان وليس أيـــة منطقة عربية أخرى . كما أكد أن العرب سيطالبون بعودة هـــذه المنطقة إلى حظيرة المنطقة العربيـة المستقلة « عنـــد أول فرصة تضع فيها هذه الحرب أوزارها » ويلاحظ ان مكماهون لم يعترض على شيء من ذلك ، وانه أكد في رسائله التالية ان الحلفاء انما يخوضون الحرب لأجل الحق والحرية ، وان العرب هم أحلاف وشركاء في هذه الحرب .

٣ – وافق الشريف على التحفظات الخاصة بالامراء العرب الذين تربطهـــم ببريطانية العظمى علاقات تحالف في بعض أجزاء جزيرة العرب .

٤ – احتفظت بريطانية لنفسها بحق اقامة نظام اداري خاص في ولايتي البصرة وبغداد يكفل تحقيق التعاون الانكليزي العربي في ذلك الجزء من الدولة العربيـــة المستقلة، ووافق الشريف على اقامة ذلك النظام الاداري الخاص في تلك المنطقة التي كانت قد دخلت آنئذ في قبضة الانكليز، على أن يكون هذا النظام وقتياً وألا يؤدي

---

١ – ضمت الدولة العربية المتفق على استقلالها جميع البلاد العربية الاسيوية المحتلة من قبل تركية وهي البلاد التي كانت تتمخض بالثـورة العربية وتؤمن بالقومية العربيـة واستثنيت منها الامارات التي ترتبط بمعاهدات مع بريطانية ، كما استثنيت البلاد العـربية الافريقية التي كانت قد دخلت تحت حكم الدول الاوروبية .

إلى التدخل في الشؤون الداخلية وألا يعني سلخ أية بقعة عربية وان تدفع الحكومة البريطانية مقابل ذلك تعويضاً مالياً (١) .

٥ ــ لم تبد بريطانية أي تحفظ فيما يتعلق بفلسطين وشرقي الاردن، لان تحفظها كان مقتصراً على المناطق التي تقول ان لفرنسة مصالح فيها والتي حددتها بقولها انها المناطق التي تقع غربي مناطق دمشق وحمص وحماة وحلب .

٦ ــ تعهد مكماهون بالنص التالي : « ان حكومة بريطانية قد فوضت إليّ ان ابلغ دولتكم ان بريطانية العظمى لا تنوي ابرام أي صلح إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية » .

تلك هي خلاصة الاتفاقات التي انطوت عليها مراسلات الشريف حسين ممثل القومية العربية ، والسير هنري مكماهون ممثل بريطانية العظمى ، وأعلنت الثورة العربية بموجبها وعلى أساسها ، وهي تعترف بوضوح باستقلال العرب وسيادتهم في منطقة معينة محددة .

وقد كانت هذه المنطقة المعينة مثار الجدل بعد الحرب بصدد فلسطين، فالشريف حسين يؤكد أن فلسطين واقعة فيها ، والحكومة البريطانية ترى غير ذلك، مدعية ان تحفظاتها بشأن المناطق التي تقع غربي دمشق وحمص وحماة وحلب تشمل فلسطين أيضاً ، مفسرة كلمة « المناطق » بانها تعني « الولايات » في حين ان كلمة المناطق قد استعملت أيضاً لوصف مدن دمشق وحمص وحماة وحلب ، والمعروف انه لم تكن في ذلك العهد ولايات باسم هذه المدن وانما كانت هنالك ولاية واحدة هي

---

١ ــ ذكر الكوماندور هوغارث ان الشريف حسين كان يعتبر المعونات التي ظل يتلقاها من بريطانية مدة من الزمن بعد انتهاء الحرب ، على أساس أنها المعونة المالية التي اشترطها بهذا الصدد ، كما ان السير ريدر بولارد اشار الى أن الشريف حسين قدم معونات للثوار العراقيين عام ١٩٢٠ مدفوعا بشعوره بالمسؤولية نحو ابناء قومه الذين اشترط على بريطانية الا تقوم بادارة بلادهم الا لفترة يسيرة من الزمن : الثورة العربية الكبرى ــ وثائق واسانيد ، ص ٢١٧ ــ ٢١٨ ، نقلا عن :

Arab Bulletin, 11 Jaruray 1919.
The Camels Must Go, by Sir R. Bullard, P P. 114 - 126.

ولاية سورية تشمل مناطق تلك المدن الأربع ، وهكذا يبدو بوضوح ان الرأي العربي هو الرأي الصحيح .

على اننا لو فرضنا جدلاً ان بريطانية قد أبدت تحفظاً فيما يتعلق بضم فلسطين إلى الدولة العربية التي اعترفت باستقلالها ، فان هذا التحفظ لا يربـــط الشريف حسين بشيء ، لانه أبدى هو أيضاً تحفظه على هذا التحفظ ، وأكد ان ارجاء البحث في مصير هذه « المناطق » لا يعني التنازل عن شبر واحد منها

ولا ريب ان الحكم الفاصل في هذا الخلاف هو لنصوص المراسلات نفسها ، هذه المراسلات التي يسميها الملك حسين «مقررات النهضة» أي الأسس التي قامت عليها الثورة العربية . وهذا ما يدفعنا إلى نشرها بنصوصها الحرفية الكاملة ، باعتبارها من أهم الوثائق الدولية في تاريخ حركة العرب القومية .

وقد نشرت نصوص الرسائل كما أذاعهـا الشريف حسين ، ورفضت الحكومة البريطانية نشر هذه النصوص ، بالرغم من مطالبة الصحافة الانكليزية وأعضاء مجلس العموم ومجلس اللوردات بذلك غير مرة ، وزعمت الحكومة البريطانية ان نشر الوسائل «يضر بالمصلحة العامة» ولم تستجب الوزارة حتى لطلب بعض النواب الذين شغلوا منصب الوزارة خلال الحرب العالمية الأولى، ومنهم السير ادوار غراي(الذي أصبح فيما بعد الفيكونت اوف فالودون) وهو الوزير المسؤول الذي صدرت مذكرات مكماهون بناء على تعليماته .

ومما قاله ادوار غراي بهذا الصدد في مجلس اللوردات : « ان عدداً كبيراً من هذه المواثيق ، أو بعضها على الأقل ، مما لم تعلنه الحكومة رسمياً ، أصبح معروفاً ذائعاً عن طرق أخرى ، ولست أدري هل ذاعت كلها أو بعضها . ولكني أطالب الحكومة بإلحاح بأن تنشر رسمياً جميع المواثيق الخاصة بهذا الموضوع والتي التزمنا بها خلال الحرب ، إذ أن تلك هي خير وسيلة لتبرئة شرفنا في هـذه المسألة . واني واثق من اننا لا نستطيـع إنقاذ شرفنا بإخفاء تعهداتنا، والادعاء بعدم وجود تناقض إذا كان هناك تناقض حقاً . واني لواثق أيضاً من ان أشرف سبيل هو ان نكشف عن حقيقة هذه التعهدات ، وان نعترف صراحة بوجود التناقض إذا كان موجوداً.

فإذا ما اعترفنا بذلك وأتحنا الفرصة للنـــاس لكي يحكموا حكماً دقيقاً على مبلغ التناقض ، فيجب حينئذ أن نفكر في أعدل السبل وأشرفها للخروج من المأزق الذي قد تكون هذه العهود أدخلتنا فيه [1] » .

ونحن ننشر هذه المراسلات كما أوردها كتاب «الثورة العربية ـ وثائق وأسانيد» (ص ٢٠ ـ ٤٧) محتفظين بالتعليقات والحواشي التي ألحقها بكل منها .

---

١ ـ يقظة العرب ص ٢٧٣

الفصل الثاني عشر
مراسلات الحسين - مكماهون

- ١ -

مذكرة الشريف حسين الاولى الى السفير هنري مكماهون
مكة في الثاني من رمضـــان ١٣٣٣ (١٤ تموز ١٩١٥)

لما كان العرب بأجمعهم دون استثناء قد قرروا في الأعوام الأخيرة ان يعيشوا وان يفوزوا بحريتهم المطلقة ، وان يتسلموا مقاليد الحكم نظرياً وعملياً بأيديهم ، ولما كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا انه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى ان تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة ، وهي الأماني المؤسسة على بقاء شرفهم وكرامتهم وحياتهم ، دون أية مقاصد أخرى من أي نوع كان لا علاقة لها بهذا الهدف .

ولما كان من مصلحة العرب ان يفضلوا مساعدة حكومة بريطانيا عن أيـــة حكومة أخرى بالنظر لمركزهم الجغرافي ومصالحهم الاقتصادية ، وكذلك بالنسبة لموقف الحكومة المذكورة والمعروف لدى الأمتين مما لا حاجة لتأكيده .

انه بالنظر لهذه الأسباب كلها ترى الأمة العربية أن يقتصر ، بالنظر لضيق الوقت ، على الطلب من الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب ان تصادق بواسطة مندوبها أو ممثلها على الاقتراحات الأساسية الآتية، تاركين كل المسائل التي تعتبر ثانوية بالنسبة لهذه الاقتراحات إلى ان يحين الوقت الملائم لإجراء المفاوضات الفعلية ، حتى تتمكن (الأمة العربية) من اعداد الوسائل اللازمة لتحقيق هذا الغرض السامي :

١ – تعترف انكلترة باستقلال البلاد العربية التي يحدها : شمالاً خط مرسين – اضنة الموازي لخط ٣٧ شمالاً الذي تقع عليه برجيك – أورفه – ماردين–مديات– جزيرة ابن عمرو – عمادية حتى حدود فارس ، وشرقاً حدود فارس إلى خليج البصرة، وجنوباً المحيط الهندي (باستثناء عدن التي ستحتفظ بوضعها الحالي) ، وغرباً البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين . وعلى انكلترا ان توافق على إعلان خلافة عربية على المسلمين .

٢ – تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية انكلترة في جميع المشاريع الاقتصادية في البلاد العربية ، إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية .

٣ – حفظاً لاستقلال البلاد العربية وتأميناً لأفضلية انكلترة في المشاريع الاقتصادية ، يتعاون الفريقان الساميان المتعاقدان في تقديم العون لبعضها البعض ، إلى أقصى حد تستطيعه قواتها الحربية والبحرية لمجابهة أية قوة أجنبية يمكن انتهاجم أحد الفريقين . ولا يعقد الصلح دون موافقة الفريقين .

٤ – إذا دخل أحد الفريقين في نزاع مسلح ، فعلى الفريق الآخر أن يقف على الحياد . وإذا رغب الفريق الأول أن يشرك الفريق الثاني معه في النزاع ، فعلى الفريقين أن يجتمعا ويبحثا الشروط بينهما .

٥ – تعترف انكلترة بإلغاء الامتيازات الأجنبية في البلاد العربية ، وعليها ان تساعد حكومة الشريف على دعوة مؤتمر دولي للمصادقة على ذلك الإلغاء .

٦– مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة. وإذا شاء أحد الفريقين تجديدها عليه أن يطلع الفريق الآخر على رغبته قبل انتهاء

مدة الاتفاقية بعام .

هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق واتحد ، والحمد لله، على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر ، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلباً أو إيجاباً في خلال ثلاثين يوماً من وصول هذا الاقتراح . وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلق من الحكومة جواباً فانه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء .

وفوق هذا فاننا نحن عـــائلة الشريف نعتبر أنفسنا – إذا لم يصل الجواب – أحراراً في القول والعمل من كل التصريحات والوعود السابقة التي قدمناها بواسطـة علي أفندي [1] .

– ٢ –

مذكرة السير هنري مكماهون الاولى الى الشريف حسين
القاهرة في ٩ شوال سنة ١٣٣٣ - ٣٠ آب سنة ١٩١٥

إلى السيد الحسيب النسيب سلالة الأشراف وتاج الفخار وفرع الشجرة المحمدية والدوحة القرشية الأحمدية صاحب المقام الرفيـع والمكانة السامية السيد ابن السيـد والشريف ابن الشريف السيد الجليل المبجل دولتلو الشريف حسين سيد الجميـع أمير مكة المكرمة قبلة العالمين ومحط رجال المؤمنين الطائعين عمت بركته الناس أجمعين.

بعد رفع رسوم وافر التحيات العاطرة والتسليمات القلبية الخالصة من كل شائبة نعرض ان لنا الشرف بتقديم واجب الشكر لإظهاركم عاطفة الإخلاص وشرف الشعور والإحساسات نحو الانكليز . وقد يسرّنا علاوة على ذلك ان نعلم أن سيادتكم ورجالكم على رأي واحد وان مصالح العرب هي نفس مصالح الانكليز

---

١ – لم ينشر النص العربي الاصلي حتى الآن ، والنص المثبت هـو الترجمة الحـرفية للنص الانجليزي الرسمي الذي قدمته الحكومة البريطانية عام ١٩٣٩ تحت رقم ٥٩٥٧

والعكس بالعكس . ولهذه النسبة فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر التي وصلت إلى سيادتكم عن يد علي أفندي وهي التي كان موضحاً بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها .

وإنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانية العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة .

وأما بخصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر انها سابقة لأوانها – وتصرف الأوقات سدى في مثل هذه التفاصيل في حالة ان الحرب دائرة رحاها ولأن الأتراك أيضاً لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالاً فعلياً ، وعلى الأخص ما علمناه وهو ما يدهش ويحزن أن فريقاً من العرب القاطنين في تلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها – وبدل إقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة إلى الالمان– نعم مد يد المساعدة لذلك السلاب النهاب الجديد وهو الالمان وذلك الظالم العسوف وهو الأتراك .

مع ذلك فإنا على كمال الاستعداد لأن نرسل إلى ساحة دولة السيد الجليل وللبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية وستصل بمجرد إشارة من سيادتكم وفي المكان الذي تعينونه . وقد عملنا الترتيبات اللازمة لمساعدة رسولكم في جميع سفراته الينا ، ونحن على الدوام معكم قلباً وقالباً مستنشقين رائحة مودتكم الزكية ومستوثقين بعرى محبتكم الخالصة سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا .

وفي الختام أرفع إلى تلك السدة العليا كامل تحياتي وسلامي وفائق احترامي[1]

المخلص

نائب جلالة الملك (السير آرثر مكماهون)

تحريراً في ١٩ شوال سنة ١٣٣٣

الموافق ٣٠ اغسطس سنة ١٩١٥

---

١ – مؤتمر فلسطين العربي البريطاني المنعقد في مدينة لندن ، ترجمة ابرهيم عبدالقادر المازني ، ١٩٤٠ ، ص ٩٠ – ٩١

- ٣ -

مذكرة الشريف حسين الثانية الى السير هنري مكماهون
مكة في ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ - ٩ ايلول سنة ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى معالم الشهم الهمام ذي الاصالة حضرة الوزير الكبير .

انا بكل إيناس تلقينا مرسومكم الكريم في ١٩ شوال وأحليته محل التبجيل والتجليل رغماً عما حسيناه في مؤداه من الغموض وآثار الفتور والتردد في مادتنا الجوهرية . فلا بد لنا من التصريح لشهامة اصالتكم بمخالصتنا الدولة الفخيمة البريطانية واعترافنا بأرجحيتها في عموم الكيفيات والشؤون في أي حالة وصورة كانت ،وهذا مما توجبه علينا مصالح أبناء ديننا .ومع هذا فمدارك كمالات حضرة الوزير الخطير يعني أولاً عفوها ثم تسمح لي بالإيضاح بأن القصد بالفتور والتردد ما أوردتموه على مسألة الحدود والتخوم بأن البحث والحالة هذه فيها سدى وأن لا طائلة تحته إلا إضاعة الوقت وانها تحت اشغال حكومتها السائدة عليها إلى آخر ما أشرتم اليه ، مما هو حري ان أحمله على الجفوة وما هو في معناها لما هو متيقن أن تلك الحدود والتخوم المطلوبة ليست لشخص متعلق إرضاؤه والبحث معه فيها عندما تضع الحرب أوزارها ، بل أقوامنا رأوا ان حياة تشكلاتهم الجديدة الضرورية القائمين في أمرها مربوطة على تلك الحدود والتخوم ، وعقدوا الكلمة عليها ، ولذلك رأوا البحث فيها أولاً مع محل ثقتهم واعتمادهم محور النقض والإبرام ألا وهي الدولة الفخيمة البريطانية . ووسيلتهم في تلك الرابطة والثقة اتحاد المصالح وضرورة التشكيلات الاقليمية وحياة سكانها ، ليعلموا كيفية تأسيس مستقبلهم وحياتهم حتى لا يصادفوها أو يصادفوا أحد حلفائها أمام تشبثاتهم وينعكس الأمر لا سمح الله . لأن القصد يا حضرة الوزير الموقر الحقيقة التي تشيد على أساس يضمن الأسباب

الضرورية للحياة في المستقبل . على أنهم لم يخرجوا في التخطيط عن من لم يسكنها غير العنصر لا زخارف الأقوال والألقاب. والله يرحم الخلافة ويحسن عزاء المسلمين فيها . واني على ثقة بأن شهامة الجناب لا يشتبه في اني شخص مجرد عن المطالبة بتلك الحدود والتخوم المشكلة فقـــط على العنصر وانها من مقترحات القوم ، وزعمهم بالاختصار انها من الضروريات الحياتية والاقتصادية . أليس هـذا يا حضرة الوزير حقاً . والخلاصة يا حضرة الشهم المبجل أنا على أكيد الإخلاص معترفين بأرجحيـة ولائكم رضيتم عنا كما أشير أم سخطتم . نأبى ان نجعل في إشارتكم في رقيمكم بادي الذكر بأن لا يزال بعض أقوامنا في أقصى درجات الاسترسال في ترويج طلب العثماني حجة على آثار الفتور والتردد في رغائبنا التي أنزه شهامة اصالتكم على ان تقول بأنها ليست من قوام حياتنا ، لا بل هي حياتنا المادية والمعنوية والأدبية . لأني إلى هذه الساعة قائم بذاتي وبجميـع حواسي في إنفاذ ما كان مرافق الشرع الإسلامي في بلادي من الأوامر وفي كافة ما له تعلق به مما يكن عائد إلى باقي المملكة إلى ان يأتي الله بأمر [1] ...

(وانا حتى الساعة لا أزال أنفذ ما تأمر به الديانة الاسلامية في كل عمل أقوم به ، وأراه مفيداً وصالحاً لبقية المملكة ، واني سأستمر في هذا إلى ان تشاء إرادة الباري) غير ذلك .

ومن أجل طمأنة فخامتكم أستطيـع أن أصرح ان جميـع البلاد ، ومن الجملة أولئك الذين تقولون انهم وضعوا أنفسهم تحت الأوامر التركية الالمانية ، كلهم ينتظرون نتيجة هذه المباحثات التي تتوقف فقط على رفضكم أو قبولكم بقضية الحدود، وعلى تصريحكم بحماية ديانتهم أولاً ثم بقية حقوقهم من أي أذى أو خطر .

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها ، في هـذا الموضوع ، فما

---

١ ـ هذا القسم من الرسالة نقل حرفيا عن نسخة طبق الاصل للرسالة التي بعث بها الشريف حسين . واذ انني لم أتمكن من العثور على النص الاصيل للرسالة بمجموعها ، فقد أثبت الترجمة الحرفية للقسم الاخير وقمت بمقابلة الترجمة على النص الرسمي الذي قدمته الحكومة البريطانية عام ١٩٣٩ تحت رقم ٥٩٥٧

عليها إلا ان تعلمنا به وان تدلنا على الطريق التي يجب ان نسلكها .

وفي جميع الأحوال فلن يتم شيء إلا بإرادة الله ، الذي هو العامل الحقيقي في كل شيء .

أما بشأن طلبنا الحبوب للأهلين والصرر (النقود) العائدة لوزارة الأوقاف وكل المواد الأخرى التي جرت العادة على إرسالها مع قوافل الحجاج ، فان قصدي في هذا الأمر يا صاحب السعادة ان إرسالها يمكن ان يكون وسيلة لتوكيد فحوى تصريحاتكم إلى العالم ، وبخاصة العالم الاسلامي ، تلك التصريحات التي ذكرتم فيها ان عداءكم موجه بصورة كلية إلى الحزب الذي اغتصب حقوق الخلافة واغتصب معها حقوق جميع المسلمين .

هذا بالاضافة إلى ان الحبوب المذكورة هي من الأوقاف الخاصة ولا علاقة لها بالسياسة .

وفي حالة عزمكم إرسالها ، فلتبعث الهبة المقررة عن السنتين الماضيتين في باخرة إلى جده – باسم الشعب كالعادة . وليقم ربان الباخرة ، أو المأمور المكلف في العادة بمهمة تسليم الهبة سنة بعد أخرى بالاتصال بالسلطات في جدة عند الوصول إلى الميناء ، وليسأل عن المأمور الذي سوف يتسلم القمح لقاء وصل موقع من قبل المأمور المستلم .

كما أود ان تلاحظوا ان توقيع ذلك المأمور فقط يمكن ان يقبل وان ربان الباخرة أو الموظف الخاص ، يجب أن يعطى التعليمات بأنه إذا ما اعترضه أي حاجز فعليه ان يهدد بالعودة بشحنته إلى الميناء الذي أقلع منه .

وتبعاً لذلك فإن المأمور واللجنة الخاصة المعينة معه والمعروفة باسم لجنة القمح للأهلين سوف يتسلمون القمح بالطريقة المعتادة .

راجياً قبول احتراماتي وتسلياتي . وإذا أردتم الإجابة على رسالتنا فليكن ذلك بواسطة حاملها .

- ٤ -

مذكرة السير هنري مكماهون الثانية الى الشريف حسين
القاهرة في ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ – ٢٤ تشرين الاول سنة ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى فرع الدوحة المحمدية وسلالة النسل النبوي الحسيب دولة صاحب المقـــام الرفيـع الأمير المعظم السيد الشريف ابن الشريف أمـــير مكة المكرمة صاحب السدة العليا جعله الله حرزاً منيعــاً للاسلام والمسلمين بعونه تعالى آمين وهو دولة الأمير الجليل الشريف حسين بن علي أعلى الله مقامه .

قد تلقيت بيد الاحتفاء والسرور رقيمكم الكريم بتاريخ ٢٩ شوال سنة ١٣٣٣ وبه من عباراتكم الودية المحضة واخلاصكم ما اورثني رضاء وسروراً .

اني متأسف انكم استنتجتم من عبارة كتابي السابق اني قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور ، فان ذلك لم يكن القصد من كتابي قط ولكني رأيت حينئذ ان الفرصة لم تكن قد حانت بعد للبحث في ذلك الموضوع بصورة نهائية .

ومع ذلك فقد ادركت من كتابكم الأخير انكم تعتبرون هذه المسألة من المسائل الهامة الحيوية المستعجلة ، فلذا فاني قد أسرعت في ابلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم ، واني بكمال السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التي لا أشك في انكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول :

ان ولايتي مرسين واسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب لا يمكن ان يقال انهـــا عربية محضة . وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة .

مع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب نحن نقبل تلك الحدود .

وأما من خصوص الاقاليم التي تضمها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة

التصرف بدون ان تمس مصالح حليفتها فرنسا ، فاني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية وأجيب على كتابكم بما يأتي :

١ - انه مع مراعاة التعديلات المذكورة اعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الاقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة .

٢ - ان بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجوب منع التعدي عليها .

٣ - وعندما تسمح الظروف تمد بريطانيا العظمى العرب بنصائحها وتساعدهم على ايجاد هيئات حاكمة ملائمة لتلك الاقاليم المختلفة .

٤ - هذا وان المفهوم ان العرب قد قرروا طلب نصائح وارشادات بريطانيا العظمى وحدها وان المستشارين والموظفين الاوروباويين اللازمين لتشكيل هيئة ادارية قوية يكونون من الانكليز .

٥ - أما من خصوص ولايتي بغداد والبصرة فان العرب تعترف ان مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير ادارية مخصوصة لوقاية هذه الاقاليم من الاعتداء الأجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة .

واني متيقن أن هذا التصريح يؤكد لدولتكم بدون أقل ارتياب ميل بريطانيا العظمى نحو رغائب أصحابها العرب ، وتنتهي بعد محالفة دائمة ثابتة معهم ويكون من نتائجها المستعجلة طرد الأتراك من بلاد العرب وتحرير الشعوب العربية من نير الأتراك الذي اثقل كاهلهم السنين الطوال .

ولقد اقتصرت في كتابي هذا على المسائل الحيوية ذات الأهمية الكبرى وان كان هناك مسائل في خطاباتكم لم تذكر هنا فسنعود إلى البحث فيها في وقت مناسب في المستقبل .

ولقد تلقيت بمزيد السرور والرضى خبر وصول الكسوة الشريفة وما معها من الصدقات بالسلامة وانها بفضل ارشاداتكم السامية وتدابيركم المحكمة قد أنزلت إلى

البر بلا تعب ولا ضرر رغماً عن الأخطار والمصاعب التي سببتها هذه الحرب المحزنة، ونرجو الحق سبحانه وتعالى أن يعجل بالصلح الدائم والحرية لأهل العالم .

اني مرسل خطابي هذا مع رسولكم النبيل الأمين الشيخ محمد بن عارف بن عريفان وسيعرض على مسامعكم بعض المسائل المفيدة التي هي من الدرجة الثانية من الأهمية ولم اذكرها في كتابي هذا .

وفي الختام أبث دولة الشريف ذا الحسب المنيف والأمير الجليل كامل تحيتي وخالص مودتي وأعرب عن محبتي له ولجميع أفراد أسرته الكريمة راجياً من ذي الجلال أن يوفقنا جميعاً لما فيه خير العالم وصالح الشعوب ، ان بيده مفاتيح الأمر والغيب يحركها كيف يشاء ، ونسأله تعالى حسن الختام والسلام [1] .

تحريراً في يوم الاثنين ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣

نائب جلالة الملك

السير ارثر مكماهون

قيدنا الاسم الشريف بعاليه بهذا اللون

- ٥ -

مذكرة الشريف حسين الثالثة الى السير مكماهون
مكة في ٢٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ — ٥ تشرين الثاني سنة ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى معالم الشهم الهمام ذو الاصالة والرياسة الوزير الخطير وفقه الله لمرضاته .

بملء الايناس تلقينا مرسومكم الموقر الصادر وأحليناه محل التبجيل وعلى مؤداه نجيب الشهامة :

أولاً : تسهيلاً للوفاق وخدمة للاسلامية فراراً مما يكلفها المشاق والاحن ، ولما

١ — مؤتمر فلسطين العربي البريطاني ، ص ٩٢—٩٤

لحكومة بريطانيا العظمى من الصفات والمزايا الممتازة لدينا نترك الالحاح في ادخال ولايات مرسين وأضنة في أقسام المملكة العربية وأما ولايتي حلب وبيروت وساحلها فهي ولايات عربية محضة ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فانهما ابنا جد واحد ولتقوم فيهم منا معاشر المسلمين ما سلكه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أحكام الدين الاسلامي ومن تبعه من الخلفاء بأن يعاملوا المسيحيين كمعاملاتهم لأنفسهم بقوله : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » علاوة على امتيازاتهم المذهبية وبما تراه المصلحة العامة وتحكم به .

ثانياً : حيث ان الولايات العراقية هي من أجزاء الولايات العربية المحضة ، بل هي مقر حكوماتها على عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم على عهد عموم الخلفاء من بعده ، وبها قامت مدنية العرب وأول ما اختطفوه من المدن والامصار واستفحلت دولهم ، فلها لدى العرب أقصاهم وأدناهم القيمة الثمينة والآثار التي لا تنسى ، فلا يمكننا ارضاء الأمة العربية وارضاخها لترك ذلك الشرف . ولكن تسهيلاً للوفاق سيما والمحاذير التي أشرتم اليها في المادة الخامسة من رقيمكم آنف الذكر محفوظيتها وصيانتها من طبقة وضرورة ما نحن فيه وحيازة ما نريد التوصل اليه، فان أهم ما في هذا هي صيانة تلك الحقوق المزوجة بحقوقنا بصورة كأنها الجوهر الفرد يمكننا الرضا بترك الجهات التي هي الآن تحت الاشغال البريطاني إلى مدة يسيرة ، البحث فيما يقبل عن قدرها دون أن يلحق حقوق الجانبين مضرة أو خلل . سيما العربية بالنسبة لأمر مرافقها ومنابعها الاقتصادية الحياتية ، وأن يدفع للمملكة العربية في مدة الاشغال المقدار المناسب من المال لضرورة ترتكبه كل مملكة حديثة الوجود. مع احترامنا لوفاقاتكم المشار عليها مع مشايخ تلك الجهات وبالأخص ما كان منها جوهرياً .

ثالثاً : رغبتكم في الاسراع بالحركة نرى فيه من الفوائد ما نرى فيه من المحاذير، أوله خشية لوم الاسلامية كما سبق الجاهل عن حقائق الحالة بأنا شققنا عصاها وأبدنا قواها ، الثاني المقام تركيا معاضدتها جميع معاني قوى جرمانيا لجهلنا عما إذا حصل وهن احدى دول الائتلاف وأوجبها على صلح دول الاتفاق ، فكيف تكون خطة

بريطانيا العظمى وحلفائها لئلا تكن الأمة العربية أمام تركيا وحلفائها معاً إذ لا يهمنا ما إذا كنا والعثمانية رأساً لرأس .

وعلى هذا فضروري ملاحظة هذه الأوجه ولا سيما عقد صلح اشتركنا في حربه بصورة غير رسمية يخول للمتصالحين البحث فيه عن شؤوننا .

رابعاً : ان الأمة العربية تعتقد يقيناً ان العثمانية عند وضع أوزار الحرب سيوجهون كل أعمالهم فيما يغضب العرب ويغتصب حقوقهم المادية والمعنوية وذهاب شعارهم وأحسابهم واخضاعهم بكل معاني الاخضاع مع بقائها تحت النفوذ الألماني فهم عازمون على حربهم حتى لا يبقى لنا باقية وما يرى فينا الآن من التأني فقد سبق بيان عليه .

خامساً : متى علمت العرب ان حكومة بريطانيا حلفائهم ولا يتركونهم عند الصلح على حالهم أمام تركيا وجرمانيا وانهم يدافعون عنهم ويعاضدونهم ويدافعون عنهم الدفاع الفعلي فالدخول في الحرب من الساعة لا شك انه مما يوافق المصالح العمومية العربية .

سادساً : افادتنا السابقة الصادرة بتاريخ ٢٩ شوال ١٣٣٣ تغني عن كل اعادة القول في المادة الثالثة والرابعة من مرسومكم هذا الموقر في خصوصات الهيئات الحاكمة والمشاورين والموظفين سيما وقد صرحتم يا حضرة الشهم بأنكم لا تتداخلون في أمور الداخلية .

سابعاً : وصول الجواب الصريح القطعي في أقرب زمن على ذكر أعلاه من الطلبات إذ انا استعملنا كلما يقربنا اليكم من التساهل الجدي الذي لا يراد به حقيقة جوهرية فانا نعلم أن نصيبنا من هذه الحروب إما سعادة تضمن للعرب الحياة التي تناسب تاريخهم أو الاضمحلال في سبيلها . ولولا ما رأيتم ورأيت ما في عزمهم لاخترت العزلة في شواهق السراة ، ولكن أبوا علي يا عزيزي أعزك الباري برضاته إلا أن يقودوني إلى هذه المواقف .

ودم غانماً سالماً بما نحبه وتريده [1] ، وحرر ٢٧ من ذي الحجة ١٣٣٣ .

---

١ - مؤتمر فلسطين العربي البريطاني ، ص ٩٥-٩٦

- ٦ -

مذكرة السير هنري مكماهون الثالثة الى الشريف حسين
القاهرة في ٨ صفر سنة ١٣٣٤ – ١٤ كانون الأول سنة ١٩١٥

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى صاحب الاصالة والرفعة وشرف المحتد سلالة بيت النبوة والحسب الطاهر والنسب الفاخر دولة الشريف المعظم السيد حسين بن علي أمير مكة المكرمة قبلة الإسلام والمسلمين ، أدامه الله في رفعة وعلاء .

وبعد ، فقد وصلني كتابكم الكريم بتاريخ ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٣ وسرّني ما رأيت فيه من قبولكم اخراج ولايتي « مرسين وأضنة » من حدود البلاد العربية . وقد تلقيت أيضاً بمزيد السرور والرضا تأكيداتكم أن العرب عازمون على السير بموجب تعاليم الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره من السادة الخلفاء الأولين – التعاليم التي تضمن حقوق كل الأديان وامتيازاتها على السواء .

هذا ، وفي قولكم أن العرب مستعدون ان يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين ، يعلم منه طبعاً أن هذا يشمل جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين اولئك الرؤساء .

أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنها ودونت ذلك عندها بعناية تامة – ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيها فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق – وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب .

إن حكومة بريطانيا العظمى كما سبقت فأخبرتكم مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها إلى المملكة العربية ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة كما رسمتم ، على أن صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم

نظراً أدق وأتم مما تسمح به الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات .

وإننا نستصوب تماماً رغبتكم في اتخاذ الحذر ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح اغراضكم ولكننا في الوقت نفسه نرى من الضروري جداً أن تبذلوا مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة وان تحثوهم على أن لا يمدوا يد المساعدة إلى أعدائنا بأي وجه كان. فإنهم على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لاسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته .

وفي هذه الأحوال فان حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لي أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الالمان والأتراك .

هذا وعربون على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم في مجهوداتكم في غايتنا المشتركة فاني مرسل مع رسولكم مبلغ عشرين ألف جنيه .

واقدم في الختام عاطر التحيات القلبية وخالص التسليمات الودية مع مراسم الاجلال والتعظيم المشمولين بروابط الألفة والمحبة الصرفة لمقام دولتكم السامي ولأفراد اسرتكم المكرمة مع فائق الاحترام [1] .

تحريراً في ٨ صفر سنة ١٣٣٤

المخلص

نائب جلالة الملك بمصر

السير آرثر هنري مكماهون

---

١ - مؤتمر فلسطين العربي البريطاني ، ص ٩٧ - ٩٨

- ٧ -

مذكرة الشريف حسين الرابعة الى السير هنري مكماهون
مكة في ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤ اول كانون الثاني سنة ١٩١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

معالي الوزير الخطير الشهم الهمام

بأنامل الاجلال والتوقير تلقينا رقيمكم ٩ صفر الجاري برفق حاملهم وعلمت مضمونيها وأدخلا علينا من الانشراح والارتياح ما لا مزيد لازالتها مـــا يختلج بصدري ، ألا وهو وقوف حضرتك بعد وصول أحمد شريف وحظوته بالجناب ، بأن كلما اتينا به في الحال والشأن ليس بنا شيء عن عواطف شخصية أو ما هو في معناها بما لا يعقل ، وانها قرارات ورغائب اقوام وانا لسنا إلا مبلغين أو منفذين لها بصفتنا التي الزمونا بها إذ هذا عندي من أهم ما يجب وقوف شهامة الجناب عليه وعلمه به . أما ما جاء بالمحررات الموقرة فيما يتعلق بالعراق من أمر التعويض مدة الاشغال فلزيادة ايضاح وقول بريطانيا العظمى بصفاتنا في القول والعمل في المادة والمعنى واعلامها بأكيد اطمئناننا باعتماد حكومتها المفخمة نترك أمر تقدير مبلغه لمدارك حكمتها ونصفتها ، أما الجهات الشمالية وسواحلها فما كان من تعديل اتينا به في رقيمنا السابق . هذا ومـا ذاك إلا للحرص على الأمنيات المرغوب حصولهـــا بمشيئة الله تبارك وتعالى . وعن هذا الحس والرغبة هما التي الزمتنا بملاحظة اجتناب ما ربما انه يمس حلف بريطانيا العظمى لفرنسا واتفاقهما ابان الحروب والنوازل إلا اننا مع هذا نرى من الفرائض التي ينبغي لشهامة الوزير صاحب الرياسة أن يتيقنها بأن عند أول فرصة تضع فيها أوزار هذه الحروب سنطالبكم بما نغض الطرف عنه اليوم لفرنسا في المنافع البريطانية وصيانة حقوقها هو أهم واكبر مما يعود الينا ، وان لا بد من هذا على أي حالة كانت ليتم للعظمة البريطانية أن ترى اخصامها في البهجة والرونق التي تهتم أن تراهم فيه ، سيما وأن جوارهم لنا سيكون جرثومـــة للمشاكل

والمناقشات التي لا يمكن معها استقراراً لحالة عدا ان البيروتيين بصورة قطعية لا يقبلون هذا الانفصال ويلجئونا على حالات جديدة تهم وتشغل بريطانيا بصورة لا تكون بأقل من اشتغالنا الحالي بالنظر لما نعتقده ونتيقنه من اشتراك المنفعة ووحدتها وحدها وهي الداعية الوحيدة لعدم التفاتنا لسواكم في المخابرات وعليه يستحيل امكان أي تساهل يكسب فرنسا أو سواها شبراً من اراضي تلك الجهات ، اصبح بهذا مع اعتماد لكل جوارحي اعتماداً يرثه الحي منا بعد الميت بتصريحاتكم التي ختمتم بها رقيمكم الموقر . وعليه فليعتقد جناب الوزير الخطير ولتعتقد بريطانيا الكبرى أنا على العزم الذي أشير اليه ويعلمه منا جناب الاريب الكامل استورس منذ عامين ولا نناظر فيه إلا الفرص المناسبة لأحوالنا واخصها داعيته ووسيلته التي اقترب وقتها بما تسوقه الأقدار الينا بكل سرعة ووضوح لتكن حجة لنا وعن رأينا على الاعتراضات والمسؤوليات المقدرة وفي تصريحاتكم بقولكم : « وإنا لسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم » يغني عن زيادة الايضاح ما عدا طلب ما نرى لزومه عند الحاجة من الاسلحة وذخائرها الحربية وما هو في معناها .

واكتفي بهذا القدر عن اشغال شهامتكم بتقديم وافر احتشاماتي وجزيل توقيراتي لمقام المقر الموقر [1] .

وحرر في اليوم الخامس والعشرين من صفر الخير ١٣٣٤ .

- ٨ -

مذكرة السير هنري مكماهون الرابعة الى الشريف حسين
القاهرة ١٥ ربيع الاول سنة ١٣٣٤-٣٠ كانون الثاني ١٩١٦

وبعد بمزيد السرور والرضى تلقينا كتابكم المؤرخ ٢٥ صفر ١٣٣٤ من يد

---

١ - مؤتمر فلسطين العربي البريطاني ، ص ٩٩

رسولكم الأمين الذي كان على الدوام يبلغنا رسائلكم الشفوية ، ونحن عالمون تمام العلم ونقدر حق التقدير البواعث التي ترشدكم في المسألة الهامة التي نحن بصددها ولا نشك في انكم تعملون لما فيه مصلحة الأمة العربية وان ليس لكم غاية أخرى البتة. وعلمنا ما ذكرتموه بشأن ولاية بغداد وسننظر في ذلك بتمام الاهتمام بعد قهر العدو ويأتي الوقت لنهي المسائل السلمية . وأما ما يتعلق بالاقسام الشمالية فقد علمنا بمزيد الرضى رغبتكم في تجنيب كل ما من شأنه مساس المحالفة بين بريطانيا العظمى وفرنسة ولا يخفاكم أن عزمنا الثابت عدم التداخل أي شيء مهما صغر يمنع لحصولنا في نهاية هذه الحرب على النصر التام وفوق ذلك فانه عند نيل النصر فان صداقة كل من بريطانيا العظمى وفرانسة ستكون أقوى وأشد متانة من ذي قبل يربطها دم الانجليزي والفرنساوي الذي أهرق ممن قتلوا جنباً لجنب وهم يحاربون لأجل الحق والحرية . هذا وان بلاد العرب مشتركة في الغرض النبيل الذي يتم من اتحاد قوانا واجتماع كلمتنا ونسأل ان يربطنا النجاح بصداقة دائمة تكون فيها المصلحة والسعادة للجميع . وقد سرنا جداً ما علمناه من أنكم ساعون في جذب قلوب جميع القبائل العربية للانضمام إلى غرضنا المشترك وأن تمنعوهم من إعطاء أي مساعدة لاعدائنا . ونترك لفطانتكم اختيار الفرصة المناسبة لأجل اتخاذ اجراآت أخرى جدية . ولا شك أنكم تخبروننا مع رافع كتابنا هذا عن الطرق التي يمكننا بهـا مساعدتكم وتأكدوا أن جميع مطاليبكم ينظر فيها دائماً بعين الاهتمام مع الاسراع التام في انجازها . ولا بد أنكم سمعتم أن أحمد الشريف السنوسي قد صغى لدسائس أعدائنا وبدأنا بالعداء ولا شك أنه يحزنكم أنه أغفل لهذا الحد مصالح العرب حتى انه رمى بنفسه في يد اعدائنا وقد وقع الآن في سوء عمله وصادفه سوء الطالع في كل حركاته . ولنا أن ذلك يريه غلطه ويعيده إلى الصواب ويرشده إلى السلام رفقاً باتباعه المساكين الذين قادهم إلى التهلكة . ثم أن رسولكم الأمين رافع كتابنا هذا يبلغكم جميع أخبارنا . وفي خاتمة رسالتي اقرؤك تحيتي القلبية واهديك عاطر تسليماتي واعبر لك عن محبتي وإخلاصي كما وأرفع ذلك لكل أفراد أسرة دولتكم الكريمة جعل الله

المودة والألفة والاتحاد والوفاق وحسن التفاهم ومتانة العلائق بيننا متيناً بمنه وكرمه آمين [1] .

نائب جلالة الملك بمصر
السير هنري مكماهون

— ٩ —

مذكرة الشريف حسين الخامسة الى السير هنري مكماهون
مكة في ١٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ — ١٨ شباط ١٩١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى حضرة ذو الاصالة فخامة نائب جلالة الملك دام مرعياً .

بعد ، فبأيدي التوقير والاحتشام تلقينا رقيم الفخامة المؤرخ ٢٥ ربيع الأول ، وان مضامينه ادخلت علينا مزيد الارتياح والسرور لحصول التفاهم المطلوب والتقارب المرغوب اسأل الله أن يسهل المقاصد وينجح المساعي . ومن الايضاحات الآتية نفهم الفخامة الأعمال الجارية والأسباب المقتضية :

أولاً — قد اعلمنا فخامتكم بأنا بعثنا بأحد انجالنا إلى الشام ليرأس ما يقتضي عمله هناك ، ولقد ظفرنا منه بتقرير مفصل يفيد به ان اعتسافات الحكومة هناك لم تبق من الاشخاص الذين نعتمد عليهم في الأمر سواء كانوا من الجند على اختلاف مراتبهم أم ممن لم يكونوا من ذلك الصنف إلا القليل مما كان في الدرجة التالية، وانه ينتظر وصول القوات المعان بقدومها من مواقع مختلفة أخصها من أهالي البلاد وما

١ — أخذ نص هذه الرسالة عن نسخة طبق الاصل للرسالة الاصلية ، وهي تنشر لأول مرة بالنص العربي الذي أرسله مكماهون الى الشريف حسين .

جاورها من الأقطار العربية كحايل وجنوب الموصل المشاع بأن عددها ما ينوف عن المائة ألف على ما يزعمون . وأنه لا بد يؤمل إن كانت الاكثريـــة من القوة المذكورة من العرب فهو عازم على إجراء الحركة والقيام بهم ، وان كان العكس يعني الاكثرية من الأتراك وسواهم فسيناظر تقدمهم نحو التزعة وعنـــد اشتباك الحرب حركته بهم عندما يريدون .

ثانياً – عزمنا على إرسال نجلنا الكبير إلى المدينة المنورة بقوة كافية ليكون ردءاً لأخيه الذي بالشام ولكل احتمال واستيلائه على الخط الحديد وما هو في معنى ذلك مما تظهره الشؤون . وهذا هو المبدأ للحركة الأساسية المكتفين في مبادئها بما جندناه برسم المحافظة على راحة داخلية البلاد وبأهل الحجاز أهل المركز فقط لأسباب يطول شرحها :

(أولاً) تعسر احضار لوازمهم بصورة تجعل المشروع في حيز الكتمان ، مع عدم الضرورة على ذلك وسهولة جلب الامدادات عند الحاجة ، هذا خلاصة ما رغبتم في الجواب عليه والاستفهام عنه . وفي ظني ان فيه الكفاية واتخاذه أساساً وقياساً في أعمالنا أمام كل التبدلات والطوارىء التي يظهرها سير الحالة .

بقي علينا بيان ما نحتاجه والحالة هذه هو :

أولاً – مبلغ خمسين ألف جنيه ذهباً لمشاهرة القوات المجندة ونحوها مما ضرورته تغني عن بيانه .

فالرجاء إحضارهما بوجه السرعة الممكنة .

الثاني – إحضار عشرين ألف كيس أرز وخمسة عشر ألف دقيق وثلاثة آلاف شعير ومائة وخمسين كيس بن قهوة ومثلها سكر ومقدار خمسة آلاف بندقيـة من الطراز الجديد وما تحتاجه النسبة لها من المرميات وأيضاً مقدار مـائة صندوق من النوع المرسل منه مرميتين طيه . ومن مرميات بواريد مارتن هنري وبارودات غرا أعني بواريد معمل سانت تين الافرنسية لاستعمال هـــذين الصنفين في بواريد أي بندقيات قبائلنا ، ولا بأس من جعل لكل نوعها خمسمائة صندوق .

الثالث – إنا استحسبنا مركز سوقيات هذه المواد المرغوبة يكن بور سودان .

الرابع – بالنظر لكون المواد الغذائية واللوازمات الحربية الموضحة أعلاه لا حاجة لنا بها إلا عند ابتداء الحركة وسنبلغكم إياها بصورة رسمية تبقى في الموضع المذكور ، وعند الحاجة اليها يبلغ أمير الجهة المذكورة وقائدها بالمواقع التي يقتضي سوقها اليها والوسائط التي سيكونون حاملين الوثائق بتسليمها إياهم .

الخامس – النقود المطلوبة يقتضي إرسالها في الحال إلى أمير بور سودان ، وسيرده من طرفنا معتمد يتسلمها اما دفعة أو دفعتين على حسب استطاعته . وهذه علامة اعتماد الرجل (أ) .

السادس– مندوبنا في قبض المبالغ المذكورة سيتوجه إلى بور سودان بعد ثلاثة أسابيع يعني يكون وصوله اليها في ٥ من جماد الأول حامل كتاب منا باسم الخواجه الياس أفندي وأنه يصرف له بموجبه ما لديه من إيجارات أملاكنا والامضاء صراحة باسمنا ، غير اننا معدينه يسأل عن قائد الموقع وأميره ، فأنتم تخبروهم عن ذلك الشخص وبمراجعته يجري له ما يقتضي من صرف ما لديهم بشرط ألا يبحثوا معه في أي موضوع كان مؤكدين غاية التأكيد في عدم المظاهرة له و كتمان أمره ومعاملته في الظاهر بأنه لا شيء ، لا يظن أن ثقتنا للشخص الأخير من اعتماد الأول حامله هذا لا بل لعدم ضياع الوقت لتعييننا له خدمة في جهة ثانية ، مع تكرر رجاءنا بعدم اركابه وابعاثه في بابور أو في شيء من هذه الرسميات فان وسائطه كافية .

السابع – مندوبنا حامل هذا أكدنا عليه بالاكتفاء بايصال ، هذا وأظن ان مأموريته في هذا الدور تمت ، حيث ان الحالة علمت أساساتها وفروعها فلا حاجة في بعث شخص آخر . إذ ان اللزوم للمخابرة يكن منا ، ولا سيما ان مندوبنا الأخير سيردكم بعد ثلاثة أسابيع يمكن في ظروفها افادتنا بما يلزم له الحال وألا يعامل في الصورة الظاهرة إلا معاملة بسيطة .

الثامن– تعهد الحكومة البريطانية العظمى قبول هذه المصاريف الحربية بموجب

الدفاتر التي تقدم اليها ببيان الوجهة التي صرفت فيها .

وبالختام أهديكم أشواقي التي لا تعد واحتشامي الذي ليس له [1] .

١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤

— ١٠ —

مذكرة السير هنري مكماهون الخامسة الى الشريف حسين
القاهرة في ٦ جمادى الاولى سنة ١٣٣٤ - ١٠ آذار ١٩١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى ساحة ذلك المقام الرفيع ذي الحسب الطاهر والنسب الفاخر قبلة الإسلام والمسلمين معدن الشرف وطيب المحتد سلالة مهبط الوحي المحمدي الشريف ابن الشريف صاحب الدولة السيد الشريف حسين بن علي أمير مكة المعظم زاده الله رفعة وعلاء آمين .

بعد ما يليق بمقام الأمير الخطير من التجلة والاحتشام وتقديم خالص التحية والسلام وشرح عوامل الالفة وحسن التفاهم والمودة الممزوجة بالمحبة القلبية أرفع إلى دولة الأمير المعظم اننا تلقينا رقيمكم المؤرخ ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤ من يد رسولكم الأمين ، وقد سررنا لوقوفنا على التدابير الفعلية التي تنوونها وانها لموافقة في الأحوال الحاضرة .

وان حكومة جلالة ملك بريطانية العظمى تصادق عليها .

وقد يسرني ان أخبركم بأن حكومة جلالة الملك صادقت على جميع مطالبكم وان كل شيء رغبتم الإسراع فيه وفي إرساله فهو مرسل مع رسولكم حامل هذا .

---

١ — مؤتمر فلسطين العربي البريطاني ، ص ١٠٠

والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة ممكنة وتبقى في بور سودان تحت أمركم لحين ابتداء الحركة وإبلاغنا إياها بصورة رسمية (كما ذكرتم) وبالمواقع التي يقتضي سوقها اليها والوسائط التي يكونون حاملين الوثائق بتسليمها إياهم .

ان كل التعليمات التي وردت في محرركم قد أعلمنا بها محافظ بور سودان وهو سيجريها حسب رغبتكم - وقد عملت جميع التسهيلات اللازمة لارسال رسولكم حامل خطابكم الأخير إلى جزان حتى يؤدي مأموريته التي نسأل الله ان يكللها بالنجاح وحسن النتائج وسيعود إلى بور سودان وبعدها يصلكم بحراسة الله ليقص على مسامع دولتكم نتيجة عمله .

وننتهز الفرصة لنوضح لدولتكم في خطابنا هذا ما ربما لم يكن واضحاً لديكم أو ما عساه ينتج سوء تفاهم ، ألا وهو أنه يوجد بعض المراكز أو النقط المعسكرة فيها بعض العساكر التركية على سواحل بلاد العرب يقال انهم يجاهرون بالعداء لنا والذين هم يعملون على ضرر مصالحنا الحربية البحرية في البحر الأحمر . وعليه نرى انه من الضروري ان نأخذ التدابير الفعالة ضدهم ولكننا قد أصدرنا الأوامر القطعية انه يجب على جميع بوارجنا ان تفرق بين عساكر الأتراك الذين يبدأون بالعداء وبين العرب الابرياء الذين يسكنون تلك الجهات ، لأننا لا نقدم للعرب أجمع الا كل عاطفة ودية .

وقد أبلغنا دولتكم ذلك حتى تكونوا على بينة من الأمر إذا بلغكم خبراً مكذوباً عن الاسباب التي تضطرنا إلى أي عمل من هذا القبيل . وقد بلغنا اشاعات مؤداها ان اعداءنا الألداء باذلون جهدهم في اعمال السفن ليبثوا بها الألغام في البحر الأحمر ولالحاق الاضرار بمصالحنا في ذلك البحر ، وانا نرجوكم سرعة اخبارنا إذا تحقق ذلك لديكم .

وقد بلغنا ان ابن الرشيد قد باع للاتراك عدداً عظيماً من الجمال ، وقد أرسلت إلى دمشق الشام . ونؤمل ان تستعملوا كل ما لديكم من التأثير عليه حتى يكف عن ذلك ، وإذا صمم على ما هو عليه امكنكم عمل الترتيب مع العربان الساكنين بينه وبين سوريا ان يقبضوا على الجمال حال سيرها ، ولا شك ان في ذلك صالح

لمصلحتنا المتبادلة .

وقد يسرني ان أبلغ دولتكم ان العربان الذين ضلوا السبيل تحت قيادة السيد أحمد السنوسي وهم الذين أصبحوا ضحيـــة دسائس الالمان والأتراك قد ابتدأوا يعرفون خطأهم وهم يأتون الينا وحداناً وجماعات ويطلبون العفو عنهم والتودد اليهم. وقد والحمد لله هزمنا القوات التي جمعها هؤلاء الدساسون ضدينا. وقد أخذت العرب تبصر الغش والخديعة التي حاقت بهم .

وان لسقوط ارضروم من يد الأتراك وكثرة انهزاماتهم في بلاد القوقاز تأثير عظيم وهو في مصلحتنا المتبادلة وخطوة عظيمة في سبيل الأمر الذي نعمل له وإياكم.

ونسأل الله عز وجل ان يكلل مساعيكم بتاج النجاح والفلاح وان يمهد لكم في كامل أعمالكم أحسن السبل والمناهج .

وفي الختام، أقدم لدولتكم ولكامل أفراد أسرتكم الشريفة عظيم الاحترامات وكامل ضروب المودة والاخلاص مع المحبـــة التي لا يزعزعها كر العصور ومرور الأيام (١) .

تحريراً في ٦ جمادى الاولى سنة ١٣٣٤

الموافق ١٠ مارث سنة ١٩١٦

كتبه المخلص

السير آرثر هنري مكماهون

نائب جلالة الملك بمصر

---

١ — مؤتمر فلسطين العربي البريطاني ، ص ١٠١- ١٠٣

الفصل الثالث عشر

الثورة العربية

كانت انباء دمشق وبيروت الفاجعة قد ترامت إلى مكة، فبات الشريف حسين منها على ألم كظيم. وما كاد الأمير فيصل يصل إلى الحجاز بعد ان تخلص بالحيلة البارعة من أمر جمال باشا ومكر الدولة العثمانية، حتى أرسل إلى فخري باشا قائد القوات التركية في المدينة [1] كتاباً يقول فيه ان نقل المجاهدين إلى فلسطين قد توقف بناء على الاوامر الصادرة اليه من والده، وقد عقد النية على العودة بهم إلى مكة، وأرسل إلى جمال باشا كتاباً آخر ينبئه فيه بأن الأمر قد صدر بوقف نقل المجاهدين إلى سورية، بينما كتب الشريف حسين إلى جمال باشا يبلغه اعتذاره عن الاشتراك في حملة القناة قبل ان تجاب المطالب التي عينها في برقيته السابقة، كما كتب إلى الصدر الأعظم انه يرى نفسه مضطراً إلى قطع العلاقات مع الحكومة العثمانية، حتى تجاب المطالب التي طلبها من انور باشا قبل شهرين.

وفي اليوم التاسع من شعبان سنة ١٣٣٤هـ (١٠ حزيران – يونيه ١٩١٦)، أي

١ – كان فخري باشا من السفاحين الذين انزلوا بالارمن ألواناً رهيبة من الفتك والعسف، وقد أرسله الباب العالي الى المدينة لشدة جبروته واستبداده كي ينزل بعرب الحجاز ما أنزله بالارمن.

بعد اعدام شهداء ٦ أيار بثلاثة وثلاثين يوماً، وبعد عودة فيصل إلى الحجاز باسبوعين، وقف الشريف حسين بن علي في شرفة قصره بمكة معلناً ثورة العرب على الظلم والاستعباد، مفتتحاً الجهاد في سبيل الحرية والاستقلال باطلاق الرصاصة الأولى من بندقيته على قلعة اجياد مقر الجيش العثماني. ثم دقت طبول الحرب واوقدت النيران على شعاب الجبال، وشرع العرب بمهاجمة الأتراك في جميع ثكناتهم بالحجاز [١].

ولما سأل القائد التركي عن الأسباب التي أدت إلى هذا الهجوم، كان الجواب الذي تلقاه :

– ان البلاد العربية قد أعلنت استقلالها .

وقد أجابت قلعة اجياد وثكنة جرول على الثورة باطلاق مدافعها على قصر الامارة، فتهدم جانب من القصر والشريف حسين واقف في الشرفة كالأسد، يحث رجاله ويثير حماستهم ويدفعهم إلى مقاتلة الغاصبين الظالمين .

وكان رجاله وهم يقاتلون من حوله، يلحون عليه بمغادرة القصر حرصاً على حياته، لأن قنابل المدافع كانت تتساقط على مقربة منه . ولكنه أبى إلا ان يظل في قلب المعركة رابط الجأش قوي العزيمة، غير عابىء بالخطر المحدق به. وبلغ ما اطلقته المدفعية التركية في مكة خلال ذلك اليوم وحده من الثكنة والقلعة مائتين وثلاثين قنبلة، وما اطلقته خلال أيام المعركة على الأحياء والمنازل والمسجد الحرام ألفي قنبلة. أما القوى العربية فلم يكن لديها أية مدفعية، ثم وصلت المدافع التي غنمها العرب في جدة فاستعانت بها على ضرب الحامية التركية .

وقد استمرت مقاومة القلعة حتى ٢٥ حزيران (يونيه) ، والثكنة حتى ٨ تموز

١– قامت الثورة على نطاق أضيق مما رسمه الحسين الذي كان يرى ان تعلن في كل من سورية والحجاز في وقت واحد، وان يرافق ذلك انزال حملة من قوى الحلفاء في نقطة قريبة من الاسكندرونة وبهذا يقع الترك بين نارين ويستطاع القضاء على قواتهم المعسكرة جنوبي شمال طوروس ، ثم تمتد الثورة شرقاً لتوقع ضربتها القاصمة بهم في العراق . ولكن الاحداث المتلاحقة قضت على احتمال اشتعال الثورة في سورية كما رأينا قبلا ، ورفض الحلفاء القيام بالمظاهرة البحرية التي طلب الحسين اليهم ان يقوموا بها (انظر الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ٧٨) .

(يوليه) ، وبسقوطها قضي على الجيش التركي في مكة واستولى جنود الشريف على كافة مراكز الجند والمخافر ودور الحكومة بما فيها من سلاح وعتاد. اما حامية جدة فقد استسلمت في١٦ حزيران (يونيه)، بعد ستة أيام من هجوم العرب عليها، بقيادة الشريف محسن بن أحمد منصور . وكانت قوة مكة تتألف من ألف جندي بقيادة درويش بك ولديها ٢٠ مدفعاً ، وقوة جدة من ٢٥٠٠ جندي ومائة ضابط و ٢٠ مدفعاً و ١٥ رشاشة [١] .

وظلت نيران المدافع والبنادق التركية تتساقط على القصر الهاشمي خمسة وعشرين يوماً ، والشريف – كما يروي خير الدين الزركلي – يثابر على عادته في الجلوس به ولم يغير مجلسه ولا اختار غير غرفته الخاصة المعروفة باسم « المخلوان » يمكث بها وفي ردهة القصر سحابة النهار والربع الأول من الليل، يتحدث مع من عنده ويضع الخطط لاتمام العمل. حتى ان الناظر إلى غرفته لا يتمالك من الدهشة حين يرى أبواب نوافذها وسقفها ومنصتها، وفيها آثار الشظايا والطلقات النارية التي كانت تتساقط بغير نظام. ولقد دخلت احدى القنابل غرفته وهو جالس فمرت على قيد شبر من مجلسه ، فاخترقت أساس الغرفة وهو لا يعبأ بها .

وقد اذاع الشريف حسين منشوراً باعلان الثورة وبيان دوافعها ، استهله بالآية الكريمة « ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ». وبعد ان عدد فيه ما قام به الذين يحكمون باسم الشريعة الاسلامية من تحريف لهذه الشريعة السمحاء، وانحراف عن نهجها القويم قال :

« واما اسرافهم في أموال الدولة وارهاقها بالقروض الفاحشة فأمره معلوم للخاصة والعامة ، وكذلك اضاعتهم لعدة ممالك من الدولة – كمملكتي البوسنة والهرسك وممالك البانية ومكدونية وطرابلس الغرب وبرقة ، وكذلك اثارة الاحقاد الجنسية الممزقة لشمل الأمة العثمانية. وبهذه السياسة السوأى أضاعوا المملكة الالبانية وفقدوا الشعب الارنؤوطي الباسل، الذي كان سياجاً للدولة أمام البلقان،

---

١ – عبد الله بن الحسين: « مذكراتي » ص ١٠٨ وما بعدها ، الثورة العربية الكبرى ج١ ص ١٩٩ ، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ٩٠ – ٩١

وهي التي حملتهم على ما اشتهر خبره في هذه الأيام من الفتك بالأرمن من رجال ونساء وأطفال . فأين هذا ان صح عشر معشاره من قول الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم: «من آذى ذمياً فأنا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة»، رواه الخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود . وفي الوصية بحفظ حقوق أهل الذمة والعهد أحاديث في الصحاح والسنن . ومن الأحاديث المخيفة في هذا الباب ما رواه الطبراني من حديث جابر « إذا ظلم أهل الذمة كانت الدولة دولة العدو » وان كان في سنده ضعف فان متنه في غاية القوة تؤيده السنن الاجتماعية .

وأما ما خصوا به العرب ولغتهم من الاضطهاد ، فهو أعظم ما جنوه على الدين والدولة من الفساد. حاولوا قتل اللغة العربية في جميع الولايات العثمانية بابطالها من المدارس ومنعها من الدواوين والمحاكم واصدروا في ذلك أوامر كثيرة لقيت من مبعوثي العرب معارضات شديدة ، ونفروا عنها في كتبهم الجديدة ، وألفوا لذلك الجمعيات الكثيرة. ولا يخفى ان قتل اللغة العربية قتل للاسلام نفسه ، فالاسلام في الحقيقة دين عربي بمعنى ان كتابه انزل باللغة العربية وجعل متعبداً بتلاوته وتدبره وفهمه،لا بمعنى انه خاص بالعرب.فمن المعلوم من الدين بالضرورة انه عام لجميع الأمم وقد قال الله في سورة الرعد : « وكذلك انزلناه حكماً عربياً » .

وقد امكنتهم فرصة اعلانهم الأحكام العرفية في البلاد،من تنفيذ كل ما يريدون في العرب ، فطفقوا يقتلون ويصلبون كبراء ونوابغ رجال النهضة العربية الذين اشتهروا بغيرتهم على الأمة والدولة من أرباب المعارف والأفكار وحملة الاقلام وبارعي الضباط.وآخر ما وصل الينا من بلاغاتهم الرسمية في ذلك انهم صلبوا في الشام ٢١ رجلًا في آن واحد (منهم شفيق بك المؤيد والسيد عبد الحميد الزهراوي والضابط الكبير سليم بك الجزائري والأمير عارف الشهابي وعبد الغني العريسي وشكري بك العسلي وعبد الوهاب بك وتوفيق بك البساط) . وانه ليصعب على كثير من ذوي القلوب القاسية ، ازهاق مثل هذا العدد الكثير من الأنفس لأجل الانتقام . ولو كانت من الدواب أو بهيمة الانعام ، وانما يقتلون امثال هؤلاء جهراً ويصلبونهم في الشوارع العامة صلباً حتى لا يطمع عربي بأن يقول بعدهم ان لغتنا لغة الاسلام

فيجب على الدولة الاسلامية الكبرى مساعدتنا على حفظها ، وان لنـــا في المملكة حقوقاً شرعية وقانونية يجب علينا المطالبة بها. واما من يقتلون رمياً بالرصاص بعلل عسكرية ومن يقتلون اغتيالاً في السجون والشوارع،فلا سبيل إلى العلم باخبارهم إلا اجمالاً،وانه ليعز على كل انسان ان يرضى لقومه أو لغيرهم من أبناء جنسه بأن تكون دماؤهم مهينة غير محترمة إلى هذا الحد . وقد عظم الاسلام أمر احترام الدمـــاء ، وجعل من يعتمد القتل خالداً في النار .

ثم انهم صادروا أموال من لا يحصى من الناس وعمـــدوا إلى كثير من الأسر الغنية أو المغضوب عليها لأسباب سياسية ، فاخرجوهم من ديارهم وأموالهم وعقارهم، وأبعدوهم نساء وأطفالاً إلى بلاد الأناضول بلا كافل شرعي،فهتكوا حرمة المخدرات من النساء المؤمنات اللواتي لا يعرفن السياسة وعرضوا أطفالهن للهلاك بين ايديهن في طريق النفي الطويل، الذي لا يجدون فيه الكفاية من القوت والأسباب الواقية من البرد أو الحر، والله تعالى يقول : « ولا تزر وازرة وزر أخرى ». والظاهر أن الغرض من هذا ان يكون من يسلم من الهلاك من هؤلاء النساء كالاماء والعبيـــد للترك في الأناضول.ولا بد من ان ينسى الأطفال لغتهم هنالك فيكونوا تركاً تعمر بهم بلاد الترك،ولعلهم يريدون ان يأتوا بترك يحلون محل هؤلاء المنفيين فيسهل جعل البلاد السورية كلها تركية .

ولم يكتفوا بالتنكيل بالأحياء تقتيلا وتصليباً ومصادرة ونفيـــاً ، بقساوة على الأطفال والمخدرات تنفطر لمجرد تصورها القلوب، وتذهب الأنفس حسرات — بل وصل حقدهم على العرب إلى إهانة الأموات فتجرأوا على قبر الأمير الأبر والمجاهد التقي الزاهد مولانا الشريف عبد القادر الحسني باهانته وتحقيره .

أي مسلم ،بل أي بشر يرضى لقومه بمثل هذا الظلم ،والخسف وقد جعل الله تعالى أمر نفي المرء من وطنه مقارناً لامر قتاله ليرتد عن دينه وسبباً لمشروعية القتـال . فقال تعالى في تعليل الاذن بالجهاد : « أُذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق » — الآية . وقال في شأن معاملة غير المسلمين بالعدل والبر والإحسان « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين

ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين . انما ينها كم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون » .

وأما نصيب الحجاز وسكان الحرمين الشريفين من هذه الارزاء، فلو سكتنا على ما كان من بوادره واوائله، لطغى مده حتى لا يعلم الا الله أين يكون حده ، ساقوا الينا الألوف الكثيرة من جنودهم المنظمة مستكملة الأسلحة والذخائر وهم يعلمون كما نعلم ، ان الحجاز لا يهاجمه أحد من الدول المحاربة حتى يحتاج إلى قوة مدافعة . وانهم في أشد الحاجة إلى هؤلاء الجنود في ميادين القتال ، فلم يبق إلا انهم يريدون ان يفعلوا في الحجاز ما فعلوا في سورية والعراق ليتم لهم القضاء على الأمة العربية في عقر دارها وموطن منعتها وعزها وفخارها ويذيقوا هذا الحرم الذي جعله الله آمناً تجيء اليه ثمرات كل شيء، ما اذاقوا جنة الدنيا (الشام) من الجوع والخوف ويسلبوه ما منّ الله به عليه وامتنّ به على سكانه في كتابه العزيز، فكان وجود هذه الجنود سبباً لمنع ورود الاقوات على الثغور الحجازية وعليها مدار معيشة البلاد، وسبباً لمنع ورود الحجاج منها ولا كسب لأهلها إلا منهم ، فاشتد الضيق حتى اضطر كثير من أبناء الدرجة الثانية من الأهالي إلى بيع أبواب بيوتهم وخشب سقفها بعد بيعهم لجميع ما يملكون، لأجل الحصول على سد الرمق، وصار من المحتم عليّ دفع أسباب الهلاك عن قوم جعلني الله راعياً مسؤولاً عنهم ، وأسباب منع سواد المسلمين الأعظم عن اقامة ركن من أهم أركان دينهم . ولو كان ذلك البلاء في سبيل الدفاع عن الأوطان أو المصلحة الراجحة للاسلام لتحملته البلاد بالافتخار ولساوى فيه الشرفاء والموسرون وغيرهم ولو بالاختيار، ولكنه كما أسلفنا ضد مصلحة الاسلام والوطن[1] . »

وطارت أنباء الثورة في الوطن العربي الهاجع ، تهز النائم وتوقظ الغافل ،

---

١ – انظر النص الكامل للمنشور في الثورة العربية الكبرى ج١ ص ١٤٩، العهود المتعلقة بالوطن العربي ص ٥٢–٦١ ، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ١٠٠، وقد رفضت السلطات البريطانية الموافقة على هذا المنشور بنصه الاصلي وأدخلت عليه بعض الاختصار والتعديل في النسخ التي وزعتها في البلاد العربية والاسلامية .

وتشير بيد الأمل إلى حاضر أسود ومستقبل منير .

وقد استقبل نبأ اعلان الثورة في المحافل الدولية بالدهشة ، لان الكثيرين كانوا يعتقدون بأن العرب غير قادرين على القيام بهذه البادرة الجريئة ، وكانوا يشكون فيما يزعمونه من تطلع إلى الحرية والاستقلال ، ولا سيما بعد ان اعدم مفكروهم، ونفي زعماؤهم ، وشردت أسرهم ، ونكبت بلادهم ، وسيق ابناؤهم إلى ميادين القتال لتضحيتهم على مذبح المطامع التركية ، دون ان يحركوا ساكناً أو يبدوا تمرداً .

أما جمال باشا فقد اخرجته الثورة عن رشده ، فأخذ يندد بالشريف حسين لأنه عطل « الجهاد المقدس » في صميم الأرض الاسلامية المقدسة، مهدداً بالقضاء على تمرده وشنقه على أحد أبواب دمشق .

وقام جمال باشا بحركة انتقامية واسعة في سورية ، فزج في المعتقلات عدداً من شخصيات البلاد ، وساق إلى المنافي عدداً آخر . ولا ريب في ان معظم هؤلاء كانوا سيحكمون بالموت ، لولا ان الأمير فيصل قد انذر السفاح بانه سيعدم مقابل كل عربي عشرة ضباط من أسرى الأتراك ، فكان لهذا الوعيد أثره الفعال [٢] .

وقد شايعت جمال باشا في رأيه ، بعض الأوساط المختلفة في سورية والعراق ومصر والهند ، لأنها رأت في هذه الثورة خروجاً على الاسلام ، الذي يمثله في اعتقادهم خليفة المسلمين في الاستانة . الا ان الأوساط الواعية المتحررة ، تلقت اعلان الثورة بتأييد شامل وابتهاج عظيم ، وهرع الكثيرون من الأحرار والضباط إلى الالتحاق بالثورة ، من كل بلد عربي وبكل طريقة ممكنة .

ويروي محمد علي العجلوني أحد الضباط العرب في الجيش العثماني ، كيف استقبل وزملاءه نبأ الثورة العربية ، وكان يومذاك في المستشفى بطرطوس فيقول : « وفي صبيحة أحد الأيام دخل المستشفى بعض التجار من حلب ليزوروا اصدقاء لهم ، فأسرّوا اليهم بأنباء انعشتهم وكأنها بشرى زفت اليهم . ولم يتمالكوا من الفرح ،

١ — يقظة العرب ص ٢٩٩

فكاشفوني بما سمعوا بعد ان اطمأنوا إليّ .

لقد أعلن شريف مكة الثورة على الحكومة التركية ، التي يهيمن عليها حزب الاتحاد والترقي، كما أعلن في الوقت نفسه استقلال البلاد العربية الخاضعة للامبراطورية العثمانية ، بعد ان طفح الكيل ، فتجلى لي فوراً سبب تشاؤم ذلك الضابط الهندي ، وقوله ان نهاية امبراطورية آل عثمان قد قربت .

وكان للخبر في نفوسنا وقع عظيم ، كأنه من السماء ، فأعاد الثقة المتزعزعة ورسم في حياة الأمة العربية خطوطاً جديدة عريضة ، كلها أمل وقوة وفجر جديـــد ، وصارت البسمة تطفح على وجوه الضباط العرب المرضى وزوارهم، واستبشرنا بالخير جميعاً . ومثل هذا الشعور ربما لم يخالط نفوس العرب منذ ستة قرون . وعاهدت نفسي فوراً على الذهاب إلى ميدان الثورة ، غيرَ وانٍ ، مهما تزخر الطرق بالمشاق والصعوبات [1] . »

ويقول علي جودت الأيوبي : « كنا في البصرة عندما سمعنا بنبأ أعلان الثورة العربية ، فأبرقنا للشريف حسين نطلب الالتحاق به ، فأجاب مرحباً وانتقلنا إلى الحجاز . وكان كثيرون من أعضاء العهد قد التحقوا بالثورة . ومن المؤسف ان عزيز علي لم يبق طويلًا في الحجاز ، والسبب يعود إلى وشاية بلغت الأمير علي بأن عزيزاً على اتصال بالاتراك ، فأمر باعادة قوة عسكرية كانت في طريقها للهجوم على الأتراك بقيادة عزيز علي. وعلى الأثر عاد عزيز علي إلى مصر محتجاً بالمرض ولم يعد [2] . »

أما الدكتور أحمد قدري ، أحد أقطاب « جمعية الفتاة » ، فيحدثنا عن رحلة فوج من أحرار العرب إلى الحجاز ، لعله آخر أفواج الأحرار التي التحقت بالثورة فيقول :

« وفي ١٠ كانون الأول صدر القرار بتخلية سبيلي ، [3] فحرصت على البقاء في

---

١ — ذكريات العجلوني ص ٢٣

٢ — ملحق جريدة الحياة الخاص بالثورة العربية الكبرى ص ٣٧

٣ — كان الدكتور احمد قدري قد اعتقل مع شكري الايوبي وشكري القوتلي وفارس الخوري وعمر الرافعي وغيرهم كما ذكرنا في فصل سابق .

دمشق مركز الحركة العربية ، بعد أن أعلن الشريف حسين الثورة . وقد فاتحت بذلك الدكتور كنعان من شبان نابلس النابهين ، وكان مساعداً لمدير الصحة العسكرية في دمشق إذ ذاك ، الدكتور حسن ابراهيم باشا ، فوافقت القيادة على ان أعين طبيباً لمستشفى الأمراض الزهرية في دمشق . ولما كان الأمير فيصل قد احتل العقبة في آب ، فقد أصبح اتصالنا به ميسوراً عن طريق جبل الدروز ، لأن قوافل المهربين كانت لا تنقطع عن العقبة ، بسبب قلة بل انعدام وجود السكر والارز وما شاكلها من المواد الغذائية، وغيرها من المنسوجات الضرورية في البلاد. ومما ورد في الاحصاءات ان سورية والعراق ، فقدتا سنة ١٩١٧ وحدها، ما لا يقل عن مئة وخمسين ألف نسمة بسبب المجاعة والأمراض ، مما دفع النساء إلى التهام جثث الأطفال ، فحكم على احدى النساء بالموصل وأخرى في طرابلس الشام بالاعدام بسبب ذلك ، ولم يشفع لهما بؤسها الذي كان العامل الحقيقي على ما أقدمتا عليه .

وبعد ان استقر بي المقام في دمشق ، كان همي الوحيد تبين الخطط التي تضعها السلطة العسكرية في محاربة الأمير فيصل ، وارشاده اليها كيما يتحاشاها . وقد اضطررت في إحدى الليالي إلى السفر لدوعا بقطار عسكري فوق أكياس ، والبرد قارس ، لاستلام رسالة أرسلها لنا الأمير فيصل . فقطعت الطريق ، وقد استغرق اثنتي عشرة ساعة إذ كان وقود القطار من الحطب . وقد حظيت بكل مساعدة لمعرفة خطط السلطة العسكرية من ياسين الجابي ، أحد أفراد هيئة أركان حرب جمال باشا الصغير ، الذي خلف جمال باشا الكبير في سورية ، بعد مغادرته لها في خريف ١٩١٧ . وبعد استقرار فيصل في (أبي اللسلْ) وضبطه مرتفعات سمنة التي تشرف على معان ، وتخريب رجاله لكثير من محطات سكة حديد الحجاز ، غدا الاتصال بين سورية والأمير أسهل منه قبلًا. وفي تلك الأثناء نقلت القطعة التي يترأس عليها ياسين باشا الهاشمي إلى جبهة فلسطين قرب عمان ، إلا انها اصبحت تركية ، فأرسلت له الملازم المكلف بالخدمة سليم عبد الرحمن لاستشارته فيما يمكن عمله ، فأبدى غاية التحفظ . ولم يزد على القول بأن الأمر أصبح بيد فيصل ، فقررنا آنئذ استشارة فيصل باللحاق به ، فجاءني الرد بأنه إذا لم يعد بامكاننا القيام بأي عمل

ايجابي في دمشق ، فلنلتحق به في (ابي اللسل) . وهكذا عمدت إلى تهيئة أمر حملة لتلك الغاية. وكان كل ما بقي معي من مال إذ ذاك ، ألفي ذهبة عثمانية ، فوضعتها تحت أمر اخواني لتنظيم الحملة المذكورة ، وهي مؤلفة مني ومن قائدها أخي تحسين قدري ، الذي طلبت اليه العودة لدمشق من جهة فلسطين، فوافاني متنكراً، ونزل من القطار بين الكسوة والقدم ، واختفى في بيت مربية أولاد أحمد مختار مردم بك (والد صديقي خليل بك) إلى يوم سفرنا ، ومن رفيق التميمي وسليم عبدالرحمن ورستم حيدر والملازم الأول محمد المغربي وخليل السكاكيني وسعيد الباني والعسلية الثلاثة الذي كانوا في انتظارنا بالجبل . واستعنت بسليم بن يوسف عبيد من جرمانا لتهيئة الخيل والسلاح والعتاد والمتطوعين الذين نحتاج اليهم . وبلغت التكاليف التي تكبدناها حداً باهظاً بسبب سرية العمل . وفي أواسط يونيو ، قصدنا متفرقين بساتين جرمانا بغوطة دمشق . . وبعد حين جمعنا شملنا وغيرنا زيّنا ، وغادرنا مكاننا تحت جناح الليل قاصدين إلى خلخلة ، مارين بغير اكتراث بالمخفر الذي يعترض طريقنا إذ كان في وسعنا الاستيلاء عليه ، ولكننا لم يعترضنا أحد .

ولبثنا يومين في خلخلة ندعو إلى ضرورة انضواء العرب تحت راية الأمير فيصل . ومنها قصدنا في طريقنا إلى القرية المجاورة « الحلبية » ، ولما كان شيخها يتظاهر بالصداقة للسلطة التركية ، فقد تحاشى الاجتماع بنا ، ولم يضفنا ، فأوجس زملائي ان يتكاثر علينا أهل القرية فيتعذر علينا الدفاع ثم يسلموننا للحكومة التي كانت قد أعلنت على انها تمنح لمن يأتي بأحدنا حياً أو ميتاً مكافأة قدرها (٥٠٠) ليرة ذهبية . فرأيت ان لا خلاص لنا إلا بالاقدام ورباطة الجأش . وهنا تقدمت من ابن الشيخ ، زاعماً انني صديق حميم لسليم الأطرش ، وكان بحكم حاكم الجبل في نظر أهاليه ، كما انني أخ لنسيب الأطرش . ولم أقم بهذه الرحلة إلا بعد الاتفاق معهما ، وانني على استعداد لمغادرة القرية وأخبارهما بهذه المعاملة الشاذة التي لا يليق ان يعامل بها الضيوف . فتغير الوضع آنئذ وذبحت لنا ذبيحة واتانا منشد القرية ينشد على ربابته اناشيد في تمجيدنا . ولما لاح الصباح غادرنا القرية قاصدين عنزة قرية حسين الأطرش . إلا اننا بتنا ليلة في الطريق قبل الوصول اليها وكنا نلقى كل

ترحاب ممن نصادفهم ، كما ان لقاء حسين لنا كان لقاء كريماً . ثم واصلنا السفر إلى « القريّة » مقر سلطان الأطرش ، ورغم تغيبه يومئذ فاننا بتنا في المضافة وأصبحنا آمنين على أنفسنا،ومكثنا هناك بضعة أيام لاستكمال عدتنا واستأجرنا بعض الادلاء والمتطوعين من عرب السردية . واجتمعنا بعبـــد اللطيف العسلي ولطفي العسلي وحكمة العسلي . ولما ان استوفينا ما أردنا من العدة وكان عديدنا قد غدا وفيراً بانضمام الكثير ممن يرغب الالتجاء إلى مصر،إلى أقاربهم من اللبنانيين، ومن الأرمن ممن كانوا مختبئين في جبل الدروز الذين أعلن فيصل أخذهم تحت حمايته ، وكان بينهم عدد من النساء أيضاً . فسارت القافلة بتنظيم عسكري بطريق البادية وبتنا بالخلاء ثم حللنا بالازرق للارتواء. فباغتنا عن بعد غزو، إلا انه لم يجرؤ على مهاجمتنا . وفي أثناء انحدارنا نحو أحد الوديان أراد سعيد الباني ان يسرع ويتقدم غيره فمنعته راجياً ان تكون النساء في المقدمة . ولم أكد أتم كلامي حتى انطلقت علينا عدة طلقات نارية ، فاتجه عندئذ نحوي وقال لي : هذا هو السبب الذي كنت من أجـــله أود الاسراع في النزول . وللحال اتخذت حاميتنا خطة الدفاع وفتحت النار بشدة على المهاجمين،وأحضرت أنا آلات الإسعاف.وكان رستم حيدر مكلفاً بجلب الماء للجرحى إذا ما أصيب أحد، إلا ان تنظيمنا شبه العسكري ووفرة النيران التي قابلنا بهـــا المهاجمين، إذ كان لدينا رشاش ، كل ذلك جعلهم يرتدون بسرعة . ثم واصلنا السفر بعدها إلى بير بيرين مقر عودة أبو تايه شيخ الحويطات وهنـــاك رأينا على بئرها قطعة بيكستون العسكرية الانكليزية معتليــة الجمال، عائدة بخيبة من التجربة التي أرادت القيام بها لتخريب خط السكة الحديدية بين جبهة فلسطين ودرعا،وغاية ما وسعها عمله هو الاستيلاء على محطة المدورة شمال معان بحماية رجال فيصل . ولقد بتنا ليلتنا هذه ضيوفاً على « أبو تايه » حتى إذا أشرق الصبـــاح سرنا نجتاز السكة الحديدية قرب معان قاصدين « أبا اللسْل » أمام معان مقر الأمير فيصل . وكان أول من صادفنا من قواد جيشه النظامي جودة الأيوبي ، وكنا آنئذٍ ننشد الأناشيد الحماسية التي نظمها ولحنها لنا خليل السكاكيني ومطلعها :

أيهـا المولى العظيم   فخر كل العرب

وبعد ان تناولنا عنده المرطبات ودعناه قاصدين مقر الأمير ، وكان وصولنا اليه عند المساء عقب الغروب . فاستقبلنا سكرتيره الخاص فايز الغصين ونسيب البكري ، وهما من اخواننا في الجمعية ، وفايز المؤيد وأخوه أحمد . وللحال نصبت الخيام لمبيتنا . وما هي إلا استراحة قصيرة ، حتى طلب فيصل مقابلتي ، ورحب بي بشاشته المعهودة . ثم رأى ان يعين رستم حيدر رئيساً لديوانه ، ورفيق التميمي رئيساً لديوان أخيه الأمير زيد ، وتحسين قدري مرافقاً خاصاً له . ولقد حسرت له عن الحالة الأليمة التي وصلت اليها سورية ونفور الأهلين من مظالم جمال باشا، وسوء الادارة في البلاد ، وتحينهم الفرص للانضمام تحت لوائه [1] . »

وأما في جزيرة العرب ، فيقول جورج انطونيوس ان الثورة لاقت التأييد التام من عبد العزيز آل سعود أمير نجد والشيخ جابر المبارك الصباح أمير الكويت ، والشيخ خزعل أمير المحمرة، الذين عقدوا مؤتمراً في الكويت ضم ما يزيد على مائة وخمسين شخصاً من شيوخ القبائل. وقد القى عبد العزيز آل سعود فيه خطاباً حماسياً حث فيه العرب على مقاومة الأتراك [2] .

وزار الحجاز وفد من عرب افريقية الشمالية يتألف من آغا شعراوي ومصطفى شرشالي عن الجزائر،والشاذلي العقبي والعربي بن الشيخ عن تونس،وموسى أحمد بن سكريج عن المغرب الأقصىوعبدو خان عن افريقية الغربية.وكان سكرتير الوفد السيد علي ملك ، وكانت الغاية من زيارته الإعراب عن تأييد العرب والمسلمين في شمال افريقية لثورة الشريف حسين .

وبالاضافة إلى العدد الكبير من الضباط والجنود الذين أسرهم الانكليز في ميادين القتال التركية المختلفة، ورغبوا في الانضمام إلى جيش الثورة،كان احرار العرب من عسكريين ومدنيين،يتوافدون للالتحاق بأول جيش عربي، يناضل في سبيل

---

١ — مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٦٣—٦٧

٢ — انظر تفصيل ذلك في يقظة العرب ص ٣٠٢

قضية عربية منذ مئات السنين .

وأشار لورنس في امكنة متعددة من كتابه « اعمدة الحكمة السبعة » ، الى الروح القومية التي سادت الثورة في المدن والبوادي على السواء ، ومن ذلك قوله : « ان قصة الثورة العربية من أولها لآخرها ليست سوى قضية حياة أو موت بالنسبة للعرب . أما نحن فقد تبنيناها حباً بانفسنا ، وعلى الأقل طمعاً بكسب مستقبل. ولم يكن في مقدورنا تحاشي ذلك إلا بخدع أنفسنا فيما نشعر ونحس به من دوافع » وقوله : « لم المس سوى أثر ضئيل للتعصب الديني بين العرب ، ولقد رفض الشريف مراراً وتكراراً ان يضفي على ثورته رداء دينياً » وقوله أيضاً : « لقد أدهشني رجال العشائر ذوو الألبسة المهلهلة باطلاعهم الواسع وادراكهم العميق للمفاهيم القومية التي يتعذر حتى على الطبقات المثقفة هضمها ، وكي اسبر غور هؤلاء الحاضرين طرحت عليهم هذا السؤال : ترى بعد انتصار الثورة هل تحكم دمشق الحجاز أو أهل الحجاز يحكمون دمشق ؟ والجواب كان ان هذه المسألة لا تعنيهم كثيراً فالمهم ان يتخلص العرب من المتطفلين الذين يتحكمون بهم. أما العراقيون والسوريون المنخرطون في الجيش العربي، فكانوا يؤمنون ان مشاركتهم في ثورة الحجاز ، تقدم كل المبررات للحقوق العامة للعرب في تجسيد الوجود القومي العربي. وسواء لديهم أكانت الدولة العربية المنتظرة دولة وحدوية أو اتحاداً كونفدرالياً،فقد كانوا يتطلعون نحو الشمال راغبين في ادخال دمشق وبغداد في الأسرة العربية [1] . » .

وفي ٧ ذي الحجة سنة ١٣٣٤ (تشرين الأول—اكتوبر ١٩١٦)، ألف الشريف حسين حكومة برئاسته تولى نيابة الرئاسة فيها الشيخ عبد الله بن سراج . أما أعضاؤها فهم عبد الله بن الحسين للخارجية، فيصل بن الحسين للداخلية، عزيز المصري للحربية ، علي مالكي للمعارف ، يوسف بن سالم للاشغال العامة ، محمد أمين للأوقاف ، أحمد بن عبد الرحمن باناجه للمالية. ثم ألف مجلساً للشيوخ للنظر فيما يتعلق بمنافع البلاد والمراقبة على اعمال الدواوين والدوائر الرسمية، وابداء الرأي في ما

---

١ – أعمدة الحكمة السبعة ص ٥٤ و ٣٥١

تعرضه الدوائر على رئاسة الوزارة. وقد تألف هذا المجلس برئاسة محمد الشيبي، وعضوية عبد الله بن محمد صالح الزواوي، وعابدين حسين، وعبد القادر بن علي الشيبي، وابرهيم علي، ومحمد بن علوي السقاف، وعبد الله بن علي رضا، وعلي بن عبدون الشرباصي، وأبو بكر بن محمد خوفير، وحمزة بن عبد الله الفعر، وفتن بن محسن، وسليمان بن أحمد بن سعيد، وناصر بن شاكر.

وخطب الحسين في الاحتفال بعيد الأضحى رداً على خطبة القاها الشيخ رشيد رضا، فقال: «ان وجودنا السياسي مكفول لنا بالاستقلال التام الذي لا تشوبه شائبة. ولو ان هذا العمل الذي اعتقد فيه كل الصلاح لقومي وبلادي وديني، يعترضه أحد بسوء، ولو كان أحد أولادي لصلبته بيدي غير آسف عليه، لأني أحب بلادي وديني أكثر من كل شيء في الوجود، ولولا هذه المحبة لما نهضت هذه النهضة وسأبقى مستمراً في خطتي غير متزعزع فيها ولا متحول عنها حتى يقضي الله أمره.

« ان هذه النهضة عربية، تشمل كل عربي كائناً من كان. على شرط أن يكون صادقاً لوطنه مخلصاً لقومه [1]. »

وفي أول محرم سنة ١٣٣٥ (٢ تشرين الثاني – نوفمبر ١٩١٦)، بايع علماء مكة الشريف حسين « ملكاً على العرب ». ويقول عبد الله بن الحسين في ذلك انه كان السابق إلى التفكير باعلان استقلال البلاد العربية باجمعها، والبيعة لجلالته ملكاً على العرب، « لأن الترك في ذلك الحين كانوا ينظرون الينا كعصاة خارجين، واعداؤهم ينظرون الينا كثوار لا أقل ولا أكثر وفي هذا ما فيه من الخطر على مستقبل الأمة، فذاكرت زملائي الوزراء – ما عدا الأميرين علي وفيصل فانهما كانا في الجبهة – ذاكرت الشيخ عبد الله سراج قاضي القضاة ونائب رئيس الوزراء والشيخ يوسف قطان وزير الأمور النافعة وحافظ محمد أمين أفندي ناظر الأوقاف، وعزيز بك علي المصري رئيس أركان الجيش العربي وعلماء مكة ومفتيها ومن حضر من رجالات الشام والعراق الذين منهم الشيخ كامل القصاب والسيد محب الدين الخطيب وآل

---

١ – الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ٩٩

البكري والشيـــخ فؤاد الخطيب – وكان معاوناً للخارجيـــة – وآل الداعوق وحضرات الضباط العراقيين ، فعرضت عليهم الأمر ، فوافقوني على ذلك وألحوا في سرعة التنفيذ .

« فدخلت وعرضت الأمر على جلالته فرفض بشدة وقال : أنا لا أعمل للملك ولا أقبل هذا الأمر الذي تعرضونه عليّ . فتقدمت ولثمت ركبته وقلت : هذه العريضة مقدمة من عظماء الحجاز ومن حضر من سائر بـــلاد العرب،وهم يرجونك قبول عرضهم. فقال : ليس عندي سوى ما قلته لك. فقلت: لسنا جميعاً على استعداد لخدمة الثورة إلا على شرط قبول ما عرضناه ، فاعمل ما تشاء مــع سوانا . فقال : هل بلغت بكم الحال إلى هذه الدرجة ؟ فقلت : نعم . فقال : قف . فوقفت ثم أمر بحضورهم جميعاً فلما جاءوا قال : أصحيح ما يقول هذا ؟ . قالوا : لا يجرؤ أحد على أن يعرض على سيدنا ما لا صحة له . فقال : هل عزمتم على ترك الدوام على الثورة ان لم أقبل أنا ما عرضتموه ؟ قالوا : نعم ، سننسحب كلنا . فقال : افعلوا ما شئتم والتبعة عليكم . أنا أقبل ما عرضتموه منفذاً لرغبتكم لا موافقاً عليهـــا. فقالوا : إذن وفقك الله وستكون البيعة يوم الاثنين أول محرم سنة ١٣٣٥ في المسجد الحرام . فقال : على بركة الله [1] . »

وقد أثارت هذه البيعة غضب بريطانية وفرنسة ، ورأتا فيها تسرعاً لا مبرر له ، وتصرفاً منفرداً لم تستشر فيه الدولتان الحليفتان . وبعد نقاش وجدال طويلين دار بين لندن وباريس،والقاهرة ومكة،قدمت بريطانية وفرنسة للملك بواسطة مندوبيها مذكرتين تعترفان به بموجبها ملكاً على الحجاز ، على أن يكون لقبه « جلالة ملك الحجاز ». وقد رد الملك على رسول فرنسة حين سلمه المذكرة بقوله: «لا أهمية للقب بنظري فأنا لا أفكر إلا في خدمة أمتي وبلادي [2] » وجاء الاسطولان الانكليزي والفرنسي يحملان إلى جلالة الملك تهاني دولتيها،وخطب أميرال الاسطول الفرنسي

---

١ – عبد الله بن الحسين : مذكراتي ص ١٢٩

٢ – انظر تفصيل هذا الامر في « أسرار الثورة العربية الكبرى » ص ١٧٦ – ١٨٣ ويقظة العرب ص ٣١١

في حضرته ، ودعاه بأعظم امراء العرب .

ويقول أمين الريحاني : « قد ينسى الملك حسين تلك الخطبة وذلك الاطراء من الأميرال الفرنسي ، ولكنه لا ينسى ما خط على الورق وما لديه من الرسائل التي كان يحملها كاتب سره في تلك الحقيبة الصغيرة، يوم شرفني بزيارته في دار الضيافة ، هوذا كتاب من خلف السير مكماهون في مصر ، المندوب السامي السير ريجنالد ونجت في ١٩ نيسان سنة ١٩١٧ م و ٢٧ جمادي الثانية ١٣٣٥ هـ ، وفيه ما يلي :

« اؤمل ان لا يبرح من بال جلالتكم ان الحكومة البريطانية هي التي تحترم المعاهدات وهي حامية ذمار الحق والعدل، والحليفة الوفية التي لا تخون العهود[1] . »

١ — ملوك العرب ج ٢ ص ٦٧

الفصل الرابع عشر

العرب في المعركة

كانت القوات التركية في الحجاز ، في بدء الثورة العربية ، تتألف على الشكل التالي :

١ ـ قوة المدينة الداخلية ، وتتألف من فوجي مشاة ، وآلاي (جحفل) هجانة و ٣ بلوكات استحكام ، ورشاشات ومدفعية قوية .

٢ ـ قوة بير درويش ، وتتألف من خمسة أفواج مشاة وسريتين راكبتين ، وجحفل هجانة ، وبطارية مدافع جبلية تنقل على الابل و ٤ طائرات .

٣ ـ قوة بير روحانا ، وتتألف من جحفل هجانة ، وقوة من عرب شمر ، وكتيبة تركب البغال ، و ٥ مدافع ميدان ، ومفرزة لاسلكي .

ومجموع هذه القوى ٢٢٣٠٠ جندي يقودها ٦٠٠ ضابط .

وكان للترك أيضاً قوات عسكرية كبيرة ترابط على طول سكة الحديد ، من المدينة إلى معان ، مقسمة إلى ثلاث مناطق : منطقة المدينة ـ العلا بقيادة بصري باشا ، ومنطقة تبوك ـ العلا بقيادة القائمقام عاطف ، ومنطقة تبوك ـ معان بقيادة اللواء محمد جمال [١] . وكانت تؤازر هذه القوات الطائرات الألمانية فتغير على القبائل

١ ـ أسرار الثورة العربية الكبرى ص ١٢٣

الثائرة محاولة تحطيم معنويات المحاربين [1] .

وقد تألف الجيش العربي من ثلاثة أقسام تتساند في حملاتها على الجند العثماني :

١ – قسم يقوده الأمير فيصل بن الحسين وهو مكون من نحو عشرة آلاف مقاتل أكثرهم من قبائل المدينة المنورة مثل بني جهينة ، وعتيبة ، وعجيل ، وبليس ، وفيهم نحو ألف خيال والباقون مشاة ، وكان مقره في البادية بين المدينة المنورة وينبع .

٢ – قسم يقوده الأمير علي بن الحسين وهو مؤلف من ثلاثة عشر ألف مقاتل بينهم ألف هجان ، وعشرة آلاف جندي نظامي من عرب الشام والعراق الذين انفصلوا عن الجيش التركي والتحقوا بالقوى العربية ، والباقون من عرب البادية ، وكان مقره في رابغ .

٣ – قسم يقوده الأمير عبد الله بن الحسين وكان مؤلفاً من أربعة آلاف مقاتل من البدو وفيهم بعض العرب الذين كانوا في الطائف ، وكان مقرهم في ضواحي الطائف [2] .

وتألف فيما بعد جيش رابع بقيادة الأمير زيد ، وكان بمثابة احتياطي للجيوش الثلاثة .

وكان بدو الحجاز هم العنصر الأساسي والغالب في هذه الجيوش [3] ، أما الضباط فهم أما عراقيون وهم الأكثرية ، أو سوريون أو فلسطينيون . على ان حكومة الحجاز أسرعت بانشاء مدرسة حربية لتخريج الضباط ، تولى قيادتها في أول انشائها ضابط سوري هو شكري الشوربجي [4] .

---

١ – الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ٩٣

٢ – تاريخ الامة العربية ، عصر الانبعاث ص ٦٢

٣ – كان ذلك في بدء الثورة وقد اختلف الامر بعد ان التحق بجيش الثورة كثير من العرب ، مدنيين وعسكريين ، وعدد غير قليل من الاسرى العرب الذين كانوا يقاتلون في الجيش التركي ، وانضم اليه ألوف المتطوعين من القبائل العربية في سائر بلاد الشام .

٤ – أسرار الثورة العربية الكبرى ص ١٢٢

وأما تسليح الفريقين فكان متفاوتاً إلى حد كبير ، إذ كانت الجيوش التركية مزودة بالأسلحة الحديثة التي كان الألمان يغدقونها على حلفائهم بغير حساب ، بينما كانت بريطانية لا تمد حليفها الملك حسين إلا بما هو ضروري جداً من الأسلحة ، وفي بعض الأحيان بما لا يصلح منها أو بما بطل استعماله لديها ، وكانت شكوى الحسين من ذلك لا تنقطع، وقلّ ان يمر أسبوع واحد دون أن يوجه رسالة أو برقية بطلب الأسلحة والمعدات الحربية . والظاهر أن بريطانية كانت تحتاط للمستقبل منذ ذلك الحين ، وتخشى ان تنتهي الحرب وللعرب جيش قوي منظم لا ينقصه السلاح والعتاد !

وقد تولى الأمير علي الهجوم على القوات التركية في المدينة ، وكان فخري باشا قد حصنها تحصيناً قوياً ، ولم يستطع العرب تشديد الهجوم مخافة ان يصاب قبر الرسول ومسجده بأذى . وامتنعت الحامية التركية وعددها ١٤ ألف جندي خلف حصونها المنيعة ومدفعيتها القوية ، بما ادّخرته من الطعام والمؤونة ، بعد أن أجلت ما يزيد عن أربعين ألف نسمة من سكان المدينة إلى الشام وآسية الصغرى ، ولم تدع فيها سوى بضعة آلاف ممن آثروا الموت في جوار قبر النبي على الجلاء عن مدينته ، غير مطالبين الجيش المحاصر بأية مؤونة .

وبينما كان الأمير علي يشاغل القوات التركية المحاصرة، ويقطع خطوط السكة الحديدية التي تستخدمها لتموين الجيش المرابط في المدينة ، ويفتح رابغ ويجعلها ميناء له ، كان الأمير عبد الله يحاصر الطائف ، وكانت مقر غالب باشا الوالي التركي في الحجاز ، فما تلبث حتى تسقط ويستسلم الوالي وجنده للقوات العربية ، وينتقل الأمير إلى وادي عيص في الشمال الغربي من المدينة لقطع مواصلات الأتراك [1] .

يقول سليمان موسى : « والخلاصة التي يصل اليها الباحث هي ان هذه الفترة العصيبة من أيام الثورة رغم خطورتها أبرزت وبلورت جوانب عديدة للموقف ،

---

١ – انظر تفصيل ذلك في « مذكراتي » لعبدالله بن الحسين ص ١٠٨ وما بعدها .

ويمكن اجمال النتائج فيما يلي :

١ – تألفت نواة جيش العرب النظامي المدرب ، وقد أدى هذا الجيش خدمات عظيمة وأخذ على عاتقه المهام الحربية ، حتى ان الحسين بعد تأليفه لم يعد يطلب سوى الأسلحة والأموال .

٢ – أوقفت الحسين على حقيقة كبيرة وهي ان الاتكال المطلق على الانكليز لا يجدي ، وانهم سيجعلون مساعدتهم له في حدود ما تقتضيه مصلحتهم الخاصة .

٣ – تجمع خلالها رجال الطليعة العربية على مستوى لم يسبق له مثيل ، وأخذت فكرة القومية العربية تبرز بوضوح في نطاق تحرير الأقطار العربية .

ولا يمكن اغفال الاشادة بموقف الحسين شخصياً في هذه الفترة ، فقد أظهر ثباتاً عجيباً مما شجع العرب على مواصلة النضال ، كما شجعهم من قبل يوم كانت القذائف تنهال على القصر الشريفي وهو ثابت فيه كالطود الراسخ، فضرب بذلك أسمى الأمثلة في الاخلاص للمبدأ والدفاع عنه إلى النهاية [1] . »

وفي ذلك الوقت كان الأمير فيصل يزحف على ساحل البحر الأحمر متقدماً إلى سمت الشمال ، وما زال ينتقل من نصر إلى آخر ، حتى احتل الوجه في ٢٤ كانون الثاني (يناير) ١٩١٧ (١٣٣٦ ﻫ) ، واتخذها قاعدة للاعمال العسكرية في الشمال، فلم تقم للأتراك بعد ذلك قائمة في الحجاز، وظلت قوتهم الكبيرة في المدينة محاصرة لا تستطيع أن تحرز نصراً على العرب، ولا تستطيع الانضمام الى جيوش الترك التي تحارب الانكليز في فلسطين .

وفي تموز (يوليه) سنة ١٩١٧ ، أي بعد أحد عشر شهراً من اعلان الثورة ، فتحت قوات الأمير فيصل العقبة بقيادة الشريف ناصر بن علي وبمعاونة الشيخ عودة أبو تايه ورجال قبيلته الحويطات ، وهو أحد شجعان العرب ، وقد أبلى في هذه الواقعة وفي أكثر الوقائع التي اشتبك فيها الجيش العربي مع الجيش التركي بلاء ليس بعده بلاء ، وأسر في فتح العقبة طابوراً تركياً مع كافة ضباطه وأركان حربه [2] .

---

١ – الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ١١٣

٢ – Lawrence d'Arabie, par Mac Lean P P. 47 - 60

Lawrence d'Arabie, par Benoist - Méchin P P. 116 - 121

وكان استيلاء العرب على العقبة نهاية معارك الثورة العربية في الحجاز وابتداءها في بلاد الشام ، كما سهل للانكليز حملتهم في فلسطين .

والواقع ان الحملة البريطانية في فلسطين ، أي سورية الجنوبية ، وفيما بعد في سورية كلها ، بالاضافة إلى العون المادي الذي قدمته الثورة العربية لها باشغالها القسم الأكبر من القوات التركية في المنطقة ، وقطعها مواصلات العدو ، وحيلولتها دون وصول الأمداد إلى الجبهة التركية الانكليزية ، واحتلالها قطاعات هامة داخل البلاد ، وكانت تعتمد على العون المعنوي الذي قدمته هذه الثورة لها . فكل هجوم عسكري تقوم به كان يسبقه القاء منشور الملك حسين باعلان الثورة من الطائرات، وتؤازره الدعاية التي تؤكد وعود بريطانية من جديد .

لقد كان السلاح الرئيسي الذي اعتمدته بريطانية في تلك الدعاية ، هو ان قضية الحلفاء قد أصبحت وقضية الاستقلال العربي شيئاً واحداً ، بعد الاتفاق الذي عقد بين السير هنري مكماهون والملك حسين ، وان انتصار جيوش الحلفاء هو الذي سيجلب الحرية للشعوب العربية . وهذا ما مهد السبيل أمام الانكليز وجعلهم يقاتلون وهم يشعرون بانهم في بلاد صديقة يلاقون فيها العطف والتأييد والترحيب ، بينما كان الأتراك يدافعون وهم يشعرون بأنهم في بلاد معادية لهم حاقدة عليهم .

ويقول جورج أنطونيوس : « ان الحملة السياسية التي بدأتها القيادة البريطانية عام ١٩١٦ هي في ذاتها دلالة موجبة على أن فلسطين كانت تعتبر ، في أذهان البريطانيين والعرب على السواء ، من ضمن تلك المنطقة . وقد بذلت الجهود لكسب السكان إلى جانب الحلفاء باسم الملك حسين ، وباسم الحرية العربية ، لا في فلسطين وحدها بل في كل مكان آخر من سورية ، باستثناء لبنان حيث لم يذكر اسم الحسين أبداً ، وكانت الدعاية تتضمن على ان لفرنسة اهتماماً خاصاً بمصالح لبنان . وقد كان هذا الاستثناء الوحيد يتلاءم والتحفظات التي وردت في مراسلات مكماهون نيابة عن فرنسة ، وهو استثناء هام تاريخياً لأنه يدل على ان فلسطين — حتى ربيع سنة ١٩١٧ على أي تقدير — كانت تعتبر على قدم المساواة مع سائر أجزاء سورية التي قطعت بريطانية العظمى العهد على نفسها — دون تحفظ — بأن تعترف بها دولة

عربية مستقلة وتساندها [1] » .

وكثيراً ما كان الجنود العرب يفرون من صفوف الأتراك إلى صفوف اعدائهم، أفراداً وجماعات ، حتى في قلب المعركة ، ليقاتلوا تحت الراية العربية . وما ان تحتل القوات العربية أو البريطانية احدى المناطق ، حتى يتوافد المتطوعون من كل صوب للانضمام إلى جيش الأمير فيصل ، رغم ما كانت تعانيه تلك المناطق من ويلات المجاعة وأهوال الحرب . ولما دخلت القوات البريطانية إلى بعض أجزاء فلسطين ، نهض أمين الحسيني يدعو المواطنين إلى التطوع تحت راية الأمير العربي، واستطاع أن يجمع عدداً كبيراً من الشبان ويلتحق معهم بقوات الثورة .

وبينما كان الأمير فيصل ينظم جيشه الجديد في العقبة ، الذي بات يتألف بمعظمه من السوريين والعراقيين ، كان يعمل على توسيع دائرة تحالفه مع القبائل العربية ، وكان رسله في هذه المهمة الشريف ناصر ونسيب البكري والكولونيل لورنس ، حتى اكتسب ولاء كل من تبقى من شيوخ القبائل بين خليج العقبة ونهر الفرات وضمن تأييدهم للثورة .

وكان الأتراك يأتون من معان لضرب البريطانيين ، فلما استولى العرب على العقبة استطاع الانكليز ان يهجموا على غزة وبئر السبع . ثم اتجه العرب الى معان مركز تجمع الأتراك لوقوعها على الخط الحديدي ، فاحتلوا جروف الدراويش والطفيلة ووادي موسى ، وقد قام مولود مخلص في هذه المعارك ببطولات فريدة وطارد الأتراك حتى بلغوا خطوطهم الدفاعية حول معان. « وكان في الطفيلة حامية عسكرية تقدر بمائتين واربعين جندياً بقيادة الرئيس زكي الحلبي ، وعندما انتهت معركة محطة جروف الدراويش لمصلحة الثوار أعلن قائد حامية الطفيلة الانضمام إلى قوات الثورة مع جنوده بأسلحتهم وعتادهم [2] » وعلى اثر ذلك عين الرئيس زكي الحلبي حاكماً على الطفيلة .

---

١ – يقظة العرب ص ٣٣٠

٢ – ذكريات العجلوني ص ٥١

وقد حاول العرب الاستيلاء على معان فردوا عنها مرتين بخسائر ، ولا سيما يوم ٢٢ تموز (يوليه) عندما هاجموا محطة أم الجرذان (الجردونة) إذ كانت خسائرهم في هذا الهجوم عشرين ضابطاً ومائتي جندي ، وقد استولوا على أم الجرذان ثم اضطروا إلى التخلي عنها .

ومن أطرف ما رواه محمد علي العجلوني انه كان لبعض ضباط الجيش العربي زملاء في تحصينات العدو بسمنة تربطهم بهم صداقة شخصية، وكان الفريقان يتبادلان الهدايا ورسائل الأشواق مع أفراد الدوريات ، فالضباط في الجيش التركي يبعثون بفاكهة الموسم في معان من العنب والبرقوق والرمان ، وأصدقاؤهم في الجيش العربي يرسلون اليهم الحلوى والقهوة وزجاجات الويسكي .

ومن المواقف المروعة التي وصفها العجلوني ان الرئيس زكي الشطي وهو أحد قواد السرايا المشاة قد جرح أثناء معركة الجردونة الثالثة ، فحمله زميله الملازم هاشم الدزدار على كتفيه ، وهرول به ابتغاء إنقاذه بالخروج به من دوامة المعركة ، ولكن قنبلة مرت كالبرق فخطفت رأس هاشم الدزدار وتركت زكي الشطي محمولاً على جثة بلا رأس عدة ثوان،ثم سقط الجريح والجثة معاً. وأسر زكي الشطي وأرسل إلى المستشفى في دمشق ليعالج ثم ليعدم بعد شفائه ، ولكن الجيش العربي دخل دمشق وهو لا يزال في المستشفى فنجا من الاعدام [١] .

وقد أرسل الأتراك من الكرك أربع كتائب وسرية من البغالة، بغية استعادة الطفيلة ، وبينا كانت سائرة في وادي موسى بلغ العرب خبرها ، فتحصن الأمير زيد رابع أنجال ملك الحجاز في رؤوس الجبال في مائتي جندي نظامي وبعض المتطوعين من عشائر الحويطات وقبائل بني صخر ، وأخرج أهل الطفيلة وسلحهم وفرقهم في الجبال المشرفة على الوادي ، فحاصر الكتائب التركية وأمطرها بوابل من النار من الآكام المحدقة بالوادي ، فاضطرب الجيش الزاحف وجفلت البغال وقتل حامد فخري بك القائد التركي المعروف بفاتح بخارست ، وهرب كثير من

---

١ — المرجع السابق ص ٦١ و ٦٥

الجنود واستسلم ستمائة منهم، وغنم العرب أربعة مدافع سريعة الطلقات ، ولم يكن معهم سوى مدفعين قديمين . ولما علمت الحامية التركية في الكرك بكارثة وادي موسى ، بادرت إلى إخلاء المدينة على حصانتها .

وجاء في نشرة وزارة الحربية البريطانية في آب (اغسطس) ١٩١٧ (١٣٣٦هـ)، ان خطة العرب في بداية نهضتهم هي خطة حسنة تحوي في مطاويها حذقاً وحزماً ودهاء ، فقد خربوا قسماً من السكة الحديدية ، واستولوا على مراكز الأتراك على جانبي الطريق ، وكانوا على جانب من البسالة ، يتغلبون على جيش أكثر منهم عدداً وعُدداً . وقال ليمان سندرس الألماني : « ان العرب من أول شهر أيار (مايو) إلى التاسع عشر منه خربوا خمسة وعشرين جسراً [1] » .

وقد خرب العرب محطة القطرانة وأسروا عدداً من الترك ، ثم هجموا على الحسا فأخذوا قطاراً كان هناك ، ودمروا قسماً من العدة والذخيرة ، ولكن الأتراك أخرجوهم بعدئذ من الحسا ، فتقهقروا جنوباً وهم يخربون الجسور والخط الحديدي .

وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ هاجمت القوى البريطانية الحامية التركية في عمان ، فسقطت السلط في أيدي العرب والبريطانيين ، وعاد الأتراك فهاجموها في آذار (مارس) ١٩١٨ (١٣٣٧ هـ) ، وردوا البريطانيين إلى غربي الأردن .

ولما عزم الحلفاء على القيام بهجوم عـام لضرب الجيش التركي الألماني الضربة القاضية ، فاوض البريطانيون الأمير فيصلاً لتجهيز حملة تسير من أبي الأثل إلى جسر تل شهاب في حوران لتقطع خط الرجعة على الجيوش التركية ، فتألفت الحملة من الجيش النظامي ترافقه قوات من البدو .

ويبدو ان القيادة التركية علمت بأمر هذه الحملة ، فأمر القائد التركي حامية معان بالهجوم على الجيش العربي في مقره بالوهيدة لإشغال الحملة عن المسير إلى تل شهاب . وزحف الألمان مع الأتراك من الشمال على الشوبك والطفيلة ليلتقوا مع

---

١ - خطط الشام ج ٣ ص ١٥٢

الجيش التركي الزاحف من الشرق ، وبذلك أصبح الجيش العربي في خطر التطويق والإبادة ، لأن قسماً كبيراً منه كان قد ذهب مع الحملة . ولكن أحد العسكريين الغوب الذين كانوا يشتركون في الهجوم التركي ، بادر إلى الاتصال بالأمير فيصل في مقره بأبي الأثل ، وأطلعه على حقيقة الموقف ، فأسرع إلى إرسال عدد من الجنود لمشاغلة الجيش التركي ، ريثما تقدم فرسان الجيش العربي ثم تبعهم المشاة فأنقذوا الموقف .

وعهد الأمير فيصل بإدارة المنطقة إلى أخيه الأمير زيد ، والتحق بالحملة العربية يرافقه قليل من الجند والحرس وبعض المتطوعة من البدو وأهل البلاد ، قاصداً الأزرق ليتخذها مقراً لقيادة الحملة ، وضرب موعداً لنوري الشعلان كي يلاقيه فيها مع المقاتلين من أفراد قبيلته ، كما أوعز إلى عودة أبي تايه أن ينزح مع رجاله من الجفر إلى الأزرق ، ثم كلف أحد شيوخ بني صخر تخريب جسر عمان لقطع الاتصال بين القيادة التركية ومعان ، كما قام نوري السعيد بقطع الخط الحديدي في تل العرار شمالي درعا ، فغدا الجيش التركي في فلسطين وفي معان والمدينة مفصولاً عن قاعدته في دمشق .

وقد قامت حملة نوري السعيد بأعمال بطولية خارقة ، فنسفت جسراً في محطة نصيب جنوبي درعا ، ثم نسفت جسراً آخر في محطة المفرق ، وقطعت السكة الحديدية على مسافة طويلة فعزلت درعا عن دمشق وفلسطين وشرقي الأردن والحجاز ، فلما اخترق الجيش الانكليزي جبهة الجيش التركي الممتدة من شمالي يافا إلى أريحا على البحر الميت ، وجد الترك الدروب مسدودة في هزيمتهم بالجيش العربي ، وبمقاتلة العرب من أبناء العشائر وقرى حوران ، فلم يتمكنوا من تأليف جبهة حربية في حوران ، كما لم يتمكنوا فيما بعد من تأليف جبهة جديدة في دمشق [1] .

ولما رأى البريطانيون تقدم العرب ونجاح الثورة العربية ، بدأوا يفكرون في

---

١ — محاضرات في الاستعمار ج ٢ ص ٧٥

ان يحولوا بينهم وبين النصر الأخير ، أو في أن يكونوا إلى جانبهم على الأقل حتى لا تقع بلاد الشام في قبضة العرب ، فكان ان أخذ اللورد اللنبي يتقدم في فلسطين ، مستغلاً انشغال الجيش التركي بحربه مع القوات العربية تحت قيادة فيصل ، وكان ان احتل القدس في ٩ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٧ (١٣٣٦ هـ) ، وكان أحد العوامل الرئيسية في انتصار اللنبي ان الجيش العربي كان لجيشه بمثابة الميمنة المظفرة التي أمنته وكانت له الدرع الواقية ، وحمت خطوط مواصلاته الطويلة ، وحالت دون هجمات القوات التركية في منطقة بير السبع والخليل [١] .

وما لبثت الأنباء ان وافت بسقوط معان تحت ضربات الجيش العربي ، ثم وافت أنباء أخرى بسقوط عمان ، فرأى الأمير فيصل ان ينقل مقر قيادة الجيش العربي إلى بصرى قاعدة حوران ، مخافة ان يضم الأتراك شملهم في درعا دفاعاً عن دمشق . ولم يكد يستقر في بصرى حتى بلغه سقوط درعا في أيدي الجيش العربي بقيادة الشريف ناصر الذي بادر إلى تأليف حكومة عربية فيها قبل وصول الجيش الانكليزي الذي كان يسير في أثر الجيش التركي المنهزم .

يقول لورنس: « ولما سألت عن أخبار الجنرال باور قيل لي بأن رجاله ينتشرون الآن للاحاطة بدرعا ، فسارعت إلى قمة البويب ومنهـــا إلى حيث يتخذ باور استعداداته لمهاجمة درعا كي أبلغه نبأ سقوطها وأوفر عليه عناء المعركة.

وبعد التحية والسلام أخبرت باور بواقع الحال ، فدهش للخبر وقال :

ـ على كل حال سأذهب إلى درعا كما تشير التعليمات المعطاة لي لأشكل قوة حرس للمحافظة على الأمن .

فأجبته بأن العرب قد سبقوه إلى ذلك ونظموا حكومة عسكرية في المدينة [٢] »

ومن أروع ما يرويه لورنس عن المعـــارك التي دارت في تلك المنطقة قوله : « وأخبرنا الأعراب بأن فرقة رماحة جمال باشا قد دخلت طفس . وما كدنا نطل

---

١ ـ القومية العربية وتحدياتها ص ٨٩

٢ ـ أعمدة الحكمة السبعة ص ٣٩٠

على القرية حتى تأكدت لنا صحة ذلك من رؤية النيران والحرائق ، ومن سماع الطلقات النارية بين الفينة والأخرى . وما هي إلا لحظات حتى بدأت تتجه نحونا جماعات بائسة من الشيوخ والنساء والأطفال لتروي لنا الكثير عن فظائع المجتاحين الذين أحرقوا القرية وفتكوا بكل حي تمكنوا منه .

« ومن مكان عالٍ شاهدنا العدو يتجمع خلف البيوت ويتجه نحو قرية الشيخ مسكين ، فما ان أصبح خارج القرية حتى فتحنا عليه نيران مدافعنا . وما كدنا نفعل حتى انضم الينا نوري السعيــد وبيزاني وعودة (أبو تايه) على رأس سائر القوات . وكان طلال ثائراً يرغي ويزبد لما فعله أولئك الأوباش في أبناء قريته . وبسرعة فائقة أمطرنا العدو وابلاً من الرصاص والقنابل وشتتنا شمله. ثم ساد المكان جو من السكون الرهيب .

« تقدمنا بحذر فيما كان الدخان يتصاعد من القريـة ، وبين الأعشاب وقعت أنظارنا على ما تقشعر له الأبدان هولاً : قتلى وجرحى من نساء ورجال وشيوخ وأطفال ، خراب ودمار ، أهوال وفظائع كان أبشعها رؤية جسد امرأة ملقى على حائط حظيرة بشكل مرعب ، الجذع إلى أعلى والرأس إلى أسفل ، وقد سمرت تلك المنكودة على حائط من الطين بحربة غائصة حتى النصاب بين فخذيها العاريتين . وكان يبدو من شكل بطنها انها حبلى . لم تكن هذه المرأة وحدها هناك فقد وجدنا حولها جثث عشرين أخرى تفنن الأوغاد في التفظيـع بها .

« لدى رؤية هذه الفظائع تكدرت أيما تكدر وأطلقت ضحكة وحشية كأنها ناقوس الهول يدق في السكون العجيب على تلك الهضاب العاليـة ، فصرخت : يا للرجال ، ويا لهذا الهول ، ان أشجعكم عندي من يأتيني بأكبر عدد من جثث هؤلاء الأتراك الأوغـاد . فهب الرجال كالأسود الغاضبة يشدون في أثر العدو المتناثر في المعارج والمسالك يصبون عليه جام غضبهم قصاصاً له على وحشيته .

« أما طلال (الحريدين) الذي رأت عيناه ما حل بأبناء بلده ، فقد كان يئن كالنمر الجريح ويرفض أن يكلم أحداً منا . وبعد أن ألقى نظرة فيها كل الغضب والثورة والألم على الجوار كأنه يبحث عن المجرمـــين ، أسدل كوفيته على وجهه

وضغط على عنان فرسه فراحت تعدو به كالسهم المارق إلى السهل نحو العدو .

« انحدر طلال على قمة الجبل وتخطى قاعاً عميقاً ، فذهلنا أمام هذا الجنون وكأننا قد صعقنا في أمكنتنا وهو مندفع كالسهم . وجمد الكون من حولنا ، وصمتت الطبيعة ، فلم يعد يسمع غير وقع سنابك فرسه . وتوقف إطلاق الرصاص من الجانبين ، وراح الجميع ينظرون إلى طلال الذي ما كاد يقترب من العدو حتى صرخ صرخة الحرب :

— طلال .. طلال !..

« فتساقط عليه زخ من رصاص العدو مزق أحشاءه فخرّ صريعاً مع فرسه .

« تابع عودة هذه المأساة حانقاً مزمجراً ثم قال :.

— رحمة الله عليه .. سيدفعون غالياً ثمن قتلك يا طلال !

« وهز اللجام وتقدم بتؤدة نحو العدو فيما دفعنا الفلاحين إلى تقطيع جناحي الأتراك .

« استيقظ أسد القتال في نفس عودة ساعتئذ ، فأصبح بحكم الواقع والقدر رئيسنا جميعاً ، وتمكن بمناورة بارعة أن يجر العدو إلى أرض رديئة ويقطع أوصاله إلى ثلاث قطع . وتولينا أمر تلك القطع الواحدة بعد الأخرى وأفنيناها عن بكرة أبيها ، انتقاماً لمذبحة طفس ولمقتل طلال أحد قادتنا الشجعان [1] » .

ونقل الأمير فيصل مقر قيادته إلى درعا ، وتولاه القلق الشديد ، خشية أن يسبقه الانكليز إلى احتلال دمشق ، فبادر إلى إرسال نسيب البكري إلى صديقه سلطان باشا الأطرش ليستحثه على الاشتراك في المعركة . ولبى سلطان الأطرش نداء الأمير ، فالتحق به مع عدد من رجاله ، كما انضم اليهم عدد آخر من المتطوعة السوريين ، وزحف الجميع إلى دمشق .

يقول أمير اللواء محمد علي العجلوني : « وهبت حوران بكل قواها مع عشائر جبل الدروز بزعامة سلطان الأطرش وقبائل البدو ، فمزقوا وحدات الجيش التركي

---

١ — المرجع السابق ص ٣٨٨

وقضوا على مقاومته نهائياً ، وارتفع رقم الأسرى إلى عشرات الألوف ، فتعذر على الحملة تأمين تموينهم فأمر فيصل بتحويلهم إلى إدارة الجيش الانكليزي[1] » .

وكان الشريف ناصر وعودة أبو تايه ونوري السعيـــد يقودون الجيش العربي الباسل ، ويخوضون على رأسه المعارك البطولية ، وقد استطاعوا ان يكتبوا على مشارف دمشق نهاية الجيش التركي الرابـع .

---

١ – ذكرياتي عن الثورة العربية ص ٧٢

الفصل الخامس عشر

غروب الحكم العثماني في البلاد العربية

كانت دمشق الهدف الرئيسي لمعركة البلاد العربية ، فهي بالنسبة للحلفاء قاعدة القوات التركية في هذه المنطقة الحربيـــة المترامية ، وهي بالنسبة للعرب قلب العروبة ، ومبعث الفكرة القومية ، ومنطلق الحركة التحررية ، ومطلع الفجر الذي يتطلع اليه الملايين في كل بلد عربي .

وكان الأمير فيصل قد انتقل إلى درعا في أواخر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨ (١٣٣٧ ه) ، فتابع أفراد الجيش العربي ملاحقة الجيوش التركية في الليـــل والنهار ، بين درعا والجبل المانع ، بعد ان انضم اليهم عرب الرولة وعرب عنزة وجمهور من الدروز ، وظلوا يقتلون ويأسرون بالمئات والألوف ، حتى انتهوا من تمزيق الجيش الرابع التركي ، ونهب المواطنون خزينة هذا الجيش وكانت تملأ مركبتين من القطار بين دمر والشادروان ، فكانت نهايته ومقبرته في ذلك الجبل المطل على دمشق التي شهدت إعدام الأحرار العرب من قبل جمال باشا قائد هـــذا الجيش ، وشعر كل عربي انه صاحب هذا النصر العظيم .

وكان الأتراك قبل تحرير مدينة دمشق ، قد عقدوا مجلساً حربياً حضره قادة

الجيش من الترك والألمان والنمساويين والمجريين ورجال الشورى الحربي ، فاقترح بعض أعضاء المجلس نسف جميع المؤسسات الحكومية في دمشق ، وقيل نسف المدينة بكاملها ، وكان الألمان قد أعدوا العدة لذلك ، إلا ان القائد النمسوي أقنع زملاءه بأن هذا عمل غير معقول ، وكان جمال باشا المرسيني المعروف بجمال باشا الصغير من رأي القائد النمسوي فعاضده ، ثم غادر دمشق على سيارته إلى رياق ضحوة يوم ٣٠ ايلول (سبتمبر) فكان آخر قائد تركي خرج من عاصمة سورية بعد ان حكمها الأتراك أربعمائة وأربع عشرة سنة [١] .

وقد وصف الماريشال ليمان فون ساندرس القائد العام للجيوش التركية في البلاد العربية ، في مذكراته ، الوضع الذي ساد سورية في تلك الأيام العصيبة ، فقال :

« وفي يوم ٢٤ سبتمبر سنة ١٩١٨ علمت ان جموعاً عربية غفيرة تجمعت في شرق الشام وجنوبها . وكانت حالة الشام الأدبية – وقد تحولت تحولاً مريعاً – تبعث على الحذر والخوف ، فقد كثر توارد رجال القبائل المسلحين إلى دمشق وكانوا يتجولون في أسواقها ويطلقون الرصاص إعراباً عن فرحهم وسرورهم ، وكان الدمشقيون يتهافتون علناً على قراءة منشورات الطيارات الانكليزية وكانت تلقيها بكثرة ، فتزداد بذلك الدعوة العربية انتشاراً . وبدأت الفوضى تسري إلى جميع فروع الأعمال ، كما كثر ورود جواسيس فيصل ورجاله وكانوا يدعون الناس إلى الثورة والانتقاض . واتصل بي ان كثيراً من أهل دمشق هيأوا العلم العربي في دورهم استعداداً لإعلانه ، وقد رفع على دمشق يوم ٢٩ سبتمبر ، وأطلق بعضهم الرصاص على قوافل الجيش فأوقفها ونهبها ، كما أطلق الرصاص على آخر قوة تركية مرت في أسواق دمشق ، وغادر آخر جندي تركي محطة القدم مساء ٣٠ سبتمبر سنة ١٩١٨ ، بعد ان خسر الترك كثيراً من جنودهم في تلك المحطة وفي الطريق لأن السكان كانوا يهاجمونهم [٢] » .

---

١ – خطط الشام ج ٣ ص ١٥٦
٢ – الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٢٦٨

أما اللورد اللنبي قائد الحملة البريطانية فقال في التقرير الذي أرسله في ٢٨ تموز (يوليه) ١٩١٨ (١٣٣٧ هـ) إلى وزارة الحربية البريطانية عن أعمال الجيش العربي: « أشكر لجلالة الحسين بن علي ملك الحجاز إخلاصه العظيم لقضية الحلفاء. ولا أملك نفسي عن توجيه عاطر الثناء إلى سمو الأمير فيصل لما أظهره من براعة في القيادة، وعلى إخلاصه القلبي، وعلى ما أبداه من بسالة ومهارة في الأعمال العسكرية التي قام بها الجيش العربي، وقد ساعدت الحلفاء مساعدة كبيرة في الحصول على نتائج فاصلة في الحرب». ثم قال في التقرير الختامي الذي رفعه في شهر تشرين الأول (أكتوبر) عن سير الحرب: « وقد ساعدنا الجيش العربي مساعدة عظيمة القيمة بقطع مواصلات العدو قبل القتال، وبمعاونته لفرساننا في أثناء الزحف على دمشق، فقد رابط على الطريق الذي تقهقر منه العدو شمالي درعا، فحال دون فرار جانب من الجيش العثماني الرابع وأنزل بالعدو خسائر كبيرة[1] ».

وإلى هاتين الشهادتين لقائد ألماني وقائد بريطاني، نضيف شهادة قائد فرنسي هو الجنرال مورداك مـــدير الغرفة العسكرية للرئيس كليمنصو الذي قال في وصف الأمير فيصل لمناسبة منحه وسام الصليب الحربي وشارة سعف النخل في ٤ شباط (فبراير) سنة ١٩١٩ (١٣٣٨ هـ) : « انه أمير يشار اليه بالبنان، مملوء من الحمية والنخوة، أيد بعزم وطيد قضية أبيه جلالة ملك الحجاز منذ سنة ١٩١٦ ليخلع النير التركي ويساعد الحلفاء، وكان ملازماً لجنوده، ونظم عدة هجمات حربية مهمة على سكة دمشق - المدينة وقاد فيها الجنود بنفسه، واحتل العقبة والوجه من شهر آب (اغسطس) سنة ١٩١٧ إلى شهر ايلول (سبتمبر) سنة ١٩١٨، وهجم هجمات كثيرة في الجهات الجنوبية والشمالية من معان، واستولى على عدة محطات، وأسر عدداً كبيراً من الأسرى، واشترك في تمزيق شمل الجيش الرابع والجيش السابع والجيش الثاني والجيش الثامن من العثمانيين بقطعه مواصلاتها في شمالي درعا وجنوبها وغربها، ثم دخل مع جنود الحلفاء دمشق وحلب بعد أن فعل فعـــالاً تدل على

١ - المرجع السابق ج ١ ص ٢٧٠

منتهى الجرأة والاقدام[1] » .

وكان قادة جمعية «العربية الفتاة» في جيش الأمير فيصل، قد اتفقوا مع رضا باشا الركابي وشكري باشا الأيوبي على تشكيل حكومة عربية في دمشق دون انتظار دخول الجيش العربي اليها ، بعد ان عجزت القوى التركية عن المقاومة ، إلا ان رضا باشا لم يكن في دمشق إذ عينته القيادة التركية قائداً عاماً للاستحكامات التي فكرت في إقامتها حول المدينة للدفاع عنها ، فاضطلع شكري باشا الأيوبي بذلك ورفع العلم العربي على دار الحكومة في أصيل ٣٠ ايلول (سبتمبر) ، وكان شكري باشا طيب القلب فأشرك معه الأمير سعيد وأخاه عبد القادر وقبل تقدمها عليه ، كما أشرك بديع المؤيد وفارس الخوري[2] .

وقد أرسل سعيد الجزائري إلى عمر الداعوق رئيس بلدية بيروت برقية جاء فيها : « بناء على انسحاب الحكومة التركية فقد أسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف ، طمئنوا الجميع واعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية » . واجتمع وجهاء بيروت وكان بينهم جماعة من عائلات بيهم وطراد وسرسق وسلام

---

١ ـ يلاحظ أن هذا الاطراء ينطوي ضمنا على التقليل من أهمية الاعمال العسكرية التي قام بها الجيش العربي في الحرب مع الدولة التركية ، وهذه هي في الواقع وجهة النظر الرسمية الفرنسية وقد أعرب عنها جان بيشون بصراحة جارحة . أنظر :
Le partage du Proche-Orient p. 145

٢ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٧٣ ، وقد روى الامير سعيد قصة طريفة لهذا العلم مفادها ان شقيقه الامير عبد القادر كان قد هرب من بورسه وهو المنفى الذي أرسل اليه أفراد أسرة الامير جميعا ، واستطاع الوصول الى مكة في أوائل عهد الثورة، وكان موسم الحج مزدحما بالحجاج من جميع أنحاء العالم الاسلامي ، فاخرج الحسين علما وصلى عليه أربعون ألف مسلم من الحجاج ، وطاف بالعلم سبع مرات حول الكعبة ، ثم سلمه الى الامير عبد القادر ليرفعه على سراي دمشق . ثم عفت الدولة العثمانية عن الامير عبد القادر فعاد الى دمشق ومعه العلم العربي وقد رفع على سراي دمشق عندما حان الوقت (أنظر جهاد نصف قرن ص ٧٩) اما لورنس فيروي ان الامير عبد القادر قد التحق بالثورة فجأة ، ثم تخلى عنها فجاة (اعمدة الحكمة السبعة ص ٢٦٠) وينسب اليه اعمالا شبه جنونية ، بل انه لا يتردد في نعته بالجنون (المرجع السابق ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨) .

والطيارة ، فألفوا حكومة عربيـــة موقتة برئاسة عمر الداعوق . وأسندت إدارة الأمن العام إلى أحمد مختار بيهم يعاونه كل من سليم طيارة وجان فريج ، وعين محمد فاخوري ويوسف عودة لإدارة المؤسسات الخيرية ، وحسن قرنفل ونسيم مطر لإدارة الأعاشة .

وفي أول تشرين الأول (اكتوبر) دخل الجيش العربي دمشق ، وعلى رأسه الشريف ناصر . فاستغرب قادته ان يترأس الأمير سعيد الحكومة لأنه وشقيقه لم يكونا من أنصار الثورة العربية ، وطلبوا من الأمير سعيد التزام داره .

وفي الثالث من تشرين الأول وصل الأمير فيصل إلى دمشق ، فاستقبل فيها استقبالاً لم تر المدينة شبيهاً له منذ قرون ، وقد تجدد هذا الاستقبال الحافل في كل مدينة سورية دخلها ، لأن الأمير العربي البطل كان قد أصبح في نظر العرب رمز النضال القومي ضد المستعمرين ورمز الحرية التي ينشدون . وقد ترجل الأمير من سيارته عند أبواب دمشق ، ثم امتطى صهوة جواد أصيل وسار في موكب حافل أحاط به حوالي ألف وخمسمائة فارس من رجـــاله في أيديهم سيوفهم ورماحهم وبنادقهم ، وسار شباب دمشق بين يديه فرقاً تهزج الأهازيج الحماسية ، واخترق هذا الموكب العظيم دمشق من شمالها إلى جنوبها ، وكانت النساء تزغرد وتنثر عليه الأزهار من الشرفات واسطحة المنازل . وقد نزل الأمير في دار محمود البارودي .

ثم وصل الجنرال اللنبي مع الحملة البريطانية التي كانت تزحف على الفيحاء عن طريق جسر بنات يعقوب ـــ القنيطرة ، وقد سميت « الحملة المصريـــة » زيادة في التقرب من العرب والتودد لهم . فالتقى الجنرال بالأمير فيصل « وسلمه برقية صادرة عن وزارة الخارجية البريطانية تعترف فيها للعرب بصفة المحاربين [1] » .

وأسند الأمير فيصل في الخامس من تشرين الأول (اكتوبر) رئاسة الحكومة إلى رضا باشا الركابي في بلاغ قال فيه انه ألف حكومة دستورية عربيـــة مستقلة استقلالاً تاماً باسم الملك حسين ، يشمل نفوذها سائر البلاد السورية ، وان هذه

---

١ ـــ محاضرات عن الاستعمار ج ٢ ص ٧٦

الحكومة سيكون دأبها العدل والمساواة ، فهي لا تفرق في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ، وناشد المواطنين أن يكونوا يداً واحدة ومثالاً حسناً حتى يثبت للعالم أجمع انهم أهل للاستقلال وحكم أنفسهم بأنفسهم .

وقد منح رضا الركابي صلاحيات الحاكم العسكري العام وتولى نوري السعيد قيادة الجيش،وجميل المدفعي إدارة الأمن العام،ومحمد علي التميمي مديرية الشرطة، وزكي العظمة قيادة موقع دمشق ، وكانت هيئة جمعية « الفتاة » تجتمع خلال ذلك بانتظام ، وتقرر الخطة التي يجب اتباعها ، وتعطي رأيها في جميع الأمور المهمة ، وتنفذها بوساطة الأمير فيصل ورضا الركابي وهما من أعضائها [١] .

وفي ٦ تشرين الأول عين الأمير شكري الأيوبي حاكماً للساحل السوري ، فانتقل إلى بيروت مع معاونه رفيق التميمي ورئيس أركان حربه جميل الألشي ، تحف به شرذمة من الفرسان ، واحتل دار الحكومة، وأعلن انضمام العاصمة اللبنانية إلى أسرة الحكومة العربية ، ثم رفع العلم العربي على السراي الصغير باحتفال مهيب ، وكانت فاطمة المحمصاني شقيقة الشهيدين محمد ومحمود هي التي رفعت العلم بيدها تكريماً لذكرى الشهداء الأبرار ، وألقيت في الاحتفال كلمات وطنية حماسية من قبل الشيخ مصطفى نجا والمطران جراسيموس مسرة والشيخ مصطفى الغلاييني والخوري يوسف اسطفان . ثم انتقل شكري باشا إلى لبنان وأعلن في بعبدا باسم الأمير فيصل إعادة امتيازاته التي ألغاها الأتراك إلى سابق عهدها ، وعين حبيب باشا السعد متصرفاً على لبنان بعد ان أقسم يمين الطاعة للملك حسين [٢] .

إلا ان فرنسة ما لبثت ان احتجت على ذلك احتجاجاً شديـــداً ، وأسرعت فأنزلت في لبنان في الثامن من تشرين الأول ١٩١٨ قوة عسكرية كانت قد أعدتها لهذا الغرض، وكانت القوى البريطانية هي التي تحتل لبنان، فأيدت القيادة البريطانية

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٧٧

٢ ـ عشت وشاهدت ص ١٨

ذلك ، وطلبت من شكري باشا الأيوبي مغادرة بيروت ، وأصدر الجنرال اللنبي في التاسع من تشرين الأول قراراً بتعيين الكولونيل الفرنسي دي بيابات « حاكماً على المنطقة الغربية من بلاد العدو المحتلة بالنيابة عن الحلفاء » كما أصدر أمره بإنزال العلم العربي عن دار الحكومة فأنزل في احتفال كئيب دون ان يرفع مكانه علم آخر . وفسرت هذه الاجراءات بأنها تدابير عسكرية موقتة ريثما يبت في مصير البلاد بعد انتهاء الحرب .

ولم تكن مهمة الجيش العربي قد انتهت بتحريره دمشق ، فاتجه منها إلى الشمال لمطاردة فلول الجيش التركي ، ودخل الشريف ناصر وعلي جودة الأيوبي حمص في الرابع عشر من تشرين الأول (اكتوبر) ، وفي اليوم السادس عشر دخلا حماة . واشترك العرب مع الجيش الانكليزي في قتال الأتراك في معرة النعمان وفي خان السبيل فأجلوهم عنها .

وفي الخامس والعشرين من تشرين الأول دخل نوري السعيد حلب ، واشترك في اليوم التالي في مطاردة الأتراك حتى سلمية شمالي حلب، وكان ليمان فون ساندرس قد استقال من القيادة العامة فعهد بها إلى مصطفى كمال ، وحاول هذا ان يقيم خطاً دفاعياً جديداً في حلب ، إلا ان الأمور كانت قد خرجت من يده وبات من العسير إنهاض معنويات الجيش التركي من جديد بعد ان رأى المواطنين جميعاً يتألبون عليه ويطاردونه ويهاجمونه في كل مكان ، فانسحب القائد الجديد ببقايا ذلك الجيش إلى سلمية .

وانهار الجيش التركي بعد ذلك انهياراً تاماً ، فعرض الهدنة على الحلفاء، فوافقوا على ذلك ، وعقدت الهدنة بين الفريقين في الثلاثين من تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٨ ، وكان هذا التاريخ نهاية حكم الأتراك عن البلاد العربية ، ولم يبق لهم فيها يومئذ سوى حـــامية المدينة التي كان يحاصرها الأمير علي والأمير عبد الله ، فاضطرت إلى الاستسلام في أوائل سنة ١٩١٩ (١٣٣٨ ﻫ) ، وزاد مجموع أسراها على ٦٠٠ ضابط وعشرة آلاف جندي ، عدا حاميات المحطات بين المدينة ومعـان وكان عدد جنودها كبيراً .

وكان قائد حامية المدينة فخري باشا قد تلقى أمراً من الباب العالي للاستسلام فلم يذعن له ، والتجأ إلى الروضة الشريفة وهدد بمواصلة الدفاع حتى ولو أدى ذلك إلى هدم قبر الرسول ، إلا ان أركان حربه تغلبوا عليه واضطروه إلى الاستسلام ، فقدم سيفه إلى الأمير عبد الله في احتفـــال مؤثر ، وعومل بكثير من الاحترام إكباراً لبطولته [1] .

وبلغ مجموع الذين أسرهم العرب في الثورة نحو ٣٥٠٠٠ جندي وضابط [2] .

ومما يجب ملاحظته ان الجيش العربي كان دائماً السبّاق في احتلال المدن السورية، وقد خطب القائد مكاندرو في إحـــدى المآدب ، بحضور المستر مارك سايكس والمسيو جورج بيكو ، فقال بعـــد ان أثنى على شمم العرب وذكائهم ونبوغهم وشجاعتهم : « ومما يلفت النظر انهم بفرط بسالتهم ، واقدامهم سبقونا إلى حلب بيوم كامل أربعاً وعشرين ساعة [3] » .

وعلى اثر عقد الهدنة زار الجنرال اللنبي الأمير فيصل في دمشق ، وأطلعه على الخطة التي ستتبع في إدارة البلاد . وتتلخص هذه الخطة في إنشاء حكومة عسكرية عربية يبدأ سلطانها من حدود الحجاز ويضم شرقي الأردن ودمشق وحمص وحماة وحلب ، ويكون على رأسها الأمير فيصل باسم القيادة الحليفة ، وعين الكولونيل كورتواليس ممثلاً للجنرال اللنبي والكولونيل كوس ممثـــلاً للفرنسيين ، كضابطي ارتباط لدى الأمير، لتأمين التفاهم بين الفرقاء الثلاثة. أما الساحل السوري فسيديره باسم الجيش الحليف ضابط فرنسي هو الكولونيل دي باباب،واما الساحل الفلسطيني فسيديره ضابط بريطاني هو الميجر جنرال آرثر مولي .

وعلى الرغم من التأكيدات العديدة التي قطعت للأمير فيصل بأن هذا الوضع موقت ، وسينتهي بعد عقد الصلح وتسوية الأمور المتشابكة بين الحلفاء ، فان

---

(١) ذكريات العجلوني ص ٧٥ ، انظر ايضا « مذكراتي » لعبد الله بن الحسين ص ١٤٤ وما بعدها وفيها تفاصيل غاية في الطرافة والمتعة .

٢ ــ محاضرات في الاستعمار ج ٢ ص ٧٧

٣ ــ خطط الشام ج ٣ ص ١٥٨

الأمير لم يرتح لهـــذه التدابير ، ولم يكتم السلطات البريطانية قلقه من جرائها ، وتأكيده بأن هذا القلق إنما يعكس الحالة النفسية التي يلمسها لدى أقطاب الحركة العربية وأفراد الجيش العربي والمواطنين العرب جميعاً ، ولا سيما بعد إنزال العلم العربي عن دار الحكومة في بيروت وقدوم القوات الفرنسية إلى لبنان ، وفي هذا الوقت نفسه كان الملك حسين يحتج ويهدد بالاستقالة وينذر بنشوب الاضطرابات والثورات في البلاد العربية [1] .

وكان من جراء ذلك أن صدر في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ تصريح انكليزي فرنسي بشكل بلاغ رسمي عن القيادة العـــامة يطمئن أهالي البلاد على مستقبلهم وهذا نصه :

« ان السبب الذي من أجله حاربت فرنسة وانكلترة في الشرق ، تلك الحرب التي أهاجتها مطامع الألمان ، إنما هو لتحرير الشعوب التي رزحت أجيالاً طوالاً تحت مظالم الترك ، تحريراً تاماً نهائياً ، وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختياراً حراً . ولقد أجمعت فرنسة وانكلترة على أن تؤيدا ذلك بأن تشجعا وتعينا على إقامة هذه الحكومات والادارات الوطنية في سورية والعراق ، المنطقتين اللتين أتمّ الحلفاء تحريرهما ، وفي الأراضي التي ما زالوا يجاهدون في تحريرها ، وان تساعد هذه الهيئات وتعترف بها عندما تؤسس فعلاً . وليس من غرض فرنسة وانكلترة ان تنزلا أهالي هـــذه المناطق إلى الحكم الذي تريدانه ، ولكن همهما الوحيد أن يتحقق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة عمل هـــذه الحكومات والادارات التي يختارها الأهلون من ذات أنفسهم ، وأن تضمن لهم عدلاً منزهاً يساوي بين الجميع ، ويسهل عليهم ترقية الأمور الاقتصادية في البلاد ، باحياء مواهب الأهالي الوطنيين وتشجيعهم على نشر العلم ، ووضع حد للتخلف القديم الذي قضت به السياسة التركية. تلك هي الأغراض التي ترمي اليها الحكومتان المتحالفتان

---

١ ـ انظر نص رسالة الحسين الى نائب الملك بمصر في الثورة العربية الكبرى ج ١ ص ٣١٥

في هذه الأقطار المحررة [1] » .

وأعاد هذا التصريح المشترك الاطمئنان من جديد إلى نفوس العرب ، فرحل الأمير فيصل إلى حلب فاستقبلته استقبالاً عظيماً وألقى فيها خطاباً كبيراً هو أول خطبه السياسية ، وقد لوحظ في خطـــابه تعريض شديد بالأتراك ، وبالخطة التي اتبعوها إزاء العرب ، وفتكهم بالأحرار الشهداء ، وعلق بعض الساسة السوريين على هذا التعريض الذي لم يصدر مثله في بقية المدن السورية ، بأنه جواب لما كان يأمله الأتراك من مناصرة الحلبيين لهم لدى انسحابهم ، استناداً لصلة القربى مع بعض الأسر البارزة في حلب ، ولوجود أقليات تركية في بعض أقضيتها الواقعـــة على الحدود [2] . ومما جاء في هذا الخطاب :

« أيها الاخوان ، اننا اليوم في موقف حرج، فالأمم المتمدنة وحلفاؤنا ينظرون الينا بنظر الاعجاب والتقدير، وأعداؤنا يرمقوننا بعين الانتقاد . ولقد خرج الأتراك من بلادنا ونحن الآن كالطفل الصغير ، لا حكومة ولا جند ولا معارف ، والسواد الأعظم من الشعب لا يفقهون معنى الوطنية والحريـــة ، ولا ما هو الاستقلال ، وذلك نتيجة ضغط الأتراك على عقول وأفكار العامة ، فلذا يجب أن نفهّم هؤلاء الناس قدر نعمة الاستقلال ، ونسعى ان كنا أبناء أجدادنا لنشر لواء العلم ، لأن الأمم لا تعيش إلا بالعلم والنظام والمساواة ، وبذلك نحقق آمال حلفائنا . .

« وأحض اخواني العرب على اختلاف مذاهبهم بالتمسك بأهداب الوحـــدة والاتفاق ونشر العلوم ، وتشكيل حكومة نبيض بها وجوهنا ، لأننا إذا فعلنا كما فعل الأتراك نخرج من البلاد كما خرجوا ، لا سمح الله ، وان فعلنا ما يقضي بــه الواجب يسجل التاريخ أعمالنا بمداد الفخر .

« انني أقل الناس قدراً وأدناهم علماً ، لا مزية لي إلا الإخلاص ، وانني أكرر هنا ما قلته في جميع مواقفي بأن العرب هم عرب قبل موسى وعيسى ومحمد ، وان

---

١ ــ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٨٣ ، العهود المتعلقة بالوطن العربي ص ٧٨، يوم ميسلون ص ٢١٣ ، انظر أيضا الثورة العربية الكبرى ــ وثائق واسانيد ص ١١٠.

٢ ــ سورية والعهد الفيصلي ص ٢٤

الديانات تأمر كلها باتباع الحـــق والأخوة ، فمن يسعى لإيقاع شقاق بين المسلم والمسيحي والموسوي فما هو بعربي [1] » .

وبينما كان الأمير في حلب ، تلقى برقية من والده بضرورة السفر إلى فرنسة لحضور مؤتمر الصلح في فرساي ، فبادر بالسفر لحضور ذلك المؤتمر التاريخي نائباً عن الملك حسين ومندوباً عن البلاد العربية .

وكان كل شيء يدعو إلى الغبطة والتفاؤل ، فقد حققت الثورة العربية أهدافها، وحررت البلاد العربية من براثن الأتراك ، ووفى العرب بعهودهم على أحسن وجه، وباتوا ينتظرون تحقيق المواثيق التي أعطيت لهم بسخاء ، وتأليف الدولة العربيـــة المستقلة الموحدة التي حلموا بها وكافحوا من أجلهـــا ، مطمئنين إلى عدالة قضيتهم ، وشرف حلفائهم ، والوعود التي طالما صدرت عن هؤلاء تأكيداً لانتصارهم للشعوب المضطهدة ونضالهم في سبيل حريتها وحقها في تقرير المصير .

---

١ ـ انظر النص الكامل لهذا الخطاب في نهر الذهب من تاريخ حلب ج ٣ ص ٦٦٢

الفصل السادس عشر

ألاعيب السياسة البريطانية

كانت بريطانية تهدم بيد ما تبنيه بالأخرى ، إذ بينما كان السير مكماهون يدغدغ آمال الشريف القومية ، متعهداً له باسم حكومته ، بإنشاء الدولة العربية الكبرى، بكامل وحدتها واستقلالها ، كان الساسة البريطانيون يفاوضون حلفاءهم الفرنسيين على اقتسام البلاد العثمانية ، دون أن ينسوا حصة القيصرية الروسية من تركة الرجل المريض [1] . وقد أدت تلك المفاوضات إلى عقد معاهدة سرية في سان بطرسبورغ (لينينغراد) في الرابع من آذار (مارس) سنة ١٩١٦ (١٣٣٥ هـ) ، وهذا نص المواد الخاصة منها بالحدود :

المادة الأولى — تتعهد فرنسة وبريطانية العظمى وروسية فيما بينها ان تعمل يداً واحدة في سبيل انقاذ البلاد العربية ، وحمايتها ، وتأليف حكومة إسلامية مستقلة فيها ، تتولى بريطانية مراقبتها وادارتها .

المادة الثانية — تتعهد الدول المتعاقدة بحماية الحج وتسهيل سائر السبل المؤدية

---

١ — انظر تفاصيل المفاوضات بين فرنسة وبريطانية وروسية لاقتسام تركة الرجل المريض في كتاب :

Le partage du Proche-Orient

إلى مرور الحجاج وعدم الاعتداء عليهم .

المادة الثالثة – تقسم البلاد العثمانية إلى مناطق نفوذ بين الدول المتعاقدة على الوجه التالي :

أولاً تضم إلى روسية المناطق التالية :

أ – ولايتا أرضروم وبتليس والمناطق التابعة لهما .

ب – الأراضي الكائنة جنوبي كرد ستان ، وتمتد على خط من ولاية موش إلى سعرد ، ومن هناك تنحدر إلى جزيرة ابن عمر ، ثم تتبع خطاً مستقيماً إلى العمادية ، ومنها إلى الحدود الايرانية .

ج – تتجه نقطة الحدود هذه من موش شمالاً إلى البحر الأسود فتدخل طرابزون في سمتها .

د – تنتهي نقطة حدود روسية على البحر الأسود شرقي طرابزون في منطقة تحدد فيما بعد .

هـ – تخضع هذه الأراضي خضوعاً تاماً إلى حكومة صاحب الجلالة قيصر روسية وتعتبر من ممتلكاته .

ثانياً – تضم إلى منطقة نفوذ فرنسة المناطق التالية :

أ – السواحل السورية ، وتبدأ هذه السواحل من حدود الناقورة مارة بصور وصيدا فبيروت فطرابلس واللاذقية ، وتنتهي إلى الاسكندرونة .

ب – تضم المناطق الساحلية جميعها إلى فرنسة ، مع الجبل اللبناني المعروفة حدوده بموجب الاتفاق الدولي .

ج – تضم جزيرة ارواد والمناطق المجاورة لها والجزر الصغيرة القائمة على الساحل المعرّف عنه في الفقرة السابقة .

د – تضم ولاية كليكيا إلى النفوذ الفرنسي ، وتبدأ حدود هذا الخط من جهة الجنوب من الحدود الخاضعة إلى النفوذ الروسي في جزيرة ابن عمر ثم تنحدر شمالاً من الاطاغ – قيصري راق طاغ – يلديز طاغ – زرعه – اكين – خربوط .

هـ – تظل هذه المنطقة خاضعة تمام الخضوع للنفوذ الفرنسي .

ثالثاً ــ تؤلف منطقة النفوذ البريطاني من المناطق التالية :

أ ــ تضم المنطقة الممتدة من الحدود الروسية والافرنسية في الخطين المذكورين إلى النفوذ البريطاني ، وهذه المنطقة تضم القطر العراقي مع مدينة بغداد .

ب ــ السواحل الممتدة من الحدود المصرية إلى حيفا فعكا حيث تتصل بحدود نفوذ فرنسة .

ج ــ تضم المنطقة الممتدة من خليج فارس إلى آخر البحر الأحمر إلى نفوذ بريطانية المطلق .

د ــ تؤلف الحكومات العربيـــة ، عملاً بالمادة الآتية ، من سكان المناطق المسكونة بالعرب على ان تكون هذه الحكومات حائزة على السيادة والاستقلال اللازمين لها واللذين يعينان فيما بعد بالاتفاق بين الحكومات المتحالفة .

المادة الرابعة ــ تتألف في المنطقة الكائنة بين منطقتي النفوذ الفرنسي والبريطاني دولة أو حلف دول عربية مستقلة وفقاً لاتفاق خاص بين فرنسة وانكلترة ، على ان تحدد حدود هذه الدولة حين عقد هذا الاتفاق .

المادة الخامسة ــ يكون ميناء اسكندرونة دولياً وتعلن حريته .

المادة السادسة ــ تعتبر فلسطين وأماكنها المقدسة منطقة خارجة عن الأراضي التركية على ان توضع تحت ادارة خاصة وفقاً لاتفاق يعقد بين انكلترة وفرنسة وروسية بهذا الشأن وتحدد مناطق نفوذ المتعاهدين ومصالحهم [1] .

ثم اتفق الانكليز والفرنسيون على إجراء مفاوضات أخرى فيما بينهم لاقتسام مناطق النفوذ بصورة مفصلة في الحصة التي تخصصها لهم معاهدة بطرسبورغ ، وقد عرفت هذه المعاهدة الجديدة باسم معاهدة سايكس بيكو نسبة إلى السر مارك سايكس والمسيو جورج بيكو الطرفين المتفاوضين في هذا الموضوع ، وقد أباحا لنفسيهما تمزيق البلاد العربية حسب رغبات كل منهما ، ولوّنا الخارطة العربية بأشتات

---

١ ــ انظر النص الكامل لهذه المعاهدة في « الثورة العربيــة الكبــرى » ج١ ص ١٨٥ ، والعهود المتعلقة بالوطن العربي ص ٦٧

الألوان بينا كان المناضلون العرب يصبغونها بلون النجيع في سبيل حريتهم واستقلالهم ووحدتهم .

وننشر في ما يلي المواد الخاصة بالحدود في هذا الاتفاق الفاجع :

المادة الأولى – ان فرنسة وبريطانية العظمى مستعدتان ان تعترفا وتحميا دولة عربية مستقلة أو حلف دول عربية ، تحت رئاسة رئيس عربي في داخلية سورية وداخلية العراق ، المبينتين في الخريطة الملحقة بهذا ، ويكون لفرنسة في المنطقة الأولى ولانكلترة في المنطقة الثانية حق الأولية في المشروعات والقروض المحلية ، وتنفرد فرنسة في المنطقة الأولى وانكلترة في المنطقة الثانية بتقديم المستشارين والموظفين الأجانب ، بناء على طلب الحكومة العربية أو حلف الحكومات العربية .

المادة الثانية – يباح لفرنسة في شقة سورية الساحلية ، ولانكلترة في شقة العراق الساحلية من بغداد حتى خليج فارس ، إنشاء ما ترغبان فيه من شكل الحكم مباشرة أو بالوساطة ، أو من المراقبة ، بعد الاتفاق مع الحكومة أو حلف الحكومات العربية .

المادة الثالثة – تنشأ ادارة دولية في فلسطين ، يعين شكلها بعد استشارة روسية وبالاتفاق مع بقية الحلفاء وممثلي شريف مكة .

المادة الرابعة – تنال انكلترة ما يأتي :

١ – ميناء حيفا وعكا .

٢ – تتعهد حكومة جلالة الملك من جهتها بأن لا تدخل في مفاوضات مع دولة أخرى للتنازل عن قبرص إلا بعد موافقة الحكومة الفرنسية مقدماً .

المادة الخامسة – تكون اسكندرونة ميناء حراً لتجارة الامبراطورية البريطانية ، وتكون حيفا ميناء حراً لتجارة فرنسة ومستعمراتها والبلاد الواقعة تحت حمايتها .

المادة التاسعة – من المتفق عليه ان الحكومة الفرنسية لا تجري مفاوضة في أي وقت كان للتنازل عن حقها ، ولا تعطي ما لها من الحقوق في المنطقة الزرقاء (أي شقة سورية الساحلية) لدولة أخرى سوى للدولة العربية أو حلف الدول العربية بدون ان توافق على ذلك سلفاً حكومة جلالة الملك ، التي تتعهد للحكومة

الفرنسية بمثل هذا في ما يتعلق بالمنطقة الحمراء (العراق) .

المادة العاشرة – تتفق الحكومتان الانكليزية والفرنسية بصفتها حاميتين للدولة العربية على ان لا تمتلكا ولا تسمحا لدولة ثالثة ان تمتلك أقطاراً في شبه جزيرة العرب أو تنشىء قاعدة بحرية في الجزائر على سائر البحر الأبيض الشرقي . على ان هذا لا يمنع تصحيحاً فيحدود عدن قد يصبح ضرورياً بسببعداء الترك الأخير.

المادة الحادية عشرة – تستمر المفاوضات مع العرب باسم الحكومتين بالطرق السابقة نفسها لتعين حدود الدولة أو حلف الدول العربية [١] .

ولما تسربت أنباء المعاهدتين السريتين إلى إيطالية ، احتجت عليها وطالبت بحصتها من الميراث العثماني ، وعلى اثر ذلك جرت مفاوضات جديدة أدت إلى توقيع ملحق « سونينو » في شباط سنة ١٩١٧ (١٣٣٦ ﻫ) اعترف الحلفاء بموجبه بحق ايطالية في احتلال جنوب غرب الأناضول ، وبإشراكها في الادارة الدولية لفلسطين [٢] .

وقد أجمع المؤرخون على ان هذا المسلك البريطاني لا مثيل له في الحنث بالوعود، لأن بريطانية عقدت هذه المعاهدات أو الاتفاقات التي تتعلق بمصير البلاد العربية ، دون أن تطلع عليها الملك حسين الذي كان يمثل هذه البلاد ، والذي اتفقت معه على شروط تختلف عن بنودها كل الاختلاف ، وتناقض العهود التي قطعت للعرب ، تلك العهود الكواذب التي كانت بمثابة القفاز الأبيض تتوارى فيه اليد الملطخة بالدم.

---

١ انظر النص الكامل لاتفاق سايكس بيكو في « الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين » ، المجموعة الاولى ص ٨٤ ، والعهود المتعلقة بالوطن العربي ص ٦٧ .

٢ – شعر الانكليز بعد انتهاء الحرب بان اتفاق سايكس بيكو لم يعد في مصلحتهم ولا يتفق مع الاوضاع الجديدة التي نشأت في الشرق الادنى ، فأخذوا يهددون بالغائه بحجة ان معاهدة بطرسبورغ تعتبر لاغية بعد ان انهارت القيصرية في روسية . وبعد مباحثات طويلة بين لويد جورج وكليمنصو أدرك هذا ان انكلترة لن تعترف بالاتفاق الا اذا أدخلت عليه تعديلا لمصلحتها ، وكان هذا التعديل يرمي الى اخراج الموصل من منطقة النفوذ الفرنسي وانفراد انكلترة بالاشراف على فلسطين . وقد اضطرت فرنسة الى الموافقة على ذلك مقابل اعطائها جزءا من نفط الموصل واطلاق يدها في سورية بعد نقل دير الزور اليها من العراق .

ولما كانت نفقات الحرب قد أثقلت كاهـل الدولة البريطانية ، وهي تعرف مكامن المال الخبيء ، فقد التفت الساسة الانكليز شطر الصهيونية العـالمية الممثلة باللورد روتشيلد بالاضافة إلى دوافع سياسية واستعمارية ليس هنا مجال التوسع فيها ، فكتب اليه اللورد بلفور وزير الخارجية البريطانية ، في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩١٧ (١٣٣٣ هـ) ، واعـدا إياه باسم حكومة صاحب الجلالة ، بصفاقة لا مثيل لها ، بإنشاء دولة صهيونية في فلسطين ، وكأنه يهبه مزرعة من مزارعه . وإلى القارىء نص ذلك الكتاب المتضمن هذا الوعد المشؤوم :

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على أن يفهم جلياً انه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن في فلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى [1] » .

وقد ظلت معـاهدة بطرسبورغ واتفاق سايكس بيكو طي الخفاء ، حتى أذاعتها الحكومة البلشفية في روسية في عداد الوثائق القيصرية التي أذاعتها حكومة الثورة لمصلحة المانية التي كان لها يد كبرى في عودة لينين إلى روسية من منفاه ، بعد ان تعهد لها بأن يعمل جاهداً لإيقاف الحرب وإخراج الدولة الروسية من صف الحلفاء ، والتخلي لألمانيا عن قسم كبير من أراضي بلاده [2] .

وأرادت تركية ان تستغل الموقف فأرسلت نصوص تلك الوثائق إلى الملك حسين بوساطة جمال باشا الصغير والي سورية وقائد الجيش الرابع لحمله على عقد الصلح بين العرب والترك ، فتولى الملك الغضب والاستنكار ، وأرسل إلى السير ريجنالد ونجت الذي خلف مكماهون في مصر ، يسأله عن حقيقة المعاهدة ، فحار ونجت في أمره ، وكتب إلى وزارة الخارجية البريطانية يستشيرها في الجواب الذي

---

١ ـ انظر الترجمة العربية لتقرير اللجنة الملكية لفلسطين ، والوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ـ المجموعة الاولى ، ص ٨٧ ، والعهود المتعلقة بالوطن العربي ص ٧٩

٢ ـ انظر « لينين » لقدري قلعجي ص ١٧٤ ـ ١٧٦

ينبغي له أن يوجه إلى الملك حسين ، وبدلاً من ان تنصح حكومة صاحب الجلالة بسلوك موقف الصدق والشرف ، نصحت بالمراوغة والرياء ، فكتب ونجت إلى الملك حسين ان ما قاله جمال باشا ليس إلا ضرباً من ضروب الوقيعة بين العرب والحلفاء ، وكان هذا الجواب يعني ان معاهدة بطرسبورغ واتفاق سايكس بيكو لا وجود لهما إلا في مخيلة الخصوم المغرضين ، وهذا نص الخطاب :

« ان البولشفيك لم يجدوا في وزارة الخارجية في بتروغراد معاهدة معقودة ، بل محاورات ومحادثات موقتة بين انكلترة وفرنسة وروسية في أوائل الحرب لمنع المصاعب بين الدول أثناء مواصلة القتال ضد الترك ، وذلك قبل النهضة العربية ، وان جمال باشا اما من الجهل أو الخبث غيّر في مقصدها الأساسي وأهمل شروطها القاضية لضرورة رضى الأهالي وحماية مصالحهم . وقد تجاهل ما وقع بعد ذلك من أن قيام الحركة العربية ونجاحها الباهر وانسحاب روسية قد أوجد حالة اخرى تختلف عما كانت عليه بالكلية منذ أمد مضى [1] » .

ولا تخرج عن هذا المعنى وهذه المواربة ، المذكرة التي وجهتها الحكومة البريطانية إلى ملك الحجاز بوساطة معتمدها في جدة ، وقد جاء فيها :

« ان الرغبة والصراحة التامة التي اتخذتموها جلالتكم بإرسال الكتب التي أرسلها القائد التركي في سورية إلى سمو الأمير فيصل ، إلى جناب نائب جلالة الملك ، كان لها أعظم التأثير الحسن لدى حكومة جلالة ملك بريطانية العظمى ، وان الاجراءات التي اتخذتموها جلالتكم في هذا الصدد لم تكن إلا رمزاً يعبر عن تلك الصداقة التي كانت دائماً شاهد العلاقة بين كل من الحكومة الحجازية وحكومة جلالة ملك بريطانية العظمى .

« ومما لا يحتاج إلى دليل ان السياسة التي تنسج عليها تركية ، هي إيجاد الارتياب بأن توسوس للعرب أن دول الحلفاء يرغبون في الأراضي العربية وتلقي بأذهان دول الحلفاء أنه يمكن إرجاع العرب عن مقصدهم ، ولكن أقوال الدساسين لن

---

١ ـ جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٣٥٤

تقوى على إيجاد الشقاق بين الذين اتجهت عقولهم إلى فكر واحد وغرض واحد .

« ان حكومة جلالة ملك بريطانية العظمى وحلفاءها ، ما زالت واقفة موقف الثبات لكل نهضة تؤدي إلى تحرير الأمم المظلومة ، وهي مصممة على ان تقف بجانب الأمم العربية في جهادها حتى تبني عالماً عربياً يسود فيه القانون والشرع بدل الظلم العثماني ، وتجتث التنافس المصطنع الذي أحدثته السلطات الرسمية التركية ، وان حكومة جلالة ملك بريطانية العظمى قد سلكت مسلك سياسة التحرير وتقصد أن تستمر عليه بكل استقامة وتصميم بأن تحفظ العرب الذين تحرروا من السقوط في وهدة الدمار وتساعد العرب الذين لا يزالون تحت نير الظالمين لينالوا حريتهم[1] ».

ولما أعلن وعد بلفور كان له تأثير عميق في الأوساط العربية ، وران الحذر والجمود على قوات الثورة ، وطلب الملك حسين من بريطانية ان تبادر حالاً إلى تفسير هذا الوعد ، مؤكداً أن على هـذا التفسير يتوقف مصير التحالف العربي الانكليزي في الحرب التي تدور رحاها في البلاد العربية ، فأرسلت اليه الكوماندور هوغارت رئيس المكتب العربي في القاهرة في الأسبوع الأول من شهر كانون الثاني (يناير) سنة ١٩١٨ (١٣٣٧ هـ) ، فقابل الملك حسين مرتين وأبلغه رسالة من قبل الحكومة البريطانية تنطوي على تأكيد صريح بأن « الاستيطان اليهودي في فلسطين لن يكون مسموحاً به إلا بقدر ما يتفق مع حرية السكان العرب من الناحيتين السياسية والاقتصادية [2] » .

ويعلق الباحثون أهمية كبرى على هذه الرسالة لأنها ضمنت بوضوح حرية السكان العرب السياسية والاقتصادية [3] . ويقول المؤرخ الانكليزي جورج كيرك في ذلك : « وقد بذلت سلطات الجيش غاية وسعها لإبقاء أمر التصريح سراً مكتوماً عن الطوائف غير اليهودية ، أي عن المسلمين والمسيحيين الذين يتكلمون اللغة العربية

---

١ ـ الثورة العربية الكبرى ج١ ص ٣١٤ ، العهود المتعلقة بالوطن العربي ص ٨٠ ، الثورة العربية الكبرى ، وثائق واسانيد ص ٩٩ .

٢ ـ يقظة العرب ص ٣٧٦ ، الثورة العربية ، وثائق واسانيد ص ١٠٣

٣ ـ العالم العربي ص ١٤١ .

والذين يبلغ تعدادهم يومئذ ٩٠ في المائة من جملة السكان ، غير ان بعض الأنباء عنه وصلت إلى مسامع الشريف حسين ، فبعث إلى بريطانية يستفسر في شيء من الاهتمام عن حقيقة ما حصل ، فأجابت الحكومة على استيضاحه بأن تأييدها للأماني الصهيونية « لا يتجاوز الحدود الكفيلة بحرية السكان الحاليين سواء من الوجهة الاقتصادية أم السياسية » وقد رضي الشريف بهذا الوعد[١] » .

وإلى جانب هذه الرسالة التي أبلغت للملك حسين ، قدّم إلى الحكومة البريطانية سبعة من أقطاب الحركة العربية هم رفيق العظم ومختار الصلح وعبد الرحمن شهبندر وخالد الحكيم وفوزي البكري وحسن حمادة وكامل القصاب ، مذكرة يعربون فيها عن قلق بلادهم من جراء معاهدة سايكس بيكو وتصريح بلفور اللذين يناقضان العهود المقطوعة للعرب ، ورغبتها في معرفة حقيقة نوايا الحكومة البريطانية بشأن مستقبل الوضع السياسي فيها . وقد أجابتهم وزارة الخارجية في ١٦ حزيران (يونيه) سنة ١٩١٨ ، ببيان رسمي تلي عليهم في مقر قيادة الجيش البريطاني في القاهرة وأرسلت نسخة منه إلى الملك حسين . وكان هذا البيان تصريحاً رسمياً علنياً واضح الحدود ، جددت به الحكومة البريطانية عهدها بالمضي في السعي لتحرير البلدان العربية من الحكم العثماني حتى تنال حريتها واستقلالها ، وأضافت اليه عهداً جديداً بأن لا يقوم في أي منطقة من هذه البلدان نظام للحكم بغير رضى الأهلين .

وقد جاء في هذا البيان ان الأراضي العربية التي ورد ذكرها في مذكرة الأقطاب السبعة تنقسم إلى أربعة أقسام أو طبقات :

« ١ – الأراضي التي كانت حرة ومستقلة قبل قيام الحرب .

٢ – أراض حررت من السيطرة التركية بعمل العرب أنفسهم في أثناء الحرب الحاضرة .

٣ – أراض كانت في الماضي تحت الحكم العثماني وتحتلها قوات الحلفاء في الحرب الحاضرة .

---

١ – موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٢٣٣ .

٤ ـ أراض لا تزال تحت السيطرة التركية .

ففيما يتعلق بالطبقتين الأولين [١] ، تعترف حكومة جلالته بالاستقلال التام والسيادة للعرب الذين يقطنون هذه الأراضي، وتؤيدهم في جهادهم في سبيل الحرية.

وفيما يتعلق بالأراضي التي تحتلها قوات الحلفاء [٢] ، تلفت حكومة جلالته نظر أصحاب المذكرة إلى نصوص التصريحات الصادرة من القواد العامين ، عند الاستيلاء على بغداد والقدس . وهذه التصريحات تتضمن سياسة حكومة جلالته بإزاء أهالي هذه الأقاليم . وترغب حكومة جلالته في أن تكون حكومة هذه الأقاليم قائمة على رضا المحكومين . وهذه السياسة ستظل مؤيدة من حكومة جلالته .

وأما فيما يتعلق بالأراضي المذكورة في القسم الرابع [٣] ، فان من رغبة حكومة جلالته أن تفوز الشعوب المظلومة في هذه الأراضي ، بالحرية والاستقلال، ولا تزال حكومة جلالته تعمل على تحقيق هذه الغاية .

وحكومة جلالته تعلم تمام العلم ، مقدار الصعوبات والأخطار التي تحيط بالذين يعملون لاسترداد حرية البلاد المذكورة .

على ان حكومة جلالته ، على الرغم من هذه العقبات ، تثق وتؤمن بإمكان التغلب عليها ، وهي راغبة في تأييد كل من يعملون على تذليلها ، ومستعدة للنظر في أي مشروع للتعاون يتفق مع الأعمال الحربية الحالية وينطبق على المبادىء السياسية التي تسترشد بها حكومة جلالته وحلفاؤها [٤] » .

يقول جورج انطونيوس : « وكان الحسين صريحاً في جوابه فقال لهوغارت :

١ ـ شبه جزيرة العرب والحجاز .

٢ ـ كان الحلفاء يحتلون في ذلك التاريخ القسم الاكبر من العراق والنصف الجنوبي من فلسطين .

٣ ـ الاجزاء التي لم تكن قد تحررت بعد من سورية والعراق .

٤ ـ الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين ـ المجموعة الاولى ، ص ٨٠ ، مؤتمر فلسطين العربي البريطاني ص ٣٧٦ ، ولهذا البيان الذي يؤكد العهود المقطوعة للحسين ، اهمية خاصة لانه صدر بعد اتفاقية سايكس بيكو وبعد وعد بلفور ، مثبتا تعهدات بريطانية للشريف حسين بمساعدة العرب في نضالهم من اجل الحرية والاستقلال .

ما دامت الغاية من وعد بلفور أن يهيء لليهود ملجأ من الاضطهاد فانه سيبذل كل نفوذه ليساعد على تحقيق تلك الغاية وسيوافق على كل تدبير يُرى مناسباً ، لتأمين الأماكن المقدسة والاشراف عليها من قبل أتباع كل مذهب من المذاهب التي تملك لها معابد مقدسة في فلسطين . غير انه وضح ان مسألة التنازل عن مطلب السيادة للعرب لن تكون موضع بحث أبداً ، إلا أنه يرضى حين يحين الأوان أن ينظر في الاجراءات التي قد تبدو أوفق من سواها لتزويد الحكومة العربية في سورية (بما في ذلك فلسطين) بخبراء اداريين وفنيين . وقدم الحسين في الأشهر التي تلت براهين كثيرة على إخلاصه في موقفه، فبعث برسائل إلى أتباعه في مصر وفي صفوف قوات الثورة ليخبرهم انه تلقى تأكيدات من الحكومة البريطانية بأن توطين اليهود في فلسطين لن يتعارض مع استقلال العرب في تلك البلاد [1] » .

ومن الملاحظ ان العرب قد وقفوا ذلك الموقف الصلب في وجه المطامع الصهيونية قبل معرفة حقيقتها وإدراك أهدافها ، بل « ان أهداف الصهيونية نفسها – كما يقول الدكتور أمين نبيه فارس – لم تكن قد تطورت بعد إلى ما أصبحت عليه بعد مؤتمر بلتيمور في ربيع سنة ١٩٤٢ [2] » .

وقد صور نوري السعيد موقف العرب يومذاك في خطاب ألقاه في مؤتمر لندن في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٩ (١٣٥٨ هـ) لمعالجة قضية فلسطين ، فقال :

« وحينما اتصل بالجيش العربي تصريح بلفور في شهر نوفمبر سنة ١٩١٧ ، وكان إذ ذاك يقترب من العقبة ، عم الذعر كافة القوات العربية ، فتشاورنا فيما بيننا وأعلنا عدولنا عن الحرب في سبيل استقلال العرب ريثما يرد الينا تأكيد بأن تعهدات السر هنري مكماهون ستنفذ .

« وأبلغ الملك حسين احتجاجه على تصريح بلفور في شهر يناير سنة ١٩١٨ إلى القائد هوغارث الذي أرسلته الحكومة البريطانية إلى جدة يحمل تأكيدات صريحة

---

١ – يقظة العرب ص ٣٧٦ ، انظر ايضا العهود المتعلقة بالوطن العربي ص ٨٢ .

٢ – ملحق جريدة الحياة الخاص بالثورة العربية الكبرى ص ٨٤ .

بأن تصريح بلفور لا يتعارض والحرية السياسية والاقتصادية التي وعد بها العرب في مكاتبات مكماهون ، كما أكدت له بواسطـــة هوغارت نفسه بأن هذا التصريح لا ينطوي على أكثر من وعد بإيواء العاجزين من اليهود في فلسطين لأسباب روحية وثقافية ، وانه لا توجد نية في إنشاء دولة يهودية . وأبلغ الحسين هذه التأكيدات إلى القوات العربية فعادت إلى مواصلة القتال [1] » .

وبالاضافة إلى هذه التصريحات والوعود ، كانت الطائرات الحليفة تلقي على المدن العربية المناشير التي تدعو العرب إلى مناصرة الحلفاء وتؤكد لهم ان هؤلاء إنما يقاتلون من أجل حرية الشعوب وحق تقرير المصير ، وننشر هنا نموذجاً واحداً من هذه المناشير ، وهو يحمل توقيع الجنرال مود ، وقد ألقته الطائرات البريطانية على بغداد في ١٩ آذار (مارس) سنة ١٩١٧ :

« يا أهالي ولاية بغداد

باسم مليكي ، وباسم الشعوب التي يحكمها ، أوجه اليكم هذا البلاغ :

لقد استهدفت أعمالنا الحربية كسر العدو وطرده من هذه الأصقاع . وعهد إليّ بالاشراف والرقابة المطلقة على جميع المناطق التي تقوم فيها جيوشنا بالأعمال الحربية . ولكن جنودنا لا تدخل مدنكم وغياضكم دخول الغزاة الأعداء ، بـــل دخول المنقذين المحررين .

فمنذ عهد هولاكو وبلادكم خاضعة للطغيان الأجنبي : عاصمتكم الجميلة هزلت . قصوركم دمرت . جناتكم ذبلت . وها أنتم وآباؤكم تستغيثون من وطأة العبودية . أبناؤكم يقادون إلى حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل . وأموالكم تسلب منكم وتبذر في بلاد بعيدة .

ومنذ أيام « مدحت » والأتراك يتكلمون عن الاصلاح ولكن الدمار السائد واليأس يشهدان على عقم الوعود ...

هناك تمنيات لا يزفها مليكي وشعوبه فحسب بـــل وجميع الأمم العظمى التي

---

١ ـ أسرار الثورة العربية الكبرى ص ٢٠٦

تربطنا وإياها أواصر الحلف . ان تعودوا فتنعموا بازدهار العصور الغابرة ورفاهها لما كانت أراضيكم تدر اللبن والعسل . وكان سلفاؤكم الصالحون ينشرون العلوم والفنون في العالم . وكانت مدينة بغداد إحدى عجائب الدنيا . تقوم بينكم وبين ممتلكات مليكي صلات تجارية وثيقة . وكان تجار بغداد وتجار بريطانية يتبادلون الفوائد التجارية منذ أكثر من قرنين . ولكن الالمان والأتراك اتفقا على سلبكم . وشرعا منذ عشرين عاماً بأن يتخذا من بغداد قاعـــدة للتهجم على النفوذ البريطاني ونفوذ حلفائه في إيران والبلاد العربية . ولذلك لم يعد في وسع بريطانية العظمى غض الطرف عما يحاك بالحاضر أو عما سوف يحاك بعد في بلادكم لأن من واجبها الدفاع عن مصالح الشعب البريطاني ومصالح حلفائه . وهي لا تطيق التعرض لمثل الأخطار التي هيأها الأتراك والألمان في بغداد خلال الحرب مرة ثانية .

أما أنتم يا أهل بغداد—مَن يهمهم انعاش تجارتهم وضمان سلامتهم من أي غزوٍ أو اضطهاد هما موضع عناية الحكومة البريطانية بصورة خاصة – فيجب ان تحاطوا علماً بأنه ليس لدى هذه الحكومة أي رغبة في فرض مؤسسات أجنبية عليكم بل جل ما ترغب به ان ترى أماني فلاسفتكم وأدبائكم في طريـــق التحقيق ، وان تعود السعادة لأهل بغداد فيتمتعوا بثرواتهم في ظل مؤسسات تتوافق وشرائعهم المقدسة وما لقوميتهم من مثل عليا .

وفي الحجاز لقد طرد العرب الأتراك والألمان ونادوا بالشريف حسين ملكاً حراً مستقلاً . وسيادته حليف للأمم المحاربة ضد الأتراك والألمان . وهكذا كان شأن العرب النبلاء أمراء الكويت ونجد والعسير .

وقد استشهد كثير من العرب النبلاء في سبيـــل تحرير بلادهم . قتلهم أسيادهم الترك الطغاة .. ولكن استشهادهم في نظر الحكومة البريطانية وحلفائهم لم يذهب سدى . وان للشعب البريطاني ولحلفائه الرجاء والرغبة الصادقة ان يتمكن الجنس العربي في استعادة مجده ومكانته الغابرين بين شعوب العالم وهكذا يتم اتحاده في ظل الوفاق والسلام .

اذكروا ، يا أهل بغـــداد . انكم على مرّ ستة وعشرين جيلاً عانيتم الجور

الأجنبي الذي كان دأبه إيقاع الشقاق بين بيت وآخر . بين الصديق وصديقه . بين الأخ وأخيــه ليؤمن مصلحته . وهذه أكره السياسات لدى بريطانية العظمى وحلفائها . لأن السلام والرفاه لا يرتعان حيث يرتع الحقد والبغضاء في كنف حكومة فاسدة .

هذا واني بأمر حكومتي أكلفكم بواسطة أعيانكم وقدمائكم وممثليكم ان تبادروا إلى التعاون مع ممثلي بريطانية العظمى السياسيين الذين يصحبون الجيش البريطاني في إدارة شؤونكم المدنية بشكل يؤمن معه الاتحاد بينكم وبين اخوانكم في الشمال والشرق وفي الجنوب والغرب لكي يصار إلى تحقيق أمانيكم القومية [1]».

والواقع ان تلك البيانات والتصريحات والمناشير ، قد أعادت الاطمئنان إلى نفوس العرب ، وجددت الحماسة في قوات الثورة، وبعثت الأمل في نفوس الحسين بن علي وأنجاله الميامين ، فانتقلوا بقواتهم إلى الهجوم الباسل ، يقتحمون المخاطر ، ويجتازون مئات الكيلومترات ، في كفاح يومي مرير ، وفي ظروف قاسية يصعب احتمالها حتى على من تعودوا حياة الصحراء ، وعلى طريق شائكة دامية يكمن لهم الموت على كل منعطف من منعطفاتها ، ويواجهون في كل بقعة منها قطعة من جحيم أو عاصفة من عذاب !..

---

١ ـ نهضة العرب ، التحرر فالاستقلال فالدولـــة ، ص ٨٠ ، العهود المتعلقة بالوطـــن العربي ص ٧٥ .

الفصل السابع عشر

الأمير فيصل في مؤتمر الصلح

ما كاد الأمير فيصل يضع قدمه في القارة العجوز ، حتى أدرك حقيقة المأساة التي كانت البلاد العربية مسرحها، وكان الملك حسين وأنجاله وقواده وأبناء شعبه أبطالها الذين عاشوا كل ما في البطولة من نبل وتضحية وإباء ، وعانوا كل ما في المأساة من خيبة ومرارة وألم عميق .

لقد جاء الأمير البطل إلى فرنسة ليمثل في مؤتمر الصلح شعبه المكافح ، بعد أن بذل وناضل وصابر ، وضحى الوف الشهداء على مذبح حريته ووحدته واستقلاله ، فاستقبلته السلطات الفرنسية في مرسيلية في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨ (١٣٣٧ هـ) استقبالا رسمياً ، ولكنه سرعان ما لاحظ ان الحكومة الفرنسية انما تستقبله بوصفه أميراً حجازياً ونجل ملك الحجاز الذي اشترك في الحرب مع الحلفاء، لا كقائد حليف دخل سورية على رأس جيش عربي أسهم إلى حد كبير في معركة الحلفاء بالبلاد العربية ومن حقه أن يحضر مؤتمر الصلح ويشترك في تقرير مصير بلاده.

وقد أسرفت الحكومة الفرنسية بما أحاطت بـه الأمير من مظاهر التكريم والتبجيل، ولكنها كانت تعمل في الوقت نفسه لاقصائه عن الاشتراك في مؤتمر الصلح في فرساي كممثل للعرب ، وأعدت برنامجاً خاصاً لاقامته وزيارته للجبهة الغربية ،

وعينت لمرافقته الكولونيل بريمون ممثل فرنسة في جدة « وكان سمو الأمير بارتدائه الملابس العربية ، وعلى رأسه الكوفية والعقال ، وبوجهه السموح المستطيل ، يوحي إلى كل من يشاهده بنبالته وسمو وجاهته ، ويستميل اليه الأفئدة والقلوب ، بل ان كثيراً من رجال الغرب المرموقين راح يشبهه بالسيد المسيح [١] » .

وكان برنامج زيارة الأمير لمواقع القتال في أنحاء الجبهة المختلفة ، يرمي إلى إبعاده قدر المستطاع عن باريس حيث تتلاقى وفود الدول الحليفة استعداداً للمشاركة في المؤتمر التاريخي . وقد انتبه الأمير فيصل إلى ذلك ، فقطع برنامج زيارته وعاد إلى باريس لمقابلة رئيس الوزارة الفرنسية . وعين اليوم السابع من كانون الأول (ديسمبر) موعداً لهذه المقابلة ، ولكن بريطانية كانت قد تعهدت لفرنسة قبل هذا التاريخ ، بتأييد مطالبها في سورية مقابل ضم الموصل إلى العراق ، فلما اجتمع الأمير بالرئيس كليمنصو لم يجد لديه أي عطف على القضية العربية ، أو أيّ ميل للاعتراف بحقه في الاشتراك بمؤتمر الصلح .

يقول الأمير مصطفى الشهابي : « ومن المعلوم ان السبب في وقوف فرنسة هذا الموقف انما هو رغبتها في الاستيلاء على سورية كلها ، وهي وان قبلت في اتفاق سايكس بيكو بأن تكون سورية الداخلية مستقلة وخاضعة لنفوذها ، فمعنى النفوذ في نظرها اقامة أمير عربي موال لها وقابل بما توحيه اليه ، ولم يكن فيصل بن الحسين ذلك الأمير الرخو المستكين ، بل كان كما قلت ركن القضية العربية ودعامة استقلال بلاد العرب وفي رأسها الشام ، ولهذا كانت فرنسة تخفي له العداء كما كانت تسعى في إقصائه عن ديار الشام [٢] » .

ولجأ الأمير إلى لندن ، حيث رافقه الكولونيل لورنس وعمل على تسهيل مهمته . وقد تناقضت الآراء في لورنس ، وحقيقة موقفه من العرب ، ومدى اخلاصه لقضيتهم . ولعل رأي الاستاذ سليمان موسى أقرب الآراء إلى الصواب ، فهو يرى

---

١ – مذكراتي عن الثورة العربية الأولى ص ٩٢ .

٢ – محاضرات في الاستعمار ج ٢ ص ٩٣ .

ان صداقة لورنس للعرب كانت نابعة من صميم نظرته إلى مصلحة بريطانية ، إذ كان يعتقد بان المصالح المشتركة تربط بين العرب وانكلترة [١] .

وكان لورنس قد أبدى غضبه لنقض العهود مع العرب ، وأخذ يعمل لايجاد تسوية لهذه القضية التي تمس الشرف البريطاني . ويروي تشرشل في كتابه « عظماء معاصرون » ان لورنس حين مثل بين يدي الملك جورج الخامس في شهر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩١٨ عند عودته من ميدان القتال إلى انكلترة « أراد الملك أن يقلده بيده شارة وسام الحمام وشارة وسام الخدمة الممتازة، اللذين سبق نشر خبر الانعام عليه بهما في الجريدة الرسمية ، فالتمس من الملك اعفاءه من قبولهما ، ولم يكن هنالك ثالث بينهما ، فأعفاه » .

يقول تشرشل : « ولمت لورنس على ما فعله مع الملك ، حينما اجتمعت به في باريس ابان انعقاد مؤتمر الصلح ، فقبل اللوم بروح مرحة طيبة ، وقال انه ما كان يسعه ان يسلك سوى هذا المسلك ليلفت أنظار المقامات العليا في الدولة إلى ان شرف بريطانية رهن باخلاصها في معاملة العرب ، وان الغدر والتسليم بمطالب فرنسة في سورية هما وصمة عار في تاريخنا ، وقال انه كان لا بد من اطلاع الملك على ما يقترف باسمه ، وانه لم يكن يعرف لذلك وسيلة أخرى . وينبغي عليّ ان اسلم بأن هذا الحديث شوقني الى الاستزادة من المعلومات المتصلة بما وقع فعلاً في حرب الصحراء ، وفتح عيني على تلك الانفعالات النفسية التي كانت تغلي في صدور العرب، فطلبت التقارير وأمعنت النظر فيها ، ثم تحدثت إلى كليمنصو فأخبرني بأن اتجاه الافرنسيين نحو سورية يرجع إلى مائة عام ، وهو لا يطيق حتى مجرد التفكير في ان فرنسة ، وهي التي اريقت دماؤها في خنادق الفلاندر ، تخرج من الحرب الكبرى صفر اليدين ، لا تنال حصتها من الاراضي المفتوحة ، كما لا يطيق ذلك مواطنوه

---

١ — راجع كتاب « لورنس والعرب » للاستاذ سليمان موسى وهو أوفى دراسة عربية عن تلك الشخصية الاسطورية التي كتب عنها كثير من المؤلفات باللغات الأجنبية .. انظر بصورة خاصة ص ٢٦٣ وما بعدها عن صداقة لورنس للعرب .

ولا يقبلونه بحال من الأحوال [1] . »

وقد استقبلت الحكومة البريطانية الأمير فيصل بكل مظاهر الحفاوةوالتكريم وحددت له موعداً لمقابلة ملك الانكليز ، ورافقه في هذه المقابلة الكولونيل لورنس وكان يرتدي اللباس العربي برغم ان المراسم البريطانيـــة لا تجيز مثول الضباط البريطانيين في حضرة الملك بغير زيهم العسكري .

ويقال ان كبيراً من رجـال البلاط عنف لورنس على ظهوره بهذه الملابس في بلاط بكنغهام قائلا: « أيجوز للكولونيل لورنس أن يظهر في هذا المكان وهو رجل من رعية التاج بل ضابط بريطاني ببزة رسمية أجنبية ؟ » فأجابه بجزم ولباقة : « إذا خدم رجل سيدين اثنين وكان عليه أن يسيء إلى واحد منهما فالأفضل أن يسيء إلى أقواهما . أنا هنا ترجمان رسمي للأمير فيصل وهذا اللباس الذي تراه هولباسه [2] . »

وكان لورنس يعجب بفيصل اعجاباً خاصاً وقد عبر عن ذلك في امكنة متعددة من كتاب « أعمدة الحكمة السبعة » فقال انه منـــذ رآه وتعرف به آمن بأنه القائد المنتظر والزعيم الذي سيسير بالثورة إلى هدفها المنشود ، وروى انه كان يبذل الجهود الحثيثة لرفع معنويات رجاله ويعيد المنهار منهم قبساً من روحه، وقد كانت المصاعب تهون لديه في سبيل هدفه ، وبينما كان يقوم على رأس رجـــاله في أحدى المعارك يشجعهم بأقواله وأفعاله خانته قواه فاغمي عليه وحمل من قلب المعمعة والزبد يتدفق من فمه . « وقد علمني صبره اللامتناهي درساً جديداً، وأفهمني معنى الزعامة في البلاد العربية » وكان صوته ذا جرس موسيقي عذب ، وكان يستعمل هذا الجرس بعناية فائقة مع رجاله « فهو يتحدث اليهم بلهجتهم القبلية ولكن بنغمة مترددة غريبة كأنه يتعثر بين الجمل مفتشاً عن الكلمة التي تؤدي ما يعنيه . وكان في إمكانه أن يجعـل من الكلمات ستاراً شفافاً يمكن المرء أن يرى بوضوح من ورائـــه الروح الطاهرة المقدامة التي تشع في كلماته » وكان يصلح ذات البين بـــين العشائر المتخاصمة ويزيل ما علق بالنفوس من رسوبات الثأر « ويدفع من جيبه مـــا يختلف عليه من

---

١ – أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ص ٢٧٤ .

٢ – الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ١٨ .

فوارق تقدير قيم الديات ، وذلك كي يعيد سريعاً طريق الوئام بين المتخاصمين . وبالفعل كان بمثابة محكمة التمييز العليا وحكمه غير قابل للنقض في غربي الجزيرة العربية ، وفي ذلك أظهر حكمة بالغة ولا سيا في الاحكام التي كانت تصدر عنه ، فهو لم يتحيز أبداً لأي من الطرفين المتخاصمين مستعيناً على ذلك بحصافته المشهورة وذاكرته العجيبة . وقد مكنته هذه الخصال الحميدة من السيطرة على جميع العشائر الضاربة في المدينة حتى دمشق وما وراءها ، وبذلك أصبحت الحركة العربية حركة وطنية قومية تساوي بين العرب جميعاً[1] . »

ولما طلب الأمير من الحكومة البريطانية تحقيق العهود التي قطعتها للعرب بوساطة الملك حسين ، وفقاً للنصوص المحفوظة في وزارة الخارجية البريطانية ، وإعطاءه صوراً عن تلك النصوص ليجري البحث على أساسها ، أجابته بالمماطلة وتلكأ الموظفون البريطانيون في تحقيق مطلبه . الا ان بريطانية ساعدت الأمير في الوقت نفسه ، بتعضيد من الولايات المتحدة،على دخول مؤتمر الصلح ، فمنح الحجاز والعرب حق الاشتراك فيه بممثلين عوضاً عن ممثل واحد ، برغم مقاومة فرنسة الشديدة لذلك[2] .

وعلى اثر ذلك عاد الأمير إلى باريس ، وقرر أن يكون المندوب الثاني في المؤتمر محمد رستم حيدر بالنظر لدراسته الحقوقية والسياسية ، وأن يكون كل من نوري السعيد والدكتور احمد قدري وعوني عبد الهادي أعضاء مساعدين ليعملوا في لجان المؤتمر .

وقد افتتح المؤتمر في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ (١٣٣٨ ﻫ) وكانت تسوده نزعتان ، نزعة الرئيس ويلسن الذى كان يحلم باقامة نظام عالمي يسوده الحق والحرية والسلام ، ونزعة الدول الاستعمارية التي تتسابق وتتنافس وتحوك الدسائس والمؤامرات لتخرج كل منها من المؤتمر بنصيب أكبر من الغنائم والأسلاب .

---

١ — أعمدة الحكمة السبعة ص ٤٨ و ٥٢ و ٧٢ و ٧٣ و ٨٧ و ١٢٣ .

٢ — مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٩٧

Le Partage du Proche - Orient - P. 169

وكان أعضاء الوفد العربي ينتهزون كل فرصة لتوطيد العلاقات الودية مع الوفد الأميركي، لشعورهم بأنه الوفد الوحيد الذي يؤيد حقوق الشعوب. وقد هاجم الرئيس ولسن في المؤتمر أحلام الفتوحات والاستعمار، وتبادل البلاد بين الدول، كأن الشعوب ليست سوى أثاث ينقل، وقال ان الزمن قد تغير ولم يبق الديبلوماسيون قادرين على الاجتماع حول مائدة لفرض إرادتهم على الشعوب وتبديل خريطة العالم.

وكانت بريطانية وفرنسة قد كشفتا القناع عن وجهيهما الاستعماريين، وان كانتا قد حاولتا اعطاء الاستعمار « مهمة انسانية » بحجة تقديم المساعدة للشعوب النامية التي تعتبر وديعة مقدسة في ذمة المدنية، ومن « واجب » الدول المتقدمة أن تقوم بدور الوصية عليها للأخذ بيدها في مدارج الحضارة. وإرضاء للولايات المتحدة وافق أعضاء المؤتمر على أن يكون للشعوب المعنية حقها في تقرير مصيرها. إلا ان تقرير المصير لم يكن ليعني لدى الدول الكبرى، سوى حق اختيار وصاية هذه الدولة أو تلك! وقد كان هذا القرار باحلال الوصاية أو الانتداب محل الاستعمار المكشوف، من أول القرارات التي اتخذها المؤتمر، وفي ما يلي أهم ما جاء فيه:

المادة ١ — لمثل هذه الاسباب ولا سيما لسوء الادارة التركية التاريخية في معاملة الشعوب الخاضعة لها وللمذابح الارمنية الهائلة وسواها في السنوات الخمس المتأخرة قرر الحلفاء والدول المشتركة معهم فصل أرمينية وسورية والعراق وفلسطين وبلاد العرب فصلا تاماً عن المملكة التركية من دون إلحاق ضرر بسكان الأقسام الأخرى من المملكة التركية.

المادة ٢ — قررت الدول المتحالفة والدول المشتركة معها أنه نظراً للفرصة السانحة للبت في مصير المستعمرات والاراضي التي كانت لالمانية وتركية وهي مأهولة بسكان لا يستطيعون الوقوف وحدهم بالنسبة لحالات العالم الحاضرة الشديدة — العمل في هذه الاراضي بمبدأ ترقية واسعاد هذه الشعوب الذين يعتبرون وديعة مقدسة في ذمة المدنية وأن ينص على ذلك في دستور جمعية الأمم.

المادة ٣ — اقتنع الحلفاء بعد الدرس الدقيق أن أفضل طريقة للقيام بهذا المبدأ هي وضع هذه الشعوب في عهدة الأمم الراقية التي تكون بالنسبة إلى مواردها أو

اختبارها أو مركزها الجغرافي أقدر على القيام بهذه المهمة فيجب أن تقوم بهذه المشارفة كوصيات من قبل جمعية الأمم .

المادة ٤ – تعتقد دول الحلفاء والدول المشتركة معها أن طبيعة الوصاية يجب ان تكون حسب درجة السكان من الرقي ومركز البلاد الجغرافي وحالتها الاقتصادية وما شاكل هذه الظروف .

المادة ٥ – لما كان الحلفاء يعتبرون بعض الشعوب التي كانت خاضعة في السابق للمملكة التركية بلغت من الرقي درجة يصلح الاعتراف بها كأمم مستقلة محتاجة إلى استمداد النصائح الادارية ومساعدة دولة وصية حتى تصير قادرة على السير وحدها فإن رغائب هذه الشعوب يجب أن يكون لها مقام أولي في اختيار الدولة الوصية .

ولما أقر مجلس الحلفاء الأعلى عهد جمعية الأمم في شهر شباط–فبراير سنة **١٩١٩** أدمج هذه المبادىء في المادة الثانية والعشرين منه تثبيتاً لها وتوكيداً وهذا نصها :

« يجب أن يطبق على المستعمرات والبلدان التي قضت نتائج الحرب الأخيرة بخروجها عن سلطة الدول التي كانت تسيطر عليها في الماضي والتي تسكنها شعوب لا تزال إلى الآن غير قادرة على الوقوف منفردة في معترك الحياة، المبدأ القاضي بجعل سعادة شعوبها وتقدمها وديعة مقدسة في يد العالم المتمدن، ويجب أن ينص في هذا العهد على الضمانات اللازمة لحسن القيام بهذه الوديعة . والطريقة المثلى لتطبيق هذا المبدأ عملياً هي أن يعهد بالوصاية على هذه الشعوب الى الدول الراقية التي تمكنها مواردها المادية أو اختباراتها أو موقعها الجغرافي من القيام بهذه المهمة على سبيل الانتداب من قبل جمعية الأمم .

وتختلف طبيعة هذه الوصاية باختلاف درجات هذه الشعوب في التقدم وباختلاف موقعها الجغرافي وأحوالها العمرانية وما اشبه من الظروف، ولما كان بعض الشعوب الصغيرة التي كانت ضمن السلطنة العثمانية قد بلغت من الرقي درجة يمكن أن يعترف معها موقتاً بكونها أمة مستقلة ، على شرط أن تسترشد ادارتها بنصائح ومساعدة تستمدها من دولة منتدبة ، إلى أن تصير أهلا للسير وحدها ، على أن تحل رغبة هذه الشعوب باختيار الدولة المنتدبة محلها من الاعتبار . ويجب في جميع الأحوال على كل

دولة من الدول المنتدبة أن تقدم تقريراً سنوياً إلى مجلس جمعية الأمم عن البلاد الموضوعة تحت وصايتها . ويجب على هذا المجلس أن يحدد تحديداً صريحاً نوع السلطة أو المراقبة أو الادارة التي تخول الدولة المنتدبة ممارستها . ويجب أيضاً انشاء لجنة دائمة لتسلم تقارير الدول المنتدبة سنوياً وفحصها وإمداد المجلس برأيها في جميع الأمور المختصة برعاية شروط الانتداب [1] . »

وقدم الأمير فيصل إلى المؤتمر مذكرة مؤرخة في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩ (١٣٣٨ هـ) هذا نصها :

« جئت ممثلاً لوالدي الذي قاد الثورة العربية ضد الترك تلبية منه لرغبة بريطانية وفرنسة ، لأطالب بأن تكون الشعوب الناطقة بالعربية في آسية من خط الاسكندرونة ـ ديار بكر حتى المحيط الهندي جنوباً ، معترفاً باستقلالها وسيادتها بضمان من عصبة الأمم . ويستثنى من هذا الطلب الحجاز وهو دولة ذات سيادة ، وعدن وهي محمية بريطانية . وبعد التحقق من رغبات السكان في تلك المنطقة يمكننا أن نرتب الأمور فيما بيننا ، مثل تثبيت الدول القائمة فعلا في تلك المنطقة ، وتعديل الحدود فيما بينها ، وفيما بينها وبين الحجاز ، وفيما بينها وبين البريطانيين في عدن ، وانشاء دول جديدة حسب الحاجة وتعيين حدودها . وستتقدم حكومتي في الوقت المناسب بمقترحات تفصيلية في هذه النقاط الصغيرة . واني لأستند في مطلبي هذا على المبادىء التي صرح بها الرئيس ولسن (وهي مرفقة بهذه المذكرة) وأنا واثق من أن الدول الكبرى ستهتم بأجساد الشعوب الناطقة بالعربية وبأرواحها أكثر من اهتمامها بما لها هي نفسها من مصالح مادية [2] . »

ثم ألقى في السادس من شباط (فبراير) خطاباً بسط فيه مطالب العرب ، وهاجم بشدة تقسيم بلادهم وفق معاهدات سرية وجعلها مناطق نفوذ للدول العظمى وطالب باستقلالها ووحدتها .

---

١ ـ الثورة العربية الكبري ج ٢ ص ١٩ ـ ٢٠ ، العهود المتعلقة بالوطن العربي ص٩٨ .

٢ ـ يقظة العرب ص ٣٩٨ نقلا عن مذكرات هنتر ملر ، انظر ايضاً تاريخ سوريا السياسي من الانتداب الى الانقلاب ص ٩ ، الثورة العربية الكبرى ص ٢١ .

إلا ان صوت الأمير فيصل لم يكن الصوت العربي الوحيد الذي ارتفع في قاعة المؤتمر ، فقد تكلم فيه أيضاً شكري غانم بوصفه رئيس الجمعية السورية اللبنانية في باريس ، فطلب إقامة وحدة سورية باشراف فرنسة ، كما تكلم داود عمون فطلب انفصال لبنان عن سورية واستقلاله باشراف فرنسة . وتكلم أخيراً السيد هوارد بلس رئيس الجامعة الأميركية بوصفه شخصية محـــايدة ذات اطلاع على حقيقة الاوضاع في سورية ، فقال إن السوريين ينشدون الوحدة والاستقلال .

ودعا الامير فيصل إلى ارسال لجنة لاستفتاء العرب في حقيقـــة مطلبهم وتقرير مصيرهم . وعلى الرغم من معارضة انكلترة وفرنسة فقد وافق المؤتمر بناء على الحاح مندوبي الولايات المتحدة على ارسال لجنة إلى سورية لهذا الغرض . وغادر الامير باريس عائداً إلى سورية بعد ان حصل من الوفد الاميركي على وعود حارة بتحقيق مطالب العرب ، وقال له الرئيس ولسن : « لا يخامرنـك أي شك في أن حقوق العرب ستصان ، ولن تروا في بلادكم أبداً عمالاً للاستعمار باسم المشورة أو خلافها، وإذا أحوجتكم المشاورة فستكون بناء على رغبتكم وموافقتكم [1] » وبقي محمد رستم حيدر في باريس ممثلا للحجاز في المؤتمر مع عوني عبد الهادي الذي أنابه الامير عنه .

---

١ – مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٠٥ .

الفصل الثامن عشر

على مفترق التاريخ

كانت البلاد العربية تقف يومذاك على مفترق التاريخ ، فالمستعمرات التركية المحررة كانت لا تزال تدعى « بلاد العدو المحتلة » والأوضاع السائدة فيها تعتبر أوضاعاً موقتة ريثما يتقرر مصيرها في مؤتمر الصلح. وكانت بريطانية وفرنسة تستغلان هذه الفرصة لتثبيت أقدامها في المناطق التي منحت لهما في معاهدة سايكس بيكو والتعديلات التي أدخلت عليها ، وتصفان كل خطوة تخطوانها نحو هذا الهدف بأنها تدبير موقت ستزيله أو تعدله التسوية العامة التي سيقررها صانعو السلام في فرساي [1] .

وكانت الجزيرة العربية قد تركت على حالها ، ففي الحجاز كان الملك حسين هو السيد المطلق ، بينما كان عبد العزيز آل سعود سيد وسط الجزيرة العربية وكان نفوذه يتعاظم وسلطانه يمتد أكثر فأكثر . وقد استقل الأدريسي في عسير، والامام يحيى في اليمن ، بعد استسلام القوات التركية للقوات الانكليزية في عدن . أما العراق فقد اعتبر وحدة قائمة بذاتها ذات حكومة واحدة على رأسها مندوب بريطاني

---

١ – انظر البيان الانكليزي الفرنسي ص ٢٦٣ من هذا الكتاب .

من المدنيين ، يعاونه موظفون بريطانيون وهنود. وأما سورية وفلسطين فقد قسمتا إلى ثلاث مناطق لكل واحدة منها إدارة تختلف اختلافاً كلياً عن ادارة الاخرى ، وتعرف الأولى باسم « إدارة منطقة العدو المحتلة ـ القسم الجنوبي » وتضم فلسطين وادارتها بريطانيـــة ، وتعرف الثانية باسم « إدارة منطقة العدو المحتلة ـ القسم الشرقي » وتضم داخل سورية من العقبة إلى حلب وإدارتها عربية باشراف الأمير فيصل ، والثالثة هي « إدارة منطقة العدو المحتلة ـ القسم الغربي » وتضم لبنان والساحل السوري من صور إلى حدود كيليكية وإدارتها فرنسية [1].

وقد تأكد للأمير فيصل أثناء وجوده في لندن وباريس ان هذه التدابير الموقتة قد تتحول إلى تدابير دائمة إذا لم يستطع إرغام الدول الاوروبيـة على احترام إرادة الشعوب العربية ، وقد تركز أمله في ذلك على اللجنة الدوليـة التي قرر مؤتمر الصلح ارسالها إلى البلاد العربية لاستفتاء أهاليها في مصيرهم وشكل الحكم الذي يطمحون اليه . ومن أجل ذلك رأيناه يغـــادر المؤتمر عائداً إلى سورية لاطلاع مواطنيه على حقيقة الوضع .

وقد استقبل الأمير فيصل في بيروت في أصيــل ٣٠ نيسان (ابريل) ١٩١٩ (١٣٣٨ ﻫ)،استقبالاً رائعاً اشتركت فيه وفود من جميع المدن اللبنانية والسورية وخطب في مستقبليه فقال :

« إن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى .. لقد اعترف العالم باستقلالنا فعلينـا أن نأخذه وأن نطلبه تاماً خالياً من كل شائبة ، وكل من يطلب معونـــة انكلترة أو اميركة أو فرنسة أو ايطاليا فهو ليس منا. نحن لا ننكر اننا محتاجون إلى المعاونة الفنية وسنتفق عليها مع من نريد بحسب ما يوافقنا ، وهذا لا يكون إلا بعد ان نأخذ الاستقلال المطلق . »

وقد طلب اليه المجتمعون نشر بيان عن حقيقة الموقف والخطة الواجب اتباعها ليطمئن أهل البلاد على مستقبلها ، فأذاع في اجتماع صحفي البيان الآتي :

---

١ ـ يقظة العرب ص ٣٨٨ .

« يا أبناء سورية العزيزة :

ها قد عدتُ إلى الوطن بعد أن فارقته خمسة أشهر . وقد أبلغتُ العالم المتمدن ما انتدبتموني اليه من بيان مطالبكم فتقرر مبدئياً استقلال بلادكم ، وصحت النية على ارسال لجنة تحقيق دولية تحقق ما نقلت إلى الغربيين من رغائبكم . وستصل اللجنة في هذين الاسبوعين . وبهذا ترون أن قد تم القسم الأعظم من المهمة الخارجية التي نعمل لأجلها وذلك بحسن نيات الحكومات الأربع المعظمة وصدقها في أقوالها وتمسكها بالمبادىء السامية التي جعلتها دستوراً لأعمالها وطبقاً لأماني الأمة .

بقيت هناك المهمة الداخلية التي هي من خصائص هذه الأمة بأجمعها وهي المسؤولة عنها ، ونجاحها موكول اليها، فعلى الشعب أن يقوم بما يقرره المؤتمر السوري العام الموقت الذي ينعقد عما قريب .

الأمم تود لكم النجاح ، وأنا أريد منكم أن تبرهنوا لهذه البعثة المحترمة التي ستشهد بالحق ، لكم أو عليكم ، بأنكم تستحقون الاستقلال وانكم قادرون على إدارة شؤونكم بأنفسكم . سجلوا أمام العالم والتاريخ أنكم أمة تفدي كل عزيز في سبيل أشرف غاية وهي الاستقلال الذي أعاونكم عليه وأنا أحد أفرادكم .

أنا لا أشك أنكم يد واحدة في المطالبة بحقكم الصريح والسعي للوصول اليه بكل ما في نفوسكم من قوة . تعملون وغايتكم متحدة ، والصدق رائدكم في أقوالكم وأعمالكم جرياً على ما تقتضيه منكم محبتكم لهذه التربة الطاهرة ، متمسكين بأهداب الحزم ، متخذين أسباب السكينة والتؤدة والغيرة على هذا الوطن .

واني آمل أن تثبتوا للعالم أنكم أحفاد اولئك الاجداد الذين كانوا سدنة الحرية ودعاة العدل . والتاريخ شاهد لا يماري في صحة القول . وإن ما قامت به الجاليات السورية المنتشرة في أقطار العالم من جلائل الأعمال ليدخل السرور إلى فؤاد كل من يحب هذه البلاد . فقد أسمعت صوتها بأنها لا ترى السعادة إلا في الاستقلال التام بدون قيد ولا شرط ، فاذا كانوا على تفرقهم لا يرضيهم إلا هذا فأنتم باجتماعكم أكثر استمساكاً بحقوق بلادكم . تستقلون في بلادكم استقلالكم في بيوتكم ، فينظر كل

صقع من اصقاعكم في شؤونه بنفسه مع احترام تقاليده وعاداته . أما المعاونة التي نحتاج اليها فنبتاعها بأثمانها .

هذا ما أحب أن تجعلوه يا بني وطني نصب أعينكم، وأن تكونوا المثال الحي، وقدوة الابناء والأحفاد[1] . »

ثم انتقل في الثالث من أيار (مايو) إلى دمشق التي كانت تنتظر مقدمه لتعرب له عن أعمق الحب والتقدير ، لأنه لم يعد في نظرهـا أميراً ينحدر من أعرق اسرة عربية ، أو بطلاً خاض المعركة وانتصر فيها ، بل غدا رمز حريتها واستقلالها وأمل غدها المرتجى .

وقد دعا الامير رجالات سورية ووفودها وشبابها المستنير إلى اجتماع كبير عقد في دار الحكومة في الخامس من نيسان (ابريل) وألقى فيه الخطاب التاريخي التالي الذي لخص فيه جميع مراحل القضية العربية وكان بمثابة استفتاء تمهيدي يسبق استفتاء اللجنة الدولية :

« أتشرف بأن ألقي بضع كلمات على مسامعكم الكريمة . وهـذه الكلمات ستكون تاريخية بالنسبة لحياة الأمة العربية الجديدة في مستقبلهـا . وأرجو العفو والعذر إذا سمعتم بعض أغلاط تقع مني في أثناء الحديث لكوني لست من رجال هذا الموقف وأرجوكم أن تنظروا اليّ بعين العذر . وقد دفعني إلى الكلام :

أولاً — ان أكثر هؤلاء الكرام الذين أتشرف بمخاطبتهم مجتمعون هنا من كافة أنحاء سورية ، وقد أتوا إلى بيروت لملاقاتي وأداء التحية باسم جميع المواطنين الذين ينوبون عنهم . وحضروا إلى هنا ليسمعوا مني ما حصل في الغرب في مؤتمر السلام بخصوص بلاد العرب عامة وسورية خاصة . ولا شك في أنني مجبر على القاء هـذه الكلمات لأطمئن أهل البلاد على بلادهم وعلى استقلالهم ، مع اني بعض الأحيان لا يمكنني أن أصرح بكل شيء لبعض الموانع السياسية التي تجبرني على السكوت عنها . ولما كان أكثر الذوات لا يعرفون ما هي الحركة الثورية التي قامت في الحجاز

---

١ — مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٠٨ ، يوم ميسلون ص ٢١٧ .

وما هو السبب الدافع اليها ولربما انهم قبل يومنا هذا كانت أفكار بعضهم ممن لا يعلم السياسة العمومية داعية إلى اتهام هذه الثورة بتهم لا محل لذكرها وبقول ان من قام بهذه الحركة أتى بخيانة للوطن أوللأمة أو للجامعة العثمانيةالتي كنا نحن من أفرادها. ولكن على أثر انكسار الاتحاديين وتشتت شمل الاتحاد الجرمني ، علم المجموع أن من قام بالثورة هو رجل أو رجال عالمون بسير الحركة السياسية والعسكرية في العالم . وأن من قام بهذا ما قام إلا لحفظ قسم من جسم البلاد العثمانية وانقاذه مما سيقع به بعد الحرب . ولا شك أن المسؤول في الحركة . أي الحركة الثورية العربية هو أولا والدي ثم الحجازيون مادة ، الذين قاموا بها فعلاً . أما السوريون فانهم مسؤولون عنها معنى لانهم قد شوقوا الحجازيين لهذه الحركة فنرى ولله الحمد أن الفخر وان كان أولا للحجازيين فهو فخر للجميع . لأن هذه الثورة هي ثورة قومية لا يمكن أن نسندها إلا إلى الأمة جمعاء . نعم ! إن والدي قام بالثورة في أثناء النزاع العظيم الدنيوي بعد مارأى أن الاتراك انقادوا إلى التيار الالماني وأوردوا الأمة العثمانية موارد الهلاك ورأى أن دوام العرب في الحرب مع الاتراك المتحدين مع الالمان سيوقع البلاد التركية في ذات الموقع ورأى أن الأمة العربية التي طالما تمنت الخروج من نير الاستعباد والنهوض إلىما كانت عليه في سابق التاريخ طامحة بأنظارها إلى الافلات من أشراك أعدائها . لهذا قام بالحركة بعد أن أتيت إلى سورية وقابلت بعض الرجال الذين منهم كثيرون في مجلسنا هذا سواء من البدو أو من الحضر عقب مجيئي إلى هنا ولا شك في أنهم يذكرون ذلك .

« ولما وصلت إلى دمشق ورأيت ما رأيته من رجال الثورة رجعت إلى الحجاز وأخبرت والدي كيف انهم قاموا بواجبهم وعليه قام . ولكن تقدير الباري جعل السوريين في موقف لا يمكنهم من مؤازرة الحجاز بما قام به لأسباب تعلمونها وهو ضغط الاتراك عليهم وما أتوه من الأفعال التي سيسطرها التاريخ ويخلد ذكر من قتل ومن استشهد في تلك الاثناء من السوريين باحرف ذهبية . قام والدي ولم يفكر فيما يقع على الحجاز والحجازيين من القيام ضد الاتراك ولم يتيقن من النتيجة . إلا ان الباري سبحانه وتعالى يسّر هذه الأمور فجلا الاتراك عن سورية .

« لا شك أنه قبل ذلك أتى ببعض مذاكرات أو معاهدات بينه وبين الأمم المحالفة أمم الحلفاء . واتكالا على الباري سبحانه وتعالى ثم على العهود التي أخذها قام بالواجب الى أن انتهى الحرب وبدأ في الصلح . ذهبت عن والدي إلى باريس عقب جلاء الاتراك ولتنفيذ الخطط العسكرية في البلاد المحتلة . جعلت البلاد السورية مقسمة على ثلاث مناطق وهذا لتنفيذ الخطط العسكرية ليس إلا . وأسست الحكومة العربية العسكرية في داخلية سورية وهي ليست حكومة دائمة . ولذلك ذهبت إلى المؤتمر الذي انعقد في باريس لأخذ كل مستحق حقه . وصلت باريس ودخلت المؤتمر وجمعية الأمم لبث رغائب الشعب على قدر اجتهادي وتمكنت من قول ما أريد . وعند ذهابي رأيت أمم الغرب في حالة جهل عميق عن أحوال العرب . كانوا لا يعرفون عن العرب إلا ما كانوا يعرفونه عنهم في حكايات الف ليلة وليلة ليس إلا . كانوا يظنون العرب عبارة عن الامم السالفة العربية ولا يفتكرون بوجود الامم العربية الحاضرة ولا يعرفون شيئاً عن الافكار السياسية والنهضة التي حصلت فيها . يفتكرون العرب هم عبارة عن عرب البادية الذين يسكنون الصحراء وأما باقي سكان البلاد المعمورة فهم يعدونهم غير عرب . ولا شك أن جهلهم هذا جعلني أصرف وقتاً طويلاً لأفهم هذه الامم الحقيقة وأثبت أن العرب أمة واحدة تقطن في البلاد التي تحدها البحار من الشرق والجنوب والغرب وتحدها جبال طوروس من الشمال .

« قلت هذا للمؤتمر وأخبرتهم بمقاصد العرب ونواياهم . وبما أنهم قاموا لانصاف المظلوم فبعد أن فهموا المقاصد والمطالب وما فعله العرب من المعاونة للحلفاء في هذه الحرب اعترفوا باستقلال العرب مبدئياً ، ولكونهم ليسوا عالمين الدرجة التي حازتها الأمة العربية اليوم من الرقي الأدبي والسياسي ولتأمين السلم في البلاد بأجمعها رأوا أن ينتدبوا هيئة دولية لترى الحقيقة بابصارها وها هي قادمة اليكم .

« كانت مدافعتي عن بلاد العرب على قسمين : الأول — البلاد العربية لا يمكن تجزئتها . القسم الثاني — بما أن البلاد العربية بين سكانها اختلافات في طبقات العلم والتعليم ليس إلا ، فالظروف ليست كافية لتجعلهم أمة واحدة . لذلك رأيت الدفاع كما يلي :

« إن سورية والحجاز والعراق قطعات عربية . وكل قطعة منها يطلب أهلها الاستقلال . وقلت ان نجداً والبلاد المساوية للحجاز من الأقطار العربية هي تابعة للحجاز ليس الا . وهذه يرئسها والدي . أمـا سورية فيجب أن تكون مستقلة . وكذلك العراق يريد استقلاله ولا يريد معاونة أو حماية . نحن لا نرضى في سورية أن نبيع استقلالنا بما نحتاج اليه من المعاونة في ابتداء تكويننا ، بل ان الأمـة السورية هي أمة تريد أن تستقل وتأخذ ما تحتاجـه من المعاونة بثمنه أي بدراهم معدودات .

« دافعت هذا الدفاع ولا حاجة إلى غير ذلك . لأن مجلسي هـذا هو خاص لسورية . فانني أقول عن سورية :

« دافعت عن سورية بحدودها الطبيعية . وقلت ان السوريين يطلبون استقلال بلادهم الطبيعية ولا يريدون أن يشاركهم فيه شريك وقد توفقنا والحمد لله . العراق بلاد مستقلة بلا علاقة بسورية ، كما أن سورية لا علاقة لها بسائر البلاد العربية . مع أن العرب أمة واحدة . وكلنا يعلم ان المقاطعات العربية بالنسبة للتاريخ والجغرافية والصلات القومية هي بلاد واحدة . وان هذه المقاطعات تكون جماركها ومصالحها الاقتصادية موحدة لا حاجز يحجز المناسبات الودية والاقتصادية بينها . »

« كانت مدافعاتي عن البلاد بهذه الصورة وكانت الامم تنظر إلى طلباتي نظر الارتياح والقبول . وما حصل من الجدال ما هو إلا من عـدم معرفة تلك الأمم مقاصد العرب وطواياها خوفاً من وقوع مالا تحمد عقباه مما بذره الاتراك ولكون الأمم الغربية تنظر إلى المجموع التركي العثماني كمجموع واحد ، ومـا يحصل من الاتراك يظنونه من العرب . فبعد أن وقفوا على حقيقة الأمر وعرفوا مـا هي مقاصد السوريين أذعنوا لهم وأعطوهم كل ما يطلبونه . وها أنا بين ايديكم قد قدمت اليكم من مؤتمر السلم أبلغكم ذلك ، وستصل اليكم الهيئة الدولية وتخبركم بما أخبرتكم به ، ونطلب منكم أن تعربوا لها عن ضمائركم بأيـة صورة كانت لأن الأمم لا تريد اليوم أن تحكم أمة اخرى إلا برضاها . »

« وقد جعلت جمعية الامم مانعاً للحرب ووكانت بحل الاختلافات والنظر فيها وسيكون للعرب مندوب في جمعية الامم وهذه التي تنظر إلى مـا هو حاصل أو

ما يحصل بين الامم من الاختلافات بعد رجوع هذه الهيئة إلى باريس . وستسمع رأي كل شعب من الشعوب التي كانت تحت يد الترك وتعلن مطالب العرب وغيرهم إما استعباداً أو حكما ذاتياً استقلالياً على قدر علم وعرفان واقتدار الامم التي انسلخت عن الاتراك . »

« فالموقف اليوم هو بيدكم . ان التسويات الخارجية قد تمت بفضل الباري سبحانه وتعالى وبحسن نية من حالفنا من الدول العظام الذين لا يمكنني أن أفرق بين الواحدة والاخرى في حسن النية وهم بكل ارتياح قد قبلوا ما نثرت بين أيديهم من الاقوال .

« أنا الآن سأبتدىء في قولي عما يجب علينا عمله ولكن قبل كل شيء يلزمني أن أرجع ثانياً إلى الماضي فأقول :

« إن الثوار قاموا ولم يستشيروا الامة لعدم مساعدة الوقت فحملوا المسؤولية وعملوا ما عملوه حتى اليوم .

« والآن ذكرت ما حصل في السابق إلى تاريخنا هذا. وأريد ممن حضر من ممثلي الأمة الذين في حالتهم الحاضرة ليسوا ممثليها بالصورة الحقيقية ولكنهم بموقعهم الأدبي يمثلون الامة تمثيلا معنوياً . أطلب منهم أن يصرحوا لي بأفكارهم وأن يقولوا لي هل ما قمنا به في السابق هو حسن أم لا ؟؟ (فأجيب الأمير على سؤاله « حسن ، حسن !! » وأعقب بالتصفيق والهتاف) .

« وهل هو موافق لرغائب الأمة أم لا ؟؟ (فأجابه الحضور: «موافق ، موافق » مع الهتاف الشديد) .

« وهل أعمالنا هي مقرونة برضى الأمة أم لا ؟ (فأجاب الجميع: « نعم، نعم ! وكل الرضى وفوق الرضى » مع تصفيق وهتاف) .

« هذه أعمالنا في السابق . ولكن بعد اليوم يجب على رجال الثورة أو رجال الحكومة الحاضرة (قولوا ما شئتم) أن يظلوا سائرين بأعمالهم . لأننا إلى الآن ما تمكنا من تأسيس حكومة أساسية . ولكن بما أن الوقت قد ساعد واجتمعت هيئة الوفود فلا يمكنني أن أرجعهم قبل الاطلاع على افكارهم الخصوصية . هل

يريدون أن نداوم على عملنا أم لا ؟ (الجواب : «نداوم ، نداوم ، نداوم » مع الهتاف) .

« هل الأمة معتمدة على من هو قائم بأمورها أم لا ؟ (فأجابوه : « معتمدة ، معتمدة ، معتمدة » .

« أرجوكم الاصغاء لبعض كلمات تجول في خاطري . هل تسمح الأمة بأن أدير الحكومة مع السياسة الخارجية والداخلية بعد اليوم أم لا ؟ (فقالوا : «نعم، نعم، نعم ! » وقوطع بالهتاف والتصفيق الشديد وقال الجميع : فليحي أميرنا فيصل تكراراً وتكلم بعض الحضور باختصار ، ثم عاد إلى الكلام فقال :)

« أشكر هذه الهيئة وأشكر هؤلاء الذوات على ماهم ناظرون إليّ به من الارتياح والطمأنينة ولكنني أيضاً أجاب نظرهم إلى مسئلة وهي : لا شك أن الوكيل أو الشخص الذي يدافع في الحقوقيات لا يمكنه المدافعة عن حقوق موكله إلا اذا كان بيده وثائق تخوله ذلك ، كذلك السياسيون لا يمكنهم الدفاع عن الامة إلا اذا كانوا حائزين على الشروط التي تمكنهم من العمل. فالهيئة الحاضرة تسأل الأمة هذا السؤال وتريد الإجابة عليه وهو :

« هل الأمة تؤيد كل أعمالي في الداخل والخارج قولا وفعلا ؟ وهل تساعدني باعطاء جميع ما أطلب منها بدون شرط ولا قيد أم لا ؟ (فأجيب نعم لك الأمر) .

« هذا الذي أريد . لا شك ان هذه هي النقطة الاساسية التي تكون مستنداً للشخص والذوات أو للهيئة التي ستعمل لتدبير الشؤون بعد اليوم إلى حين انعقاد المؤتمر السوري الذي سينعقد في هذه الايام .

«ولكن لكي أعمل إلى ذلك الوقت يلزمني الاعتماد وقد طلبته منكم واعطيتموني إياه وسأعمل .

« أرجو الباري سبحانه وتعالى أن يوفقنا إلى ما فيه الخير واني أريد من الأمة أن تنظر إليّ بالنظر السابق . وانتظر من الامة أن لا تغتر وتقول : الامم اعطتنا استقلالنا ، فان اعتراف تلك الأمم ما هو إلا اعتراف معنوي ، فلا نعطى شيئاً إلا ما نأخذه بأيدينا . فالأمر بيد الأمة وعليها القيام . وأن لم نقم واتبعنا الاهواء وقلنا

نحن مستقلون وكل منا تقاعد عن واجبه الوطني فلا استقلال لنا .

« أقول هذا لاني رأيت الأمة عند قدومي قابلتني بكل ترحيب . وأريد ان الأمة تؤيد أقوالها بأفعالها . هـذا طلبي مختصراً جداً . ولعدم علمي بما سأطلبه لا يمكن أن أقول شيئاً . ولكن بعد ان أحرزت ثقتكم ونلت اعتمادكم فعلى قدر ما أراه من الحاجة سأطلب من الأمة أن تؤازرني معاً .

سعد الدين الخليل (حوران) ان حوران تقدم لسموه ما يطلب. وقام موفد آخر وتكلم بحماسة شديدة. ثم قام أحد موفدي فلسطين وقال إن دماء الفلسطينيين وأموالهم للأمير . وقال أحد موفدي العامريين . اننا قد لبسنا للحرب عدتها . نحن وجميع العرب من لم يقتل فليمت. فقال له الأمير أرجوك التوقف لأن ما قيل ليس بلسان العموم أريد أن ينتدب أحد منكم للكلام .

فقام الشيخ نوري الشعلان شيخ مشايخ الزوله فقـــال : « نحن العرب عيالهم وبيوتهم الشعرية فداك وطوع يديك . ومن لا يفعل ذلك يخرج عن دين الاسلام».

وقال نسيب بك الأطرش : « نحن جميع عشائر سورية العربان والدروز نضحي حياتنا تجاه خدمتك وخدمة الأمة العربية والحائد عن ذلك يكون خائن الناموس والشرف والعرب » .

الشيخ عبد الحسين صادق (جبل عامل) : « انني باسم أهل جبل عامل أبايعك على الموت » .

الأمير : لم يحن زمن المبايعة ، نحن اليوم في دمشق وكلامي موجّه للدمشقيين وللسوريين ، وأريد ان أسأل أهل دمشق ثم أهل المقاطعات .

محمد فوزي باشا العظم ومحمد أبو الخير عابدين والشيخ أسعد الصاحب وغيرهم : نحن رهينو أمرك نفديك ونعتمدك .

بطريرك الروم الكاثوليك : كما تأمرون سموكم فأمروا بما تشاؤون .

ثم سأل سموه بطريرك الروم الأرثوذكس فأجابه : « بيننا وبين سموكم اتفـاق في هذه القاعة على شرائط معدودة لا تبرح من ذاكرتكم الشفافة . فنحن عليـــه راسخون ». ثم استأنف بطريرك الروم الكاثوليك وقال: « اني أعتمد نفس الاعتماد

الذي اعتمده بطريرك الروم الأرثوذكس .

مطران السريان الكاثوليك : انني أعتمد نفس الاعتماد الذي اعتمده غبطة بطريرك الروم الأرثوذكس .

مطران السريان القديم: أقول بلسان أمة السريان في سورية انهم طوع أمرك. تبايعك بقلوبها وتعتمد عليك .

سعيد باشا سليمان (بعلبك) : عموم أهل قضاء بعلبك تحت أمرك ، مئات وألوف رهن اشارتك .

عمر بك الأتاسي (حمص) : قدمت من حمص وما ودعت الحمصيين إلا بعد ان اعتمدوني وهم يسلمونك دماءهم وأرواحهم .

ابرهيم الخطيب (جنوب لبنان) : فوضناك ان تكون سلطاناً (سمو الأمير باسما : ابق ذلك الآن) جبل لبنان جزءٌ متمم لسورية لا ينفك عنها .

وهكذا صرح جميع أعيان البلاد ووجوهها الذين كانوا حاضرين باعتمادهم واحداً تلو الآخر ، وأبانوا جميعاً ان أرواحهم ودماءهم طوع إشارة سموه . وفي النهاية قال سمو الأمير: « لقد حصل المطلوب » ثم تكلم مطران الأرمن باللغة التركية فشكر ما لقيه مهاجرو الأرمن من عطف العرب وانسانيتهم خلال سني الحرب الأربع وقال : ان تاريخنا سيكتب اسم العرب بمداد من ذهب فأنا أبارك لكم وأشكركم .

ثم استأنف الأمير الكلام فقال :

« لا شك انني بعد ما أخذت هذا الاعتماد من هذه الهيئة سأداوم وأثابر على أعمالي كما سبق حتى انعقاد المؤتمر العام الذي أخبرتكم عن انعقاده في هذه الأيام والذي سيسن القوانين التي توضع لإدارة شؤون سورية كافة .

« ولا شك ان فكري في إدارة سورية هو انني أرى مطالب الأقلية من الشعب تكون مرجحة على آراء ورغائب الأكثرية . وهذا أولاً بالنسبة لما بذل الأتراك من الشقاق والنفاق بين العناصر . البلاد ستقسم إلى مناطق بموجب الحالة الجغرافية والسياسية التي اكتسبها السكان بالنسبة إلى اختلاف مناطقهم . وانني أعلم يقيناً ان القسم الجنوبي من البلاد السورية لا يدار كما يدار الساحل ولا يدار الساحل كما يدار

داخل سورية مثلاً وحوران وجبل الدروز والمنطقة الجنوبية . وقولي هـــذا قول شخصي لأني فرد ولكنني أؤثر على المجموع بما له من الاعتماد عليّ . وان شاء الله أرى منهم اعتماداً دائماً ويأخذون أقوالي ويعملون بها لأن النتيجة حسنة ان شاء الله (تصفيق وسكوت برهة) .

« واني أطلب من الجميع كبيراً كان أو صغيراً أن يعتمدوا على الباري سبحانه وتعالى ثم على من هو منهم أي شخصي الحقير . لأني سأدافع عنهم وسأنظر اليهم على اختلاف أديانهم نظرة واحدة .

« لا فرق عندي بينهم . بل أرى الصالح والمتعلم مقدمين في نظري . أقسم على هذا بشرف آبائي وأجدادي ، كما اني أطلب من الأمة أن لا تنظر إلى شخصياتها في المعاملات العامة وليس لأحد منا أن يقول كنت كذا ناظراً لشأنه العائلي . بل لينظر كل منا إلى النفع العـــام في جميع الأمور التي يجب أن تقدم على المصالح الخاصة . ولا شك ان الشخص بذاته محترم عند الجميع . ولكن العمل يجب أن يكون بالعلم . فقد يكون الرجل وجيهاً في البلاد وهو غير قادر على إدارة وظيفة. فليعلم كل إنسان انني لا أتحزب لشخص لأنه من عائلة أو أسرة ذات شأن وقوة ، بل أنظر إلى اقتداره الشخصي لا لمقامه الاجتماعي في الأمـــة فأستخدمه في العمل الذي يليق به . لأن الحرمة الشخصية معنوية والعمل عائد للأمـة جميعاً فلا يمكن إدخال الشخصيات في العموميات .

« وأرجو أن تعتمد الأمـــة على الأمم التي حالفتها وناصرتها والتي لولاها لم نستطع الاجتماع الآن . ولكننا واثقون ان حلفاءنا لا يريدون لنا إلا الفـــلاح ولا طمع لهم بغير نجاحنا . فعلينا أن نثبت لهم انا أمة تريد ان تستقل ، ولنحافـظ على كبيرنا وصغيرنا وجارنا ومستجيرنا ونحترم كل من يأتينا من الأمم الغربيـــة لخدمتنا في بلادنا .

« هذا وأرجوكم رجاء خاصاً أدعوكم به إلى الاتحاد وجمع الكلمة . فهذه وظيفة الأمة لا وظيفتي الخـــاصة . إذ أنا فرد منكم . ولا استقلال لكم إلا إذا لزمتم السكون وعملتم بما يقوله من أنتم معتمدوه .

« هذه أقوالي وربما أطلت أو أخطأت ، ولو خطب في هذا الموقف غيري لتكلم الساعات الطوال ولكن عجزي يجعلني أقول السلام عليكم [1] » .

وكانت الهيئة الادارية لجمعية الفتاة التي تتعاون مع الأمير فيصل في توجيه سياسة البلاد [2] ، تتألف حينذاك من ياسين الهاشمي وشكري القوتلي وعزة دروزة وتوفيق الناطور والدكتور أحمد قدري ورفيق التميمي ومحمد رستم حيدر ، وبعد تغيب التميمي في بيروت وحيدر في باريس حل محلهما سعيد حيدر وأحمد مريود . وقد تشكل إلى جانب الجمعية العربية الفتاة التي ظلت جمعية سرية ، حزب جديد هو حزب الاستقلال ليكون المظهر الخارجي للجمعية ، وتألفت لجنته الادارية الأولى من سعيد حيدر وأسعد داغر وعزت دروزة وزكي التميمي وفوزي البكري وعبد القادر العظم وسليم عبد الرحمن وفايز الشهابي . كما تأسس النادي العربي في دمشق والنادي العربي في حلب فكانا يجمعان شمل الشبـــاب المثقف ويبثان فيهم الروح الوطنية . وكان لولب النادي العربي في دمشق الشيخ عبد القادر المظفر اليافي .

إلا ان الأمير فيصل رأى ان هذه الهيئات الوطنية لا تكفي لتمثيل البلاد تمثيلاً شعبياً ، وليست لها صفة قانونية للتعبير عن رأيها والتكلم باسمها ، فكان أول ما اتجه رأيه اليه دعوة البلاد إلى انتخاب مجلس نيابي لمواجهة لجنة الاستفتاء الدولية بهيئة رسمية ذات صفة قانونية . ولما كان الوقت لا يتسع لإجراء الانتخابات ، كما ان حكومتي الاحتلال في الساحل وفلسطين لا تسمحان بذلك ، فقد تقرر أن

---

١ — الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ٢٥ ، سورية والعهد الفيصلي ص ٧٢، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١١٠ ، يوم ميسلون ص ٢١٧

٢ — يقول عزة دروزة ان جمعية الفتاة كانت القوة المؤثرة في جل مظاهر العهـــد الفيصلي وأحداثه ان لم يكن كلها ، فالرأس الأول فيصل كان منها ، وكان البارزون من بطانته ورجال قصره منها ، وكان هو شديد الاتصال بهيئتها المركزية وبكثير من أعضائها ، حتى انه لم يكد يخلو من بعضهم في جميع ساعات يقظته ، ولم يكن يقطع بشأن أو يهم بعمل أو يصدر أمراً الا ويكون لهم رأي أو يد فيه أو علم به (انظر حول الحركة العربية الحديثة ج١ ص ٧٥). وممن انتسب الى الجمعية في هذا العهد عبد الرحمن شهبندر وهاشم الاتاسي وابرهيم هنانو ويوسف العظمة وحسن الحكيم ويوسف ياسين وتوفيق الشيشكلي وصالح قنباز وخير الدين الزركلي.

تجري الانتخابات من قبل الناخبين الثانويين الذين قاموا بانتخاب نواب البــلاد في مجلس المبعوثان . وهكذا اجتمع نواب سورية وبيروت وطرابلس واللاذقيــة وجميع مدن فلسطين في السابع من حزيران (يونيه) سنة ١٩١٩ (١٣٣٨ هـ) بدمشق [١] ، وتألفت منهم هيئة أطلق عليها اسم « المؤتمر السوري العام » ، وافتتح الأمير المؤتمر بخطاب جامع قال فيه ان مهمة أعضاء المؤتمر الأساسية هي تمثيل البلاد أمام لجنة الاستفتاء الدولية ، وعرض مطالبها وأمانيها عليهـا ، وسن دستور يحدد واجبات المواطنين وحرياتهم ويكفل حقوق الأقليات الدينية .

وقد أورد عزة دروزة اللائحة التالية بأسماء أعضاء المؤتمر وهويقول انهأخذها من لوحة الصورة الكبيرة التي جمعوا فيها بمناسبة إعلان الاستقلال ومن الذاكرة لأن اللوحة لم تحتو صور الجميع، وهو يرجح ان هناك أسماء أخرى لم تظهر صور أصحابها وغابت عن ذاكرته [٢] .

المنطقة الداخلية بما فيها شرق الاردن إذ كان أحد مقاطعاتها وبما فيها الأقضية الأربعة التي ألحقت بلبنان: عبد القادر الخطيب دمشق . محمد فوزي العظم دمشق . فوزي البكري دمشق. فخري البارودي دمشق . أحمد القضماني دمشق . محمد المجتهد دمشق . مسلم الحصني دمشق . الياس عويشق دمشق . عبد الرحمن اليوسف دمشق. عزت الشاوي دمشق . يوسف لينادو دمشق . الشيخ تاج الدين الحسني دمشق. فاتح المرعشلي اعزاز . جلال القدسي اعزاز . تيودور أنطاكي حلب . سعد الله الجابري حلب . حكمة النيال حلب . يوسف الكيالي حلب . نوري الجسر حلب . عيسى المدانات الكرك . خليل العتهوني معان . سعيد أبو ناجي السلط . عبدالمهدي محمود الطفيلة. سليمان السوري عجلون. سعيد الصليبي السلط. محمود أبو رومية حوران. ابرهيم

---

١ – حالت السلطات الفرنسية دون وصول بعض أعضاء المؤتمر الى دمشق من المنطقة التي تحتلها .

٢ – حول الحركة العربية الحــديثة ج ١ ص ٩٧ ، انظر أيضاً سورية والعهد الفيصلي ص ٩١

هنانو حارم . خالد البرازي حماه . عبد الحميد البارودي حماه . عبد القادر الكيلاني حماه . عبد الرحمن ارشيدات عجلون . شريف الدرويش الباب . محمود نديم منبج. حكمة الحراكي المعرة ٠ حسن رمضان الزبداني . فايز الشهابي حاصبيا . سعيد حيدر بعلبك . محمد حيدر بعلبك . تامر حماده الهرمل . ناصر المفلح حوران . زكي يحيى إدلب . فؤاد عبد الكريم إدلب . أحمد العياشي إدلب . محمود الفاعور القنيطرة . خليل أبو الريش النبك . هاشم الأتاسي حمص . وصفي الأتاسي حمص . مظهر رسلان حمص .

لبنان والساحل الغربي : رشيد رضا طرابلس الشام . توفيق البيسار طرابلس الشام . عثمان سلطان طرابلس الشام . الشيخ عبد العظيم طرابلس الشام . ابرهيم الخطيب لبنان. رياض الصلح صيدا . عفيف الصلح صور. عبد الفتاح الشريف عكار. سليم علي سلام بيروت . جميل بيهم بيروت . أمين بيهم بيروت . جورج حرفوش بيروت . ناجي علي أديب جبلة . محمد خير اللاذقية . محمد الشريقي اللاذقية . منح هارون اللاذقية . صبحي الطويل اللاذقية . توفيق مفرج الكورة . دعاس الجرجس حصن الأكراد . رشيد نفاع المتن . مراد غلمية مرجعيون . سعيد طليع لبنان .

فلسطين : سعيد الحسيني القدس . راغب النشاشيبي القدس . ابرهيم القاسم عبد الهادي نابلس. عزة دروزة نابلس. عادل زعيتر نابلس. أمين التميمي نابلس.الشيخ طاهر الطبري طبريا . يوسف العاقل طبريا . عبد الرحمن النحوي صفد . صلاح الدين قدورة صفد . الدكتور أحمد قدري الخليل . رفيق التميمي الخليل . سليم عبد الرحمن طولكرم . حسين الزعبي الناصرة . عبد الفتاح السعدي عكا . الشيخ ابرهيم العكي عكا . الحاج أمين الحسيني القدس . عارف العارف القدس . يوسف العيسى يافا . معين الماضي حيفا . رشيد الحاج ابرهيم حيفا . الشيخ سعيد مراد غزة . رشدي الشوا غزة .

وبعد أيام ثلاثة من افتتاح المؤتمر وصلت لجنة الاستفتاء إلى دمشق ، وكانت مؤلفة بأجمعها من الأميركين ، لأن بريطانية وفرنسة تلكأتا في إيفاد مندوبيها للانضمام إلى المندوبين الأميركين فيها ، ثم رأتا ان الاشتراك فيها قد يحرج

مركزيها في المستقبل فيما إذا اتخذنا موقفاً معارضاً لرغبات المواطنين ، أما ايطالية فلم تبد أي اهتمام بالموضوع . وتجاه ذلك رأى الوفد الأميركي في اللجنة أن يقوم بالمهمة الموكولة اليه منفرداً ، فزار فلسطين ولبنان ثم انتقل إلى سورية ، وقد عرفت لجنته باسم « لجنة كنغ – كراين » أو « لجنة كراين » وهما العضوان البارزان فيها .

وقد كان الصوت العربي الذي أصغت اليه في سائر المناطق مجمعاً على الرغبة في الاستقلال والوحدة السورية ضمن وحدة عربية عامة مستقلة ورفض السياسة الصهيونية ووعد بلفور رفضاً قاطعاً .

ولن نتحدث بالتفصيل عن أعمال اللجنة في المناطق التي زارتها ، لأننا سنفرد فصلاً خاصاً للقرار الذي قدمته إلى مؤتمر الصلح ، لأنه يعطي صورة دقيقة وواضحة وغير مغرضة عن الأوضاع السائدة في البلاد العربية يومذاك ، ومشاعر المواطنين على اختلاف فئاتهم ونزعاتهم، وضعتها لجنة محايدة يتمتع رجالها بمزايا ثقافية وأخلاقية عالية ، كما ان هذا التقرير يعتبر وثيقة هامة بالنسبة لقضية فلسطين ، إذ بدأ أعضاء اللجنة تحقيقهم وهم كما يقولون ميالون إلى تحقيق وعد بلفور ، إلا انهم بعد استفتاء السكان العرب واليهود والضباط البريطانيين تأكد لهم ما في هذا الوعد من تناقض لأنه قضى بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين دون ان يمس ذلك بالحقوق المدنية والدينية التي للجماعات غير اليهودية فيها ، بينما أيقن أعضاء اللجنة بأن إنشاء وطن قومي لليهود هناك لا يمكن أن يتم دون اهتضام الحقوق المدنية والدينية للجماعات الأخرى ، بل ان بعض الضباط البريطانيين أكدوا لهم ان ذلك المشروع لا يمكن أن يتم إلا بقوة السلاح ، في حين صارحهم ممثلو اليهود بأن الصهيونيين يتوقعون أن يجلوا السكان غير اليهود من فلسطين بشراء الأراضي منهم . وقد رأت اللجنة ان ذلك كله يتناقض مع أهداف الحلفاء ومبادىء الرئيس ولسن ، ودعت إلى إدخال تعديل كبير على المشروع وتحديد الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

وقبيل مغادرة اللجنة دمشق زارها وفد كبير من أعضاء المؤتمر السوري العام ، وقدموا اليها قراراً اتخذه المؤتمر بالإجماع في جلسته المنعقدة في ٢ تموز (يوليه) سنة

إياك

ان يضلك الخونة

لا تبــع

بلاد اجدادك فتلعنك اولادك واحفادك

عش حرا

فك اسرك من نير الاستعباد فتستريح ولتكن مطالبك هي

اولاً — اطلب (الاستقلال السياسي التام) بلا قيد ولا شرط ولا حماية ولا وصاية

ثانياً — لاتقبل بتجزيء بلاد اهلك ووطنك اي (سورية كلها جزء لايتجزأ)

ثالثاً — اطلب حدود بلادك من الشمال (جبال طوروس) ومن الجنوب (صحراء السينا) ومن الغرب (البحر المتوسط)

رابعاً — تمنى لبقية البلاد المحررة العربية (الاستقلال والانضمام)

خامساً — عند الاحتياج رجح ان تكون المعاونة المالية والفنية من دوله اميريكا بشرط ان لاتمس استقلالنا السياسي التام

سادساً — احتج على المادة (٢٢) من قانون جمعية الامم القائلة بوجوب الوصاية لانك اهل للاستقلال

سابعاً — ارفض كل حق تدعيه دولة ما بان لها حقوقاً تاريخية او ارجحية في بلادنا رفضاً باتاً

وطني عربي مفادي

نموذج من الاعلانات التي وزعت على الأهلين عند مجيء اللجنة الأميركية للاستفتاء

١٩١٩ (١٣٣٨ هـ) وتضمن المطالب التالية :

١ – الاعتراف باستقلال سورية الطبيعية (بما في ذلك فلسطين وشرقي الأردن ولبنان) واستقلال العراق .

٢ – رفض اتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور وكل مشروع آخر يرمي إلى تجزئة سورية أو إنشاء دولة يهودية في فلسطين .

٣ – رفض الوصاية التي ينص عليها نظام الانتداب ، وقبول المعونة الفنية الأجنبية ، ويفضل ان تكون الولايات المتحدة هي الدولة التي تقدم تلك المعونة ، فإذا لم يكن ذلك ممكناً فتكون بريطانية ، على ان لا يمس ذلك الاستقلال التام والوحدة القومية والسيادة الوطنية .

وهذا هو النص الكامل لقرار المؤتمر السوري العام :

« اننا نحن الموقعين أدناه بإمضاءاتنا وأسمائنا أعضاء المؤتمر السوري العام المنعقد في دمشق الشام والمؤلف من مندوبي جميع المناطق الثلاث الجنوبية والشرقية والغربية والحائزين على اعتمادات سكان مقاطعاتنا وتفويضاتهم من مسلمين ومسيحيين وموسويين قد قررنا في جلستنا المنعقدة في نهار الأربعاء المصادف لتاريخ ٢ تموز – يوليو سنة ١٩١٩ وضع هذه اللائحة المبينة لرغبات سكان البلاد الذين انتدبونا ورفعها إلى الوفد الأميركي المحترم من اللجنة الدولية :

« أولاً – اننا نطلب الاستقلال السياسي التام الناجز للبلاد السورية التي تحدها شمالاً جبال طوروس وجنوباً (رفح) فالخط المار من جنوب (الجوف) إلى جنوب (العقبة الشامية) و (العقبة الحجازية) وشرقاً نهر الفرات فالخابور والخط الممتد شرقي (أبي كمال) إلى شرقي (الجوف) وغرباً البحر المتوسط ، بدون حماية ولا وصاية .

ثانياً – اننا نطلب أن تكون حكومة هذه البلاد السورية ملكية ، مدنية ، نيابية ، تدار مقاطعاتها على طريقة اللامركزية الواسعة وتحفظ فيها حقوق الأقليات على أن يكون ملك هذه البلاد الأمير فيصل الذي جاهد في سبيل تحرير هذه الأمة جهاداً استحق به أن نضع تمام الثقة بشخصه وان نجاهر بالاعتماد التام على سموه .

« ثالثاً – حيث ان الشعب العربي الساكن في البلاد السورية شعب لا يقل رقياً من حيث الفطرة عن سائر الشعوب الراقية وليس هو في حالة أحط من حالات شعوب البلغار والصرب واليونان ورومانية في مبدأ استقلالها فاننا نحتج على المادة (٢٢) الواردة في عهد جمعية الأمم والقاضية بإدخال بلادنا في عداد الأمم المتوسطة التي تحتاج إلى دولة منتدبة .

« رابعاً – إذا لم يقبل مؤتمر الصلح هذا الاحتجاج العادل لاعتبارات لا نعلم كنهها فاننا بعد ما أعلن الرئيس ولسن ان القصد من دخوله في الحرب هو القضاء على فكرة الفتح والاستعمار ، نعتبر مسألة الانتداب الواردة في عهد جمعية الأمم عبارة عن مساعدة فنية واقتصادية لا تمس باستقلالنا السياسي التام . وحيث اننا لا نريد أن تقع بلادنا في أخطار الاستعمار . وحيث اننا نعتقد ان الشعب الأميركي هو أبعد الشعوب عن فكرة الاستعمار وانه ليس له مطامع سياسية في بلادنا ، فاننا نطلب هذه المساعدة الفنية والاقتصادية من الولايات المتحدة الأميركية على أن لا تمس هذه المساعدة استقلال البلاد السياسي التام ووحدتها وعلى أن لا يزيد أمد هذه المساعدة عن عشرين عاماً .

« خامساً – إذا لم تتمكن الولايات المتحدة من قبول طلبنا هذه المساعدة منها فاننا نطلب أن تكون هذه المساعدة من دولة بريطانية العظمى على أن لا تمس استقلال بلادنا السياسي التام ووحدتها وعلى أن لا يزيد أمدها عن المدة المذكورة في المادة الرابعة .

« سادساً – اننا لا نعترف بأي حق تدعيه الدولة الفرنسية في أي بقعة كانت من بلادنا السورية ونرفض أن يكون لها مساعدة ويد في بلادنا بأي حال من الأحوال .

« سابعاً – اننا نرفض مطالب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي من البلاد السورية أي فلسطين وطناً قومياً للاسرائيليين ونرفض هجرتهم إلى أي قسم من بلادنا. لأنه ليس لهم فيها أدنى حق ولأنهم خطر شديد جداً على شعبنا من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسي . أما سكان البلاد الأصليون من اخواننا الموسويين فلهم

ما لنا وعليهم ما علينا .

« ثامناً – اننا نطلب عدم فصل القسم الجنوبي من سورية المعروف بفلسطين والمنطقة الغربية الساحلية التي من جملتها لبنان ، عن القطر السوري ونطلب أن تكون وحدة البلاد مصونة لا تقبل التجزئة بأي حال كان .

« تاسعاً – اننا نطلب الاستقلال التام للقطر العراقي المحرر ونطلب عدم إيجاد حواجز اقتصادية بين القطرين .

« عاشراً – ان القاعدة الأساسية من قواعد الرئيس ويلسن التي تقضي بإلغاء المعاهدات السرية تجعلنا نحتج على كل معاهدة تقضي بتجزئة بلادنا السورية أو كل وعد خصوصي يرمي إلى تمكين الصهيونيين في القسم الجنوبي من بلادنا ونطلب أن تلغى تلك المعاهدات والوعود بأي حال كان .

« هذا وان المبادىء الشريفة التي صرح بها الرئيس ولسن لتجعلنا واثقين كل الثقة في أن رغائبنا هذه الصادرة من أعماق القلوب ستكون هي الحكم القطعي في تقرير مصيرنا . وان الرئيس ولسن والشعب الامريكي الحر سيكونون لنا عوناً على تحقيقها فيثبتون للملأ صدق مبادئهم السامية وغايتهم الشريفة نحو البشرية بنوع عام ونحو شعبنا العربي بنوع خاص . وان لنا الثقة الكبرى في أن مؤتمر السلام يلاحظ أننا لم نثر على الدولة التركية التي كنا وإياها شركاء في جميع الحقوق التمثيلية والمدنية والسياسية ، إلا لأنها تحاملت على حقوقنا القومية ، فيحقق لنا رغائبنا بتمامها فلا تكون حقوقنا قبل الحرب أقل منها بعد الحرب بعد ان أرقنا من الدماء ما أرقناه في سبيل الحرية والاستقلال ونطلب السماح لنا بإرسال وفد يمثلنا في مؤتمر السلام للدفاع عن حقوقنا الثابتة تحقيقاً لرغباتنا هذه والسلام [1] » .

يقول الدكتور أحمد قدري : « وأذكر انني كنت ذات مرة مع الكابتن باي (أحد أعضاء اللجنة) الذي كنت ألازمه لمعرفته الافرنسية ، نسير على مقربة من مدرسة المارستان لتسهيل مقابلة اللجنة للهيئات الدينية الاسلامية ، فمررنا أمام دار

---

١ – الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ٤٨ ، العهود المتعلقة بالوطن العربي ص ١٢٤ ، يوم ميسلون ص ٢٦٢

سامي باشا مردم بك ، وكانت بناته الصغيرات يلعبن منشدات الأناشيد الوطنية في البهو الخارجي ، فاغتنمت الفرصة ودعوته للدخول ، وترجمت له ما كنّ يقلنه ، وقد سألهن بالفرنسية عن الداعي لما ينشدنه ، فأجبنه بأنهن لا يرغبن بديلاً بالاستقلال التام لبلادهن ، ويرفضن أي مساعدة فرنسية . فضحك وهو يقول : « ان هذا الوعي في سورية لمن دواعي فخرها . أخشى ما أخشاه أن لا تتحقق مطالبكم رغم الجهد الوطني الذي قمتم به لتوحيد كلمتكم . فأميركة لم يعد بوسعها التدخل في شؤون بلاد خارجة عن حدودها [1] . ولا أدري كيف يسعها تقديم المساعدات لكم ، وحتى المساعدة الفنية . اني أقول لك هذا كصديق ، مع ان واجبي لا يسمح لي بالافضاء بتصريح كهذا . » فكان لما قاله لي ، ولتأييد المستر كراين ذلك تلميحاً ، تأثير كبير في قرار المؤتمر السوري العام ، فقبل طلب المساعدة الفنية التي لا تمس الاستقلال التام من أميركة وان لم تقبل فمن بريطانية [2] » .

ويفسر أسعد داغر هذا الاتجاه بقوله ان الحجة التي كان يستند اليها القائلون بطلب المساعدة الأميركية أو الانكليزية ، ان أميركة لا تقبل ان ترتبط بعهود جديدة خارج القارة الأميركية ، وان انكلترة لا يسعها بالنظر إلى علاقاتها الودية مع فرنسة ان تقبل بما تعده الحكومة الفرنسية حقاً لها ، فينتج عن ذلك اننا بطلبنا المساعدة الأميركية أو الانكليزية نكتسب عطف الشعبين وصداقتهما ، من دون ان نستهدف لنفوذهما أو انتدابهما ، فنجعلهما بذلك عوناً لنا على درء المطامع الفرنسية [3] .

---

١ ـ كان كثير من الشخصيات الاميركية ينتقدون خروج الرئيس ولسن على مبدأ مونرو الذي اتخذ قاعدة للسياسة الاميركية منذ سنة ١٨٢٣ وهو يقضي برفض تدخل أوربة في شؤون الولايات المتحدة وعدم تدخل هذه في شؤون غيرها .

٢ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٢٥

٣ ـ مذكراتي على هامش القضية العربية ص ١٣١

الفصل التاسع عشر

تقرير لجنة كراين

يشمل تقرير لجنة كراين أمور الشرق الأدنى ، ويسهب في تحليل الأوضاع السائدة في البلاد العربية اسهابا كبيراً يجعل من الصعب الاستشهاد بالكثير مما ورد فيه ، إلا ان اهميته الكبرى في تصوير الواقع العربي يومذاك ، والاتحاد المكين بين المسلمين والمسيحيين لاحراز الاستقلال ، وبطلان الدعاوى الاستعمارية والصهيونية ، تحتم علينا تلخيص بعض فصوله ونقل مقاطع كبيرة منه .

وينقسم التقرير إلى ثلاثة أقسام: « المقدمات، فالمسائل بوجه عام، فالاستنتاجات والملاحظات » وقد أطلعت اللجنة قبل سفرها من باريس على التقارير المختلفة والعرائض والوثائق التي جاءت إلى دائرة آسية الغربية في قسم الخبراء الاميركيين في مؤتمر الصلح كما اطلعت على طائفة من الكتابات عن الشرق الادنى .

والطريقة التي اتبعتها اللجنة في اعمالها هي الاجتماع بالافراد والوفود الذين يمثلون الطبقات المختلفة، في المدن التي زارتها، وقد زارت ٣٦ مدينة وبلدة سورية في المناطق العسكرية الثلاث : الانكليزية والعربية والفرنسية ، ووقفت على أحوال الجهات الاخرى من الوفود واللجان التي قابلتها . وتضم سجلات اللجنة اسماء ١٥٢٠ قرية اتصل ممثلوها باللجنة وأبلغوها وجهات نظرهم .

وبلغ مجموع السكان في سورية [1] ثلاثة ملايين و ٢٤٥٥٠٠ نسمة ينقسمون هكذا : مسلمون ٢٣٦٥٠٠٠ نسمة ، مسيحيون ٥٠٠ ٥٨٥ ، دروز ١٤٠ الفاً ، يهود ١١٠ آلاف ، طوائف اخرى ٤٥ الفاً. ويجب اعتبار هذه الارقام في كل حال على وجه التقريب . ويمكن اعتبارها اقرب إلى الصواب في ما يتعلق بنسبة السكان في كل مقاطعة .

ومع التقرير خارطة توضح حدود المناطق العسكرية وحدود (فلسطين الكبرى) التي يطلبها الصهيونيون ، و (لبنان الكبير) الذي يطلبه اللبنانيون، ولا يمكن أن يكون عدد الوفود قياساً نسبياً للسكان ، فإن المسيحيين منقسمون إلى طوائف صغيرة كثيرة حتى إن وفودهم كانت اكثر عدداً من وفود الاكثرية الاسلامية .

وقد تلقت اللجنة ١٨٦٣ عريضة اثناء وجودها في سورية ، واتخذت جميع الوسائل للتثبت من العرائض والتواقيع «ولكنها بالنظر إلى طبيعة مهمتها والتسهيلات المحدودة لا تستطيع أن تضمن سلامتها من الغش » ولأن قيمة العرائض الفردية تختلف في عدد التواقيع إلا أن العدد نفسه لا يصح اتخاذه قياساً . مثال ذلك ان بعض العرائض التي لم يوقعها غير أعضاء المجلس البلدي قد تعبر عن الرأي العام اكثر من عريضة يوقعها ألف قروي .

ويبلغ مجموع التواقيع ٩١٠٧٩ تنقسم هكذا : ٢٦٣٢٤ من المنطقة الجنوبية و ٢٦٨٨٤ من الغربية و ٣٧٨٧١ من الشرقية ومعدل التواقيع في كل عريضة ٤٩ اسماً .

وتشتمل هذه العرائض مع ما تقدم على صورة الرأي السياسي في سورية، لأن اكثر العرائض الشاذة ينسخ بعضها بعضاً، فإن عرائض المسيحيين في فلسطين تساوت مع عرائض المسلمين بعد التيار الذي تدفق على اللجنة في حلب . ولم تؤثر حركات أعوان الفرنسيين في طرابلس في موقعي هذه العرائض اكثر من المساعي المعاكسة لانصار الاستقلال في عمان .

---

١ — كان هذا الاسم يطلق يومذاك على سورية ولبنان والاردن وفلسطين .

ومما لا خلاف فيه ان صفة هذه العرائض تمثيلية كما تدل عليه لائحة الوفود التي استقبلتها اللجنة ، ولأنها جاءت من الطبقات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والمدنية كافة والجمعيات، لأن القوم علموا أن اللجنة لا تذيع أي عريضة يقدمها فرد أو جماعة . وحدث في بعض المدن ان السلطة العسكرية حاولت السيطرة على اللجنة مباشرة أو بواسطة اخرى ولكن الاحزاب المعارضة كانت تعرض افكارها ومطالبها خطابة أو كتابة . وتحدث التقرير عن الخطط السياسية التي ظهرت جلياً في العرائض فإنه كان في ١٣٦٤ من ١٨٣٦ عريضة هذه الخطط بالحرف الواحد . وهناك عرائض اخرى كثيرة فيها شبه قريب منها .

ولم يكن في العرائض الاولى التي تلقتها اللجنة في يافا يوم ١١ حزيران – يونيو – باستثناء العرائض الصهيونية – برهان على وجود سياسة معينة متفق عليها لمستقبل سورية،بل كان هناك تفاوت عظيم في المعاني والمباني.وقد وجد بينها أربع عرائض تشتمل على ما يمكن تسميته برنامج الاستقلال وهو يتضمن :

١ – وحدة سورية السياسية ومن ضمنها كيليكيا شمالاً والصحراء السورية شرقاً وفلسطين حتى دجلة جنوباً .

٢ – الاستقلال الناجز لسورية .

٣ – مقاومة الوطن القومي الصهيوني والهجرة اليهودية .

ثم صار هذا البرنامج العلامة الواضحة في عرائض المنطقة الجنوبية فاشتملت عليه ٨ من ٢٣ في القدس و ١٠ من ٣٥ في حيفا والناصرة ، وكانت ٨٣ من ٢٦٠ في المنطقة الجنوبية أو ٣٢ بالمئة استقلالية ، بينما هناك عرائض تضرب على ما يشبه هذا الوتر .

أما في دمشق فقد صار برنامج الاستقلال الأصلي بعد تأييد المؤتمر السوري له في دمشق يعرف ببرنامج دمشق ، وهو يشتمل على ثلاث مواد من برنامج الاستقلال مع ادخال لفظة « المساعدة » من اميركا وإذا رفضته فانكلترا . وفيه أيضاً ما يأتي :

رفض المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم . رفض المطالب الفرنسوية كلها في سورية . الاحتجاج على المعاهدات السرية والاتفاقات الخاصة مثل اتفاق

سايكس – بيكو وتصريح بلفور ومقـــاومة استقلال لبنان الكبير . إنشاء حكومة ديمقراطية لامركزية برئاسة الأمير فيصل . المطالبة بالاستقلال والحرية الاقتصادية للعراق .

وقد تلقت اللجنة ثلاث عرائض تحتوي على (برنامج دمشق) قبل تأييد المؤتمر السوري له . ولكنها تلقت بعد ذلك ١٤٧٣ عريضة تضمنت ١٠٤٧ منها مواد هذا البرنامج ، منها ٩٧٤ مطبوعة .

وينقسم البرنامج اللبناني إلى ثلاثة أقسام كما تدل على ذلك العرائض :

ا – لبنان كبير فرنسي مستقل .

ب – لبنان كبير مستقل .

ج – لبنان اداري .

يطلب أصحاب البرنامج الأول فصل لبنان الكبير عن سورية واستقلاله التام مع سهول البقاع وضم طرابلس أحياناً ، وأن يكون تحت الوصاية الفرنسيـة . وقد تلقت اللجنة ١٣٩ عريضة تؤيد هذا البرنامج من ١٤٦ رفعت اليها في المنطقة الغربية المحتلة كانت عشرون منها ذات صيغة واحدة .

وبرنامج الحزب الثاني كبرنامج الحزب الأول إلا انه خال من طلب الوصاية الفرنسيـة ، و٣٣ من ٣٦ عريضة من هـــذا البرنامج مطبوعة في شكلين و٨ منها مضاف اليها طلب الوصاية خطأً .

وأما برنامج لبنان الاداري فيطلب لبنان الكبير كمقاطعة مستقلة ادارياً ضمن الوحدة السورية . ولم يرد ذكر للوصـــاية في هذا البرنامج على الاطلاق . وعدد العرائض التي اشتملت عليه ٤٩ وهي خطية ليس منها غير ٣ مطبوعة .

وبشأن البرنامج الصهيوني تلقت اللجنة ١١ عريضة تستحسن البرنامج الصهيوني وهو انشاء وطن قومي لليهود وفتح باب المهاجرة لهم . وجميع هـذه العرائض من اللجان اليهودية ، و ٨ عرائض أخرى تستحسن انشاء المستعمرات اليهوديـــة في فلسطين بدون موافقة على البرنامج الصهيوني كله . وقد رفع فلاحو العرب الذين هم على ولاء مع النزلاء اليهود ٤ من هذه الثماني .

وتحدث التقرير عن الحدود الجغرافية على الشكل التالي :

١ ـ نالت « سورية المتحدة » أكبر نسبة في ١٥٠٠ عريضة وهي ٨٠،٤ بالمئة من مجموع العرائض . وسورية المتحدة هنا يدخل فيها كيليكيا والصحراء وفلسطين. وتحدد عادة : جبال طوروس شمالاً ونهر الفرات والخابور والخط الممتد من أبو كمال إلى شرقي الجوف شرقاً ورفح ـ العقبة جنوباً والبحر الأبيض المتوسط غرباً . ومع ان وحدة سورية هي المادة الاولى في برنامج استقلال دمشق فان عدداً كبيراً من المسيحيين في المقاطعات كلها يؤيدونها كما تدل عليه العرائض .

٢ ـ العرائض التي تؤيد الصهيونية وعددها ١٩ فقد طلبت ٦ منها فصل فلسطين عن سورية .

٣ ـ طلبت جماعتان مسيحيتان في فلسطين وضع فلسطين منفصلة تحت الوصاية البريطانية تفضيلاً لذلك عن سورية المتحدة تحت الوصاية الفرنسية .

٤ ـ تضمنت ٢٤عريضة أكثرها من مسيحيي الجنوب طلب الاستقلال الاداري لفلسطين ضمن سورية ، وهذا ولا شك يندمج في طلب الوفود الأخرى الاستقلال والحكم اللامركزي .

٥ ـ وتلقت اللجنة ٢٠٣ عرائض ضد الوحدة السورية أو ١٠،٩ بالمئة يطلب أصحابها لبنان كبيراً مستقلاً .

٦ ـ زاد طلب الوحدة السورية ظهوراً وتأكيداً في العرائض التي رفعت إلى اللجنة احتجاجاً على استقلال لبنان الكبير وعددها ١٠٦٢ ، بعضها مندمج في برنامج دمشق وبعضها من البروتستانت والمصادر المسيحية الأخرى في لبنان .

٧ ـ أظهر ٣٣ وفداً من اللبنانيين الممثلين للمسلمين والمسيحيين خوفهم من المستقبل الاقتصادي إذا فصل لبنان عن سورية ، وطلبوا أن يكون مستقلاً ضمن الوحدة السورية . وفسر بعضهم الاستقلال الاداري باستقلال في حكومة لامركزية .

٨ ـ كان سهل البقاع معتبراً عادة جزءاً من لبنان الكبير لا ينفصل عنه وقد أشارت ١١ عريضة بوجوب ضمه إلى لبنان وطلبت ٨ من دمشق بقاءه في منطقة

دمشق .

٩ — كانت كيليكيا تعد من سورية مثل سهل البقـــاع ، وقد طلب ذلك أصحاب ١٥٠٠ عريضة من القائلين بسورية المتحدة . وقد سمتها عريضتان بأسماء مدنها ووجدت ٣ عرائض تطلب اعطائها لأرمينية .

وتحدث التقرير عن « الاستقلال الناجز » فقال :

١ — النسبة الكبرى الثانية هي للاستقلال النـــاجز ، فإنها ٧٥،٥ بالمئة . وقد أيدته الوفود الاسلامية كلها . ومن المؤكد كما دلت عليه الاحاديث الشفهية ان كلمة « الاستقلال الناجز » لم تستعمل بمعنى الحرية التامة من كل ارشاد أجنبي كالوصاية مثلاً . فان كثيراً من هـــذه العرائض كانت تشير أحياناً إلى اختيار الدولة الوصية أو طلب (المساعدة) الاجنبية . وهناك جمـــاعة الاندية العربية ترغب في التحرر التام من كل سلطة أجنبية بيد أن السواد الاعظم يطلب الاستقلال ويحدد الوصاية كمساعدة اقتصادية وتعليم اداري .

٢ — يكاد عدد العرائض التي طلب فيها استقلال العراق يوازي عدد العرائض التي تقدم ذكرها فقد بلغ ١٢٧٨ أو ٦٨،٥ بالمئة . ويجب أن يضاف إلى هذا ٩٣ من ٩٧ عريضة تطلب الاستقلال لسائر البـــلدان العربية ، وقد استعملت عبارة « كل البلدان العربية » في عرائض فلسطين ثم استبدلت « بالعراق » في برنامج دمشق ، فيكون مجموع العرائض التي طلب فيهـــا الاستقلال والحرية الاقتصادية للعراق (١٣٧١) .

أما شكل الحكومة فقد أجمل التقرير مطالب السكان بشأنه كما يلي :

١ — بلغ عدد العرائض التي طلب فيهـــا انشاء مملكة ديمقراطية دستورية لامركزية ١١٠٧ أو ٥٩،٥ بالمئة وكلها عدا ٥ تطلب الأمير فيصلاً ملكاً . وقد كانت هذه العرائض كثيرة في المنطقة الشرقية ولم يكن الامر كذلك في فلسطين حينما وصلت اللجنة ، إذ لم يرد ذكر المملكة في غير خمس عرائض من ٢٦٠ ذكر الأمير فيصل في اثنتين منها .

٢ — طلب ٢٦ وفداً من المسيحيين في المنطقة الغربية «حكومة تمثيلية ديمقراطية

ذات شكل جمهوري » ورفع مثل هذا الطلب إلى اللجنة من وفود في المنطقة الشرقية ، فالمجموع ٣٤ أو ١،٨ بالمئة . والغرض من هذا الطلب مقاومة فكرة المسلمين أو المملكة السورية برئاسة فيصل .

٣ – اشتمل البرنامج الدمشقي على طلب الضمانات الكافية لحماية حقوق الاقليات وأيد هذا الطلب عدد كبير من الوفود المسيحية في لبنان فبلغ المجموع (١٠٢٣) أو ٥٤،٩ بالمئة ، وقد نال هذا الطلب من المسلمين والمسيحيين تأييداً لم ينله سوى معارضة الصهيونية .

٤ – طلب ٥ عرائض في الجنوب ان تظل اللغة العربية لغة رسمية بدلاً من العبرانية وطلب في ١٠ الغاء الامتيازات الأجنبية .

٥ – رفعت إلى اللجنة ١٩ عريضة أو ١،٢ بالمئة تطلب الاستقلال الاداري لسائر المقاطعات السورية وذلك علاوة على العرائض التي طلبت فيها الاستقلال الاداري لسورية وفلسطين .

واما الوصاية فقد انقسم القوم خمس فرق تجاه الدولة الوصية فكان بعضهم يقول إذا كانت الوصاية إجبارية فاننا نطلب هذه الدولة أو تلك ومعنى ذلك انهم يقبلون الوصاية محتجين . وقد كانت الأكثرية الكبرى تطلب (المساعدة) بدلاً من الوصاية لخوفها ان تكون هذه رداء للمقاصد الاستعمارية .

١ – مجموع العرائض التي طلبت فيها انكلترة بالدرجة الأولى ٦٦ عريضة أو ٣،٥ بالمئة منها ٤٨ من الوفود الأرثوذكسية بفلسطين و ٤ من الدروز ومجموع العرائض التي طلبت فيها انكلترة بالدرجة الثانية ١٠٧٣ أو ٥٧،٥ بالمئة منها ١٠٣٢ تطلب مساعدة انكلترة إذا امتنعت أميركة .

٢ – مجموع العرائض التي طلبت فيها فرنسة بالدرجة الأولى ٢٧٤ أو ١٤،٦٨ بالمئة منها ٥٠ من لبنان فقط . وبلغ مجموع العرائض التي طلبت فيها فرنسة بالدرجة الثانية ٣ فقط .

أما مجموع العرائض التي طلبت فيها مساعدة أميركة في الدرجة الأولى فهو ١١٢٩ عريضة أو ٦٠،٥ بالمئة منها ٥٧ تطلب أميركة كدولة وصية و ٨ تفضل وصايتها إذا

كانت الوصاية إجبارية .

ويقول التقرير بصدد الصهيونية :

تكلمنا عن الصهيونية آنفاً ، ونقول الآن : انه بلغ عدد العرائض التي تقاومها ١٨٥٠ أو ٧٣،٣ بالمئة . وهذا العدد الأكبر هو الثالث في أي مطلب آخر وهو يمثل الرأي العـــام المسيحي الاسلامي أكثر من سواه . وكانت حركة مقاومة الصهيونية قوية في فلسطين على الأخص ، إذ كانت ٢٢٢ من ٢٦٠ عريضة ضدها أو ٨٠،٣ بالمئة وهذه أكبر نسبة لأي مطلب آخر .

وجاء في التقرير ان اللجنة تلقت عدداً من الاحتجـاجات والانتقادات وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام .

أولاً — انتقاد مطالب الدول ونوعيتها وسياستها بلا تحديد أو تعيين .

ثانياً — انتقاد معين على سوء الادارة والخلل والرشوة في الادارة العسكرية .

ثالثاً — احتجاجات على تدخل السلطات العسكرية المحلية ومضايقتها للجنة .

١ — عرضت على اللجنة ثلاث شكاوى عامة ضد الانكليز .

٢ — كانت الشكاوى العامة على الفرنسيين كبيرة جداً ، بلغ عددها ١١٢٩ أو ٦٠،٥ بالمئة ، وهذا ناتج بالأكثر عن وجود احتجاج من هـــذا النوع في برنامج دمشق . وعرضت على اللجنة ٢٤ شكوى ضد أعمال معينة أتاها الفرنسيون و ١١ شكوى ضد النفي والحرس المسلح والتهديد والإرهاق وما شاكل ذلك من الوسائط التي قال الشاكون ان السلطات الفرنسية لجأت اليها لتمنع الذين لا يمالئون الفرنسيين من الظهور أمام اللجنة .

٣ — ظهور الانتقاد العام على الحكومة العربية في ٣٥ عريضة من المسيحيين وفيها يتخوفون من سوء مصير المسيحيين في الحكم العربي . وانتقدت الحكومة العربية أيضاً في ٤ عرائض أخرى .

٤ — اشتملت ١٠٣٣ عريضة على الاحتجاج على المادة ٢٢ من عهد جمعية الأمم المتضمنة « وضع الجماعات المنفصلة عن تركية تحت إشراف إحدى الدول » وهـذا الاحتجاج يؤيد طلب الاستقلال التام لسورية الوارد في برنامج دمشق .

٥ – اندمج في ٩٨٨ عريضة ، احتجاج على المعاهدات السرية التي تقسم سورية بدون معرفة أهلها أو رضاهم على الاتفاقات الخاصة والمقصود بذلك أتفاق سايكس – بيكو وتصريح بلفور وان لم يرد لهما ذكر . وقد ورد هذا الاحتجاج في برنامج دمشق وأيدته الأحزاب الأخرى أيضاً .

وبعد ان فصل التقرير رغبات السكان بالنسبة للمطالب السياسية والتقسيمات الجغرافية، يعود فيحدد هذه الرغبات بالنسبة للمناطق التي زارتها اللجنة وهي المنطقة الجنوبية : ويقوم بإدارتها ضباط بريطانيون، والغربية : ويتولى شؤونها الفرنسيون، والشرقية : وهي بأيدي العرب ، والشمالية : وهي بإدارة الفرنسيين أيضاً . فيقول بالنسبة المنطقة الجنوبية : لما كانت الشيع المسيحية ، ولا سيما الكاثوليكية منها كثيرة ، كان من المرتقب ان لا تكون النسبة متعادلة في عدد اللجان والوقت الذي خصص لها فلذلك أعدت البعثة بياناً بأغراضها كانت تلقيه على الوفود والجماعات وأذاعته أيضاً في الصحف بشكل أحاديث . واتخذت أنواع الحيطة لتكون مهمتها واضحة وجلية .

وقضت اللجنة أسبوعاً في القدس ، أمضت يومين منه في زيارة بيت لحم والخليل وبير السبع ، واستفتت رؤساء الطوائف المختلفة . وطافت شمالي فلسطين بسرعة فاستقبلت الوفود في رام الله ونابلس وجنين وحيفا وعكا . وقد كان بعض هذه الجماعات يأتي من أماكن بعيدة يستحيل على اللجنة زيارتها. واجتمعت في مستعمرة « ريشون ليزيون» الصهيونية بزعماء عدة مستعمرات يهودية وأعضاء اللجنة الصهيونية المركزية .

١ – الحكومة المحتلة : كان الموظفون البريطانيون – من الميجر جنرال السر آرثر موني قائد منطقة بلاد العدو المحتلة الجنوبية إلى أصغر موظف – لطفاء مجاملين وأكثرهم ذو خبرة سابقة قبل الحرب في الهند أو في مصر والسودان ، وبصفتهم مجموعاً فهم هيئة ذات أهمية واقتدار تعمل في البلاد لمصلحة أهلها .

٢ – مطالب الشعب : اجتمعت كلمة المسلمين في فلسطين وهم حسب الاحصاء الانكليزي الأخير نحو أربعة أخماس السكان على المطالبة باستقلال سورية المتحدة ،

ولم تشذ منهم سوى فئة معروفة من الموظفين كانت تسير مع تيار النفوذ السياسي . وقررت الأحزاب التي اجتمعت في يافا ان سورية أهل لحكومة مستقلة بلا دولة وصية ، وانه إذا أصر مؤتمر الصلح على تعيين دولة فانهم يفضلون الولايات المتحدة . وقد أيد الناس في القدس وغيرها من فلسطين هـذا القرار وكانوا يحيلون مسألة الوصاية إلى المؤتمر السوري الذي ينطق بلسانهم . ورفض بعض المسلمين ولا سيما في الجنوب قبول الوصاية رفضاً باتاً مهما كان نوعها .

وكانت مطالب المسيحيين في فلسطين وهم (١٠) بالمئة من مجموع السكان، مختلفة، فكانت جماعات الشمال كاللاتين الكاثوليك في طبرية وحيفا وأكثر مسيحيي الناصرة مع المسلمين في طلب الاستقلال وترك تقرير مسألة الوصاية إلى المؤتمر السوري . وكان الروم الكاثوليك والموارنة يطلبون الوصاية الفرنسية . وكان الأرثوذكس في كل مكان متفقين على طلب الوصاية الانكليزية . وهناك جماعات أخرى لم يطلب أحد منها وصاية أميركة مباشرة ولكنها كانت تقول بأنها لو تأكدت من قبول الولايات المتحدة فانها لا تختار سواها ، وأكثر المسيحيين من هذا الرأي وكلهم في جانب الوصاية يريدون دولة ذات حكم صحيح .

وكان اليهود الذين يؤلفون أكثر من (١٠) بالمئة من سكان فلسطين يؤيدون الصهيونية، في الحين الذي اتفقت فيه كلمة المسلمين والمسيحيين على مقاومة الصهيونية، وهذه المسألة ذات علاقة كبيرة بوحدة سورية .

٣ — الصهيونية : أعلن يهود فلسطين تأييدهم للصهيونية بوجه عام واختلفوا في التفاصيل والطرق الموصلة إلى تحقيقها ، ويمكن وصف الأمور التي اتفقوا عليها في ما يلي :

جعل فلسطين « وطناً قومياً » في الحال وان يصير الحكم السياسي في البلاد عاجلاً أو آجلاً معروفاً باسم الحكومة اليهودية ، والسماح لليهود بالمهاجرة إلى فلسطين من كل مكان في العالم ، وان يكون شراء الأراضي مباحاً لهم وان تكون العبرانية لغة رسمية ، وان تكون بريطانية الدولة الوصية لفلسطين لتحمي اليهود وتساعدهم على تحقيق مشروعهم ، ولما كانت الدول الكبرى في العالم قد استحسنت

فكرة الصهيونية فلا تحتاج إلى غير تنفيذ . اما الذي اختلف عليه اليهود فهو : مسألة الحكومة اليهودية وهل يجب إنشاؤها عاجلاً أو بعد زمان طويل ، وهل يسيرون على حسب الطقوس والتقاليد اليهودية القديمة أم على الطريقة العصرية فيهتمون بالمسائل الاقتصادية واستثمار الموارد واستخراج القوات الكهربائية من الأنهار .

٤ — الأماكن المقدسة : ذهبت سلطة التركي عن البلاد وقد حافظ على الحالة القديمة من جهة الأماكن المقدسة وتركها كما هي فمن يقوم مقامه؟ قد تكون الدولة الوصية : فإذا أخذت الوصاية دولة كاثوليكية فلا بد من وقوع مشاكل ، لأن الكاثوليك يعتقدون انهم مظلومون ويطلبون زيادة حقوقهم على حساب الروم ، فوجود دولة كاثوليكية يفقد التوازن الموجود ولا سيما في غياب روسية . وبما انه يوجد الآن وكيل محافظ للأماكن الكاثوليكية المقدسة أفلا يمكن توسيع نطاق هذه الفكرة وجعلها دستوراً لهيئة دائمة تحافظ على الأماكن المقدسة يكون للروم الأرثوذكس والبروتستانت والمسلمين واليهود ممثلون بها ، واعطاؤها سلطة ووسائل تستعين بها على العناية بهذه الأماكن كلهـــا للأديان الثلاثة : ويجب ان يراعى في تأليفها أسباب الالفة والمحبة لئلا يبقى موضوع النزاع والخلاف .

وينتقل التقرير إلى الحديث عن المنطقة الغربية ، فيفصل أوضاعها على الشكل التالي :

١ — مطالب الشعب : كانت الحالة في المنطقة الغربية كالحالة في فلسطين إلا ان بعض المسلمين طلبوا المساعدة الأميركية أو الانكليزية ، وطلب الدروز الوصاية الانكليزية ، والموارنة وسائر الشيع الكاثوليكية طلبت وصاية فرنسة ، وانقسم الأرثوذكس فلم يجمعوا كلمتهم على طلب الوصاية الانكليزية كما فعلوا في فلسطين ودمشق ، وانقسم النصيرية أيضاً وكان أكثر الاسماعيليين مع فرنسة . وكانت آراء الذين يطلبون الوصاية الفرنسية مختلفة في مصير لبنان وعلاقته بسورية فان أكثر القوم من صور إلى طرابلس طلبوا استقلال لبنان الكبير وفصله عن سورية ووضعه تحت وصاية فرنسة . ورغب الآخرون ان تكون سوريـــة متحدة تحت الوصاية الفرنسية مع تكبير لبنان وإعطائه نوعاً من الاستقلال الاداري الواسع .

أما في لبنان الأصلي فالأكثرية مؤيدة للفرنسيين معارضة للانكليز. ولم تستطع اللجنة سؤال الذين يميلون إلى فرنسة رأيهم في الوصاية الأميركية فيما إذا كانت ممكنة وكانت الوصاية الفرنسية غير مرغوب فيها بسبب براهين أكيدة تدل على ان السواد الأعظم من السكان حتى الموارنة يفضلون أميركة على سواها . ويقال ان سبب التفضيل هو تجرد أميركة عن الأغراض الذاتية في الحرب ، وكرمها قبل الهدنة وبعدها ، والعلاقات الشخصية التي أنشأها عدد كبير من اللبنانيين الذين قضوا وقتاً طويلاً أو قصيراً في الولايات المتحدة ورجعوا إلى بلادهم محافظين على الاخلاص لأميركة .

وجاهر الدروز بطلب الانفصال عن لبنان إذا أعطي لفرنسة .

هذا في لبنان الأصلي ، اما في المناطق الأخرى التي يراد ضمها إلى لبنان الكبير مثل صور وصيدا وطرابلس فان فيها أكثرية كبرى من السكان تعترض على الحكم الفرنسي وتقاومه،ويدخل في هذه الأكثرية جميع المسلمين السنيين وأكثر الشيعيين وقسم من الروم الأرثوذكس وطائفة البروتستانت ، وأكثر هؤلاء يريدون أميركة أولاً وانكلترة بالدرجة الثانية .

والأكثرية في باقي المنطقة الغربية إلى شمال لبنان الكبير المراد إنشاؤه ضد الوصاية الفرنسية في كل الأحوال ، ومن الباقين قسم كبير يعترض على الانفصال عن داخلية البلاد ويضع وحدة البلاد فوق فرنسة .

ومما يجدر ذكره انه بينما السوريون الوطنيون يرفضون مساعدة فرنسة ذاكرين اسمها ، لم يتعرض أحد من نصراء فرنسة والراغبين في وصايتها لرفض أميركة أو انكلترة باسمها . على ان المسيحيين أظهروا في أحيان مختلفة انهم يخافون إذا صارت انكلترة وصية على البلاد ان تمالىء المسلمين على المسيحيين .

لبنان : صارت هذه المنطقة الجميلة التي وضعت منذ سنة ١٨٦١ تحت حماية الدول الأوربية الست وجُعل حاكمها مسيحياً موضع اهتمام فرنسة من ذلك العهد ، لأن أكثر سكانها من الموارنة والكاثوليك . وقد ظهرت في هذه المنطقة كسائر البلاد التي فصلت عن سلطة الباب العالي مباشرة آثار العمران فأنشئت الطرق وغرست

الأشجار وشيد عدد كبير من البيوت الحجرية ، وكان المال الذي يربحه المهاجرون في الولايات المتحدة عاملاً كبيراً في هـــذا التقدم ، وقد ازدادت ثروة الرهبنات المارونية والأديرة في هذه السنين وأعفي لبنان من الخدمة العسكرية ، وكانت الضرائب التي يدفعها خفيفة. ولما كان قطراً مسيحياً وكان للمسيحيين فيه من وظائف الحكومة أكثر مما تخولهم نسبتهم العددية مال الدروز إلى الهجرة واللحاق باخوانهم في حوران استياء من عدم المساواة .

وقد ظهرت آثار سياسة فرنسة الاستعمارية في كثير من سكان هذه المنطقة وفي بيروت والأقسام الأخرى من سورية ، فهم يشعرون انهم يعرفون اللغة الفرنسية أكثر من اللغة العربية وانهم أرقى من سكان المنطقة الداخلية. هؤلاء هم الذين يطلبون فصل لبنان عن سورية ، أو هم البقعة التي نمت فيها هذه الفكرة .

وقد حمل قرب المنطقة الحكومة التركية على التساهـــل واللين مع المسيحيين وغيرهم في المناطق الأخرى لئلا يكون فارق كبير بينها في العمران ، ولكن إعفاء لبنان من الخدمة العسكرية واتساع المجال أمـــام طلاب الوظائف وقلة الضرائب أو صغرها مال بالكثيرين إلى فكرة لبنان الكبير تحت وصاية فرنسة . غير ان هناك حزباً كبيراً بين المائلين إلى فرنسة يقاومون فكرة جعل لبنان قسماً من فرنسة وهذا يصدق على ذوي المراتب الرسمية من الموارنة .

ان كل تعديل في الحالة يجب ان ينيل باقي سورية مثل هذا الضمان لا ان يحرم منه سكان لبنان ، وذلك مستطاع توفيره في سورية المتحدة بواسطة نوع كافٍ من الاستقلال الاداري . ويجب توقي ابقاء هذه المقاطعة ذات مركز ممتاز عن سواها لئلا يزداد ثقل الاعباء على المناطق الأخرى .

وينتقل التقرير إلى منطقة الاحتلال العربية فيشير إلى ان المؤتمر السوري قد عقد في أثناء وجود اللجنة في دمشق وعلقت في الشوارع ألواح كتب عليها « نريد الاستقلال التام » . وأعدت اللجنة في خلال تلك المدة التدابير لرحلة إلى أطراف الصحراء للوقوف على آراء السكان ، ثم تنقلت في مختلف أنحاء المنطقة ، وخرجت بالآراء التالية :

كانت المطالب في المنطقة الشرقية أقرب إلى الاجماع من مثلها في المنطقة الغربية أو الجنوبية كما يظهر ذلك من النظرة الأولى إلى جداول العرائض ، ويؤيد الجانب الأكبر من هذه المطالب – بين شفهي وخطي – قرار المؤتمر السوري ، وقد اتفقت على هذا البرنامج أحزاب مختلفة متضاربة ، لأن الكل شعروا بوجوب الاتحاد والتضامن لسلامة الوطن . وكان لسعي الحكومة والأحزاب الأخرى تأثير على الأحزاب المتطرفة فسارت في الصف بعد نشوزها ، مثل الذين كانوا يطلبون الاستقلال التام بلا وصاية أو الذين يطلبون الوصاية وحدها . ومما لا ريب فيه ان مواد البرنامج الرئيسية تعبر عن فكر الجمهور العام ما أمكن التعبير عنه في أي بلاد كانت .

طلب القوم في هذه المنطقة « سورية المتحدة » بالإجماع تقريباً ، وطلبوا لها الاستقلال الناجز ، ورفضوا كل مساعدة فرنسية ، وأعلنوا انهم ضد البرنامج الصهيوني . واتفق المسلمون كلهم على طلب المساعدة من أميركة . وأيد اليهود المشروع الصهيوني لاخوانهم في فلسطين وطلبوا لأنفسهم الاستقلال الاداري . وطلب الدروز حكومة عربية تحت الوصاية البريطانية ، وانقسم المسيحيون حسب الطوائف حيناً وحسب المكان حيناً آخر ، وكان مسيحيو الجنوب كلهم حتى الكاثوليك واللاتين يطلبون الوصاية البريطانية ، أو الأميركية إذا كان الانكليز لا يستطيعون المجيء لسبب ما . وكان ذلك شأن أرثوذكسيي دمشق وقسم منهم في الشمال. أما الطوائف البروتستانت الصغيرة فكانت تطلب وصاية انجلوسكسونية أمريكية أو انكليزية . وكان الأرثوذكس السوريون كلهم في جانب أميركة، وكل الموارنة والكاثوليك (خلا الذين في عمان ودرعا) في جانب فرنسة كما ان المسيحيين كلهم تقريباً كانوا في جانب الوصاية .

ثم تحدث التقرير عن المؤتمر السوري وطريقة انتخابه والمقررات التي أعلنها وقدمها إلى اللجنة ، وقال ان الأدلة كثيرة على ان هذه المقررات تعبر عن أفكار القوم في سورية أتم التعبير .

ويقول التقرير انه كان متعذراً على اللجنة زيارة العراق في مثل ذلك الظرف



لوحات واوراق ووريقات نصبت في الشوارع السورية ونثرت في الأسواق
عند مجيء اللجنة الاميركية للاستفتاء

بعد ان سئلت بإلحاح القيام بهذه الزيارة . وتلقت في دمشق وحلب شكايات على القوات الانكليزية المحتلة بأنها تضيق على السكان حريتهم السياسية في الخطابة والعمل ، وانها تنوي فتح باب المهاجرة للهنود بصورة تؤذي سكان العراق في حقولهم ومصالحهم .

وقدّمت هيئة في حلب بياناً وافياً إلى اللجنة يشبه برنامج المؤتمر السوري الدمشقي هذه خلاصته :

١ — يجب ان يكون العراق مستقلاً استقلالاً تاماً بما فيه ديار بكر ودير الزور والموصل وبغداد والمحمرة .

٢ — تكون الحكومة ملكية دستورية نيابية .

٣ — يكون الملك أحد أنجال الملك حسين ، فاما عبد الله واما زيد .

٤ — الاحتجاج على المادة (٢٢) من عهد جمعية الأمم .

٥ — رفض تدخّل أي دولة أجنبية في البلاد .

٦ — طلب المساعدة الاقتصادية والادارية من أميركا بعد نيل الاستقلال أو الاعتراف به .

٧ — الاعتراض على المهاجرة كلها ولا سيما هجرة الهنود واليهود .

٨ — ان يكون لسورية الاستقلال التام .

٩ — ان لا تتدخل فرنسة في سورية .

يقول التقرير : ومما يلاحظ ان هذه الشعوب القديمة تطلب اتباعاً لتقاليدها حدوداً واسعة ليس في الإمكان الحصول عليها مثل دير الزور في سورية وديار بكر في أرمينية والمحمرة في العجم .

وجاء بطريرك السريان الأرثوذكس « النساطرة » من دير زفران — الواقعة قرب ماردين — فقابل اللجنة في حمص ، وقال ان (٩٠) ألفاً من قومه قتلوا سنة ١٩١٥ ، ولما جاء الانكليز سنة ١٩١٨ كانوا جميعاً مستعدين للدخول في حكمهم والاذعان لهم ، ولكن وصول رسل الآستانة لاستثارة الأكراد ونهوض العرب المطالبة باستقلالهم زاد الحالة سوءاً ، فلذلك يطلب ضم المقاطعة التي يقطنها شعبه

إلى العراق تحت الوصاية الأميركية أو البريطانية .

وتخلص اللجنة إلى اتخاذ التوصيات التالية :

لسورية مقام جغرافي عظيم سياسياً وتجارياً ومدنياً فهي الجسر الذي يصل بين اوروبة وآسية وافريقية ، فيجب ان يكون العدل اساس الحكم في قضيتها لتنجم عنه فائدة للمدنيـــة في العالم . ويجب ان يعطى كل قسم من المملكة التركيـة السابقة حياة جديدة ويفسح المجال له بعد تبديل الأحوال السياسية لأنه ربما كان انحلال المملكة التركية فرصة عظيمة – لا تعود – لانشاء حكومـــة شرقية في سورية على مبدأ الحرية الدينية التامة التي تشمل سائر الأديان وتصون حقوق الاقليات بنوع خاص . ومن الانصاف للعرب الاعتراف بالأمة العربية ورغائبها الوطنية كما انه من مصلحة العالم أن تتألف حكومة عربية على القواعد السياسية الحديثة . نعم ان العناصر متعددة والمصالح متباينة ، وان كثيراً من السكان غير صالحين الآن للحكم الذاتي ، ومع ذلك فان الاحوال ملائمة للقيام بهذه التجربـة الآن لأن هؤلاء السكان كانوا على اختلاف مذاهبهم وطبقاتهم على نوع واحد من الاتفاق تحت الحكم التركي رغم سياسة التفريق التركي .

ولا بد ان يكونوا احسن حالاً في عهد حكومة حديثة ووصاية راقية ، وعلى كل فان مشارفة دولة تنتدبها جمعية الأمم يمنع هذه النهضة مـن السير في الطريق التي سارت عليها تركية الفتاة وحينئذ يدرك العرب ايضاً ان هذه افضل فرصة سانحـة لتأليف حكومة عربية فيجتهدون لتكلل حركتهم بالفوز المبين . وما ظهر الآن من مقاصد الامير فيصل يجعـــله جديراً كل الجدارة برئاسة حكومة جامعة بين المبادىء الشرقية والغربية ويضمن نجاح هذه التجربة بواسطة دولة وصية مخلصة . ويبقى في الامكان إذا فشلت هذه التجربة الرجوع الى تجزئة الأراضي . بيد ان تجزئـة الاراضي حسب المذاهب يولد مشاكل لا عداد لها .

لذلك يجب ان يكون الغرض من كل سياسة يسار عليها في المسألة السوريـة : « انشاء حكومة وطنية تستمد سلطتها من مشيئة الشعب الحرة » وان تكون هذه السياسة متفقة جهد الامكان مع وحدة البلاد الجغرافية والاقتصادية .

هذه هي الخطة الطبيعية التي ينبغي السير فيها ـ هذا إذا كان السير ممكناً لانها تتفق مع رغائب مؤتمر الصلح ورغائب السواد الاعظم من السكان .

ان اول وأهم ما تشير به هو انه مهما كانت الادارة اجنبية سواء كان ما يؤتى به الى سورية دولة او اكثر ـ ان لا تأتي كدولة مستعمرة بل كدولة وصية من قبل جمعية الامم غايتها ومهمتها المقدسة « خدمة الشعب السوري وترقيته »

ويجب ان تكون مدة الوصاية محدودة تعينها الجمعية حسب الحقائق التي تراها في تقارير الدولة الوصية ، وان تكون للدولة الوصية سلطة كافية ذات زمن محدود أيضاً لتكفل نجاح الحكومة الجديدة وتتمكن من القيام بالمشاريع الأدبية والاقتصادية اللازمة لحياة البلاد . وان تصرف الدولة الوصية همها الاكبر إلى التعليم الضروري لأبناء البلاد الديمقراطية وتكوين روح وطنية قوية ، وهذا لازم بنوع خاص في سورية التي استفاق ضميرها حديثاً . وعلى الدولة الوصية ان تسعى منذ البداية لتدريب الشعب السوري على الحكم الذاتي المستقل بأسرع ما تسمح الأحوال وذلك بإنشاء جميع ما يقتضي لحكومة ديمقراطية من الدساتير وإشراك السكان في الادارة وزيادة نصيبهم من الحكم شيئاً فشيئاً ، حتى تتألف بالتدريج روح وطنية متنورة في الوطنيين لا تنظر إلى مصلحتها الشخصية عند النظر في مصلحة البلاد وتتألف في الوقت نفسه قوة كبيرة منظمة لخدمة البلاد . ولما كان من الواجب ان لا يطول زمن المشارفة بلا سبب مشروع فمن الضروري إنشاء حكومة ذاتية مستقلة حالما يمكن الاقدام على هذا الأمر ، مع العلم أن الغرض الأول من الحكومات ليس الحصول على أشياء معينة بل ترقية الوطنيين .

ومن واجب الدولة الوصية في سورية وفي هذا العصر المتمدن ان تجعل الحرية الدينية التامة في مأمن قولاً في الدساتير ، وعملاً في الادارة . وان تكون عنايتها شديدة بالمحافظة على حقوق الأقليات إذ لا شيء أكثر أهمية من هذا في نجاح الحكومة العربية الجديدة .

ويجب التوقي من تراكم الديون الكبيرة على الحكومة الجديدة في ترقيتها الاقتصادية كما يجب التوقي من غمسها في شؤون الدولة الوصية الاقتصادية والمحافظة

من جهة أخرى على امتيازات الأجانب كحقوقهم في إنشاء المدارس والمشاريع الاقتصادية الخ . ومن الواجب عرضها على جمعية الأمم لتعدلها كما تقتضي مصلحة سورية . ولا ينبغي للدولة الوصية ان تستخدم سلطتها لتأييد مشاريع احتكارية إلى حد يضر بسورية أو الأمم الأخرى بل يجب ان تعمل للسير بالحكومة الجديدة إلى الاستقلال الاقتصادي سريعاً كالسير بها إلى الاستقلال السياسي .

ومهما كان نصيب الآراء الأخرى فانه يجب العمل بهذه الآراء إذا كان مؤتمر الصلح وجمعية الأمم مخلصين لمبدأ الوصايات (الموضوع في دستور الجمعية) وتجب المحافظة على مصالح سورية الجوهريـــة كيفما كان شكل الادارة فيها فان المؤتمر السوري في دمشق تساوره المخاوف من جعل سورية مستعمرة لإحدى الدول تحت اسم آخر غير الاستعمار ، فلذلك يجب نزع هذا الخوف بنزع أسبابه .

وتشير اللجنة في الدرجة الثانية بالمحافظة على وحدة سورية حسب رغائب السواد الأعظم من سكانها كما تدل على ذلك عرائضهم ، لأن البلاد المشار اليها محدودة وعدد سكانها قليل جداً — ووحدتها الجغرافية والجنسية واللغوية واضحـــة بينة لا تحتمل إنشاء حكومات مستقلة ضمن حدودها المطلوبة . وإذا كان في الوسع تجنب هـذا التقسيم فان البلاد عربية بلغتها ومدنيتها وتقاليدها وعاداتها .

ان هذا الرأي مطابق للنظريات العامـــة التي سبق ورودها كما انه ينطبق على مبادىء جمعية الأمم ويتفق مع رغائب الأكثرية في البلاد .

يجب ان ترسم حدود سورية الجغرافية لجنة خاصة، وتعتقد اللجنة ان طلب المؤتمر السوري إدماج كيليكيا في سورية لا مسوغ له تاريخياً ولا تجارياً ولا من حيث العلاقات اللغوية لأن الحد الفاصل بين أبناء اللسان العربي وأبناء اللسان التركي يضع كيليكيا مع آسية الصغرى أكثر مما يضعها مع سورية . وعلاوة على ما تقدم فليست سورية محتاجة إلى شاطىء بحري آخر مثل أقسام آسية الصغرى .

ولا ينبغي حين الاعتراف بوحدة سورية نسيان الأماني الطبيعية في المناطق التي تشبه لبنان الذي له نوع من الاستقلال . وتكون الوحدة أصح وأمتن إذا أعطي لبنان وما شاكله نوعاً واسعاً من الاستقلال الاداري فان برنامج دمشق نفسه يطلب

حكومة على قاعدة اللامركزية الواسعة . تمتع لبنان بكثير من الرخاء والحكم الاداري في المملكة التركية فمن الضروري ان لا يكون حظه في المملكة السورية أقل من حظه في المملكة التركية ، بل يجب ان يعتقد بأن علاقاته الاقتصادية والسياسية مع باقي سورية تكون وهو عضو في سورية أفضل منها إذا انفصل عنها انفصالاً تاماً .

وبالطبع ان لبنان كبلاد أكثر سكانها مسيحيون يخشى تسلط المسلمين في سورية المتحدة وهناك موانع أربعة تقيه هذا الخوف :

أولاً – استقلاله الاداري الواسع .

ثانياً – وجود دولة وصية قوية مدة طويلة يتألف فيها الدستور الذي تسير عليه الحكومة الجديدة .

ثالثاً – مشاركة جمعية الأمم التي تحافظ على الحرية الدينية وحقوق الأقليات .

رابعاً – شعور الحكومة العربية بضرورة المحافظة على لبنان لكي تستطيع الدخول في جمعية الأمم .

وعلاوة على ذلك فإذا كان عدد المسيحيين كبيراً في داخل المملكة يزول الخطر من جنوح المسلمين إلى الاستياء الذي لا بد منه إذا كان عدد المسيحيين كبيراً خارج المملكة وهذا الأمر تؤيده الحوادث في الهند في علاقات الأديان المختلفة .

ثم ان لبنان كبلاد أكثر سكانها مسيحيون يكون أقوى وأفيد إذا كان ضمن سورية المتحدة مما لو كان خارجها منفرداً لوحده إذ يكون شريكاً لها في كل منافعها ومصالحها الحيوية،ولذلك نرى ان تكون سورية ولبنان متحدين معاً لفائدتهما وهذا رأي اللبنانيين المتنورين أنفسهم .

ومثل هذا الكلام يقال عن فلسطين وهي وان كانت « الأرض المقدسة » عند المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء فانها ذات موقف دقيق يحتاج إلى معالجة دقيقة وسيأتي الكلام عنها في سياق الحديث عن الصهيونية .

تشير اللجنة في الدرجة الثالثة بوضع سورية تحت وصاية دولة واحدة كواسطة طبيعية لتأمين الوحدة وفائدتها . ولا ترى تقسيم إدارة المقاطعات السورية بين عدة

وصيات ولو كانت الوحدة الوطنية معترفاً بها ، فليست هذه ولا تلك بالطريقة الطبيعية التي تعتقد اللجنة انها الفضلى لتوحيد الحكومة الجديدة أو الشعب كله . وليس من المستبعد ان ترغم الظروف مؤتمر الصلح على الأخذ بوصاية مقسمة وهذا ليس بالحل الذي يجب اختياره عن طواعية لعدم اتفاقه مع مصلحة السكان الكبرى.

ويجب ان لا ننسى ان السوريين هناك وانهم مضطرون إلى الاتفاق معاً على صورة ما ، ولا بد لهم من العيش بعضهم مع بعض سواء العرب في الجهة الشرقية أو الذين على الساحل من المسلمين والمسيحيين . فهل يعاونون على ذلك أم يعرقلون بإنشاء علاقات ودية ولائية بواسطة دولة وصية واحدة ؟ لا ريب في ان الحل الاداري السريع لمسألة العلاقات الصعبة هو تقسيم القوم إلى أجزاء صغيرة مستقلة ، وبعض الأحيان لا بد أن يكون الفصل جلياً واضحاً كما في قضية العلائق بين الترك والأرمن ، ولكن الفصل التام بين تلك الأجزاء لا ينتج عنه غير اشتداد الخلاف وزيادة العداوات بين العناصر .

ان العبرة التي يلقيها علينا درس الشعور الاجتماعي الحديث توجب إدراك (النصف الآخر) على قدر ما يستطاع إدراكه بالعلاقات الممكنة الحية ، فعلى الدولة الوصية التي تمنح بعض الجماعات استقلالاً إدارياً محلياً معقولاً ان تعمل في الوقت نفسه على تقوية وحدة الشعور الوطني في سائر البلاد ، وعلى تحسين العلاقات الودية بين تلك الجماعات المختلفة لأن سكان سورية كما سمعناهم أكدوا لنا مراراً ان العلاقات القديمة بين الجماعات المختلفة ناشئة عن سياسة الحكومة التركية السيئة ، فإذا شمل العدل الجميع على السواء ووضح ان غرض الحكومة هو خدمة جميع الطبقات بلا تفضيل ولا تمييز تحسنت العلاقات وزال سوء التفاهم ولا يتم الوصول إلى هذا الأمر بتفريق الناس بعضهم عن بعض وجعلهم اعداء .

بناء على ماتقدم يلح رجال اللجنة في وضع سورية تحت وصاية واحدة وذلك لفائدة المذاهب والجماعات كلها .

وتشير رابعاً بأن يكون الأمير فيصل رئيس حكومة سورية المتحدة للأمور التالية :

١ – طلب المؤتمر السوري التمثيلي هذا الطلب بالإجماع باسم الشعب السوري وليس هناك ما يحمل على الشك بأن السواد الأعظم من سكان سورية يرغبون رغبة صادقة في ان يكون الأمير فيصل حاكماً .

٢ – ان المملكة الدستورية القائمة على مبادىء الديمقراطية ملائمة للعرب بطبيعة الحال ولما ألفوه من أحوال القبلية ولاحترامهم لزعمائهم فانهم يحتاجون أكثر من كل شعب إلى ملك كمركز شخصي لسلطة الحكومة .

٣ – ان الأمير فيصل وصل إلى سلطته الحاضرة وصولاً طبيعياً ، ولا يوجد شخص آخر يقوم مقامه .

ومن ميزاته انه ابن شريف مكة ، وله مقام كبير في العالم الاسلامي ، وكان أحد زعماء العرب الكبار الذين حملوا التبعة في ثورة العرب ضد الترك واشتركوا في تحرير الشعوب الناطقة بالعربية في المملكة التركية ، ولذلك وضع فيه المؤتمر السوري ثقته التامة . ولقد أخذ الانكليز بناصره ونوسموا خيراً من تقلده رئاسة الحكومة العربية الجديدة فهو عربي عصري يميل إلى الأخذ بفضائل المدنية الغربية . وصلاته مع العرب في شرق سورية ودية فلا خوف على مملكته من هذا الجانب، كما هو محبوب من العرب في المنطقة الشرقية . وهيهات ان يوجد رجل يتفق الناس على محبته أكثر منه، فهو متساهل حكيم حاذق في سلوكه مع الناس واكتساب مودتهم وثقتهم وهو رجل مخلص بعيد النظر . ولا يمكن الجزم الآن فيما إذا كانت له القوة الكافية التي يحتاج اليها في معالجة الصعوبات ولكن مما لا شك فيه انه لا يوجد زعيم عربي آخر فيه من عناصر القوة ما فيه وسيكون أكبر معين في زمن الوصاية .

يستطيع مؤتمر الصلح ان يثق كل الوثوق بأن وجود عربي له هذه الصفات على رأس هذه الحكومة الجديدة في الشرق الأدنى مفيد .

وتنهي اللجنة توصياتها بالتوصية التالية بشأن البرنامج الصهيوني :

تشير اللجنة بوجوب تنقيح البرنامج الصهيوني لفلسطين تنقيحاً كبيراً ولاسيما مهاجرة اليهود غير المحدودة التي ترمي إلى جعل فلسطين بلاداً يهودية .

١ – باشرت اللجنة درس الصهيونية وهي ميالة إلى استحسانها ، ولكن الحقائق الحسية التي وجدتها في فلسطين مع قوة المبادىء العامة التي أعلنها الحلفاء وقبلهـ السوريون حملتها على وضع المشورة الآنفة .

٢ – تلقت اللجنة من اللجنة الصهيونيـــة فصولا إنشائية كثيرة عن البرنامج الصهيوني وسمعت كثيراً عن المستعمرات الصهيونية ومطالبها في المؤتمر ورأت بنفسها شيئاً مما فعلته ووجدت عدداً كبيراً يؤيد أماني الصهيونيين وخططهم وهي تعجب من انصراف تلك الجوالي إلى العمل وتغلبها بالوسائط الحديثة على العقبات الطبيعية .

٣ – تعتقد اللجنة ان الصهيونيين حصلوا على تشجيع معلوم من الحلفـــاء في تصريح الـــلورد بلفور الذي كثر اقتباسه والاستشهاد به وتصديق ممثلي الحلفاء الآخرين عليه . إنما إذا عمل بهذا التصريح الذي يقضي بإنشاء « وطن قومي لليهود في فلسطين مع الفهم الصريح بأنه لا يجب ان يعمل شيء يمس بالحقوق المدنيـــة والدينية التي للجماعات غير اليهودية في فلسطين » .

إذا عمل بهذا النص لا يبقى شك في انه يجب إدخال تعديل كبير على البرنامج الصهيوني .

ان إنشاء وطن قومي « للشعب اليهودي » لا يعني جعل فلسطين بلاداً يهودية ، كما انه لا يمكن إقامة حكومة يهودية بدون اهتضام الحقوق المدنيـة والدينية التي للجماعات غير اليهودية في فلسطين . والحقيقة التي وقفت اللجنة عليها في أحاديثها مع ممثلي اليهود هي ان الصهيونيين يتوقعون ان يجلوا السكان غير اليهود من فلسطين بشراء الأراضي منهم .

ان الرئيس ولسن في خطبته التي ألقاها في ٤ تموز–يوليو سنة ١٩١٨ وضع المبدأ التالي كواحد من المقاصد الأربعة الكبرى التي يحارب الحلفاء من أجلها وهو :

« حل كل مسألة سواء كانت تتعلق بالأرض أو السيادة أو المسائل الاقتصاديـة والسياسية يجب ان يبنى على قبول الناس الذين يتعلق بهم قبولا حراً لا على المصالح المادية أو لفائدة أي دولة أو أمة أخرى ترغب في حل آخر خدمة لنفوذها الخارجي أو لسيادتها » . فإذا كان هذا المبدأ سيسود وإذا كانت رغائب السكان في فلسطين

سيعمل بها فيما يتعلق بفلسطين فيجب الاعتراف بأن السكان غير اليهود في فلسطين هم تسعة أعشار السكان كلهم تقريباً يرفضون البرنامج الصهيوني رفضاً باتاً، والجداول تثبت ان سكان فلسطين لم يجمعوا على شيء مثل إجماعهم على هذا الرفض. فتعريض شعب هذه حالته النفسيـــة لمهاجرة يهودية لا حدّ لها ولضغط اقتصادي اجتماعي متواصل ليسلم بلاده ، نقض شائن للمبدأ العادل الذي تقدم شرحه ، واعتداء على حقوق الشعب وان كان ضمن صور قانونية .

وقد اتضح أيضاً ان الشعور العدائي ضد الصهيونية غير قاصر على فلسطين بـل يشمل سكان سورية بوجه عـــام فان ٧٢ بالمئة من مجموع العرائض في سورية ضد الصهيونية ولم ينل مطلب نسبة أكبر من هذه النسبة غير الوحدة السورية والاستقلال وقد أعرب المؤتمر السوري الدمشقي عن هذا الشعور العام في المواد ٧ و ٨ و ١٠ من بيانه .

ولا ينبغي لمؤتمر الصلح ان يتجاهل ان الشعور ضد الصهيونية في فلسطين وسورية بالغ أشده وليس من السهـــل الاستخفاف به فان جميع الموظفين الانكليز الذين حادثتهم اللجنة يعتقدون ان البرنامج الصهيوني لا يمكن تنفيذه إلا بالقوة المسلحة ويجب ان لا تقل هذه القوة عن خمسين ألف جندي ، وهذا في نفسه برهان واضح على ما في البرنامج الصهيوني من الاجحاف بحقوق غير اليهود . لا بد من الجيوش في بعض الأحيان لتنفيذ القرارات ، ولكن ليس من المعقول ان تستخدم الجيوش لتنفيذ قرارات جائرة . هذا فضلاً عن ان مطالب الصهيونيين الأساسية في حقهم على فلسطين مبنية على كونهم احتلوها منذ ألفي سنة وهذه دعوى لا تستوجب الاكتراث والاهتمام .

وهناك أمر لا يجوز إغفاله إذا كان العالم يريد ان تصير فلسطين مع الوقت بلاداً يهودية ، وهو ان فلسطين هي الأرض المقدسة عند اليهود والمسيحيين والمسلمين على السواء ، يهم أمرها ملايين من المسيحيين والمسلمين في العالم ، ولا سيما ما يتعلق من تلك الأحوال بالعقائد الدينية والحقوق . فمسألة فلسطين وما يتفرع منها مسألة دقيقة حرجة ، ومن المستحيل ان يرضى المسلمون والمسيحيون بوضع الأماكن

المقدسة تحت رعاية اليهود مهما حسنت مقاصد هؤلاء . والسبب في ذلك هو ان الأماكن الأكثر تقديساً عند المسيحيين هي ما له علاقة بالمسيح ، والأماكن التي يقدسها المسلمون غير مقدسة عند اليهود بل مكروهة . ولا يستطيع المسيحيون والمسلمون فيهذه الأحوال ان يرضوا من وضع تلك الأماكن تحت إشراف اليهود. ثم هناك أماكن أخرى لها في نفوس المسلمين مثل هذا الشعور ، ولما كانت هذه الأماكن كلها مقدسة ومحترمة من المسلمين كانت وصايتهم عليها فيما مضى أمراً طبيعياً. فالذين يطلبون صيرورة فلسطين يهودية لم يحسبوا للنتائج حسابها، ولا للشعور العدائي ضد الصهيونية في جميع أنحاء العالم التي تعتبر فلسطين أرضاً مقدسة .

وبناء على ما تقدم تشعر اللجنة مع عطفها على مسألة اليهود ، ان الواجب يقضي عليها بأن تشير على المؤتمر ان لا يؤيد غير برنامج صهيوني معتدل يجب العمل فيه بالتدريج ، وبعبارة أخرى يجب تحديد المهاجرة اليهودية إلى فلسطين ، والعدول بتاتاً عن الخطة التي ترمي إلى جعل فلسطين حكومة يهودية .

ولا يوجد هناك سبب يمنع ضم فلسطين إلى سورية المتحدة كأقسام البلاد الأخرى ووضع الأماكن المقدسة تحت إدارة لجنة دولية دينية تكون كما هي الحال في الوقت الحاضر تحت إشراف الدولة الوصية وجمعية الأمم ويكون لليهود بالطبع عضو في هذه اللجنة .

وينتهي التقرير بتوصيات اللجنة بشأن العراق [1] فيقول :

بالنظر للقرارات ، التي أصدرها مؤتمر الصلح في ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٩١٩، وبالنظر للتصريح الانكليزي الفرنسي الصادر في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩ — في عشية الهدنة — وكل من هذه الوثائق يصنف سورية والعراق في مقام واحد ليعالج أمرهما بطريقة واحدة ، كما يقطع لكل منهما الوعود والتأكيدات ذاتها فان

---

١ — من اجل توحيد المصطلحات استبدلت عبارة ما بين النهرين « بالعراق » .

عضوي اللجنة يوصيان مؤتمر الصلح بأن يتبع تجاه العراق سياسة توازي بشكل عام تلك التي أوصى باتباعها حيال سورية حتى لا يتحول التصريح الانكليزي–الفرنسي إلى « قصاصة أخرى من الورق » .

١ – ووفقاً لذلك فاننا نوصي، انسجاماً تاماً مع التعليمات الصادرة الينا، وباعتبار ان ذلك يتقدم على غيره في الأهمية ، بأن أية إدارة (حكومة) أجنبية تدخل إلى العراق يجب ان تأتي العراق ليس كدولة مستعمرة بالمعنى القديم لهذه الكلمة ، بل كدولة منتدبة من عصبة الأمم ، مشفوعة بإدراكها الجلي بأن « رفاه الشعب وإنماءه » يؤلفان بالنسبة اليها امانة مقدسة . ومن أجل هذه الغاية يجب ان يكون للانتداب أجـــل محدود ، وان تقرر موعد انتهائه عصبة الأمم ، في ضوء جميع الوقائع كما ترد من عام إلى آخر ، سواء أفي التقارير السنوية للدولة المنتدبة المرفوعة إلى العصبة أو بطرق أخرى .

ان النص الكامل للتوصية الأولى بشأن سورية مشفوعاً بالتوصيات الملحقة بها ، ينطبق نقطة نقطة على العراق بالصحة ذاتها التي ينطبق فيها على سورية .

وإذا ما قام مؤتمر للصلح وعصبة الأمم والدولة الموكل اليها الانتداب بتنفيـــذ سياسة الانتدابات المتجسدة في ميثاق عصبة الأمم ، تنفيذاً مخلصاً ، فان أهم مصالح العراق الأساسية تصان بذلك تماماً ، ولا تصان بغير هذا .

٢ – ونوصي ، في المقام الثاني ، بأن تصان وحدة العراق، وان تخطط حدوده المضبوطة بواسطة لجنة تخطيط للحدود ، بعـــد تعيين الانتداب عليه . وعلى وجه الاحتمال يجب ان يشتمل (العراق) على الأقل ، على ولايات البصرة وبغـــداد والموصل. كما يمكن إلحاق المناطق الكردية والآشورية الجنوبية بالعراق. فالحكمة من إيجاد قطر موحد هي ، في حالة العراق ، في غنى عن النقاش .

٣ – ونوصي في المقام الثالث ، بأن يوضع العراق تحت إشراف دولة منتدبة واحدة ، باعتبار ان ذلك السبيل الطبيعي لتأمين وحدة حقيقية وفعالة . كما ان مهمة إنماء الشعب اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وتعليمياً تستدعي مثل هـــذا الانتداب الموحد . وليس خليقاً بأن ينجم عن محاولة تقسيمه وتجزئته إلى « مناطق نفوذ » من

جانب عديـــد من الدول ، إلا تعريض مصالح الشعب إلى الهدر والاضطراب والاحتكاك والأذى. وهذا يتضمن انه ليس للدولة المنتدبة ان تكون دولة مستثمرة إنما يجب ان تحافظ على حقوق الشعب كأمانة مقدسة .

٤ - لما كان من المرغوب فيه بوضوح ان يكون ثمـــة انسجام في المؤسسات السياسية والاقتصادية والتدابير المتعلقة بسورية والعراق، ولما كان يجب ان يكون للشعب الكلمة الأولى في تقرير شكل الحكومة التي سيعيش في ظلها ، فاننا نوصي بأن تكون حكومة العراق ، انسجامـــاً مع الرغبات السافرة لشعبها ، ملكية دستورية ، كالحكم المقترح لسورية ، وبأن يعطى شعب العراق فرصة يعلن فيها ملكه المختار وان تراجع عصبة الأمم اختياره هذا وتثبته . ويمكن الافتراض بما يقارب الصواب ان الـ ١٢٧٨ عريضة الواردة من سوريين بطلب الاستقلال للعراق - وتعادل ٦٨ بالمائة من مجموع العرائض الواردة - تعكس الشعور في العراق بالذات ، كما ان الاتصالات التي استطعنا تأمين عقدهـــا مع العراقيين تدعم هذا الافتراض وتجر إلى الاعتقاد بأن البرنامج الذي رفعه في حلب، الممثلون العراقيون، برئاسة جعفر باشا الحاكم العسكري لمنطقة حلب ، والذي يوازي عمليـــاً البرنامج المرفوع في دمشق ، خليق بأن يؤيده الشعب العراقي بشكل عام . وسواء أكان هذا التأييد يشمل كل مادة في البرنامجين على وجه سواء ، وسواء أكان يشمل تعيين ملك من أبناء ملك الحجاز ، فليس لدينا من المعلومات الكافية للفصل في الأمر ، ولهذا أوصينا باجراء استفتاء على هـــذه النقطة . هذا على الرغم من وجود بينات بريطانية على أن العراقيين قد عبروا عن تحبيذهم لواحد من أبناء عاهل الحجاز كأمير يولى عليهم .

٥ - يعلن البرنامج العراقي عن اختياره اميركا كدولة منتدبة من غير بديل ثان . ولا شك أنه كان في العراق قسط كبير من الانفعال الساخط ضد بريطانية العظمى ، فالعرائض تتهم على وجه التعيين السلطات البريطانية في العراق بتدخل كبير في حرية الرأي والتعبير (الكلام) والانتقـال - وقد يبرر الكثير منه في وقت الاحتلال العسكري ، ولكن المشاعر المهيجة بذلك القدر قد تنتج بالطبع

عدم استعداد للتعبير عن الرغبة في اختيار بريطانية العظمى دولة منتدبة . ومن جهة أخرى فان مادة الكتيب المسمى : « نسخ وترجمات التصاريح وغيرها من الوثائق المتعلقة بتقرير المصير في العراق» قد استدعتها محاولة من جانب الحكومة البريطانية في العراق لتأمين آراء الزعماء المتقدمين في كل جماعة فيما يتعلق بتقرير المصير . اما هذه المادة، نظراً لأنها مرفوعة مباشرة إلى المسؤولين البريطانيين، فهي بلاريب أميز لمصلحة البريطانيين مما لو كانت خلاف ذلك، ولكنها تدلل بما لا يقبل الشك على ان قسطاً كبيراً من الرأي (العام) من شأنه ان يختار الانتداب البريطاني . وعلى كل حال فان مجال اختيار دولة منتدبة ذات قدرة وتجربة كافيتين ومتميزة بالعدالة الأساسية هو مجال محدود ولا ريب. وانه ليس مما يقبل الاحتمال، ان العراقيين إذا جبهوا برفض أميركة قبول الانتداب على العراق ، خليقون بأن يجعلوا بريطانية موضع خيارهم الثاني على الأقل ، كما فعلت الأغلبية السورية. وهنالك شواهد إضافية كذلك على هذه النقطة.

ولما كان لا يبدو محتملاً ان أميركة تستطيع ان ، أو خليقة بأن تتقبل انتداباً على العراق ، وبالاضافة إلى إمكان قبول انتداب على سورية وآسية الصغرى ، فان عضوي اللجنة يوصيان بأن ينيط مؤتمر الصلح الانتداب على العراق ببريطانية العظمى للأسباب العامة الآنف ذكرها في معرض التوصية بجعلها دولة منتدبة على سورية في حالة عدم قبول أميركة ذلك ، إذ انهـــا قد تكون أنسب الدول للمهمة الخاصة المنطوية في ذلك ، ونظراً لعلاقاتها العريقة مع العرب ، كعرفان لجميل تضحياتهـا التي بذلتها لإنقاذ العراق من الأتراك ، هذا مع عدم الإقرار لها بحق الفتح، كما تعبر بياناتها هي عن إسقاطها لادعائها بهذا الحق ، ونظراً للمصالح الخاصة التي لها، طبيعياً، في العراق بسبب من قربه إلى الهند وصلاته الوثقى مع شبه الجزيرة العربية. وبسبب مما سبق ان قامت به من عمل في الاقليم (العراقي) .

وان تلك الأسباب لتجعل انتداباً بريطانياً أحسن ما يكون ، على وجـــه الاحتمال ، لخدمة المصالح الكبرى للشعب العراقي ككل ، على الرغم من انه من الأحسن لبريطانية وللعالم ، من وجهة نظر المصالح العالمية الكامنة في الحيلولة دون إثارة الغيرة والشكوك والمخاوف من سيطرة دولة منفردة ، ألا يضاف أي أقليم

جديد إلى الامبراطورية البريطانية . وعلى كل حال فان انتداباً بريطانياً سيتمتع بميزة مقررة هي النزوع إلى دعم الوحدة الاقتصادية والتعليمية في كل من ارجاء سورية والعراق ، سواء أكانت سورية تحت انتداب بريطانية أو أميركة ، وهكذا فان (الانتداب) سيعكس بشكل أكثر مما سبق العلائق الوثقى في ميدان اللغة والعادات والتجارة بين هذين الجزئين من الامبراطورية العثمانية السابقة .

وفي بلد كالعراق وافر الغنى بالامكانات الزراعية والبترول وغيره من المصادر سيلوح حتمياً ، رغم توفر كل النوايا الطيبة ، خطر الاستثمار والسيطرة الاحتكارية من قبل الدولة المنتدبة عن طريق فرض سيادة المصالح البريطانية وخاصة عن طريق هجرة هندية واسعة النطاق . فهذا الخطر يتطلب احترازاً متزايداً ونزيهاً . وإن العراقيين ليشعرون شعوراً قوياً بحدة هذا الخطر وبخاصة خطر الهجرة الهندية ، حتى ولو اقتصرت الهجرة على المسلمين الهنود . فهم يتخوفون من التمازج بشعب آخر من عرق متباين كلية وعادات مختلفة كلية باعتباره يهدد حضارتهم العربية .

وتنهي اللجنة تقريرها الكبير ببيان وجهات نظرها بشأن الدولة أو الدول التي ستكون لها الوصاية في هذه المنطقة، استناداً إلى ما عرفته من رغبات المواطنين[1].

---

١ ـ يستطيع القارىء الاطلاع على خلاصات أوفى من تقرير لجنة كراين في : الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ٥١ ـ ٨٣ ، مذكرات حسن الحكيم ج ١ ص ١٧١ ـ ٢١٨ ، يقظة العرب ص ٦٠٠ ـ ٦٢١ ، العهود المتعلقة بالوطن العربي ص ١٠٤ ـ ١٢١

الفصل العشرون

المؤتمر السوري يعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية

أطل شهر ايلول (سبتمبر) سنـــة ١٩١٩ (١٣٣٨ هـ) والأفق السياسي في البلاد العربية ينذر بهبوب العاصفة . ذلك أن تقرير لجنــــة كراين لم يكن له أية نتيجة ايجـــابية ، وقد أهمل في دروج المؤتمر مع الكثير الذي أهمل مما يعبر عن صرخات الشعوب والآمال التي عقدتها على أول محاولة تبذل لاقرار السلام في مؤتمر عالمي وعلى صعيد الحق والعدل .

لقد كان رد الفعل الوحيد لهذا التقرير الذي يسجل حقيقة الأماني العربية ، أنه أثار الحكومة الفرنسية على بريطانية ، فاتهمتها في حملات صحفية عنيفة ، بالتآمر على « حقوقها » في سورية ، وأخذت تلح على تنفيذ اتفاقية سايكس بيكو .

وانتهزت بريطانية هذه الفرصة السانحة لتعديل الاتفاقية بما يتلاءم مع مطامعها في البلاد العربية ،وبعد مفاوضات ومساومات عديدة وافقت فرنسة على ضم الموصل إلى العراق ، وعلى أن تكون فلسطين بادارة الانكليز وحــــدهم ، وعلى أن تبقى شرق الاردن ضمن منطقة الاحتلال البريطاني .

وأثناء تلك المفاوضات ، ورداً على ثورة الشيخ صالح العلي في جبال العلويين ضد القوات الفرنسية ، والاعتداء على جورج بيكو والأميرال موروني في بعقلين واصابة

الأميرال خلال ذلك بجرح خطير، واضطرام الحركة الوطنية في جميع أنحاء سورية، أبلغت القيادة العليا البريطانية الأمير فيصل في ٩ ايلول (سبتمبر) ١٩١٩ ، ان الماريشال اللنبي عازم على اعادة الأمن إلى نصابه إذا حدثت قلاقل أو اضطرابات ضمن منطقة قيادته . فأجابه الأمير بأنه لا يوافق على تقسيم البلاد العربية المفصولة عن تركية أبداً ، ولا يساعد على استعمارها ، وان مبعث المظاهرات والاضطرابات التي يقوم بها الشعب إنما هو خوفه من أن تهضم حقوقه وعدم اطمئنانه على مصيره . وكان الجواب الذي تلقاه ان الماريشال اللنبي سيعاقب كل محاولة مشروعة كانت أم غير مشروعة تخل بالأمن والنظام [١] !

وتلقى الأمير فيصل في اليوم التالي برقية من لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية يدعوه فيها إلى باريس [٢] ، على أن يصل اليها قبل السادس عشر من ذلك الشهر . فبادر الأمير بالسفر إلى حيفا بقطار خاص ، وأبحر منها على نسافة بريطانية قاصداً مرسيلية ، وكان يرافقه المقدم أركان حرب محمد اسماعيل والشيخ فؤاد الخطيب سكرتيره للشؤون الخارجية وحداد باشا مدير الأمن العام والدكتور أحمد قدري طبيبه الخاص والخوري يوسف اسطفان الخطيب الماروني الذي التحق بالحركة الوطنية في دمشق وتحسين قدري مرافقه العسكري وتوفيق الناطور وجميل الإلشي، ثم لحق به من لبنان الأمير أمين أرسلان والأمير فايز شهاب والدكتور سامح الفاخوري .

وكان من المفروض أن تسرع النسافة البريطانية في سيرها لتصل بالأمير إلى فرنسة في الوقت المحدد، ولكن مفاوضة الحكومتين الفرنسية والانكليزية لم تكن قد انتهت ، وكانت فرنسة قد اعترضت على اشراك الأمير فيصل فيها ، فتلقت النسافة وهي في عرض البحر أمراً بالتباطؤ في سيرها ، وعرجت على مالطة بحجة

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٣٥

٢ ـ قال الدكتور احمد قدري (ص ١٣٥) وأمين سعيد (ج ٢ ص ٨٧) أن الدعوة وجهت الى الامير لزيارة لندن ، وقال محمد عزة دروزة (ج ١ ص ١٠٣) انه دعي الى باريس ، اما جورج انطونيوس فقال (ص ٤١١) انه دعي الى اوربة .

احتياجها لبعض الاصلاح والوقود ، ووصلت إلى مرسيلية في ١٨ ايلول (سبتمبر) بعد أن توصلت فرنسة وبريطانية إلى التفاهم على معظم الأمور المختلف عليها، وصدر في السابع عشر من ذلك الشهر بلاغ رسمي يعلن ان الاتفاق قد تمّ بشأن حلول القوات الفرنسيـــة محل القوات البريطانية في سورية و كيليكية باستثناء المدن الأربع : دمشق وحمص وحماة وحلب ، التي تبقى القوات العربية فيها ، وتدخل الأقضية الأربعة : البقاع وبعلبك وحاصبيا وراشيا التي كانت تابعة للمنطقة الشرقية في منطقة الاحتلال الفرنسي .

وكان معنى جلاء بريطانية أنها تريد أن تدع القوات العربية في المنطقة الشرقية من سورية وجهاً لوجه مع القوات الفرنسية ، مطلقة أيدي هذه القوات في تسوية الأمور بحسب مقدرتها ودهائها ... وكان ذلك كله يتم في انتظار قرار مؤتمر الصلح، ومن أجل وضع هذا المؤتمر أمام الأمر الواقع .

وعبثاً كان العرب يحاولون حث أعضاء المؤتمر على النظر في قضية البلاد العربية ، خوفاً من أن ينسحب الاميركيون منه فيخسروا عضداً قويـــاً . وقد رفع عوني عبد الهادي تقريراً إلى المؤتمر اقترح فيه فصل القضيـة العربية عن القضية التركية ، والاسراع بنظر القضية الأولى لاعتبارات بيّنها في اقتراحه . ومع أن بعض أعضاء الوفد الاميركي وعدوه بالتأييد ، إلا أن الكلمة الفعلية ظلت للانكليز والفرنسيين ، فأرجيء النظر في القضية العربية ، ثم حدث بعد ذلك أن انسحب الأميركيون فعلاً ورفضوا ابرام معاهدة فرسايل ، فكان هذا الانسحاب خيبة جديدة للعرب ، بعد أن باع الانكليز صداقة العرب بزيت الموصل ، ونقضوا عهودهم لهم . وقد وصف المستر كراين رئيس اللجنة الاميركية إلى بلاد المشرق ما جرى أبلغ وصف بقوله: « لما خرجنا من باريس في صيف سنة ١٩١٩ إلى الشرق كنا كلنا آمـــالاً بنجاة سورية وتحريرها ، فلما عدنا وجدناها بيعت بيع السلع ... باعها الانكليز بزيت الموصل ، وهو الزيت الذي تنازل عنه الفرنسيون ثمناً لاطلاق أيديهم في سورية [1] »

---

١ ـ الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ٩٠

ولما وصل الأمير إلى الساحل الفرنسي قابله مندوب من قبل لويد جورج يبلغه اضطراره للعودة إلى لندن بسبب تأخر وصوله، وبأنه ينتظره في العاصمة البريطانية. وفي لندن أدرك الأمير أن كل شيء قد انتهى ، وكانت كلمات المسؤولين له من قبيل التعزية وتطييب الخاطر ، وقد نصحوه بمقابلة كليمنصو والتفاهم معه .

وقابل الأمير ذلك بغضب شديد،وأكد للمسؤولين البريطانيين أن هذا الاتفاق من شأنه أن يثير الاضطرابات في البلاد العربية ، وجدد مطـــالبته بتنفيذ العهود المعطاة لأبيه الحسين من قبل مكماهون باسم صاحب الجلالة ، وهي صريحة بشأن اقامة دولة عربية مستقلة في سورية الداخلية بما فيها شرق الاردن وولاية الموصل ، ولا مجال فيها لأي تأويل ، فسمع من اللورد كيرزون وزير الخارجية « ما حطم أمله وكشف له حقيقة الموقف بنفض بريطانية يدها من القضية السورية واطلاق يد فرنسة فيها[1] » ولما أعياه الأمر أخذ يناضل لابقاء القضية العربية ذات صبغة دولية، فلا تطلق في سورية يد فرنسة وحدها ، فكان كل مـــا استطاع الوصول اليه هو موافقة بريطانية على تشكيل لجنة عسكرية من أربعة ضباط : فرنسي وانكليزي وأميركي وعربي للنظر في الخلافات التي قد تقع هناك .

وعلى أثر ذلك انتقل الوفد العربي إلى باريس في ٢٠ تشرين الاول (اكتوبر) ، وأخذ يسعى دون جدوى لاقناع الوفد الاميركي بالتدخل لالغاء الاتفاق البريطاني الفرنسي المعقود في ١٥ ايلول (سبتمبر) ، وحينئذ لم يجد الأمير فيصل بداً من العمل بنصيحة اللورد اللنبي له بمقابلة الرئيس كليمنصو ومحاولة التفاهم معه .

وكانت الحكومة الفرنسية تبالغ في الحفاوة بالأمير فيصل ، والرئيس كليمنصو يكثر من زيارته والتودد له ، بينما هي مـــاضية في تنفيذ خطتها الاستعمارية ، وقد عينت الجنرال غورو وهو من كبار قادتها مندوباً سامياً لها في سورية وقائداً عاماً للجيش الفرنسي في الشرق ، فصرح قبل سفره إلى بيروت بأن مهمته هي احلال الجنود الفرنسيين محل الجنود البريطانيين في تلك البلاد إلى أن يتقرر مصيرها في مؤتمر

---

١ - حول الحركة العربية الحديثة ج ١ ص ١٠٥

السلام . وقد أثار ذلك قلق أعضاء الوفد العربي ، بسبب اختيار قائد كبير لهذا المنصب يعاونه كثير من الضباط ، والشروع في ارسال قوى فرنسية كبيرة إلى سورية ، فصرح الأمير فيصل في مؤتمر صحفي بأنه « يرغب في اتفاق ودي مع فرنسة والتعاون مع الجنرال غورو ، إلا أنه لا يتمكن من التسليم بتجزئة البلاد خلافاً لرغبات سكانها وللوعود الرسمية التي وعد بها بأن لا يتم في بلاد العرب أي حل يخالف رغبات السكان » وأضاف : « وأقول هنا ان المستر لويد جورج أطلعني منذ أيام على مذكرة وطلب مني التسليم بها فرفضت ذلك بتاتاً ، وعندي توكيل من العرب فلا يحق لي أن أقبل شكلاً من أشكال الحكم يعارض آمالهم ، ولم أفعل في باريس سوى اني طلبت من المسيو كليمنصو أن لا يجزىء بلادنا وأن تظل القيادة العسكرية فيها موحدة إلى أن يصدر قرار المؤتمر ، فلم أتلق جواباً على ذلك ، فإذ رأى العرب أن الأمم الأخرى خدعتهم فانهم يطلبون العون في مكان آخر [1] »

وقد أفضت مباحثات الأمير مع وزارة الخارجية الفرنسية في ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) إلى الاتفاق الموقت التالي :

١ ــ تأليف لجنة من فرنسي وعربي وانكليزي لتسوية المشاكل التي قد تحدث بين المناطق .

٢ ــ انسحاب الجنود العرب من البقاع التابع للمنطقة الشرقية المستقلة « ولو انه بمقتضى معاهدة سايكس بيكو ضمن المنطقة الغربية » .

٣ ــ يشرف على أعمال الشرطة والدرك الموجودة حالياً بالبقاع هيئة مختلطة مؤلفة من ضباط فرنسيين وعرب يتفق عليها محلياً .

وأبرق الأمير فيصل بذلك إلى شقيقه الأمير زيد بن الحسين الذي كانت له مواقف مشهودة في حرب التحرير العربي والذي كان ينوب عن أخيه في حكم المنطقة الشرقية كلما تغيب عنها ، مؤكداً له أن المفاوضات مستمرة مع الحكومة الفرنسية ، طالباً منه تهدئة الخواطر وتطمين الأهلين .

---

١ ــ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٤١ ، الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ٩١

ولكن الجنرال غورو لم يرق له هذا الاتفاق ، وكان قد استقر في بيروت وبدأ يمد نفوذه إلى كل الانحاء ، فأخر تسليم برقيـــة الأمير فيصل إلى الأمير زيد حتى انتهت القوات الفرنسية من احتلال المنطقة الغربية بما في ذلك البقاع .

وأبلغ الكولونيل كوس المعتمد الفرنسي ، رضا الركابي ان هذا التدبير إنما هو تدبير موقت وان قرار الجنرال غورو يقضي بأن تبقى ادارة الجهات التي احتلتها الجنود الفرنسية في المنطقة الشرقية مرتبطة بحكومة دمشق العربية كالسابق ، وان الحامية العربية في بعلبك تبقى جنباً إلى جنب مع الحامية الفرنسية ، وهكذا الأمر في رياق والجهات التي يمتد فيها خط الحديد ، أمـا المنطقة الشرقية الحالية ، فتظل حكومتها مسؤولة عن الأمن داخل حدودها دون تدخل الجيوش الفرنسية ، إلا إذا قضت الضرورة بمساعدة الحكومة العربية وبطلب منها [1] .

ولكن احتجاج الأمير فيصل إلى كليمنصو ، واقنـــاعه « بأن هذا الاحتلال سيؤدي إلى اقتتال العرب والفرنسيين لا محالة [2] » ، ورغبة الرئيس الفرنسي في محاسنة الأمير وموادعته أملًا في الوصول إلى عقد معاهدة معه تحقق مطامع فرنسة ، دفعا بالحكومة الفرنسية إلى اصدار أمر إلى غورو بسحب القوة الغازية من بعلبك والاكتفاء بإبقاء ضابط الارتباط . ومع ذلك فان مجيء هذا الضابط إلى بعلبك قد أدى إلى تجمع السكان في مدخل البلدة والحيلولة بينه وبينها ، فعاد أدراجه بعد أن صودرت أمتعته ، وعدّت السلطة الفرنسية في بيروت هذا العمل إهانة لها،فوجهت إلى بعلبك حملة كبيرة اشتبكت مع المجاهدين ودمرت بعض القرى ثم جلت عن بعلبك بعد ان تدخلت الحكومة العربية في الأمر وأعادت أمتعة الضابط الفرنسي اليه .

وكانت الأحداث تتعاقب خلال ذلك في سورية ، فالثورات تنشب في أطراف البلاد وعلى حدودها كلما وقع اصطدام بين القوات الفرنسية والمواطنين،والسلطات

---

١ ـ سورية والعهد الفيصلي ص ١٢١

٢ ـ محاضرات في الاستعمار ج ٢ ص ١١٢

البريطانية تختطف قبل جلائها عن دمشق ياسين الهاشمي رئيس ديوان الشورى الحربي (وزارة الدفاع) وتنقله إلى معتقل في الرملة لأنه أقر طلب الهيئات الوطنية بفرض الخدمة العسكرية الاجبارية وساعد الثوار في المنطقة الغربية [1] ، ورضا الركابي يعمد إلى الاستقالة أمام إصرار الهيئات الوطنية على مقابلة القوة بالقوة لمعرفته البون العظيم بين قوى الفريقين ، والمؤتمر السوري يعقد دورة جديدة بدعوة من الأمير زيد يتخذ فيها قراراً شديد اللهجة يندد فيه بنكث الحلفاء لعهودهم ، وخرقهم ميثاق جمعية الأمم قبل أن يجف مداده ، ويدعو الأمة إلى الدفاع عن وحدتها واستقلالها وشرف قومها إلى آخر نسمة فيها .

وإثر استقالة الركابي عين مكانه عبد الحميد باشا القاطقجي ، وبعد عدة أيام عين الأمير زيد مصطفى نعمة وكيلاً للحاكم العسكري العام ، وأحدثت مديرية الداخلية العامة وعهد بها إلى رشيد طليع ، أما منصب رئاسة ديوان الشورى (وزارة الدفاع) فقد أسند إلى يوسف العظمة فقويت بذلك فكرة الدفاع . ثم أقرت الخدمة العسكرية الاجبارية لمدة ستة أشهر من سن العشرين إلى الأربعين، إلا انه تعذر تسليح الجيش بالسلاح الثقيل ولم تكن بطاريات المدفعية الست التي كان الملك حسين قد أرسلها استجابة لطلب الأمير فيصل ، وهي من مخلفات الجيش العثماني ، لتكفي ، ولم يكن العتاد الكافي متوفراً لها [2] .

وظل مشروع المعاهدة بين فيصل وكليمنصو موضع درس ومراجعة وتعديل عدة أسابيع ، وفي أوائل كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٠ (١٣٣٩ هـ) وصل إلى باريس الدكتور ثابت نعمان طبيب الملك حسين ، حاملاً إلى الأمير فيصل أمراً

---

١ ـ يرى بعض المؤرخين ان في طليعة الاسباب التي دعت الى اعتقال ياسين الهاشمي مساعدته للثورة الوطنية في العراق (الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ١٠٤ وحول الحركة العربية الحديثة ج ١ ص ١٠٧ ، وذكريات العجلوني ص ٨٩) وسعيه لقيام اتحاد بين سورية والعراق الامر الذي يخالف الاتفاق الذي تم اخيرا بين الحليفتين (سورية والعهد الفيصلي ص ١١٧) .

٢ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٥٢

تحريرياً من الملك يحظر عليه توقيع أي اتفاق يتنافى والعهود المعطاة له من الحكومة البريطانية قبل دخوله الحرب ، وهـذه العهود صريحة بأن يكون العرب مستقلين استقلالاً تاماً في المنطقة التي يتباحث الأمير بشأنها مع الحكومة الفرنسية [1]. وكان معظم أعضاء الوفد العربي قد وافقوا على توقيع المعاهـــدة ، إلا ان رسالة الملك حسين رجحت لدى الأمير فيصل رأي المعارضين، فاكتفى وكليمنصو بوضع الحرفين الأولين من اسميهما عليها ، على أن توقع فيما بعد إذا وافقت عليها الهيئات الوطنية السورية .

وسافر الأمير إثر ذلك إلى بيروت حيث صرح بأنه سيستشير الأمة في نصوص الاتفاق قبل إقراره بصورة نهائية ، ثم يعود إلى أوربة لإنجاز مهمته في مؤتمر الصلح والعمل على تحقيق ما تصبو اليه البلاد من حرية واستقلال . ثم انتقل إلى دمشق وألقى خطاباً كبيراً في « النادي العربي » قال فيه : « انني أتيت من الغرب لأقف على رغائب الأمة ، بعد انسحاب الأميركيين من المعترك السياسي ، وكنت أود أن أفاتح أرباب التفكير في مستقبل البلاد بالحالة في الغرب لأنني جئت لأمكث بضعة أيام ثم أرجع إلى ما يجب عليّ الاهتمام به هناك » .

ثم قال : « وانني وان كنت لا أحيط علماً بكل ما يجول في الأفكار المختلفة ، فانني أفتخر بشيء واحد وهو انني أحببت وطني ، وسعيت لوطني ، ولي غايـــة واحدة وهي أن أرى بلادي مستقلة ، ولا تنحصر هذه البلاد في بلدة واحدة ، بل ان كل بلاد العرب هي بلادي. أنا والله لا تخيفني قوة الحكومة ولا قوة الجمعيات، وإنما أخاف التاريخ والمستقبل ، وأخاف أن يقال ان فلاناً عمل عملاً لا يليق بآبائه وأجداده الذين كانوا يسعون للاستقلال ، وأرجو أن تعلم الأمـة بأنني في الغرب مثل ما أنا هنا، لا أبدل كلامي سواء أمام السياسيين أم في أحرج المواقف، ومبدئي هو أن تكون بلادي مستقلة، واني عامل بما هداني الله اليه لاستقلال بلادي وإرجاع مجدنا الغابر ، والله يشهد بأنني أسعى لذلك ولا أظن بأنه يوجد في البلاد رجل واحد

---

١ ــ المرجع السابق ص ١٥٨

يرضى باستعباد الأجنبي ، بل أعتقد أن الرفيع والوضيع والشيخ والشاب والعالم والجاهل يشعرون بشعور واحد وهو طلب الاستقلال التام للبلاد [1] » .

وأنهى الأمير في ٢٦ كانون الثاني (ينـــاير) سنة ١٩٢٠ حكومة الحاكم العسكري وأسس حكومة بمجلس مديرين برئاسة أخيه الأمير زيد ، وعين أمين التميمي معاوناً له ، ورضا الركابي مديراً للحربية ، واسكندر عمون مديراً للعدلية ، وساطع الحصري مديراً للمعارف ، ورشيد طليع مديراً للداخليـة ، وأحمد حلمي مديراً للمالية ، ويوسف العظمة لرئاسة أركان الحرب العامة .

وقد أفسح الخلاف الذي ذر قرنه بين جمعية العربيـة الفتاة والتنظيمات الوطنيـة التي تعمل بوحيها ووحي الأمير ، المجال لتأسيس حزب جديد ضم وجهاء البـــلاد وعرف باسم « الحزب الوطني السوري » ، وتألفت لجنته الاستشاريـة الأولى من الشريف ناصر وعبد الرحمن اليوسف وفوزي البكري وعلاء الدين الدروبي وراشد مردم بك وعلي العسلي وعطاء الأيوبي وبديع المؤيد وأحمد الحسيني وأنور البكري وشريف الكيلاني والشيخ تاج الدين الحسني ونسيب حمزة وزكي المهايني وحسن السيوفي وعمر العابد والشيخ عبد المحسن الاسطواني والدكتور شاكر القيم والشيخ عبد الجليل الدرة والشيخ عبد الحميد العطار والشيخ عبد القادر الخطيب والشيخ محمد المجتهد وأحمد ايبش ومحمد العجلوني ومسلم الحصني . وكانت جمعية الفتاة أكثر حماسة ، بينما كان الحزب الوطني أكثر اعتدالاً .

وبينما كان الأمير فيصل يقوم بجولة في المدن السورية ثم يزور بيروت طالباً من الجنرال غورو إصدار عفو عام عن الثوار توطئة لإنشاء حكومة وطنية في لبنان ، سقطت وزارة كليمنصو وحلت محلها وزارة ميليران ، وكان كليمنصو أشد ميلاً إلى التفاهم مع فيصل مراعياً اشتراكه في الحرب مع الحلفـــاء في مرحلة من أحرج مراحلها . فانقطع الأمير عن التصريح بأنه عائد قريباً إلى باريس لمتابعة أبحاث مؤتمر الصلح .

---

١ ـ المرجع السابق ص ١٦٥ ، يوم ميسلون ص ٢٣٤

يقول الدكتور أحمد قدري : « وبعد أن يئس الوطنيون من الوصول إلى تحقيق أهداف البلاد بواسطة مؤتمر السلم والمفاوضات مع بريطانية وفرنسة، وانسحاب أميركة وهي رافعة لواء حرية الشعوب من مسرح السياسة الأوربية ، قرروا وضع مؤتمر السلم أمام الأمر الواقع ، وذلك بإعلان استقلال سورية العربية والمحتلة[1] ، والمناداة بفيصل ملكاً دستورياً عليها ، لذلك كلف الأمير بالعدول عن السفر إلى أوربة ، والاكتفاء بمساعي مندوبيه فيها ، ودعوة المؤتمر السوري الذي علق جلساته على اثر جلاء الجيش البريطاني ، ليقول كلمته بتحقيق هذه المهمة الوطنية الكبرى . وقد سهل قبول فيصل لهذه الفكرة تحبيذها من قبل الكولونيل تولا الفرنسي الذي كان قد عين ليكون بمعية جلالته اسوة بما كان عليه الكولونيل لورنس . كما شجع ممثل ايطالية في سورية كثيراً على اتخاذ هـــذه الخطوة الجريئة ، أما الانكليز فلم يكونوا راضين عن هذا الاجراء ، وكان هذا ظاهراً في كل تصرفاتهم[2] » .

وعلى اثر ذلك دعي المؤتمر السوري إلى الاجتماع ليقول كلمته في هذا الموضوع، فاجتمع في ٦ آذار (مارس) ١٩٢٠ (١٥ جمادى الثانيـة سنة ١٣٣٨ ﻫ) برئاسة هاشم الأتاسي ، وافتتحه السيد عوني عبد الهادي بكلمة ألقاها بالنيابة عن الأمـير فيصل جدد سموه فيها عرض القضية العربية وبيان الأسس العادلة التي تقوم عليها فقال :

« أيها السادة ، في الوقت الذي قرب فيه يوم حل المسألة التركية حلاً نهائياً في مؤتمر الصلح رأيت أن أدعوكم مرة أخرى لتقرير مصير البلاد حسب رغائب الأهالي الذين رأوا فيكم الكفاءة للنيابة عنهم في مثل هذا الوقت العصيب .

فقد وعد مؤتمر السلم أن ينظر في رغبة الشعوب بل حتم على نفسه بأن يقرر مستقبل كل أمة حسب إرادتها ورغائبها تحقيقاً للمبادىء السامية التي خاض الحلفاء لأجلها غمار الحرب الكبرى .

---

١ ــ أي سورية بحدودها الطبيعية سواء منها المنطقة التي يسودها الحكم العـــربي أو المناطق التي يحتلها الانكليز والفرنسيون .

٢ ــ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٧٦

فالرئيس ولسن ذكر في خطابه في مؤتمر فرنون في ٤ تموز سنة ١٩١٨ المادة الآتية :

« كل مسألة أرضية كانت أم سياسية أم اقتصادية أم دولية يجب أن تحسم على موجب الاساسات المستندة إلى حرية قبول الشعب ذي العلاقة رأساً بتلك المسألة ، لا على القواعد النفعية المادية أو المصالح التي يتطلبها شعب أو أمة أخرى لأجل تأمين نفوذها الخارجي أو سيادتها . »

وقد ذكر جميع رؤساء الحكومات المتحالفة أقوالاً لا تقل في معاني استقلال الشعوب عن أقوال الرئيس ولسن في هذا الصدد ، وقد نشرت حليفتانا انكلترة وفرنسة منشوراً في ٨ تشرين الثاني الماضي أكدتا فيه استقلال بلاد العرب المنشود.

أيها السادة ، لما كانت هذه الحرب ، حرب حرية واستقلال ، حرباً جاهدت فيها الأمم ذباً عن كيانها السياسي دخل فيها صاحب الجلالة والدي المعظم في صفوف الحلفاء بعد أن استوثق من العرب في الجزيرة وفي سورية وفي العراق فقاتلوا قتالاً شهد لهم فيه أعاظم رجال أوربة السياسيين والعسكريين وأثنوا على شجاعتهم وبسالتهم غاية الثناء ، ولا بد أن يحفظ التاريخ أعمالهم الجليلة في إبان الحرب التي استمات فيها الحجازي والسوري والعراقي واني واثق بأن الأمة العربية ستنال من المغنم ما ناله غيرها من حلفائنا الذين نالوا الظفر على الأعداء .

ان هذا الظفر لم يكن عسكرياً فقط بل هو سياسي قبل كل شيء لأنه ظفر الحق على القوة ، والحرية على الاستبداد ، فقد انتشرت اليوم فكرة الاستقلال بين الشعوب وانتعشت في أفئدتهم فلن تزول بعد الآن .

استحق العرب حريتهم واستقلالهم بفضل الدم الطاهر الذي سفكوه وبفضل ما قاسوه من أنواع العذاب والقهر . فالأمة العربية لا تقبل اليوم أن تستعبد كما اني أعتقد انه ليس هنالك أمة تريد استعبادنا ، فرحلاتي الرسمية العديدة إلى أوربة ، والأحاديث والكتابات التي جرت بيني وبين ساستها لم تبق في نفسي مجالاً للشبهة والتردد في نوايا حكوماتها الحسنة .

أيها السادة ، اننا لا نطلب من أوربة أن تمنحنا ما ليس لنا به حق ، بل نطلب

منها أن تصدق على حقنا الصريح الذي اعترفت به لنا كأمة حية تريد حياة حرة واستقلالاً تاماً وتود ان تعيش مع سائر الأمم المتمدنة على غاية من الولاء والمحبة الخالصة ، فسياستنا في المستقبل ستكون سياسة صلح وسلم مبنية على الثقة المتبادلة والمنافع المتقابلة ، وبكلمة واحدة سياسة تتفق مع مصالح الأمة ، ومنفعة السلم العامة ، فالعرب لا يستنكفون من تبادل المنافع بينهم وبين الأمم المتمدنة ، ولا يرفضون صداقة من يريد صداقتهم ، شريطة ألا يمس ذلك بكرامتهم ولا يخل باستقلالهم السياسي التام .

أيها السادة :

ان مهمتكم اليوم خطيرة ، ومهمتكم كبيرة ، فأوربة تنظر الينا عن كثب ، وستحكم لنا أو علينا بالنسبة إلى الخطة السياسية التي سنسير عليها ، والأعمال التي سنقوم بها في المستقبل .

فدولتنا الجديدة التي قام أساسها على وطنية أبنائها الكرام هي في حاجة اليوم إلى تقرير شكلها أولاً ووضع دستور لها يعين لكل منا ، آمرنا ومأمورنا ، حقوقه ووظائفه في حياتنا المستقبلة التي أرجو أن يكون ملؤها الجد والعمل والاقدام .

وقبل أن أختم كلامي في هذه الجلسة الخالدة أريد أن أذكركم باخوانكم العراقيين الذين جاهدوا معكم وأبلوا بلاء حسناً في سبيل الوطن وبالواجب الذي يتحتم علينا في أمر التضامن والتعاضد ، لنعيش حياة سعيدة قوية .

وأقرؤكم السلام العربي الخالص ، متمنياً لكم التوفيق والنجاح في مساعيكم الوطنية والسلام عليكم [1] » .

وفي اليوم التالي عقد المؤتمر جلسته الثانية وقرر إعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية بما فيها فلسطين ، وان يكون فيصل بن الحسين ملكاً عليها ، كما قرر أن يكون علمها العلم العربي ذا الألوان الأربعة مضافاً اليه نجمة بيضاء في مثلثه الأحمر.

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٧٨ ، الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ١٢٨ ، سورية والعهد الفيصلي ص ١٣٦ ، يوم ميسلون ٢٣٦

وقد رفض المؤتمر في هذا القرار التاريخي وعد بلفور والاحتلال العسكري للمناطق السورية الثلاث ، وأكد وجوب استقلال العراق استقلالاً تاماً على ان يكون بينه وبين سورية اتحاد سياسي واقتصادي .

وهذا نص القرار التاريخي :

« ان المؤتمر السوري العام الذي يمثل الأمة السورية العربية في مناطقها الثلاث الداخلية والساحلية والجنوبية (الفلسطينية) تمثيلاً تاماً يضع في جلسته العامة المنعقدة يوم الأحد المصادف لتاريخ ١٧ جمادى الثانيـــة سنة ١٣٣٨ وليل الاثنين التالي المصادف ٨ آذار ١٩٢٠ القرار التالي :

ان الأمة العربية ذات المجد القديم ، والمدنية الزاهرة ، لم تقم جمعياتها وأحزابها السياسية في زمن الترك بمواصلة الجهاد السياسي ولم تُرق دم شهدائها الأحرار ، ولم تثر على حكومة الأتراك ، إلا طلباً للاستقلال التام والحياة الحرة بصفتها أمة ذات وجود مستقل وقومية خاصة ، لها الحق في أن تحكم نفسها بنفسها أسوة بالشعوب الأخرى التي لا تزيد عنها مدنية ورقياً ، وقد اشتركت في الحرب العامة مع الحلفاء استناداً على ما جهروا به من الوعود الخاصة والعامة في مجالسهم الرسمية وعلى لسان ساستهم وحكوماتهم وما قطعوه من عهود خاصة مع جلالة الملك حسين بشأن استقلال البلاد العربية ، وما جهر به الدكتور ولسن من المبادىء السامية القائلة بحرية الشعوب الكبيرة والصغيرة واستقلالها على مبـــدأ المساواة بالحقوق وإنكار سياسة الفتح والاستعمار ، وإلغاء المعاهدات السرية المجحفة بحقوق الأمم وإعطاء الشعوب المحررة حق تعيين مصيرها التي وافق عليها الحلفاء رسمياً كما جاء في تصريحات المسيو بريان رئيس وزراء فرنسة بتاريخ ٣ تشرين الثاني ١٩١٥ أمام مجلس النواب ، واللورد غراي وزير خارجية بريطانية العظمى أمام لجنة الشؤون الخارجية وتصريح الحلفاء في جوابهم على مذكرة الدول الوسطى التي رفعها المسيو بريان بواسطة السفير الأميركي في باريس وجواب الحلفاء على مذكرة الرئيس ولسن في ٣٠ كانون الثاني ١٩١٧ وتصريح المسيو ريبو رئيس وزراء فرنسة بتاريخ ٢٢ أيار ١٩١٧ أمام مجلس النواب وبيان مجلس النواب الافرنسي ليلة ٤–٥ حزيران ١٩١٧ وبيان مجلس

الشيوخ في ٦ منه وما جاء في خطاب المستر لويد جورج في غلاسكو بتاريخ ٢٩ حزيران ١٩١٧ .

وقد كان ما قام به جلالة الملك حسين المعظم من الأعمال العظيمة ، في جانب الحلفاء ، هو الباعث الأكبر لتحرير الأمة العربية وإنقاذها من ربقة الحكم التركي فخلد لجلالته في التاريخ العربي أجمل الآثار وأفضلها ، وقد أبلى أنجاله الأمراء الكرام مع الأمة العربية في جانب الحلفاء البلاء الحسن مدة ثلاث سنوات حاربوا خلالها الحرب النظامية التي شهد لهم بها أقطاب السياسة وقواد الجند من الحلفاء أنفسهم وسائر العالم المتمدن، وضحوا العدد الكبير من أبنائهم الذين التحقوا بالحركة العربية من أنحاء سورية والحجاز والعراق فضلاً عما قام به السوريون خاصة في بلادهم من الأعمال التي سهلت انتصار الحلفاء ، على ما أصابهم من الاضطهاد والتغريب والقتل والنفي والتعذيب ، تلك الأعمال التي كان لها الأثر الأكبر في انكسار الترك وجلائهم عن سورية وانتصار قضية الحلفاء انتصاراً باهراً حقق آمال العرب بوجه عام والسوريين بوجه خاص ، فرفعوا الأعلام العربية وأسسوا الحكومات الوطنية في أنحاء البلاد قبل أن يدخل الحلفاء هذه الديار . ولما قضت التدابير العسكرية بجعل البلاد السورية ثلاث مناطق أعلن الحلفاء رسمياً أن لا مطمع لهم في البلاد وانهم لم يقصدوا من مواصلتهم تلك الحروب في الشرق سوى تحرير الشعوب من سلطة الترك تحريراً نهائياً ، وأكدوا أن تقسيم المناطق لم يكن إلا تدبيراً عسكرياً موقتاً لا تأثير له في مصير البلاد واستقلالها ووحدتها، ثم انهم قرروا بعد ذلك رسمياً الفقرة الأولى من المادة الثانية والعشرين من معاهدة الصلح مع ألمانية فاعترفوا فيها باستقلالها تأييداً لما وعدوا به من إعطاء الشعوب حق تقرير مصيرها ، وأرسلوا اللجنة الأميركية للوقوف على رغائب الشعب ، فتجلت لها هذه الرغبة في طلب الاستقلال التام والوحدة السورية التامة .

لقد مضى عام ونصف عام والبلاد لا تزال رازحة تحت الاحتلال والتقسيم والحكم العسكري الذي ألحق بها أضراراً عظيمة وأوقف سير أعمالها ومصالحها الاقتصادية والادارية ، وأوقع الريبة في نفوس أبنائها من أمر مصيرها ، فاندفع الشعب في

أكثر أنحاء البلاد وقام بثورات أهلية منتقضاً على الحكم العسكري الغريب ومطالباً باستقلال بلاده ووحدتها .

فنحن أعضاء هذا المؤتمر ، بصفتنا الممثلين للأمة السورية في جميع أنحاء القطر السوري تمثيلاً صحيحاً ، نتكلم بلسانها ونجهر بإرادتها ، رأينا وجوب الخروج من هذا الموقف الحرج ، واستناداً على حقنا الطبيعي الشرعي في الحياة الحرة وعلى دماء شهدائنا المراقة ، وجهادنا المديد في هذا السبيل المقدس ، وعلى العهود والوعود والمبادىء السامية السالفة الذكر ، وعلى ما شاهدناه كل يوم من عزم الأمة الثابت الأكيد على المطالبة بحقها ووحدتها ، والوصول إلى ذلك بكل الوسائل ، فأعلنا بإجماع الرأي استقلال بلادنا السورية بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين ، استقلالاً تاماً لا شائبة فيه على الأساس النيابي ، على أن تراعى أماني اللبنانيين الوطنية في كيفية إدارة مقاطعتهم لبنان ضمن حدوده المعروفة قبل الحرب بشرط أن يكون بمعزل عن كل تأثير أجنبي ، ورفض مزاعم الصهيونية في جعل فلسطين وطن هجرة لهم ، وقد اخترنا سمو الأمير فيصل ابن جلالة الملك حسين الذي واصل جهاده في سبيل تحرير البلاد ، وجعل الأمة ترى فيه رجلها العظيم ، ملكاً دستورياً على سورية بلقب صاحب الجلالة الملك فيصل الأول ، وأعلنا انتهاء الحكومات الاحتلالية العسكرية الحاضرة في المناطق الثلاث ، على أن يقوم مقامها حكومة ملكية نيابية مسؤولة تجاه هذا المجلس في كل ما يتعلق بأساس استقلال البلاد التام إلى أن تتمكن الحكومة من جمع مجلسها النيابي على أن تدار هذه البلاد على طريقة اللامركزية .

ولما كانت الثورة العربية قد قامت لتحرير الشعب العربي من حكم الترك ، وكانت الأسباب المستند اليها استقلال القطر السوري هي ذات الأسباب المستند اليها في إعلان استقلال القطر العراقي ، وبما ان بين القطرين صلات وروابط تاريخية ولغوية واقتصادية وجنسية وكل واحد من القطرين لا يستغني عن الآخر ، فنحن نطلب استقلال القطر العراقي ، استقلالاً تاماً على أن يكون بين القطرين اتحاد سياسي اقتصادي .

هذا واننا باسم الأمة السورية التي أنابتنا عنها ، نحتفظ بصداقة الحلفاء الكرام

محترمين مصالحهم ومصالح جميع الدول كل الاحترام ، وان لنا الثقة التامة بأن يتلقى الحلفاء الكرام وسائر الدول المحترمة عملنا هذا المستند إلى الحق الشرعي والطبيعي في الحياة بما نتحققه فيهم من نبالة القصد وشرف الغاية ، فيعترفوا بهذا الاستقلال ويجلوا جنودهم عن المنطقتين الغربية والجنوبية ، فيقوم الجند الوطني ، والادارة الوطنية بحفظ النظام والادارة فيها مع المحافظة على الصداقة المتبادلة حتى تتمكن الأمة السورية العربية من الوصول إلى غاية الرقي وتكون عضواً عاملاً في العالم المتمدن .

وعلى الحكومات السورية التي تتألف استناداً على هذا الأساس تنفيذ هذا القرار [1] . »

وفي الساعة الواحدة والنصف من بعد ظهر يوم ٨ آذار (مارس) زار الأمير وفد انتخبه المؤتمر وأبلغه قراره التاريخي ، فشكر لزائريه وللمؤتمر ثقتهم به ، ثم انتقل إلى دار البلدية حيث اجتمع أعضاء المؤتمر وأعضاء بلدية دمشق ووجهاؤها ورجال الحكومة وقادة الجيش لمبايعة الأمير . وقد حضر الحفلة مندوبو فرنسة وايطالية وبقية الدول ، ولوحظ عدم اشتراك أي ممثل بريطاني فيها . وقد نهض رئيس المؤتمر السوري السيد هاشم الأتاسي وقدّم سكرتير المؤتمر عزة دروزة ليتلو قرار المؤتمر فتلاه من شرفة البلدية ، ثم تقدم رئيس البلدية غالب الزالق وهو يحمل بيده علم سورية الجديد ونشره فهتف الحاضرون واستلمه منه فخري البارودي مرافق الأمير ورفعه على السارية ، فهتفت الجماهير الغفيرة التي كانت تملأ ساحة الشهداء (المرجة) بحياة الأمة العربية وحياة الملك حسين والملك فيصل .

ثم تقدم غبطة غريغوريوس البطريرك الأرثوذكسي معلناً باسمه وبأسماء الملتفين حوله بطريرك الروم الكاثوليك ورؤساء الطوائف المسيحية من سريان وأرمن أرثوذكس وكاثوليك وموارنة وبروتستانت وحاخام الاسرائيليين ، مبايعة جلالة الملك فيصل

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٨١ ، الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ١٣٠ ، سورية والعهد الفيصلي ص ١٣٨ ، العهود المتعلقة بالوطن العربي ص ١٧٤ ، يوم ميسلون ص ٢٧٨

على أساس الشورى والعدل والمساواة ، فقبل جلالته المبايعة على هذه الأسس [1] .

وبعد أن تمت هذه المراسم نهض الملك وقال : « أشكر للأمة نياتها الحسنة نحوي ، وعلى ما أبدته من حسن الاعتماد ، وأشهد الله اني ما قمت إلا بما يجب عليّ ، وأتمنى أن أوفق لأقوم بكل ما يكفل استقلال البلاد وحريتها ، ولأعتني بشؤون الشعب السوري ورقيه ، وأشهدكم على قولي هذا والله خير الشاهدين » .

وقد رحب الشعراء العرب بهذه الوثبـــة الكبرى ، واحتفل الحزب الوطني السوري في بونس ايرس بتسنم فيصل عرش سورية وألقى الدكتور جورج صوايا في هذا الاحتفال قصيدة حماسية قال فيها مخاطباً الأمة العربية :

يا أمتي جاهري بالحق لا تحلمي ... ونازعي الخلق بقيا مجدك الهرم
قد قام فينا صلاح الدين ويحهم ... فليقحم الشام من قال لم يقم
ففيصل العـرب مستل بساحتهـا ... في حده الحد بين الذل والشمم
يا أيها الشعب دافع عن كيانك لا ... تجبن وذد بالقنا عن مجد ذا العلم

وخاطب فيصلاً شاعر مهجري آخر هو الياس فرحات من قصيدة طويلة بقوله :

أفيصل والمطامع محدقات ... بنا وحوادث الأيام تترى
فلا تترك لذي طمع علينا ... يداً تخفي وراء الحلو مرا

وكان الزعماء العراقيون المقيمون في سورية يومئذ ، قد ألفوا مؤتمراً مماثلاً للمؤتمر السوري برئاسة توفيق السويدي [2] ، واتخذوا باسم الشعب العراقي قراراً

---

١ ـ انظر وثيقة مبايعة الرؤساء الروحيين في « سورية والعهد الفيصلي » ص ١٤٣

٢ ـ تالف المؤتمر العراقي من توفيق السويدي وجميل المدفعي وعلي جودت الايوبي وعبد الله الدليمي ومكي الشربتلي وابرهيم توحلة وثابت عبد النور واسعـــد الصاحب وجعفــر العسكري وسعيد الشيخلي وتحسين علي واسماعيل نامق وسامي الاورفلي وفرج عمارة وناجي السويدي ويونس وهبه وحامد صدر الدين واحمـد رفيق ونـــوري قاضي ورشيد الهاشمـي وصبح محمد ورضا الشبيبي ومحمد اديب وعزت الكرخي وعبد اللطيف الفلاحي وتوفيــــق الهاشمي ومحمد البسام .

باستقلال العراق التام والمناداة بالأمير عبد الله بن الحسين ملكاً دستورياً عليـــه ، واتحاد العراق وسورية اتحاداً سياسياً واقتصادياً [1] . وقد تلا السيد توفيق السويدي هذا القرار في ذلك اليوم التاريخي نفسه من شرفة البـــلدية ، فألهب المشاعر وأثار حماسة الحاضرين، ثم رفع علم الدولة العراقية العربية ليخفق إلى جانب العلم السوري ويتعانق معه في سماء دمشق ، وكانت ألوان العلمين واحدة ، وهي ذاتها ألوان علم الثورة العربية ، وهي ذاتها ألوان علم الدولة العربية في الحجاز ، وقد امتاز العـلم السوري بنجمة واحدة بيضاء في مثلثه وامتاز العلم العراقي بنجمتين [2] .

وقد حيا الشعراء هذا العلم بقصائد رائعـــة ، ومنها قصيدة لأبي الفضل الوليد يقول فيها :

العرب حولك جند أيها العـــلم — منهم تآلفت الأوطار والهمم
من خضرة وبياض : نعمة وهدى ، — وحمرة وسواد : نقمـــة ودم
ألوانك استكملت أمجاد مملكة — فيها تلاقى النهى والبأس والكرم
اليك نرنو وفي أجفاننا عـــبر — وفي القلوب شعور بات يحتدم
من الحجاز إلى أرض الشآم إلى — أرض العراق لك الآفاق تبتسم

وعلى اثر إعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية وانتخاب فيصل بن الحسين ملكاً عليها ، احتج البطريرك الماروني على قرار المؤتمر السوري وأنكر ان يكون اللبنانيون الذين اشتركوا في هذا المؤتمر يمثلون الشعب اللبناني ، كما احتج مجلس إدارة لبنان على ما ورد في هذا القرار فيما يتعلق بجبل لبنان . الا انه لم تمض ثلاثة أشهر على ذلك حتى اجتمع مجلس إدارة جبل لبنان واتخذ القرار التالي :

« ان مجلس إدارة جبل لبنان النيابي المؤلف نظامـــاً من ١٣ نائباً وفي الوقت

---

(١) انظر نص القرار في الثورة العربية الكبرى ج ٢ ، القسم ٢ ص ٣٥ ، العهـــود المتعلقة بالوطن العربي ص ١٧٩ .

(٢) انظر مقال اكرم زعيتر « كلمات صريحة بعد ٣٤ سنة » فـي كتـاب « رســـــالة فـــي الاتحاد » .

الحاضر من ١٢ نائباً عاملاً بسبب خلوّ مركز أحد نائبي كسروان المستقيل ، قد وضع نهار السبت الموافق ١٠ تموز سنة ١٩٢٠ بأكثريته الكبرى القرار الآتي :

« انه لما كان اللبنانيون ، منذ أعلنت الدول العظمى ، حق إنشاء الحكومة الوطنية لشعوب هذه البلاد ، قد طالبوا وما زالوا يطلبون ، تأييد حقوقهم بتأسيس حكومة وطنية مستقلة .

ولما كان استقلال جبل لبنان، ثابتاً تاريخياً ، ومعروفاً منذ أجيال طويلة وموقعه وطبيعة أهليته الموافقة للحرية والاستقلال منذ القدم مما يستلزم استقلاله وحياده السياسي أيضاً لوقايته من المطامع والطوارىء ، وكان مع ذلك من أهم مصالحه وراحته شعور الوفاق وصفاء العلاقات مع مجاوريه ، وقد دل على ذلك ما أحدثه التقاطع من ثوران الجهلاء لارتكاب الحوادث المؤلمة المقلقة المتسلسلة من السنة الماضية إلى هذه الآونة .

« فبناء على ما تقدم قد بذل هذا المجلس مزيد الاهتمام توصلاً لوفاق يضمن حقوق البلدين المتجاورين سورية ولبنان ومصالحها ودوام حسن العلاقات بينهما في المستقبل، وبعد البحث في هذا الشأن ، وجد انه من الممكن الوصول إلى ذلك بمقتضى البنود الآتية :

١ ـ استقلال لبنان التام المطلق .

٢ـ حياده السياسي بحيث لا يحارَب ولا يحارِب ويكون بمعزل عن كل تدخل حربي .

٣ ـ إعادة المسلوخ منه سابقاً بموجب اتفاق يتم بينه وبين حكومة سورية .

٤ ـ المسائل الاقتصادية يجري درسها وتقرر بواسطة لجنة مؤلفة من الطرفين وتنفذ قراراتها بعد موافقة مجلسي لبنان وسورية .

٥ ـ يتعاون الفريقان في السعي لدى الدول للتصديق على هذه البنود الاربعة وضمانة أحكامها .

« ولأجل التمكن من العمل بحرية وبمعزل عن ضغط وتأثير خارجي ولأجل السعي الناجح لدى المراجع الايجابية ، لتقرير أحكام البنود الأربعة المتقدم بيانها

والتي هي مطالب الأمة اللبنانية ، ومصلحة لبنان الحقيقية المنزهة عن المآرب والأغراض الخصوصية ، وبالنظر لنيابة هذا المجلس عن الشعب اللبناني القانونية والمؤيدة مؤخراً أيضاً بأصوات أكثرية الشعب الكبرى، قد قررت أكثرية المجلس موقعة هذه المضبطة الانتقال والتوجه بالذات لملاحقة ومتابعة تقرير مضمون البنود الآنف بيانها ، في أعمال القضية والمراجع الايجابية وإبلاغ هذا القرار بكامله إلى المقامات الرسمية والسعي بالطرق الممكنة » .

سعد الله الحويك (نائب الرئيس) ، خليل عقل ، سليمان كنعان ، محمود جنبلاط ، فؤاد عبد الملك ، محمد الحاج محسن ، الياس الشويري ، وتخلف العضو الثامن وهو الياس بريدي مع أنه متضامن مع الأعضاء الموقعين بسبب مرضه وأرسل نسيبه ميشيل قاصوف فاشترك في اجتماعاتهم ، ووعد باللحاق بهم .

ولكن الفرنسيين علموا بذلك قبل ميعاد سفر هؤلاء الأعضاء منفردين إلى دمشق في ١٠ تموز (يوليه) . فألقت السلطة الفرنسية القبض عليهم وحكمت عليهم بالنفي مدة طويلة ، ونفي معهم الأمير أمين أرسلان إلى أرواد ثم لجزيرة كورسيكا . ثم أصدر الجنرال غورو قراراً بإلغاء مجلس الادارة .

الفصل الحادي والعشرون

أكذوبة اسمها الانتداب

ما كادت البيعة تتم للملك فيصل حتى عهد جلالته إلى رضا الركابي بتأليف وزارة جديدة ، فعمد إلى تأليفها من رضا الصلح للداخلية ، وعبد الحميد القلطقجي للحربية، وفارس الخوري للمالية ، وساطع الحصري للمعارف ، والسيد جلال زهدي للعدلية، ويوسف الحكيم للتجارة والزراعة ، وسعيد الحسيني للخارجية ، وعلاء الدين الدروبي رئيساً لمجلس الشورى . وسمي احسان الجابري رئيساً لأمناء الملك. وألقت الوزارة أمام المؤتمر السوري بيانها الوزاري [1] ، فناقشه أعضاء المؤتمر ثم منحوا الوزارة ثقتهم بالاجماع .

وكان اختيار رضا الركابي رئيساً للوزارة دليلًا على رغبة الملك في انتهاج سياسة معتدلة ، والواقع ان هذه الوزارة قد سميت في بعض الأوساط « وزارة الشيوخ المعتدلين » ، إلا انها لم تكن تستطيع تجاهل إرادة الشعب الممثلة في المؤتمر السوري ، هذا المؤتمر الذي منحها ثقته وهي مسؤولة أمامه ، فأبرقت إلى لندن

(١) انظر نص البيان في « مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى » ص ١٨٩ ، « الثورة العربية الكبرى » ج ٢ ص ١٣٤ ، « يوم ميسلون » ص ٢٥١ .

وباريس راجية منهما الاعتراف بما تمّ ، وأعقبت ذلك بمذكرة إيضاحية إلى كل من دول الحلفاء تبلغها فيها قرار المؤتمر السوري وإعلان الاستقلال ، مؤكدة عزمها على إنشاء صلات ودية معها .

أما الملك فيصل فيبدو انه كان لا يزال يعقد بعض الأمل على الرئيس ولسن ، فوجه اليه رسالة خاصة ذكر في مقدمتها كفاح العرب الدامي خلال الحرب لنصرة الحلفاء ، وذكّر الرئيس الأميركي بمبادئه المتضمنة حق الشعوب في تقرير مصيرها وتمتعها باستقلالها ، ثم قال :

«لقد قسمت سورية عقب الهدنة إلى أربع مناطق ادارية ، وذلك وفقاً لمعاهدة سرية لا نعلم من حقيقتها شيئاً ، فحنق الشعب عندما رأى ما آلت اليه حالة بلاده ، ولم يسكن جأشه إلا بعد التأكيدات العديدة بأن هذه التقسيمات وقتية لا بد أن تضمحل مع الحكم العسكري ، ولم يطل هذا الأمر حتى ذاع خبر عقد اتفاق بين بريطانية وفرنسة يؤول إلى فرط عقد البلاد وتقسيمها ، فكان لهذا النبأ وقع سيىء في النفوس ، حتى ان الشعب عيل صبراً ورجع بعضه إلى امتشاق الحسام [1] للذود عن وحدة سورية التي أصبح أمرها مبهماً ، وبما ان القسم الشمالي من سورية يتاخم بلاداً لا تزال تتأجج فيها نيران الثورات ، أوجسنا خيفة من أن يتسرب ذلك الاضطراب إلى سورية بأجمعها .

ولم نر دواء لتلافي الأمر ، أنجع من جمع المؤتمر السوري المنتخب من الشعب وإعلان استقلال سورية والمناداة بي ملكاً عليها ، مما أدى إلى إرجاع الأمن إلى نصابه في البلاد ، وكل هذا يتفق مع وعود الحلفاء وتصريحاتهم ، وبما اننا لا نطلب إلا حقاً منحتنا إياه الطبيعة ، وزكته دماؤنا في الحروب ، وأيده تاريخنا ، فاننا نتوقع ان يقابل الحلفاء حكومتنا الجديدة بارتياح .

ان تقسيم سورية الحاضرة هو حجر عثرة في سبيل رقيها الاقتصادي والسياسي ،

---

(1) يشير الى الثورات الشعبية التي اشتعلت ضد فرنسة في انحاء مختلفة من سورية ولبنـــــان .

ولا يمكن أن يخيم السلام فوق ربوعها إلا بعد أن تؤمن وحدتها وتضمن استقلالها[1]»

إلا ان الرئيس ولسن كان قد أقعده المرض ، وأتعبته المؤتمرات والدسائس ، وأبعده قرار الكونغرس الأميركي نهائيـــاً عن مسرح السياسة الدولية[2] ، أما بريطانية وفرنسة فكان من الطبيعي أن تستنكرا تلك البادرة الوطنية الجريئة التي كانت في الواقع تحدياً صريحاً لهما ، فأصدر قلم المطبوعات الفرنسي في بيروت بلاغاً أنكر فيـه أن تكون قرارات دمشق قد اتخذت بموافقة الحكومة الفرنسية « لأن مثل هذه القرارات هي من شأن مـــؤتمر السلام » وأرسل اللورد كيرزون وزير الخارجية البريطانية برقية إلى الملك فيصل أبلغه فيها « عدم اعتراف حكومته بما جاء في قرار المؤتمر ، وخاصة عن فلسطين والعراق ، وان مصلحة الملك في الاسراع بالقدوم إلى أوربة لعرض قضيته على مؤتمر الصلح » وأعلن لويد جورج في مجلس العموم ان الحكومتين البريطانية والفرنسية أبلغتا فيصل بأنهما لا تعترفان بما تمّ في دمشق ، وانه دعا فيصل للحضور إلى أوربة لحل هذه القضية في مؤتمر الصلح .

وقد أجاب فيصل على برقية اللورد كيرزون بالبرقية التالية في ٢٨ آذار (مارس) ١٩٢٠ : « ان المؤتمر السوري الذي اجتمع في السابع من هذا الشهر في دمشق ، هو نفس المؤتمر الذي عقد فيها اجتماعات عديدة على مرأى ومسمع من السلطـــة البريطانية التي كانت في يدها قيادة سورية في ذلك الحين .

لقد اجتمع هذا المؤتمر لإبداء آرائه للجنة الأميركية التي جاءت لأخذ آراء الأهالي ، وفقاً لقرار مؤتمر الصلح ، وطال اجتماعه بعد ذلك ثلاثة أشهر ، وفي نهاية السنة الماضية عقد اجتماعاً آخر ، وبحث في مسائل داخليـــة متنوعة ، ولم تقابل اجتماعاته الأخيرة بأدنى احتجاج من السلطات البريطانية أو الفرنسية ، وهو مؤلف

---

(٢) مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٩٥ ، يوم ميسلـــون ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ، سورية والعهد الفيصلي ص ١٤٧ .

(٣) كان السياسيون الاميركيون يتمسكون بمبدأ مونرو الـذي نـادى بـه سنـة ١٨٢٣ وهو يقضي بالا تتدخل اوروبا في شؤون الولايات المتحدة ولا تتدخل هـذه فـي شؤون غيرهـا من دول العالم .

من هيئة نظامية أعضاؤها مندوبون منتخبون انتخاباً قانونياً ، فعقد اجتماعه الأخير ، الذي أعلن فيه استقلال البلاد والمناداة بي ملكاً عليها ، لا يمكن أن يعتبر انه تصرف خلافاً لآراء الحكومتين الانكليزية والافرنسية ، ما دام بيانه مؤسساً على ما لهاتين الحكومتين وسواهما من الحلفاء من التصريحات والوعود ، يضاف إلى ذلك ان المؤتمر وضع أمامه، بالوسيلة التي اتخذها، تسكين الشعب والمحافظة على الأمن من الأفكار المريبة التي بدأت بالانتشار في الشرق ، وأعلن بأوضح أسلوب إخلاصه لدول الحلفاء ، وعلى الأخص للحكومتين (انكلترة وفرنسة) ، فالشعب وأنا في أوله ، أظهر لبلادكم تعلقه المخلص يوم كان للعرب مجال ، وحارب في صفوفكم ، وكان له السرور أنه ساهم في الظفر الذي تمّ في الشرق ، ولا يمكن أن يتصرف اليوم خلافاً لمصالح بريطانية العظمى وحلفائها ، بل بالعكس من ذلك يدافع دفاع المتحمس ، عن هذه المصالح ، ويكون مستعداً على الدوام لوضع كل موارده في خدمة الحلفاء، وقد أظهرت الحرب الأخيرة برهاناً ساطعاً على حسن نياتنا ، ولكن يجب ألا يغرب عن البال ، انه اثر الوعود التي قطعت لنا أخذت على عاتقي إدخال الشعب العربي في الحرب العالمية ، وتعرضت لمسؤولية عظمى تجاه الشعب ، فهذا الشعب يطلب مني الآن إنجاز الوعود التي وعدته بها ، مما يضطرني أن أرجوكم إيجاد حالة تمكنني من إنجاز الوعد .

ان لي مزيد الأمل في هذه الظروف ، انكم تبلغوني جواباً على هذه البرقية الاعتراف مبدئياً باستقلال سورية التام ووحدتها ، الأمر الذي يسمح لي بالذهاب إلى أوربة لأقدم الشكر لحكومة جلالة ملك بريطانية على ذلك ، ولتنوير المجلس الأعلى عن موقف سورية [١] » .

ولكن الدول الحليفة كانت ماضية في تحقيق أهدافها الاستعمارية ، وقد رأت أن تحجب صورتها الشوهاء بطلاء خادع ، فأطلقت على الاستعمار الجديد اسم

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٩٦ ، يوم ميسلون ص ٢٨٦ ـ ٢٨٧سورية والعهد الفيصلي ص ١٤٨

الانتداب ، تضليلاً الرئيس ولسن وغـــيره من النظريين الذين كانوا مأخوذين حقاً بفكرة الحرية وحق تقرير المصير ، وخداعاً للشعوب التي كانت تعد لتكون قرباناً على مذبح مؤتمر السلام .

وكانت المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم قد اعتبرت بلاد الشام والعراق تابعة للانتداب من حرف « أ » ويشمل هذا الانتداب « البلاد التي يقطنها جماعات بلغوا من التقدم مبلغاً يجوز معه الاعتراف موقتاً بأنهم أمم مستقلة ، على أن يقود خطاهم مندوب ينصحهم ويعينهم في الادارة حتى يصبحوا قادرين على السير وحدهم ، ويجب ان يعتد برأي هؤلاء الجماعات عند انتخاب الدولة المنتدبة » ومفهوم الانتداب في هذا التعريف انه غير الاستعمار وغير الوصاية ، وانه مجرد نصيحة ومساعدة يجب أن يتما بموافقة الشعب المنتدب عليه . إلا ان فرنسة وبريطانية ما لبثتا ان استصدرتا من عصبة الأمم في ٢٤ تموز (يوليه) ١٩٢٢ ما سمي بصكوك الانتداب ، وقد انتهكت هذه الصكوك التزامات الحلفاء الأخلاقية والشرعية معاً ، وأعطت الدول المنتدبة كل وسائل التسلط الاستعماري ، وان كانت هذه الدول لم تنتظر صدور تلك الصكوك لبسط سيطرتها وفرض طغيانها على الشعوب التي اعتبر الميثاق استقلالها وتطورها وديعة مقدسة في ذمة المدنية الحديثة [١] .

ويروي عوني عبد الهادي انه ذهب ذات يوم مع نوري السعيـــد لمقابلة المستر بولك الذي كان يرأس الوفد الأميركي بعد عودة الرئيس ولسن إلى بلاده ، وقالا لبولك :

ـ لماذا ترى تعملون على تجزئة بلادنا ؟ إذا لم يكن بد من الانتداب فليكن بيد دولة واحدة لحفظ وحدة العرب .

قال عوني عبد الهادي : « وأذكر ان الدموع ترقرقت في عيني نوري السعيـد

---

١ ـ أنظر صكوك الانتداب على سورية ولبنان وفلسطين والعراق في «الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب» و « محاضرات في الاستعمار ج ٢ ص ١٢٩ ، يقظة العرب ص ٤٧٢ ، العهود المتعلقة بالوطن العربي ص ٣٠٢ ، خطط الشام ج ٣ ص ٢٥٣

من شدة التأثر .. وقام بولك ووقف تجاه خارطة كبيرة ، وأشار أولاً إلى فلسطين وقال :

— ان انكلترة مصممة على المجيء إلى هنا ، وفرنسة مصممة ان تأتي إلى هنا (وأشار إلى سورية ولبنان) ولو أدى الأمر إلى الحرب لاعتقاد الفرنسيين ان القضية تتعلق بشرف بلادهم [1] .

وقريب من هذا ، وهو يزيده تفسيراً ، قول جان فلوريه : « كل شيء أو لا شيء .. يجب أن نعلم اننا إذا فقدنا سورية ، نفقد بالتالي سمعتنا ونفوذنا في افريقية الشمالية [2] » .

ولعل من المفيد حقاً والطريف جداً ، أن نسمع أقطاب الانتداب أنفسهم يتحدثون عنه ويتناقشون فيه ، كما حدث في جلسة ٢٥ حزيران (يونيه) سنة ١٩٢٠ في المجلس النيابي الفرنسي، قبل معركة ميسلون بشهر واحد ، أثناء مناقشة مشروع الاعتمادات الجديدة التي طلبها وزير الدفاع ، وهذا نص هذه المناقشة الفاضحة :

دالاديه — لقد طلبت الحكومة — من أجل ما أسمته بالقضية الاسلامية — رصد اعتمادات خاصة تبلغ نحو ٥٢٥ مليوناً في ميزانية وزارة الدفاع . و ١٨٧ في ميزانية وزارة الخارجية . هذا مع العلم بأن هذه المبالغ قد ترتفع إلى الضعف . فهل يسوغ لنا — في الوقت الذي ما تزال بلادنا تحمل في جنباتها آثار الجراح البليغة — ان نتورط في سياسة بسط النفوذ، والابهات الفارغة ، التي قد تؤدي ببلادنا إلى الهلاك؟ يقال لنا فيما يتعلق بكيليكيا ، ان الحكومة عازمة على إخلائها ، وانها عدلت عن سياسة المغامرة والحرب. مع ان المعارك ما تزال مستمرة ، واننا نتكبد في سورية وكيليكيا خسائر فادحة تزداد يوماً بعد يوم ، حتى اننا نجهل عدد موتانا بالضبط .. وقد قيل لنا انهم بلغوا ٦٠٠ رجل خلال شهر واحد. ويقال لنا أيضاً ، بأننا لا نريد ان نبسط حمايتنا على سورية واننا لا نرغب في تأسيس ادارة على غرار الادارة في

---

١ — ملحق جريدة الحياة الخاص بالثورة العربية الكبرى ص ١٣

٢ — المراحل لعبد الرحمن الكيالي ، ج ١ ص ١٣

مراكش . ولكن جميع الدلائل تشير إلى عكس هذه المزاعم . فإذا كانت حجج الحكومة التي تسردها تبرر عملاً سلمياً ، نقوم به هناك ، فما هي الحاجة إلى تجهيز الحملات العسكرية ؟..

بريان – انهم هم الذين يناشدوننا المعونة ..

دالاديه – ان هؤلاء الذين يناشدونكم لا يمثلون الشعب السوري كله ، إنما هم أقلية ضئيلة ، تريد حماية نفسها والمحافظة على مصالحها المرتبطة بمصالحهم ومع ذلك فليس ثمة حاجة إلى الحروب وإسالة الدماء ..

بريان – نحن لا نرغب في الحرب ، ونخوضها لأنها وسيلة من وسائل السلم ..

دالاديه – ان هذا تعليل مضحك .. لماذا لا نحصل في سورية على مركز أدبي ومادي بالجهود السلمية وحدها دون حرب ؟..

بريان – ان الجهود السلمية أصبحت مستحيلة ..

دالاديه – انني أتساءل ، لماذا يبدو لكم الآن ان الجهود السلمية أصبحت مستحيلة ؟..

بريان – لأن القتال واقع فعلاً وفي عدة مناطق.. وحركات العصيان لا تسمح لنا بالتفاهم ..

دالاديه – ولكن لم هذا القتال ؟.. ولم حركة العصيان ؟.. أليس نتيجة أخطائكم ؟.. انني ممن يرون ان الحرب في سورية ، هي نتيجة أخطاء لا ريب فيها . وأعتقد بأننا لم نأخذ بعين الاعتبار ، حقيقة الهياج العميق الذي يسود العالم الاسلامي بأجمعه .. يجب ان لا ننسى ، بأن في سورية ثلاثة ملايين مسلم، وثلاثمائة ألف من المسيحيين . واننا هناك أمام شعب لا يشبه القبائل بأي وجه من الوجوه . فهو شعب عامل ، ويتحلى بحضارة قديمة جداً . وقد أثبت – من قبل الحرب وبتطوره المستمر – بأنه يرغب في بلوغ الحرية والاستقلال،وتأسيس دولة حقيقية . فكيف ننسى تلك الحركات القومية العظيمة ، التي ساهم بها جميع السكان ، من مسلمين ومسيحيين ، بصورة لم يعهد لها مثيل في الشرق كله ، تلك الحركات التي اتفق فيها الشعب السوري بمجموعه ضد الأتراك ، لتأسيس دولة قائمة على السلام

والنظام ؟.. حتى ان الأتراك أنفسهم تهيبوا هذه البادرة ، وقد بلغ بهم تهيبهم ، إلى التفكير بإيجاد اتحاد « تركي – عربي » على غرار « الاتحاد النمسوي – المجري » . فكيف ، وقد استنجدتم بالعرب خلال خمس سنوات لمحاربة الأتراك ، وناديتم مع حلفائكم خلال هذه المدة من على المنصات الأميركية والانكليزية والايطاليـة والفرنسية وفي كل مكان وزمـان بألا غاية لكم إلا الذود عن حرية الشعوب – فكيف تتجرأون الآن – واسمحوا لي ان أقول – بأية وقاحـة تحاولون اليوم ان تتملكوا بلاداً ليست لكم .. بلاداً آن لها ، ولها كل الحق في ان تنعم بالحريـة والاستقلال ..

نوبلومير – ان الانتداب يا سيد دالاديه ليس احتلالاً .. بل هو على العكس تماماً ..

دالاديه – وهذا تعليل مضحك جديد .. الأمر إذن ليس احتلالاً واستيلاء .. ما هو إذن؟.. علك تريد ان تقول انه ممارسة الانتداب.. ان هذه التعابير لا تخفي الحقيقة..وقد قرأت تقريرك الذي تقول فيه « انك ضد الفتوحات وضد المغامرات ولكنك تريد الاعتماد على أساليب أكثر ليونة »

نوبلومير – انني أعتمد قبل كل شيء على قرار سان ريمو . فقد كان حقنا في سورية متنازعاً عليه حتى صدور ذلك القرار . فأصبحنا منذ صدوره نملك حقاً دولياً متيناً . وقد حصلنا على موافقة انكلترة وايطالية والميكادو . وأنا لا أطلب مبلـغ الخمسمائة مليون فرنك لتجهيز حملة عسكرية ، بل للقيام بمباحثات ومفاوضات ، اما الجنود فسيكونون للزينة فقط .. وهذا المال الذي سنصرفه ، سيكون لحل المسألة السورية فقط ..

دالاديه – أنا أعتقد من جهتي ، انه من الخطأ البين ، ان تقولوا لهذه الشعوب – المتحمسة والمصممة على التحرر والانعتاق – ان تقولوا لها ، اننا نحاول الاستيلاء على بلادك ، ونسعى إلى الانتداب عليها ..

نوبلومير – هذا غير صحيح ..

دالاديه – انكم تفرضون الانتداب عليها .. ان الكلمات لا تبدل حقيقة

الأمر . كنتم تتكلمون في الماضي عن تغلغل سلمي ، وها أنتم الآن تتكلمون عن الانتداب . وفي الحقيقة انكم تتقدمون إلى احتلال سورية بروؤس الحراب ..

نوبلومير — ان القضية فقط تقتصر على تأمين النظام الفرنسي في بلاد تسودها فوضى هائلة ، وذلك لأن النظام الوطني ، عاجز عن فرض نفسه بنفسه . وإذا كنا نرغب في فرض نظامنا إنما نفعل ذلك، لنجني ثمرات جهودنا وأتعابنا في أقرب وقت ممكن ، ولنرى الموارد المحلية تفي بحاجات الناس ، وتسمح للأهلين بأن يعيشوا أحراراً مستقلين ..

ليون بلوم — وما هي الوسيلة لذلك ؟..

نوبلومير — الوسيلة هي فرض النظام الذي يعجزون عن فرضه بدوننا ..

بلوم — و كيف ستؤسسون أنتم هذا النظام ؟..

نوبلومير — طبعاً بمعونة الدرك . . هذا أمر بديهي .. فكيف تريدوننا ان نؤمن نظاماً بدون الدرك ؟.. فهذه الطريقة هي أساس كل حيـــاة اجتماعية ، أو قريبة من الاجتماعية ..

لوناي — وسيكون الأمر كذلك حتى في عصبة الأمم ..

دالاديه — انني لا آسف على اشتراكي في هذه المناقشة ، حتى ولو لم أكن قد توصلت إلى أي نتيجة ، سوى حمل نوبلومير على الافصاح عن فكرته إفصاحاً تاماً . فالأمر إذن ، هو إرسال درك وتغلغـــل سلمي . ولكن سينتهي بحملة عسكرية ومعارك دامية . انكم إذا واصلتم هذه السياسة الحمقاء، ستعرضون البلاد إلى خطر قد ينتهي بكارثة حقيقية بإيفادكم مائة ألف جندي ليموتوا في سورية .

نوبلومير — ان الغاية تبرر الواسطة .

دالاديه — أنا لن أصوت على رصد هذا الاعتماد . في الوقت الذي رزىء فيـــه شعبنا بمليون ونصف من أبنائه . وفي الوقت الذي يترتب علينا فيه ان نركز قوانا لتعمير نواحينا المخربة . انني أعارض هـــذا المشروع ، وأرجو ان تعذروني إذ أنسحب من هذه الجلسة[1] ..

---

١ — معارك الحرية في سورية ص ٢٩ — ٣٣

ولما اتخذت عصبة الأمم في ٢٦ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ قرارها بانتداب فرنسة على سورية ولبنان ، وبريطانية على العراق وفلسطين ، أرسل اللورد اللنبي بوصفه قائد جيوش الحلفاء برقية إلى الملك فيصل قال فيها :

« يا صاحب السمو ، أمرتني حكومة جلالته أن أقدم لكم الرسالة الآتية :

بنتيجة المقررات التي اتخذها الحلفاء أخيراً في سان ريمو ، قد تم الاعتراف بسورية والعراق دولتين مستقلتين ، على شرط أن تتناولها مساعدة دولة منتدبة إلى أن يحين الزمن الذي تستطيعان فيه الوقوف وحدهما .

وبناء على هذه المقررات ، قد أودعت مهمة الانتداب لسورية إلى فرنسة ، كما ان مهمة الانتداب للعراق أوكلت إلى انكلترة مع انتدابها لفلسطين ، وان حكومة جلالته تشعر شعوراً قوياً بأن الوقت قد أزف للوصول إلى خطة تأتلف بها مطالب الشعب السوري مع هذه المقررات .

وقد ذكرتم سموكم في كتابكم رقم ١٠٣ المؤرخ في ٢٨ آذار ١٩٢٠ المرسل إلى وزير الخارجية البريطانية ، رضاءكم بالسفر إلى أوربة ، على شرط الاعتراف باستقلال الشعب السوري، وحكومة جلالته مستعدة بناء على القرارات التي اتخذت أخيراً ، للاعتراف بسموكم مبدئياً رئيس دولة مستقلة ، إلا انها تعتقد اعتقاداً قوياً بأن قضية ملكيتكم إنما ينحصر حق البت فيها رسمياً بمؤتمر الصلح وحده، ولذلك تلح على سموكم بأن تأتوا إلى أوربة بدون إبطاء ، وتبسطوا قضيتكم أمام رجالها ، وسيعقد المؤتمر دورته القادمة في باريس في آخر شهر ايار (مايو) ، وتأمل أن يجد سموكم السبيل لحضور المؤتمر خلال اجتماعاته هذه .

وانني بالالحاح على سموكم بإجابة دعوة حكومة جلالته بالسفر إلى باريس بلا انتظار ، أرغب في أن أؤكد لكم ان الباعث الوحيد لخطة حكومة جلالته في هذا السبيل ، هو رغبتها في اعطاء آمال سموكم وأمانيه الاعتبار التام ، مع منحكم الفرصة اللازمة لبسط قضيتكم بكل تفاصيلها [1] » .

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ١٩٩ ، يوم ميسلون ٢٩٠.

وعززت فرنسة هذه البرقية برسالة وجهها المسيو ميلران إلى الملك فيصل في ١٣ ايار (مايو) ، ورد فيصل على برقية ميلران ببرقية أعرب فيها عن استياء السوريين من تقسيمهم إلى شعوب عديدة ، إذ انهم شعب واحد وينزع نزعاً واحداً ، ورجا الاعتراف بوحدتهم واستقلالهم . أما الدعوة التي وجهتها اليه الحكومة الانكليزية عن طريق اللورد كيرزون تارة واللورد اللنبي تارة أخرى، فقد رفض تلبيتها مكتفياً بمساعي نوري السعيد الذي كان قد انتدبه لزيارة لندن وباريس ، وكان من المنتظر سلفاً ان تخفق هذه المساعي في تغيير مجرى السياسة الدولية .

ولم يقتصر رد الملك فيصل على مقررات الحلفاء وإنذاراتهم ، على الرسائل والبرقيات ، وإنما عمد إلى تأليف حكومة دفاع وطني ، متجاوباً في ذلك مع رغبة الهيئات الوطنية وإرادة المواطنين في اتخاذ التدابير الفعالة لصيانة استقلال البلاد وتحقيق أمانيها المقدسة . وقد تألفت هذه الحكومة برئاسة هاشم الأتاسي ، وضمت ساطع الحصري للمعارف ، رضا الصلح لرئاسة مجلس الشورى، الدكتور عبدالرحمن شهبندر للخارجية ، يوسف العظمة للحربية ، فارس الخوري للمالية ، جلال زهدي للعدلية ، يوسف الحكيم للتجارة والزراعة ، علاء الدين الدروبي للداخلية ، وخلف هاشم الأتاسي في رئاسة المؤتمر السيد رشيد رضا ، وقال الملك فيصل في الكتاب الذي بعث به إلى هاشم الأتاسي في ٣ ايار (مايو) : « عهدنا اليكم بتأليف وزارة جديدة يكون أول همها المحافظة على الأمن والراحة في الداخل ، والدفاع عن حقوق هذا الوطن إزاء كل من يريد به سوءاً أو يحاول الوقوف في سبيل استقلاله المقدس في الخارج ... » كما انه طلب من الوزارة في كتاب الموافقة على تأليفها ان تبذل كل مساعيها « في تحقيق رغبات الأمة في اتخاذ أنجع التدابير في الدفاع عن استقلالها المقدس [1] » .

وقدمت الوزارة بياناً للمؤتمر السوري قالت فيه ان أساس خطتها هو :

١ ـ تأييد الاستقلال التام الناجز المتضمن في جملة ما يتضمنه حق التمثيل

---

١ ـ يوم ميسلون ص ١٠٢

الخارجي .

٢ – المطالبة بوحدة سورية بحدودها الطبيعية ، مع رد طلب الصهيونيين بجعل القسم الجنوبي منها وهو فلسطين وطناً قومياً لليهود .

٣ – رفض كل مداخلة أجنبية تمس سلطاننا القومي [١] .

وانتقلت الوزارة الجديدة إلى تنظيم أسباب الدفاع ، فوسعت قانون التجنيد وجعلت مدة الخدمة العسكرية الاجبارية ستة أشهر ، وطرحت على الاكتتاب قرضاً وطنياً بنصف مليون دينار سوري بضمان أملاك الدولة وبفائدة قدرها ستة في المائة لإنفاقه في وجوه الدفاع الوطني .

لقد كانت الحماسة الوطنية بالغة أوجها، ولكن الدولة حديثة العهد قليلة الخبرة، وهي في فقر شديد إلى السلاح والذخيرة ، وقد التحق عدد كبير من الضباط العراقيين في الجيش العربي بالثورة المشتعلة في العراق ، بل ان بعض هؤلاء الضباط ونخص منهم بالذكر جميل المدفعي وعلي جودة الأيوبي وتحسين علي هم الذين أضرموا نيران هذه الثورة من الحدود السورية . وكذلك انضم عدد من الضباط السوريين إلى الثوار المناضلين في جبل عامل وجبال العلويين والجزيرة العليا وانطاكية . ولذلك كان لا بد للحكومة من أن تطلب مزيداً من العون والمناصرة، وقد أعرب الملك فيصل عن ذلك في خطاب ألقاه في مأدبة افطار كبرى دعا اليها رجالات البلاد ومفكريها في ٢٥ ايار (مايو) وكان آخر خطاب ألقاه في سورية [٢] وقد

---

١ – أنظر مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٢٠٨ ، الثورة العربية الكبرى ج٢ ص ١٤٦ ، سورية والعهد الفيصلي ص ١٦٠

٢ – أشار أسعد داغر الى خطاب آخر القاه الملك فيصل في تلك الفترة ، وربما في اليوم نفسه ، في الثكنة العسكرية بدمشق وكانت غاصة بالجند ، فقال : « ولا أنسى ما حييت الخطبة الحماسية التي القاها الملك فيصل على الجند في اثناء زيارته للثكنة ، فلا اذكر اني سمعت أو قرأت ما هو أبلغ منها وأشد وقعا . ولعل المحيط الذي ألقيت فيه ضاعف تأثيرها في نفسي التي كانت حينئذ مستعدة للتأثر بكل مظاهر الحماسة ، ولكن ذلك وحده لا يعلل تأثيرها العظيم في نفوس الجنود . وهذا ما يحملني على الاعتقاد بأن الملك فيصلا كان حتى تلك الساعة عازما على الموت على رأس الوطنيين في سبيل الدفاع عن البلاد ، وأن ما قاله في خطبته كان صادرا من أعماق قلبه فبلغ الى أعماق نفوس السامعين » أنظر : مذكراتي على هامش القضية العربية ص ١٣٦

تحدث فيه عن الانتداب وقرارات سان ريمو ، فقال :

« أريد بهذه المناسبة ، أن أقول بعض كلمات أعلم أنها تهم الأمة كثيراً ، إن هذه الكلمات منتظرة من الحكومة لا مني ، لأني غير مسؤول ، ولكني أستسمح رئيس الوزارة فأقول :

ان الأمة اليوم في شوق عظيم إلى معرفة حالها ومصيرها ، لقد أبلغونا القرار الذي وضع في سان ريمو ، بشأن مستقبل البلاد بصورة مجملة، فيئس البعض من جراء ذلك وظن أنه قضي على مستقبلنا وأن كل سعي نبذله لا يأتي بفائدة ، وقال القسم الأعظم من سكان البلاد : لقد قضي علينا ونحن لا نريد أن نستعبد فلنمت شرفاء .

هاتان هما الفكرتان السائدتان اليوم وكلتاهما غير مطابقتين للحقيقة ، لأنه لم يقض علينا بالفناء لنيأس ، ولا قضي علينا بالاستعمار لكي نقول يجب أن نموت شرفاء .

بماذا قضي علينا ؟ من المعلوم أنه اتخذ قرار يعترف باستقلال سورية على ما يقال وجعلها تحت الانتداب ، ولكن ما هو هذا الانتداب ، وما هي كيفيته، وهل هو يقضي علينا أم لا ؟ فهذا ما لا يزال مجهولاً .

لقد اتخذت الأمة قراراً من قبل أعلنت فيه استقلالها وقالت انه يجب على الأمم ان تعترف به ، فكما اننا اتخذنا قراراً يوافق مصلحتنا فقد اتخذوا هم أيضاً قراراً لأنفسهم يلائم مصلحتهم ، وكل من الفريقين يدعي الحق لنفسه ، ولكن ما بينهما من الود لا يجعل أحدهما يعتدي على حقوق الآخر ، وإن كان كل منهما ينظر إلى مصلحته قبل مصلحة سواه .

الأمة السورية أعلنت استقلالها وفقاً لمصالحها ، أما الدول فمع اعترافها بهذا الاستقلال فقد اشترطت له شروطاً تلائم مصالحها أيضاً ، وعندما أعلنا استقلالنا قلنا باحترام مصالح الجميع لنكون في تآلف مع الشعوب التي حاربنا معها ، ثم ان الدول وضعت شرطها وقالت لنا تعالوا نؤلف بين مصالحنا ومصالحكم .

فيظهر من هذا انه لا ضير علينا حتى الآن ، وان أبواب المذاكرات ما زالت مفتوحة لكلا الفريقين ، ويجب أن يُعلم انه ينظر الينا اليوم كأمة مستقلة .

ان كلمة الانتداب لا حد لها ولا معنى صريح وقد رفضتها الأمة رفضاً باتاً ، ولا يقبلها أحد يريد الحياة ، فهي كلمة مطاطة تفسر طوراً بأشد أنواع الاستعمار وتارة بأخف ضروب المعاونة الودية التي لا تمس الاستقلال، ومع ذلك فقبولها عار على كل أمة تريد الحياة .

أرجو من الأمة أن تعرف أن رئيسها أو حاكمها أو ملكها الذي انتخبته هو على هذا المبدأ ، لا يرضى أن يقال ان المملكة التي هو رئيسها تحت قيود مملكة أخرى ، فالأمة التي عاشت قروناً عديدة ومدنت العالم لا يمكن أن تتقيد بهذه القيود ، وأريد ألا يكون رفض الأمة للانتداب اعتماداً على القول فقط .

تذكرون جميعكم انني كنت أقول دائماً ولا سيما بعد رجوعي من أوربة أن الاستقلال يؤخذ ولا يعطى. أنتم تطلبون مني الاستقلال وأنا أطلب منكم الوسائل. تذكرون اننا لما كنا تحت سلطة الاحتلال وكانت الحكومة بدون قوة اجرائية والأمة محتاجة إلى القوة أي إلى الجند أردت أن أظهر للأمة ضرورة التجنيد فتطوعت جندياً بسيطاً، ولم يكن في الامكان حينئذ وضع قانون للتجنيد بسبب الاحتلال، فلما جلا الجيش البريطاني عن البلاد رأت الحكومة ضرورة التجنيد لحفظ النظام أولاً وللمدافعة عن البلاد ثانياً، فوضعت قانون التجنيد، ورأينا الفرق بين الجند عندما كان متطوعاً وبقي أكثر من سنة دون أن نتمكن من تنظيم قطعة للعرض فضلاً عن الدفاع ، على أنه لم يمر شهران على وضع القانون حتى رأينا أن لنا جيشاً ولو قليلاً، ونظاماً ولو في حالة الطفولة. ولكن الحكومة ترى أن هذا الجيش لا يكفي لحاجة البلاد داخلاً وخارجاً ولا سيما أن هذا القانون استثنى قسماً عظيماً من الخدمة.

ان الأمم تنظر الينا من وجهتين : الأولى نظرة صديق يريد منا أن نظهر بمظهر منظم عظيم ، وتخشى وقوع حادث مكدر ، يعكر علينا ويفسح مجالاً لإظهارنا بمظهر الهمجية ، والثانية نظرة فريق ربما يطمع فينا ، فالحكومة مجبرة على إيجاد القوة التي تفرح صديقها وتدعم كيانها وتحافظ على نظامها ، لا سيما وان المناطق السورية المحتلة هي في حالة فوضى أخشى أن تسري الينا ، وتسيء سمعتنا في الخارج، فيجب أن تسهر الحكومة على حفظ النظام في الداخل وعلى إيجاد قوة تجعلنا محترمين

من أصدقائنا وأعدائنا وان كنت لا أعرف أن لنا عدواً .

ان الأمة تريد الاستقلال وترى أن كل وزارة وحكومة لا تعلن انها دفاعية لا تصلح لها ، فالأمة التي تطلب هذا يجب أن تقدم الوسائل اللازمة له من المال والرجال .

يجب ألا يتسرب اليأس إلى نفس أحدنا ، وعلى المفكرين والعقلاء وأرباب الصحف أن يحولوا دون ذلك ، فنحن سنعيش ولن يمس استقلالنا بسوء ، ولا شك ان هذه الأمة التي بذلت عشرات الألوف من الضحايا في غاليسيا والقفقاس وايران والروملي خدمة لمصالح غيرها، لا تتأخر عن بذل اضعاف ذلك دفاعاً عن كيانها وحريتها ولو كانت خارجة من حرب طويلة مهلكة .

ولما كان من غير المستطاع إيجاد جيش بلا مال فقد أصدرت الحكومة قرضاً مضموناً ، يمكنها من إيجاد قوة تضمن حياتها المقبلة ، فأرجو من الأمة أن تقبل عليه ، وتثبت للعالم المتمدن أنها لا تحتاج من الخارج حتى ولا للمال ، فلديها كل شيء عند اللزوم .

لقد اعتادت الحكومات أن تصدر قروضاً عند وقوع الأزمات ، وعندئذ يكون إقبال الأمم على القروض مقياساً لحياتها ، فأريد أن يصادف هذا القرض إقبالاً عظيماً ولا سيما انه مضمون برهائن تعود بفائدة عظيمة على حاملي اسناده ، فأستنهض الهمم إلى الاقبال على القرض والجندية ولا شك في أنه لا يتأخر عن ذلك إلا من كان عدواً للوطن .

ان جميع الحاضرين هنا هم أعين هذه الأمة ، التي ترى صالحها، واتجاهها، فعليهم أن يسعوا لإرشادها إلى هاتين الغايتين الشريفتين : المال والجندية ، فيكونوا بذلك خير مساعد لحكومتهم وأمتهم .

هذا ما أرجوه من الأمة وأوصيها بالانصراف إلى الجد والرزانة في جميع حركاتها وسكناتها،أما الذين يقولون بالاستماتة في سبيل الحياة الحرة والموت الشريف فاني أندس في فكرتهم وأعد نفسي فرداً من أفرادهم ، وإذا دنت التهلكة أكن أول من يموت ، ولكني أطمئنهم على انه لم يحكم علينا بالأعدام ، فهذا الحكم لم يصدر

ولن يصدر ، وعلينا أن نستعد ونتروى ، وألا تكون حركاتنا تابعة للخيالات بل للماديات والمحسوسات .

ان مسألة سورية من أعظم مشاكل العالم التي يصعب حلها فلا يحكم فيها نهائياً بمجرد قول جريدة أو خطبة شخص مسؤول أو غير مسؤول ، فالحكومة التي رئيسها أمامي أسأله أنا والأمة عن نتيجة الحالة وهي تنتظر اليوم نتائج الأمور .

أريد من الأمة أن تثبت إلى النهاية، وأن تنتظر النتيجـــة برباطة جأش، وتمد حكومتها بالجنود والمال ، وتبذل جهدها ، والتوفيق منه تعالى، وأرجو أن نكون في العام القادم حول هذه المائدة وقد نسينا هذه الأيام العصيبة (١) » .

وكان الدكتور عبد الرحمن شهبندر من أشد المعجبين بالملك فيصل وما كان يتميز به من بطولة ووطنية وعظمة حقيقية لا تعرف الزيـف والختل ، وقد روى ان اشتراكه في الوزارة الأتاسية أتاح له ان يرى جلالته يعمل في أحرج الأوقات ، وقال : « وأذكر هنا حادثة تدل على ما تحلى به من الموهبة السياسية وكيف كان سباقاً إلى رؤية الخطر المداهم ومحيطاً بالقواعد الأساسية التي تسير بموجبها الشؤون من غير أن يغرق في التفاصيل ويرتبك بالشؤون العرضية الثانوية مشغولاً بها عن الأمور الجوهرية الأوليـة . فقد كنا ذات يوم في مجلس الوزراء نعالج مشاكلنا مع الفرنسيس كالعادة ، ونسعى بكل ما أوتينا لدفع كارثتهم عن البلاد، ولم يكن في الأفق السياسي حدث جديد يدعو إلى الاضطراب ، فدخل علينا الملك وعليه علائم الاضطراب والقلق كأنه يتوقع بلاء ، ثم قال : « انني لأخشى أن تسير أمور الدولة من الآن فصاعداً في الوعر ، وأن تتكوّم العقبات أمامنا » فقلنا : « مـا الذي حدث ؟ » فقال : « ان الفرنسيين عقدوا اليوم أساس اتفاق مع الـــترك ، وسيتفرغون لمعالجة القضية السورية ، لأن اتفاقهم مع الترك يعني توفير جيوشهم في الشمال لمحاربتنا في الجنوب » وقد صدق ظنه وجاءت النتائج طبق ما توقع لأن

١ ــ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٢١٣ ، الثورة العربية الكبـرى ج ٢ ص ١٤٩ ، يوم ميسلون ص ٢٣٩

الجنرال غورو حالما حصل على هذه الراحة في الحدود الشمالية تنمر وكشر عن نابه . ولو أوتي المليك الخالد حزماً على قدر فطنته وبعد نظره ، لتمكن من استغلال ضعف الفرنسيين لمصلحة سورية عندما كان يعصرهم الترك عصراً يقطع الأنفاس في جهات اورفة وماردين وعينتاب [1] » .

وما دمنا قد استشهدنا برأي الدكتور شهبندر في الملك فيصل ، فاننا نرى من المفيد ان نضيف اليه رأي الأستاذ ساطع الحصري ، وكل منهما قد عمل معه عن كثب واطلع على دخائل نفسه في ظروف متنوعة وتبين خصاله بكل تفصيل وكل تأكيد ، وقد رسم الأستاذ الحصري صورة رائعة له في مقال بعنوان « فيصل الكبير » جاء فيه : « .. ونظراً إلى ما لاحظته في هذه الظروف المتنوعة خلال تلك السنين الطويلة ، علمت بأنه كان يمتاز بخصال ثمينة جداً ، تجعله وجعلته عظيماً بكل معنى الكلمة . انه كان ذكياً حاد الذكاء ، ومرناً خارق المرونة ، كان يتمتع بحيوية شديدة ، وفعالية لا تعرف الكلل ، وكان نادر المثال في روح المثابرة وفي شيمة التعقب ، وفوق كل ذلك ، كان يحمل في طيات جنبه وطنية حارة عميقة تدفعه إلى العمل في سبيل الوطن بدون انقطاع ، وتجعله مستعداً لتضحية كل ما هو عزيز عليه، عند الاقتضاء . ان اجتماع هذه الأوصاف والمزايا في نفس الملك فيصل، جعل حياته مثالاً رائعاً للتطور الدائم والتقدم المستمر والارتفاع السريع . كان كل يومه أحسن من أمسه بدرجات كبيرة ... [2] »

أما الدكتور أحمد قدري الذي كان طبيب فيصل الخاص ومرافقه الدائم فيقول عنه : « انه صاحب قدم سابقة في الجهاد ، وصاحب يد سابغة على الأمة العربية بما قدم وبذل . وقد بدت غيرته على أمته منذ كان في دمشق إلى جانب جمال الطاغية ، ثم ظهرت عبقريته الادارية وذكاؤه الملتمع خلال حربه للعثمانيين وتجشيمهم الهزيمة، ثم كان له تبصره السياسي في الاستباق إلى دخول دمشق كفاتح عربي إلى جانب

---

١ ـ المقتطف ، عدد اكتوبر ١٩٣٣

٢ ـ مجلة « الاديب »

جيوش الحلفاء ، وتسلمه مقاليد الحكم وتصريفه الأمور طبق سياسة حازت رضى الجميع وتأييدهم . والواقع الذي لا ينكر ان فيصلاً كان موفقاً في أوربة بمواقفه الحازمة وسياسته المثلى ، وقد وجد من الرئيس ولسن خير ظهير . ولكن خذلان انكلترة اياه تنفيذاً لاتفاقها مع فرنسة على اقتسام البلاد المنفصلة عن تركية ، وانعزال امريكة عن التدخل في السياسة الأوربية ، ومؤامرة عصبة الأمم في توزيع الانتدابات على الأمم الضعيفة مخالفة بذلك مبدأ تقرير المصير الذي أعلنه ولسن وارتضته كافة الدول في سياستها ، حالت دون تحقيق غاياته النبيلة ، زد على ذلك تعنت الفرنسيين وإصرارهم على احتلال سورية ولبنان كيفما كان [1] » .

وبينما كان المسؤولون يفكرون في مواجهة الخطر في كثير من القلق والاضطراب ، وكان الملك فيصل يحاول معالجة الموقف بالمفاوضات السياسية وانتظار قرارات مؤتمر الصلح ، احتلت مفرزة فرنسية محطة سكة حديد رياق الكبرى في البقاع ، وتقدمت قوة أخرى من جرابلس في شمال سورية وعسكرت على نهر الساجور ، فاحتج الملك على ذلك احتجاجاً شديداً وأبلغ ممثلي الدول الأجنبية مذكرة قال فيها :

« لقد احتلت رياق قوة فرنسية بقيادة الكابتن هاك حاكم زحلة العسكري ، ووصلت قوة أخرى إلى نهر الساجور . وقد حدثت هذه الحوادث فجأة ومن دون موافقتنا بل من دون اطلاعنا عليها قبل وقوعها ، وهي لا تتفق مطلقاً مع التأكيدات التي نلناها ، محافظة على الحالة الحاضرة . ورغبة منا في انقاذ السلام وفي المحافظة على روابط الصداقة والود حتى النهاية ، لم نتخذ حتى الساعة أي تدبير في مقابل هذه الأعمال العدائية . ويظهر لي بجلاء وثقة ، ان الثقة التي وضعناها في حلفائنا الافرنسيين ستنتهي باحتلال بلادنا كلها ، وببت صلات الصداقة والود بيننا وبينهم . وفي الختام اني آسف لإبلاغكم بأننا نعتبر الحركة الجديدة للجيش الافرنسي في داخل منطقتنا ، عملاً عدائياً تقع تبعته كاملة على عاتق مسببه » .

وقد ادعت السلطة الفرنسية بأن ما جرى في شمال سورية لا يزيد على إبدال

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٢٨٦

جنود المخافر الأمامية على الحدود التركية بجنود غيرها ، وبررت احتلال رياق بأنه رد على احتلال الجنود السوريين لمجدل عنجر . ولما أبدى الملك استعداده لتخفيض القوات السورية في مجدل عنجر وإعادتها إلى ما كانت عليه قبلاً ، إذا ما جلت القوات الفرنسية عن رياق والمعلقة ، لم يتلق أي جواب .

وغالى الجنرال غورو في موقفه فمنع الملك من السفر إلى أوربة للاتصال بمؤتمر الصلح لعله يظفر بمعاونة محبي السلام لدفع الكارثة ، وكان فيصل قد أرسل مستشاره السياسي نوري السعيد إلى الجنرال لتأمين هذه الغاية ، فكان جوابه ان سفر فيصل إلى أوربة يتوقف على قبوله الانتداب الفرنسي أولاً ، وانه يخشى إذا سافر بغير طريق بيروت ان لا تستقبله فرنسة ولا تتعرف اليه [1] .

واحتج الملك فلم ينفع الاحتجاج ، ثم كلف قنصل ايطالية [2] وغيره من القناصل تبليغ احتجاجه لحكوماتهم وجمعية الأمم لتعذّر إرسال برقياته بغير تلك الوسيلة ، وطلب تأليف لجنة تحكيم دولية لحسم الأمر ، متعهداً بالخضوع لقرار لجنة التحكيم ، راجياً تدخل الدول حقناً للدماء ومنعاً لخراب البلاد ، ولكن جميع هذه المحاولات ذهبت أدراج الرياح .

---

(١) سورية والعهد والفيصلي ص ١٧٥

(٢) كان المركيز باتيرنو دي ماتكي قنصل ايطالية يعطف على القضية العربية ، وكان رجالات العرب في دمشق يستعينون برأيه في بعض الازمات .

الفصل الثاني والعشرون

عاصفة على دمشق

كان يوم الرابع عشر من تموز (يوليه) سنة ١٩٢٠ يوماً حزيناً كئيباً في حياة دمشق وحياة فيصل بن الحسين ، انقلبت فيه حـــلاوة الملك إلى مرارة ، وتحولت أضواء النصر إلى مخاوف ونذر . فقد كانت المفاجأة الأخيرة في سلسلة المتاعب والأزمات، الانذار الذي وجهه الجنرال غورو إلى الملك في ذلك اليوم ، وهو إنذار شديد اللهجة خاطب فيه الملك فيصل بوصفه قائد جيش الحجـــاز ، واعتبره محتلاً لسورية ، وسمى القوات السورية القوات الشريفية والمؤتمر السوري مجلساً يحكم باسم حكومة ودولة لم يُعترف بوجودهما . وتضمن الانذار البنود الخمسة التالية :

١ـ ان ترضى الحكومة العربية بالانتداب الفرنسي الذي هو مجرد مساعدة من الدولة المنتدبة لا تمس استقلال البلاد !

٢ ـ ان توقف التجنيد وتخفض عدد أفراد الجيش .

٣ ـ ان ترضى بالتعامل بورق النقد السوري .

٤ ألا تمانع في احتـــلال محطات خطوط رياق وحلب وبعلبك وحمص وحماه

احتلالاً عسكرياً مع احتلال مدينة حلب نفسها [1].

٥ ــ ان تعاقب الثائرين .

واشترط الجنرال تنفيذ هذه البنود قبل الثامن عشر من تموز (يوليه)، وبدأت جيوشه خلال ذلك استعدادها للزحف من لبنان .

وإلى القارىء نص هذا الانذار التاريخي الذي بورت فرنسة به احتلالها لسورية وزحفت جيوشها على اثره للسيطرة عليها ، ونستهله بالرسالة التي أرفقت بالانذار :

« يا صاحب السمو ، أتشرف بأن أرسل مذكرتي المؤرخة ١٤ يوليو ، أقدمها إلى سموكم الملكي وأناشد أخلاقكم السامية ووطنيتكم الصحيحة وشعوركم الودي نحو فرنسة أن تقبلوها .

« لقد برهنت فرنسة من جهتها على إخلاصها لسورية بقبولها القيام بمهمة ارشاد الدولة الجديدة وقيادتها بنزاهة . ولذلك أريد أن أظن أن سموكم الملكي سيصغي إلى صوت الحكمة في معالجة هذه القضية الخطيرة فلا يتضامن مع حكومة لا تمثل سوى الأحزاب المتطرفة من الشعب .

« ولا أفكر انني قادر على ان أعول في تنفيذ الضمانات التي تشرفت بطلبها على سموكم الملكي إذا تولت ذلك الحكومة فبقاؤها في مناصبها ينطوي على معنى العداء لفرنسة وقد بذلت جهدها لجر بلادكم إلى الحرب والقائها في أتون بلاياها ولن يعصمها

---

١ ــ كانت السلطات السورية قد رفضت ان تسهل للجنرال غورو استعمال السكة الحديد لارسال القوات والمؤن والذخائر الى كيليكية حيث كانت الجيوش الفرنسية مشتبكة في محاربة القوات التركية الكمالية ، وكانت نتيجة ذلك ان شعر الفرنسيون بحرج مركزهم في كيليكية فاتفقوا مع مصطفى كمال على الجلاء عنها واسترداد قواتهم منها ، ودفعوا بها فجأة الى سورية . ويروي أمين سعيد أن بعض الفئات كانت تدعو الى تعاون سورية وتركية الكمالية لمقاتلة الفرنسيين حتى النهاية وحملهم على الاعتراف باستقلال سورية ، وقد سافر يوسف العظمة الى اعزاز على الحدود التركية وتباحث مع مندوبي الحكومة الكمالية في انشاء تعاون عسكري بين الحكومتين ، فوعدوه بأن يطلعوا حكومتهم على اقتراحاته ويبلغوه الجواب ، ولكن الهدنة التي عقدتها فرنسة مع الاتراك أوقفت المباحثات عند ذلك الحد (انظر الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ١٤٩) .

سوى تصرف سموكم الملكي وحده .

وهذا نص الانذار :

باسم الحكومة الفرنسية ، لي الشرف بأن أعرض على سموكم الملكي لآخر مرة، موقف هذه الحكومة ازاء السلوك الذي سلكته حكومة دمشق منذ مطلع هـذا العام .

« سادت السكينة سورية ابان الاحتلال الانكليزي ولم يتعكر صفو الأمن ويبدأ الاضطراب فيها إلا لما حلت جنودنا محل الجنود البريطانية وقد أخذت هـذه الاضطرابات تزداد من ذلك الحين .

« ولقد أثرت هذه الاضطرابات في رقي سورية ونظامها السياسي والاداري والاقتصادي أكثر من تأثيرها في سلامة جنودنا وفي الاحتلال الفرنسي في المنطقة الغربية . فحكومة دمشق تحمل كل التبعة ازاء سكان سورية الذين عهد مؤتمر الصلح إلى فرنسة بأن تمتعهم بحسنات ادارة مؤسسة على الاستقلال والنظام والتساهل والثروة، وان أماني الولاء والتعاون التي أظهرتها فرنسة لسموكم بتأييدها حقوق السكان الذين يتكلمون العربية على اختـــلاف مذاهبهم ويقطنون القطر السوري بحكم أنفسهم بأنفسهم كأمم مستقلة قد أجاب عليها سموكم معترفاً بأن لسكان سورية مصلحـــة كبيرة في طلب المشورة والمساعدة من دولة كبيرة لتحقيق وحدتهم وتنظيم شؤون الأمة نظراً للتضعضع الذي أصاب البلاد من الارهاق التركي والاضرار التي نتجت عن الحرب ، وتلك المشورة والمساعدة ستسجلها عصبة الأمم عندما تتحقق بالفعل . وقد دعا سموكم الملكي فرنسة إلى القيام بهذه المهمة باسم الأمة السورية .

ولما كنتم تفاوضون الحكومة الفرنسية في شهر يناير الماضي وكانت العصابات الخارجة من دمشق تجتاح المنطقة الغربية أرسل إليّ مسيو كلمنصو البرقية الآتية :

« عندما بلغني خبر هجوم البدو في جنوب سورية وشمالها قلت للأمير فيصل انني اتفقت معه موقتاً على بعض المبادىء واني أحافظ أتم المحافظة على كلامي ولكن يجب أن يقابل خطتي هذه بمثل ما فيها من الاخلاص وأن يجعل سلطته محترمة على أنصاره فإذا لم ينفذ هذان الشرطان تنفيذاً دقيقـــاً فالحكومة الافرنسية تستأنف

العمل بحرية وتستعمل القوة لتأييد النظام واحترام الحقوق التي لها من المؤتمر » .

والبيان الآتي يوضح جلياً كيف ان حكومة دمشق لم تنقطع عن انتهاج خطة معادية ومخالفة تمام المخالفة لسياسة التعاون التي رمى اليهـــا رئيس الوزراء وتعهدتم بتطبيقها .

١ – عداء جلي على قواتنا :

ان إصرار حكومة دمشق على رفض السماح للسلطة الفرنسية باستعمال سكة رياق – حلب الحديدية هو عمل عدائي بحت . فالحكومة لا تجهل أن تلك السكة لا بد منها لإعاشة إحدى فرقنا الفرنسية في الشمال وتمكينها من القتال . وهـــذه الفرقة تقاتل قوات معادية تابعة لتركية التي انتزع الحلفاء الظافرون سورية من ربقتها ودفاعاً عن حدود حكومة سورية الجديدة التي يجب أن تربطنا بها روابط المصلحة وعرفان الجميل .

ان حكومة دمشق هي التي وضعت مبـــدأ تنظيم العصابات واستخدامها ضد جنودنا المحتلة . وهذا المبدأ أعلنه قائد الفرقة الثالثة في حلب صراحة يوم ١٣ ابريل بالقول الآتي :

« لما كنا لا نستطيع أن نعلن الحرب رسمياً على الفرنسيين يجب علينا أن نملأ البلاد بالعصابات التي تجهز عليهم تدريجاً وسيقود ضباطنا هذه العصابات فإذا استشهد أحدهم تعيل الحكومة عائلته » .

واليك الأدلة الآتية على دقة تنفيذ هذه الخطة :

في ١٣ كانون الأول – ديسمبر سنة ١٩١٩ هوجم موقعنا في تل كلخ بتحريض السلطة الشريفية في حمص وفي أواخر ذلك الشهر ذبح بدو محمود الفاعور الذي قلتم لي يا صاحب السمو الملكي انه صديقكم الشخصي مسيحيي مرجعيون وهجم على جنودنا في ٤ يناير رافعاً العلم الشريفي .

وفي ٥ منه سنة ١٩٢٠ تحقق وجود الجنود الشريفية بين الذين هاجموا جنودنا تحت قيادة ثريا بك (بركات) في فريق خان ثم في الحمام .

وفي حزيران – يونيه ثبت وجود أمير الاي ويوزباشي وستة ملازمين و٣١٧ رجلاً من

الجيش الشريفي بين العصابات التي كانت تعمل في ساحة مرجعيون وثبت استعمال معدات مأخوذة من الجيش نفسه وهي أربعة رشاشات ثقيلة وثلاثة خفيفة وخمسون صندوق ذخيرة وظهر أيضاً اشتراك محرضي المنطقة الشرقية في الاضطرابات التي امتازت بمذابح (عين ابل) وفتنة الشيعة في شهر حزيران — يونيه .

ثم ان منظمي العصابات محترمون كل الاحترام في دمشق لا سيما صبحي بركات الذي لا يجهل أحد إساءته الينا .

وعندما لم تكن العصابات ترسل من المنطقة الشرقية كانت الفتنة تثار في المنطقة الفرنسية نفسها .

وبهذه الأعمال وقعت اعتداءات عديدة على المسيحيين لاسيما في جسر القرعون في ٢٩ كانون الأول — ديسمبر حيث تقع التبعة على الضابطين الشريفيين واحد بك وتحسين بك.

وقد سوعد الشيخ صالح (العلي) بطل الفوضى والبغضاء لنا مساعدة مؤثرة مستمرة في جبال النصيرية .

ومن الممكن تعداد كثير من هذه الأمثلة وقد عرضناها على سموكم الملكي في حينها .

٢ — سياسة حكومة دمشق العدائية :

رأى سموكم الملكي إدخال أشخـــاص مشهورين بعدائهم لفرنسة في حكومة دمشق وكان تأثير المحيط شديداً عليكم حتى انكم لم تتمكنوا من السفر في الوقت المناسب تلبية لدعوة مؤتمر الصلح، وقد تألفت الوزارة من أناس من تلك الفئة التي لا تقتصر خطتها على إهانة فرنسة ورفض مساعدتها بل تتناول المجلس الأعلى الذي منح فرنسة الانتداب لسورية .

ان رفض انتداب فرنسة رفضاً باتاً في ١٨ أيار — مايو الماضي هو خطة عمياء قد تجر نتائجها المصائب على سورية .

٣ — التدابير الادارية ضد فرنسة :

ان التمنع الاقتصادي الظاهر في رفض ورق النقد السوري الجديد الذي أصدره البنك السوري لحساب فرنسة ومنع جميع المعاملات التجارية والمالية مع فرع بنك

سورية في المنطقة الشرقية هو دليل جديد على عداء مضر بمصلحة البلاد أيضاً .

وكذلك منع نقل الحبوب إلى المنطقة الفرنسية مبتدئاً من حماه فدمشق فحلب.

ثم ان السلطة الشريفية اجتازت حدود المنطقة الشرقية وتقدمت تدريجاً داخل المنطقة لتظهر أنها توسعت توسعاً يقصد به إخراجنا .

ففي شهر اذار–مارس وضع مخفر شريفي في الخالصة ثم رفع العلم الشريفي على القدموس بعد ذلك بقليل وفي نيسان – ابريل جعلت حكومة حلب القصير قضاء شريفياً . ثم نصب قائمقام شريفي في جسر الشغور .

٤ – أعمال عدائية موجهة رأساً إلى فرنسة :

ان من كان صديقاً لفرنسة أو موالياً لها في المنطقة الشرقية يكون مشتبهاً به من السلطة ويعامل معاملة سيئة في أغلب الأحيان ومن الأدلة الظاهرة على ذلك ان فارس غنطوس ونسيب غبريل اللذين ضمنت حكومة دمشق رسمياً رجوعهما إلى راشيا أسيئت معاملتهما ووضعا في السجن بعد رجوعهما .

وفي ٢٢ كانون الثاني–يناير هوجم وفد من دروز حوران جاء للسلام علينا أثناء عودته في وادي القرن وقتل عدد من رجاله .

ولدينا أمثلة عديدة على ذلك ولا سيما في حلب أما من كان عدواً لنا فانه يحترم في المنطقة الشرقية ويحمى من كل شيء ويحل على الرحب والسعة ، فقد احتفل بالدنادشة احتفالاً كبيراً في دمشق بعد حوادث تل كلخ ولم يمس بسوء في دمشق أمين محيو الذي نسف مستودع العتاد الحربي في بيروت، ثم ان سموكم الملكي سعى مؤخراً لرجوع كامل بك الأسعد الثائر المشهور إلى المنطقة الغربية وهو قد نفي بسبب فتن بلاد الشيعة وعليه قسم عظيم من تبعتها .

وعدد سكان المنطقة الشرقية الذين أكسبهم عداؤهم لنا عطف الحكومة عظيم جداً .

ان بث الدعوة ضد فرنسة في المنطقة الغربية قد ألبسته حكومة دمشق أشكالاً خبيثة أرادت السلطـــة الفرنسية أن تغمض عينها عنها لأنها قررت اتباع سياسة التساهل إلى النهاية .



الدينار السوري والطوابع البريدية السورية في العهد الفيصلي

وآخر هذه الأعمال وأظهرها شراء القسم الأعظم من أعضاء مجلس الادارة باثنين وأربعين ألف جنيه مصري .

وقد ألقت مخافرنا القبض على هؤلاء الأعضاء في ١٠ تموز–يوليه بينما كانوا ذاهبين إلى دمشق لبيع بلادهم منكرين الأماني التي أعرب عنها مواطنوهم بالاجماع تقريباً منذ عهد بعيد .

ان صحافة دمشق التي تفرط الحكومة في شد أزرها تواصل دائماً حملاتها على كل ما هو فرنسي وتقبح السلطة المحتلة في المنطقة الغربيـــة وترد كل مساعدة تعرضها فرنسة على سورية وتهينني أقبح إهانة .

٥ – الاعتداء على الحقوق الدولية :

بمقتضى هذه الحقوق يجب على قائد جيش الحجاز المحتل قطراً سورياً لا بد أن يظل عثمانياً إلى ان يقتضي تنفيذ المعاهدة بتغييره أن لا يعمل بغير هذه الصفة وأن يحافظ على الحالة الراهنة وهو حارسها. ولكنه تصرف عكس ذلك متخذاً صفة السيادة العليا وقد تقرر التجنيد الاجباري ونفذ منذ كانون الأول–ديسمبر سنة ١٩١٩ مع ان البلاد لا تزال بلاداً أجنبية وهذا العبء الثقيل الذي لا يجدي نفعاً قد أكره عليـه الشعب حتى في المناطق التي لها شكل خاص كالبقاع . ونفذ في أناس مستثنين منـه كاللبنانيين والمغاربة المقيمين في المنطقة الشرقية . ولاقى هذا التجنيد الباطل مقاومة نزيهة أدت في بعض الأحيان إلى إراقة الدماء .

ثم ان المجلس الملقب بالمؤتمر السوري الذي تألف واجتمع بصورة غير قانونيـة يسن القوانين بل يحكم باسم حكومة ودولة لم يعترف بوجودها . وفضلاً عن ذلـك فقد قدم اللقب الملكي لسموكم الملكي بدون حق ولا وكالة مما وضعكم كما عبرتم عن ذلك في موقف التمرد على مؤتمر الصلح .

ولم تحترم الامتيازات الأجنبية فان أحد رعايانا الأمير مختار الذي يمثل أسرة كبيرة اشتهرت منذ القدم باتصالها بفرنسة قد أوقف ايقافاً معيباً في حلب .

وليست الاتفاقات السياسية محترمة أيضاً. فان لواء من الجيش الشريفي أرسل إلى مجدل عنجر رغم الاتفاق الذي تم في كانون الأول–ديسمبر الماضي مع المسيو كلمنصو

والذي يقضي أن لا تحل في البقاع قوة شريفية أو فرنسية .

٦ ـ الأضرار التي أصابت فرنسة وسورية من ذلك :

لم تستطع السلطة الفرنسية حتى الآن ان تنظم البلاد التنظيم الذي ننتظره منها لأنها اضطرت إلى صرف قواها وجهودها لقمع الفتن المتوالية ومواصلة المفاوضات السياسية الجدية العقيمة مع حكومة دمشق، فهي والحالة هذه غير مسؤولة عن هذا التأخير بل تتحمل العبء العسكري والمالي الذي تقضي به الحالة التي أوجدتها حكومة دمشق ولا يمكن أن تؤثر على التكاليف في الميزانية السورية سواء بفقد الدخل الذي ينشأ عن استمرار الفوضى أو بالاشتراك في نفقات السيادة التي تلحق بها في المستقبل .

ولقد بلغت حالة الفوضى التي أوجدها مثيرو الفتن في البلاد حداً دعا إلى استجلاب قوات كبيرة أعظم عدداً مما يدعو اليه استبدال جنود انكليزية ابان السكينة .

وان هذه الأسباب تدل دلالة كافية على انه لا يمكن بعد الآن أن نعتمد على حكومة جاهرت فرنسة بالعداء كل المجاهرة وأخطأت نحو بلادها خطأ عظيماً بظهورها عاجزة عن تنظيمها وإدارتها .

لذلك ترى فرنسة أنها مضطرة لأخذ الضمانات التي تكفل سلامة جنودها وسلامة السكان التي نالت من مؤتمر السلم مهمة الوكالة عليهم فأتشرف بأن أبلغ سموكم الملكي أن هذه الضمانات هي كما يأتي :

١ ـ التصرف بسكة رياق ـ حلب الحديدية لإجراء النقليات التي تأمر بها السلطة الفرنسية ويؤمن هذا التصرف بأن يراقب مفوضون عسكريون فرنسيون جميع ما ينقل في محطات رياق وبعلبك وحمص وحماه وحلب تعضدهم قوة مسلحة مخصصة للمحافظة على المحطة واحتلال مدينة حلب التي هي نقطة مواصلات هامة لا يسعنا أن نتركها تسقط في يد الترك .

٢ ـ قبول الانتداب الفرنسي .

ان هذا الانتداب يحترم استقلال أهالي سورية ولا يناقض مبدأ الحكم بسلطة

سورية تستمد قوتها من ادارة الشعب ولا يتضمن سوى معاونة بشكل مساعدة وتعاون مع الدولة المنتدبة دون أن يتخذ مطلقاً شكل استعمار أو الحاق أو ادارة تنفذ رأساً .

٣ – قبول الورق السوري .

تصبح هذه العملة عملة وطنية في المنطقة الشرقية فتلغى جميع الأحكام المتعلقة بالبنك السوري في المنطقة الشرقية .

٤ – تأديب المجرمين الذين كانوا أشد عداء لفرنسة .

وهذه الشروط تقدم جملة ويجب قبولها جملة أيضاً بلا أدنى فرق خلال أربعة أيام تبتدىء من نصف ليل ١٥ تموز – يوليه (أي ١٤ منه الساعة ١٢ ليلًا) وتنتهي في ١٧ منه الساعة ٢٤ (أي الساعة ١٢ ليلًا) .

فإذا جاءني علم من سموكم قبل هذا الموعد بقبول هذه الشروط فيجب أن تكون قد صدرت أوامركم في الوقت نفسه إلى المراجع اللازمة لكي لا تعارض جنودي الزاحفة لاحتلال المواقع المعينة ، ثم ان قبول الشرط الثاني والثالث والرابع يجب أن يؤيد رسمياً قبل ١٨ منـــه ، أما تنفيذها بالتام فيكون قبل ٣١ منه الساعة ٢٤ (نصف الليل) .

وإذا كان سموكم الملكي لا يشعرني في الوقت اللازم بقبول هذه الشروط أتشرف بأن أبلغه أن الحكومة الفرنسية تكون مطلقة اليد في العمل . وفي هـــذه الحالة لا أستطيع أن أؤكد أن الحكومة الفرنسية تكتفي بهذه الضمانات المعتدلة .

ولا تقع على فرنسة تبعة المصائب التي تحل بالبلاد فهي قد برهنت على تساهلها من زمن طويل وفي الآونة الأخيرة، فحكومة دمشق هي التي تتحمل جميع أعباء مسؤولية فصل الخطاب الذي لا أنظر اليـــه إلا آسفاً ولكني مستعد له بمتانة لا تتزعزع [1] » .

---

١ – الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ١٦٧ ، مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص٢٢٥، مذكرات حسن الحكيم ج ١ ص ١٣ ، يوم ميسلون ص ٢٩٩ ، العهود المتعلقة بالوطن العربي ص ١٩٧

وعصفت الحيرة إثر ذلك بالحكومة العربية المستقلة في دمشق ، واستولى القلق على أفراد الشعب ، واضطرب الملك فيصل أمام الخيبات المتوالية التي كان يمنى بها بعد أن أجزل الحلفاء له الوعود والعهود، ورأى يوسف العظمة أن يقاتل السوريون دفاعاً عن الاستقلال الذي بذل العرب في سبيله دمهم بسخاء ..

ولكن ما كاد الامر يبحث جدياً في مجلس الوزراء حتى قال ياسين الهاشمي وهو قائد منطقة دمشق [1] ، انه لا يستطيع النهوض بأعباء الدفاع عن هذه المنطقة ، لأن الجيش أضعف من القيام بهذه المهمة .

واعترف يوسف العظمة بأن الجيش لا يزال ضعيفاً غير قادر على النهوض بالأعباء الجسام ، ولكنه أصر على ضرورة القتال وقال ان ذلك واجب لثلاثة أسباب : أولها ان الشعور الوطني يأبى على المرء أن يسلم بلاده للغزاة دون أن يستنفد في دفع العدوان قواه ، وثانيها ان الشعب يلح في طلب الدفاع عن وطنه ويعلن التفافه حول جيشه والسير معه نحو هذا الهدف المقدس ، وهذا التأييد الشعبي قوة معنوية لا يستهان بها .. وثالث تلك الأسباب ان القتال إذا طال واستطاعت البلاد أن تنال من القوى الغازية بقواها النظامية والشعبية بعض المنال ، فان ذلك يفتح المجال للمفاوضة ، ويعزز موقف المفاوض السوري فيحرز شروطاً أفضل من تلك التي ستفرض على البلاد في حال افتتاحها دون أية مقاومة .

وكان مجموع القوى العامة للجيش السوري يومذاك ثمانية آلاف جندي موزعين في دمشق وحلب ودرعا ، وكانت الأسلحة التي تملكها هذه القوى تتألف من ١٥ ألف بندقية مختلفة الطراز لكل منها ٢٥٠ خرطوشة فقط ، ونحو ٥٠ مدفعاً عيار ٧٥ و ٤ مدافع من عيار ١٠٥ ولكل مدفع ٥٠ قنبلة ، وقد تألف هذا الجيش من جنود متطوعة ومن ضباط عرب تخلفوا عن الجيش العثماني أو كانوا في الأسر ، بعد أن حل إثر إعلان الهدنة جيش الثورة الذي كان يتألف من عشرة آلاف

---

١ ـ كان ياسين الهاشمي قد بقي معتقلا في الرملة بضعة أشهر ثم أفرج عنه فعاد الى دمشق في ١٦ أيار (مايو) ١٩٢٠

جندي ، من قبل ديوان الشورى الحربي بدمشق الذي كان يرأسه ياسين الهاشمي ، على ان يعاد تعيين الأكفاء من ضباط هذا الجيش مجدداً بحسب كفاياتهم والحاجة اليهم ، لأن ظروف الثورة التي رفعت بعض الضباط إلى مراتب عالية ، تختلف عن الظروف السلمية الجديدة [1] .

يقول أسعد داغر : « وقد وجه كثيرون من الوطنيين انتقادات شديدة إلى ياسين الهاشمي وسلقوه بألسنة حداد ، واتهموه بأنه توخى بما قاله التنديد بسياسة يوسف العظمة وضربه ضربة قاضية ، وما دروا ان الهاشمي لم يكن يستطيع بصفته قائداً مسؤولاً ، سوى بسط الحالة من الوجهة العسكرية الصرف ، كما يراها أو يعتقدها ، بلا زيادة ولا نقصان ، وأن يرد على الأسئلة التي توجه اليه بصراحة تامة ، خصوصاً وان الأمة لم تكن تعتمد على الجيش وحده في محاربة الفرنسيين ، وانه كان من الواجب ان يظل ما دار في المجلس سراً مكتوما عن كل انسان [2] » .

ويقول في مكان آخر ان يوسف العظمة وغيره من القادة لم يجرأوا على مصارحة الشعب بضعف الجيش وعدم مقدرته على الدفاع ، ولو صارحوه بالحقيقة « لعمل على الاستعداد لدرء عواقبها ولضحى بكل شيء في سبيل ذلك . فلو قيل له ان الجيش غير كافٍ ، لما تردد في قبول الخدمة الاجبارية أو التطوع ، ولو قيل له ان الدفاع عن البلاد يحتاج إلى أضعاف ما لديها من السلاح والذخيرة لما أحجم عن بذل الأموال في سبيل تداركها ، ولكنه كان يسمع ان الجيش على أتم استعداد وفي إمكانه ان يقذف بالفرنسيين إلى البحر في ثلاثة أيام . وقد سمعت هذه الكلمة بنفسي من رجل كبير مسؤول عن الجيش بحضور حبيب اسطفان وسليم عبد الرحمن [3] » .

أما محمد علي العجلوني وكان قائد الحرس الملكي فهو يقول ان هيئة من الخبراء أرسلت إلى الجبهة لفحص التحصينات ودرس امكانات الجيش ، وكان أبرز أعضاء هذه الهيئة الأمير زيد وياسين الهاشمي ، فذهبت إلى مجدل عنجر وهو الموقع المنيع والمحصن تحصيناً فنياً « واشرأبت الأعناق واختلجت الأفئدة ، حينما عاد الوفد ومعه

---

١ ــ ذكريات العجلوني ص ٨٣ ، الثورة العربية الكبرى ج٢ ص ١٧٩
٢ ــ مذكراتي على هامش القضية العربية ص ١٣٥
٣ ــ المرجع السابق ص ١٢٥

تحسين الفقير قائد الفرقة المرابطة . ولم أتمالك ان اقتحمت غرفة الملك مع راسم سردست ، ودخلنا فاستمعنا إلى كلمات الهاشمي الهادئة القوية النبرات . ولفظ الجملة التاريخية التي لن أنساها : « ان جيش جلالتكم لا يستطيع الثبات فنياً سوى بضع ساعات . وأطاحت الخيبة بكياننا فخرجنا مذهولين من هول المفاجأة . وكان لشهادة الهاشمي أثرها الأول في نفوس القوميين الذين يثقون بكفاءته الحربية ويطمئنون إلى ضميره الوطني ، فأسقط بأيديهم وعلت وجوه الجميع سحابة وجوم وشؤم [١] » .

وبعد اختلاف في الرأي وتضارب في الأهداف ، قرر مجلس الوزراء أن يعقد قادة الجيش مجلساً عسكرياً برئاسة الملك فيصل لاتخاذ قرار حاسم في هذا الشأن . ومرة أخرى تضاربت الأجوبة واختلفت الآراء ، ثم تقرر ان في استطاعة الجيش العربي بما يملك من قوى واستعداد وباحكام مواقعه الحربية وخططه في القتال ، وباشتراك بقية القوى التي تؤلفها متطوعة الحوارنة والبدو والأهالي مع أسلحتها الخاصة ، أن يقاوم بضعة أسابيع قد يتاح للحكومة خلالها كسب انتصار سياسي ، اما إذا لم يُتح للحكومة استخدام هذه القوى جميعاً ، وأن تستعد للقتال استعداداً وافياً يقترن بحسن التوجيه والتنظيم ، فان جيشها يعجز عن مقاومة الغزاة ساعة واحدة [٢] .

وكان محمد كرد علي أحد الأشخاص الذين عارضوا مقاومة فرنسة بالسلاح ، وقد صور الموقف بشكل يدعو إلى الأسف ، وقال ان دعاة العامة ، ولعله يقصد الشيخ كامل القصاب [٣] ، قد أضروا كثيراً بحماستهم قضية الاستقلال [٤] .

---

١ ـ ذكريات العجلوني ص ٩٦

٢ ـ يقول الدكتور احمد قدري أن يوسف العظمة قد تخلف عن اجتماع القادة العسكريين وأن هؤلاء قرروا ان الهجوم الفرنسي اذا كان قويا فليس لدى الجيش العربي من العتاد ما يمكنه من آن يقاوم أكثر من خمس دقائق (مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٢٤٠) .

٣ ـ كان الشيخ كامل القصاب قد الف عصبة باسم « اللجنة الوطنية » وجمع حوله فيها عددا من زعماء الاحياء وأرباب الحرف والصناعات واخذ ينتقد تهاون الحكومة ويثير حماسة الجماهير الشعبية بطلاقة لسانه وفصيح بيانه .

٤ ـ أنظر تصوير كرد علي للموقف في خطط الشام ج ٣ ص ١٧٩

وكانت بريطانية قد اوصت الملك فيصـــل بوساطة معتمدها في دمشق بقبول شروط الانذار، وألح المعتمد البريطاني الكولونيل ايستون على فيصل بذلك مرات عدة ، مما حمل الحكومة على انتداب وفد يسافر إلى حيفا للوقوف على رأي اللورد اللنبي ، وإذا بالوفد يبرق بوجوب الاتفاق ، ثم يعود حاملاً إلى الملك كتاباً بهـذا المعنى يقضي على كل رجاء .

يقول الدكتور أحمد قدري : « وكان من اثر هذا كله ان اضطربت دمشق وهاج الناس وقامت المظاهرات مطالبة بالدفاع حتى الموت ، إلا انـ ذلك لم يمنع الحكومة من قبول الانذار في ١٧ تموز بعد أن استوثقت من فقدان العتاد وضعف الجيش [١] » . ويقول أمين سعيد : « .. فإزاء هـــذه الاعتبارات المادية قررت الوزارة في جلسة عقدتها يوم ١٧ الجاري (أي قبيل انتهاء المدة المحددة في الانذار) ان تشير على جلالة الملك بقبوله لعدم إمكان المقاومة مادياً [٢] ». أما ساطع الحصري الذي كان من دعاة قبول الانذار ، بعد أنـ عرف حقيقة الوضع العسكري في البلاد وفقدان العتاد ، فقد رأى ان مجلس الوزراء باتخاذه هذا القرار إنما قام باداء واجب ، وان كان هذا الواجب أليماً جداً [٣] ..

وقريب من هذا رأي وزير آخر من وزراء تلك الفترة العاصفة من حياة البلاد هو يوسف الحكيم ، فقد قال ان أركان الجيش وهم مصطفى نعمة وأحمد اللحـام وشريف الحجار ومصطفى وصفي وعارف التوام وحسن الصبان ، أبلغوا مجلس الوزراء « ان العتاد الحربي لدى الجيش لا يزيد عن مئتين وسبعين فشكة لكل بندقية حرب وثمانين قنبلة لكل مدفع من المدافع السبعين » ولما لم يستطع وزير الحربية أن يتقدم بأي دليل أو برهان على إمكان الدفاع في وجه الجيش الفرنسي مدة من الزمن يمكن فيها وصول خبر الحرب إلى مسامع الحلفاء ليتوسطوا في حل

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٢٤٢ ، انظر ايضا حول الحركة العربية ج١ ص ١٢٩ .

٢ ـ الثورة العربية الكبرى ج٢ ص ١٨١ .

٣ ـ انظر يوم ميسلون ص ١٢١ ـ ١٢٦

الخلاف سلمياً ، قبل أن تقترن المعركة بنتيجة أليمة بالنسبة إلى سورية ، أجمعت كلمة مجلس الوزراء على رفض الدخول في الحرب منعاً لسفك الدماء [1] .

ووجد فيصل نفسه أمام الأمر الواقع ، فأبرق إلى الجنرال غورو في الثامن عشر من تموز (يوليه) مبلغاً إياه قبول شروط الانذار ، أملاً في إنقاذ دمشق من الاحتلال ، ولكن الجنرال لم يلبث أن أجاب في اليوم التالي بصلف الفاتح المتعسف انه ليس المقصود من مذكرة ١٤ تموز (يوليه) قبولها بل تنفيذ أحكامها بأعمال رسمية تجري قبل ١٨ تموز (يوليه) ، على أن يتم تنفيذ ما ورد فيها قبل نهاية الشهر، وبما انه قد مدد الأجل ٢٤ ساعة اجابة لطلب الملك فانه قد يكون محقاً إذا لم يمددها مرة أخرى قبل أن يتلقى نبأ القبول من الملك رسمياً وفعلياً !.. وأضاف الجنرال قائلاً : « ولكي أدع لكم وقتاً كافياً لقبول المطالب وتنفيذها فقد قررت ان لا تتحرك جيوشي قبل ٢١ تموز عند منتصف الليل ! »

وكانت الحكومة بعد أن وافقت على قبول الانذار،قد بدأت بتنفيذ أحكامه، فأصدرت أمرها إلى قطعات الجيش العربي بالانسحاب من جميع المواقع والحصون التي كان معسكراً فيها ، والانتقال إلى العاصمة استعداداً لتسريحها ، وقد بدأ تسريح الجنود فعلاً ، وسرح الكثيرون منهم من المواقع التي يعسكرون فيها ، فضاعف ذلك من هياج الشعب ، واستياء الهيئات الوطنية ، ووقعت حوادث شغب لا مبرر لها [2] ، وكان يتهم بالخيانة كل من ينصح بالروية ويشير بالاعتدال ، فلم تر الحكومة بدأ من تأجيل انعقاد المؤتمر السوري شهرين ، وتلا يوسف العظمة قرار التأجيل بحضور رئيس الوزارة في الساعة التاسعة من صباح ٢٠ تموز (يوليه)،

---

١ ـ سورية والعهد الفيصلي ص ١٨١ ـ ١٨٣

٢ ـ يقول اسعد داغر ان يوسف العظمة حدثه بانه اصدر الامر بتسريح الجيش وهو في اشد حالات الاضطراب ، وان الضباط تلقوه وهم في مثل حالته ، فلم يخطر لهم ان يتخذوا التدابير التي تتخذ عادة ، فخرج الجنود من ثكناتهم بأسلحتهم وهم يهتفون ضد الحكومة بحجة انها سلمت البلاد الى الاجانب ، ثم ذهبوا الى القلعة لانقاذ الاسلحة والذخائر ، وقد ادى ذلك الى انتشار الفوضى والاضطراب ووقوع مئات القتلى والجرحى (مذكراتي على هامش القضية العربية ص ١٤٠ ـ ١٤١) .

ثم عقد مجلس الوزراء اجتماعاً وضع فيه نص مذكرة جوابية لغورو بقبول انذاره وكل مطالبه ختمت بالجملة التاليـــة : « ولن يطول الوقت حتى تدرك حكومة الجمهورية ان هذه الأزمة الشديدة التي اجتزناها لم تكن سوى نتيجة سوء تفاهم واسع النطاق بينها وبين الشعب السوري الذي قاتل جنباً إلى جنب مع الحلفاء وضحى في سبيلهم » .

وفي هذه العاصفة التي هبت على دمشق ، وعلى الرغم من تضحيات الحكومة ومواجهتها الصابرة لغضب الشعب ، وردت الأنباء في ٢١ تموز (يوليه) بأن الجيش الهاجم قد بدأ زحفه على العاصمة السورية .. ويدهش الملك فيصل لذلك ويحتج ، فيجيب الجنرال بأن برقية الملك بتنفيذ الشروط المطلوبة منه ، قد وصلت بعـــد الوقت المحدد ، بسبب انقطاع أسلاك البرق ، وان مسؤولية قطع العصابات السورية لأسلاك البرق تقع على عاتق حكومة دمشق ، وقد بات من الصعب الآن توقيف الجيوش الزاحفـــة ، وان الزحف سيستمر حتى يصل الجيش إلى مقابل دمشق ، فإذا لم يجد مقاومة ، وإذا تم احتلال حلب والمحطات المذكورة في الشروط دون مقاومة ، فان الجيش لا يدخل دمشق [1] !..

وتأتي بعد ذلك أنباء جديدة بأن شرذمة من الجنـــد العربي التي تخلفت لجمع الأسلحة والذخائر من السكان والعودة بها إلى دمشق ، قد وقعت في قبضة الجيش الزاحف ، وأسرها واعتبرها من جيوش الأعداء لا من جيوش الحلفاء ..

واحتج فيصل من جديد ، ورفض غورو الاحتجاج ، وكتب اليـــه يطلب منـــه الموافقة على شرط جـــديدة بالاضافة إلى الشروط التي وردت في

---

١ ــ يرى بعض المؤرخين أن الحكومة السورية قـد تسرعت فـي تنفيذ شروط الانذار ، فأصدرت الاوامر بتسريح الجيش ورفع التحصينات الامامية من مجدل عنجر وتوقيف جلسات المؤتمر علامة المسالمة والتسليم ، دون ان تنتظر جواب غورو ، وقـد كان هذا التسرع خطـأ فاحشا لمس فيه الجنرال ضعف المقاومة فاستغله في الخطوات التالية (انظـر حول الحركة العربية الحديثة ج ١ ص ١٣٠) .

الانذار [1] .

وحينئذ أدرك الملك فيصل ان الجنرال مصر على أن يدخل دمشق ، وان كل شروطه ليست إلا ذرائع يريد الاحتجاج باخلالها لتنفيذ خطته الباغية ، وكبر عليه أن يعطي فرنسة مجالاً للزعم بأنها دخلت عاصمة سورية برضاء أهلها ، فأشار على حكومته بأن تعلن قرارها باستعمال السلاح لمقاومة العدوان ، واستدعى الشيخ كامل القصاب زعيم اللجنة الوطنية يومئذ وخاطبه قائلاً : « لقد نزلت أنا وحكومتي على الرغبة التي طالما ناديتم بها لمقابلة العدوان بالقوة وقبلت قولكم بأن القوى الوطنية مستعدة للاضطلاع بتلك المهمة ، فهيا أرنا همتك ونشاطك وجئنا بالقوى التي تقول انها مهيئة للزحف » وقد وعد الشيخ بتجنيد عشرة آلاف مقاتل متسلحين بالبنادق ولكنه لم يف بوعده ولم يتمكن من تحقيق شيء [2] .

وبادرت الحكومة فأبقت ما لم يكن قد تم تسريحه من قوى الجيش ، وأمرت القوى المنسحبة من مجدل عنجر بالتوقف في المواقع التي وصلت اليها [3] . وأمرعت قيادة الدرك والجيش فجمعت فريقاً من الجنود الذين كانوا قد سرحوا ، وأرسلت

---

١ ـ انتدب الملك فيصل الاستاذ ساطع الحصري لمقابلة الجنرال غورو في عاليه ومطالبته بايقاف زحف الجيش الفرنسي على سورية ما دامت قد قبلت شروط الانذار وبدات بتنفيذها فعلا ، فقدم غورو شروطا جديدة منها اقامة بعثة فرنسية في دمشق يكون لها حق الاشراف على الشؤون المالية والادارية والاقتصادية والتربوية والعسكرية ، وقد وافقت الوزارة على قبول هذا الانذار الجديد ورفضه الملك فيصل (راجع تفاصيل ذلك في الثورة العربية الكبرى ج٢ ص ١٩٤ ـ ١٩٦ ، يوم ميسلون ص ١٣٥ ـ ١٤٦) .

٢ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٢٥١ و ٢٥٩ ، انظر ايضا سورية والعهد الفيصلي ص ١٩١

٣ ـ كانت القوات النظامية المرابطة في مجدل عنجر تبلغ ثلاثة الاف جندي مسلحين ببطاريتين من المدافع ، بطارية جبلية وبطارية صحراوية ، ولما صدر الامر بتسريح الجيش في ١٧ تموز (يوليه) ارتدت المدفعية الى دمشق كما تفرق المشاة عائدين الى بيوتهم ، ولم يبق من مجموع قوات مجدل عنجر عندما نودي بالحرب في ٢١ تموز (يوليه) سوى عدد قليل من الجند ارسلوا الى ميسلون يقول امين سعيد ان عددهم ٦٠ جنديا (الثورة العربية الكبرى ج٢ ص ١٩٧) بينما يقول محمد كردعلي انه ١٢٠ جنديا (خطط الشام ج٣ ص ١٨١) .

كل ما أمكن جمعه من قوى إلى ميسلون للدفاع فيها عن دمشق ، ولكن كان من الواضح ان القوة العربية المنظمة كانت قد تضعضعت ، ولم يبق هناك متسع من الوقت لجمع شملها وإعادة تنظيمها !

وفي مذكرات طه الهاشمي الذي كان يدوّن الأحداث يوماً فيوماً وكان يومذاك مديراً للأمن ، نجد الوصف الحي التالي للأيام الثلاثة العاصفة التي سبقت معركة ميسلون :

٢٠ تموز – أجلت جلسات المؤتمر السوري لمدة شهرين . بلّغ رئيس الوزراء وزير الحربية أوامر . خرج عدة جنود من ثكنة البرامكة شاهرين السلاح بدعوى أن الحكومة استسلمت للفرنسيين . مروا بشارع النصر ومروا بجرس الموقع ، فبدلاً من أن يصدوهم عن عملهم التحقوا بهم . شوقهم المشاغبون فزاد التجمهر . هجموا على القلعة . دافع الدرك . هجموا على مستودع السلاح ، صادروه وأخرجوا المساجين . بدأ إطلاق النار في البلدة واستمر إلى منتصف الليـــل . نهبت بعض الدكاكين . قتل ٢٥ وجرح ٣٥ شخصاً .

٢١ تموز – كنا مهتمين بمحافظة الأمن في الداخل . الأمن جيد ما عدا بعض السرقات تقع من قبل جنود النظامية . وفي القلعة سرق الضباط والجنود الأسلحة والمهمات .

وصل الدكتور أحمد قدري بعد الظهر في الساعة الثانيـة والنصف ، وأخبرني بأن جلالة الملك قرر الدفاع نظراً لتقدم الفرنسيين وعدم قبولهم الوقوف .

الموقف خطر وربما يؤدي إلى إلغاء الحكومة واستعمار سورية . استتب الأمن ليلاً .

٢٢ تموز – أخذ الأهلون يتوافدون للذهاب إلى الجبهة متطوعين . وقد يستفاد منهم . علمت ان هدنة عقدت بين الفريقين لمدة ٤٧ ساعة . ربما تنتهي القضيـــة بالمفاوضات برضاء الطرفين .

أظن ان أكبر جان جنى على وطنه أولئك المتحمسون الذين شوقوا الجنود في يوم ٢٠ تموز للالتحاق بالأهلين وحرضوهم على الفوضى ، وفي هذه الأوقات العصيبة

تقدم الفرنسيون وانحل الجيش وسقطت حلب ، ولو لم يقع هذا التحمس لكان الطالع قد ساعدنا ، ربما كانت حركتنا تجري بانتظام والأمن مستتب في كافة الانحاء[1] .

وكان ليل الثالث والعشرين من تموز (يوليه) ١٩٢٠ آخر موعد عينه الجنرال للدخول إلى دمشق . وكان كل ما استطاعت السلطات السورية حشده في ميسلون جيشاً قليل العدد لا يملك من الذخيرة الحربية إلا اليسير ، وعدداً من المتطوعين لا يزيد على الألف ، مسلحين بأسلحة مختلفة ينقصها العتاد[2] . وقد بلغ مجموع هذه القوى ثلاثة آلاف مقاتل وتولى قيادتها شريف الحجار[3] .

وقابل أسعد داغر يوسف العظمة في البلاط الملكي فسأله عن رأيه في الموقف ، وهل يستمر الجيش الفرنسي في زحفه وما هي التدابير التي اتخذت لمقاومته وصده بعد تسريح الجيش ?فقال انه لم يبلغه حتى تلك الساعة نبأ عن توقف الجيش الفرنسي الذي دخل الأرض السورية بحجة المرابطة على ينابيع الميـــاه في أول الأمر ، ثم استولى على مجدل عنجر بعد جلاء الجنود السورية عنها. وقال عن التدابير التي اتخذت لمقاومته ان القوات التي كان قد صدر الأمر بتسريحها وقفلت راجعة إلى دمشق تلقت أمراً جديداً بالعودة إلى ميدان القتال من وسط الطريق « ثم اغرورقت عيناه بالدموع ونهض عن كرسيه وخرج إلى الشرفة فتبعته اليها محاولاً تخفيف ما اعتراه من شدة التأثر والانفعال ، وقلت : يا يوسف ان مزايا الرجولة تظهر في ساعات المحن والشدائد ، ولسنا أول أمـــة في التاريخ استهدفت لما نحن مستهدفون له

---

١ ـ مذكرات طه الهاشمي ص ٦١ ـ ٦٢

٢ ـ كان قد هرع باتجاه ميسلون لصد العدوان عدة الاف من المواطنين المتحمسين وهـم مسلحون بالسيوف او المسدسات او العصي بدون ميرة واعتدة وقد اضطر الكثيرون منهم الى العودة بعد ان تاكدوا من صعوبة ما يرغبون الاقدام عليه لان الحرب فـــي الجبهات العسكرية تحتاج الى جيش مدرب وعتاد وفير ونقليات منظمة (مذكراتي على هامش القضية العربيـــة ص ٢٥٠ و ٢٦٠)

٣ ـ يقول كردعلي ان عدد هذه القوى كان يراوح بين أربعة الاف وخمسة الاف (خطط الشام ج٣ ص ١٨١)

وخدعت وأخطأت كما خدعنا وأخطأنا، ونحن لا نزال في بدء جهادنا والجهاد كالحرب السجال يتعاقب فيها الفشل والفوز . فقال : كان الفوز مكفولاً لنا فأضعته بيدي ، واني أعرف ما يجب عليّ وسأقوم بواجبي ، ولست آسفاً على نفسي بل أسفي على الأمة التي ستظل سنوات كثيرة أو قليلة هدفاً لكل أنواع المحن والمصائب . فقلت: ما هذا الذي تقوله .. ان الامة محتاجة اليك في جهادها الحقيقي الذي يبدأ بعد هذه المحنة ، فاحفظ لها نفسك وقواك ومواهبك. فقال يوسف : اني مطمئن إلى مستقبل الأمة لما رأيته وخبرته بنفسي من قوة الحيـــاة الكامنة فيها ، وواثق من عطف أصدقائي على طفلتي ، فسأذهب مستريح البال مطمئن القلب في طريق الواجب المفروض عليّ [1] » .

وأودع يوسف العظمة ابنته الوحيدة امانة لدى ساطع الحصري وبقية أصدقائه ودخل على الملك فيصل قائلا :

– أتيت لتلقي أوامر جلالتكم .

– بارك الله فيك ، إذن أنت مسافر إلى ميسلون !

– نعم يا مولاي إذا كنتم لا تودون قبول الانذار الأخير ..

– ولماذا كنت تصر على الدفاع بشدة ؟

– لأنني لم أكن أعتقد بأن الفرنسيين يتمكنون من دوس جميع الحقوق الدولية والانسانية ويقدمون على احتلال دمشق ، وكنت أتظاهر بمناورة للمقابلة بالمثل .

– وهل يسلم الشرف الرفيع من الأذى   حتى يراق على جوانبه الدم ؟

– إذن فهل يأذنني جلالة الملك بأن أموت ؟

– بعد ان انتهت الأمور إلى هذا الحد يجب علينا ان نموت جميعاً شرفاء، وننقذ البلاد من حرب أهلية أيضاً .

---

١ – مذكراتي على هامش القضية العربية ص ١٤٢ ، انظر ايضا حول الحركة العربيـة ج١ ص ١٢٣ .

ــ إذن فأنا أترك ابنتي الوحيدة أمانة لدى جلالتكم [١] .

ثم سلم وخرج ليتولى قيادة الجبهة في ميسلون [٢] .

وبات يوسف العظمة تلك الليلة مع جنوده في ميسلون تحت السماء المقمرة ، وفي جوار بضع شجيرات ظلت تتهامس طول الليل عن سر البطل الذي ساهر النجوم حتى شحبت وتضاءلت وتلاشت ..

ولما أفاق الصبح وأشرقت شمس الرابع والعشرين من تموز (يوليه) ، كان للقائد البطل خطة وهدف معينان :

فأما الخطة العسكرية فقد اخفقت لعوامل خارجة عن ارادته، وزحف الجيش الفرنسي بطائراته ودباباته ومدفعيته الثقيلة وسياراته المصفحة [٣] إلى دمشق على أشلاء الشهداء العرب الذين تساقطوا في سفوح ميسلون ببطولة رائعة ..

وأما الهدف القومي فقد حققه باستشهاده في ساحة الكفاح من أجل شعبه ووطنه ..

ويقول الدكتور عبد الرحمن شهبندر ان الملك فيصل قال عن يوسف العظمة في أواخر عهد الحكومة الوطنية : « ان هذا الرجل سيكون له شأن كبير بين الرجال ، وأكاد أرى بعيني منذ الآن الدور الخطير الذي سيمثله على المسرح السياسي » .

ويعلق الدكتور شهبندر على ذلك بقوله : « ان نبوءة فيصل كانت ولا شك متحققة لو أفسح القدر لشهيد ميسلون المجال فأطال أجله » .

وفي رأينا ان يوسف العظمة ما كان ليستطيع مهما أفسح له في مجال الحياة ، أن

---

١ ــ خصص الملك فيصل لابنة الشهيد ليلى العظمة مرتبا شهريا كان يصلها بانتظام حتى اخر أيامه .

٢ ــ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٢٦٢

٣ ــ انظر تفاصيل الحملة الفرنسية في كتاب :

Le Partage du Proche Orient , p 211

وفي Le livre d'or des troupes du Levant 1918-1936

يسجل انتصاراً أعظم من الانتصار الذي سجله باستشهاده ، أو انتحاره ، ليكون قدوة ومثلًا للذين يأتون بعده من المناضلين .

ان يوسف العظمة ، بما سفك من دمه وبذل من روحه ليصون الشرف السوري من ذل الاستسلام ، قد وضع في ذلــــك اليوم التاريخي ، اللبنة الأولى في صرح الاستقلال الذي تتفيأ سورية ظله اليوم [1] :

شهيد الحق في ثبج الصحاري تخاف العاصفات له ذيالا
مقيم ما أقامت ميسلون يذكر مصرع الأسد الشبالا
مشى ومشت فيالق من فرنسة تجر مطارف الظفر اختيالا
فكفن بالصوارم والعوالي وغيب حيث جال وحيث صالا [2]

---

١ ـ انظر مقال « يوسف العظمة » لقدري قلعجي في مجلة « العربي » العدد ٣٠.
٢ ـ من قصيدة لاحمد شوقي في بطل ميسلون

الفصل الثالث والعشرون

فيصل بن الحسين على عرش العباسيين

كان الخطر قد تفاقم بعد كارثة ميسلون حتى لا مزيد ، فانتقل الملك فيصل وأعضاء حكومته وعدد كبير من الوطنيين ، إلى الكسوة لمتابعة النضال ومعالجة الوضع الجديد ، وتخلف من أعضاء الحكومة فارس الخوري وعلاء الدين الدروبي ، وكان هذا على اتصال ودي بالفرنسيين ، فما لبث الملك أن قرر القيام بآخر تضحية ممكنة وإطلاق آخر سهم من كنانته صبراً واحتمالاً ، فأوفد كبير الأمناء إلى دمشق لتكليفه بتأليف وزارة جديدة ، لاعتقاده بأن وزارة برئاسة الدروبي قد تستطيع الخروج من الأزمة القائمة والوصول إلى تسوية مرضية مع الفرنسيين [1] .

وقد بادر الدروبي إلى تأليف وزارة أدخل فيها ثلاثة من أعضاء الحكومة السابقة هم : فارس الخوري وجلال زهدي ويوسف الحكيم ، وضم اليهم أربعة وزراء جدد

---

1 ـ كان كتاب الجنرال غورو المرفق بالانذار يطلب بصراحة تبديل الحكومة السورية ، فلما وافقت هذه على قبول الانذار ، رأى الملك فيصل ان يعهد الى ياسين الهاشمي بتأليف وزارة جديدة ، الا ان الهاشمي اعتذر عن ذلك محتجا بأن من الاوفق ان يتم قبول الشروط على يد الوزارة القائمة ، على أن ينظر في تأليف الوزارة الجديدة بعد الانتهاء من الازمة (أنظر يوم ميسلون ص ١٢٥ ـ ١٢٦) .

هم : جميل الإلشي وعطا الأيوبي وعبد الرحمن اليوسف وبديع المؤيد .

إلا ان احسان الجابري كبير الأمناء ، اتصل أثناء وجوده في دمشق بالمركيز باترنودى مانكي قنصل ايطالية العام ، وعلم منه ان الفرنسيين قرروا إعلان انتهاء العهد الفيصلي ، وانهم يحاولون دعم قرارهم هـذا ببيان يوقعه جماعة من أنصارهم يعلنون فيه « ان البيعة للملك فيصل قد سقطت ، بناء على تركه العاصمة وفراره منها » ونصح المركيز بأن يعود الملك إلى دمشق لإحباط هذه المؤامرة ، وليكون إخراجه من قبل الفرنسيين بالقوة .

وما كاد احسان الجابري ينقل ذلك إلى الملك ، حتى قرر العودة إلى دمشق ، وما لبث ان عاد اليها فعلاً ، إلا انه ما كاد يستقر فيها حتى جمع الجنرال غوابيه قائد الحملة العسكرية التي احتلت دمشق ، أعضاء الحكومة الجديدة ، وأبلغهم ان مسؤولية الاضطرابات الدامية التي حدثت على مسرح سورية إنما تقع على عاتق الملك فيصل ، إلى درجة لم يعد معها من الممكن استمراره في حكم البلاد. ثم أرسل الجنرال غورو إلى الملك كتاباً يقول فيه :

« أتشرف بإبلاغ سموكم الملكي قرار حكومة الجمهورية الفرنسية : انها ترجو منكم أن تغادروا دمشق بأسرع ما يستطاع بسكة حديد الحجاز مع عائلتكم وحاشيتكم . وسيكون تحت تصرف سموكم والذين معكم قطار خاص يتحرك من محطة الحجاز غداً ٢٨ تموز (يوليه) الساعة الخامسة صباحاً [١] » .

وقد احتج الملك فيصل على ذلك احتجاجاً شديد اللهجة في برقية وجهها إلى الجنرال غورو وأرسل صوراً عنها إلى ممثلي الدول الأجنبية ، ومما جاء فيها : « .. ولو كانت الشعوب تعيش اليوم كما كانت تعيش في القرون الوسطى ، يوم كان الحق للقوة وكان السيف هو الحكم في الاختلاف ، لكان تصرفكم منطبقاً على القوانين القائمة ، ولكن الحرب العظمى وقد خضنا غمارها في جانب الحلفاء لنفوز باستقلالنا ، قد بلغت غايتها بإقرار مبدأ الحق ، وسحقت الروح العسكري . وإذا

---

١ – يوم ميسلون ص ١٦٧ ، سورية والعهد الفيصلي ص ٢١٠ .

كانت مبادىء مؤتمر الصلح التي أعلنت حريــــة الشعوب وحقها في أن تحكم نفسها بنفسها ، ليست لغواً من القول ، وإذا ظل عهد جامعة الأمم وقد وقع عليه الحلفاء والأعداء ، وهو يلغي الحرب بين الشعوب واستعباد الأمم ، باقياً ومحترماً، فالقوة العسكرية الافرنسية التي احتلت المنطقة الشرقية التي عهد إليّ بإدارتها إنما تمثل الاحتلال الذي لا يمكن إلا أن يعد أداة للارهاق ، ويجب ان يغيّر ذلك [1] » .

وعلى الرغم من احتجاج الملك ، فانه لم يسعه إلا تنفيذ القرار ، فغادر دمشق إلى درعا ورافقه من أعضاء الوزارة ساطع الحصري، ثم لحق به عبد الرحمن شهبندر، بالاضافة إلى عشرات الزعماء العرب الذين غادروا دمشق . وقد هرع لزيارته قبل مغادرته دمشق عدد كبير من الأصدقاء الأوفياء وفي مقدمتهم البطريرك غريغوريوس حداد فالعلماء والوجهاء والعدد الكبير من السوريين العاملين بغيرة وإخـلاص في سبيل الملكية والاستقلال ، مقدمين لمليكهم عواطف المحبـة والاجلال ، مما أثار دهشة المحتلين وسائر الأجانب للمـــنزلة السامية التي يحتلها الملك فيصل في قلوب المواطنين [2] .

وما كاد الملك يستقر في درعا حتى خشيت السلطة الفرنسية من عواقب بقائه في ذلك المركز الاستراتيجي الهام ، واتصاله بالقبائل العربية المحيطة به ، وعزمه على اقامة خط دفاع جديد هناك ، فأبلغته بواسطة علاء الدين الدروبي رئيس الوزارة الجديدة وجوب مغادرة درعا إلى الحجاز ، وأخذت الطائرات الفرنسية تحلق فوق منطقة حوران وتلقي على الأهلين منشورات تحرضهم فيها على إخراج الملك فيصل « لأن إقامته بينكم تجعل بلادكم هدفاً للقنابل » .. فرأى الملك أن يجنب البـلاد كارثة جديدة ، وبادر إلى مغادرة درعا إلى حيفا للانتقال منها إلى ايطالية فسويسرة بغية الاتصال بجمعية الأمم ومؤتمر الصلح ، بينما كانت السلطة الفرنسية في سوريـة تفرض تدابيرها الغاشمة على البلاد ، وتصدر أحكامها التعسفية على رجالاتها ، فتقضي

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٢٧٢ ، الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ٢٠٥

٢ ـ سورية والعهد الفيصلي ص ٢١٠

بإعدام ومصادرة أملاك كل من كامل القصاب وعلي خلقي وأحمد مريود ومحمود الفاعور وفؤاد سليم وصبحي الخضرا وصبحي بركات ومنح هارون وشكري الطباع وعمر شاكر وسليم عبد الرحمن وعمر بهلوان وعثمان قاسم وسعيد حيدر وعبد القادر سكر وخليل بكير وحسن رمضان وعادل أرسلان ومحمد اسماعيل ورشيد طليع وعوني عبد الهادي واحسان الجابري والدكتور أحمد قدري ورفيق التميمي وتوفيق اليازجي ورياض الصلح وخير الدين الزركلي ومحمد علي التميمي وبهجت الشهابي ونبيه العظمة وشكري القوتلي وعيد الحلبي وياسين دياب وخالد الحكيم (١) .

وفرضت السلطة الفرنسية غرامات حربية ضخمة على المناطق السورية ، فلم يخضع أهل حوران لهذا الأمر ، وتمردوا على الحكومة القائمة ، فرأى رئيس الوزارة علاء الدين الدروبي ان يذهب إلى هناك بنفسه لإلقاء النصائح عليهم ، مستصحباً معه اثنين من وزرائه أحدهما عبد الرحمن اليوسف ، فهاجمهم بعض الحوارنة في محطة خربة الغزالة وقتلوا الدروبي واليوسف ، مما أدى إلى زحف قوات فرنسية كبيرة إلى حوران فتكت بسكانها ودمرت الكثير من قراها .

وتألفت إثر ذلك وزارة جديدة على النحو التالي : جميل الإلشي للرئاسة والحربية ، عطا الأيوبي للداخلية ، حقي العظم لرئاسة مجلس الشورى، حمدي النصر للمالية، بديع المؤيد للعدلية، محمد كرد علي للمعارف، شاكر القيم للنافعة والتجارة والزراعة . وفي عهد هذه الوزارة أصبح المندوب السامي الفرنسي مصدر كل سلطة في الدولة ، وتلاشت السيادة الوطنية التي كانت ممثلة في المؤتمر السوري وفي الحكومة الوطنية التي كانت تستمد ثقتها منه .

إلا ان الملك فيصل كان لا يزال يأمل بالعودة إلى سورية ، مؤمناً بأنه سينتزع حقه في ذلك بالنضال السياسي في المحافل الدولية ، وبالمقاومة الوطنية داخل سورية، ومن أجل تحقيق هذا الغرض أوفد ساطع الحصري إلى تركية للاتصال بالكماليين

---

١ — لم تنفذ هذه الاحكام لان معظم المحكومين كانوا قد غادروا البلاد هربا من الارهاب الفرنسي ، وقد اضطرت المقاومة الوطنية فيما بعد السلطة الفرنسية الى اصدار عفو عن المحكومين السياسيين .

ومعرفة مدى المساعدات التي يمكن أن ينالهـــا السوريون منهم في كفاحهم ضد الفرنسيين [1]، وعهد إلى البروفسور بونفانتي استاذ الحقوق الدولية في جامعة رومة، بأن يضع تقريراً قانونياً عن القضية السورية، وعن الخلاف القائم بينها وبين الحكومة الفرنسية ، وطلب من معاونيه تزويده بالوثائق والمعلومات التي يحتاج اليها .

ولكنه ما كاد يتصل بالأوساط الدولية في أوربة حتى أيقن بأن اتجاهات السياسة العالمية قد جعلت عودته إلى سورية مستحيلة ، لأن فرنسة تعارض في ذلك معارضة شديدة ، وليس في وسع بريطانية ولا في رغبتها أن تتدخل في هذا الأمر بعد أن سوّيت القضايا المعلقة بين الدولتين وفي مقدمتها مسألة الموصل بصورة نهائية .

إلا ان الحكومة البريطانية كانت تتعرض لكثير من اللوم على موقف العقوق والنكران الذي وقفته من الشريف حسين وأنجاله الذين ناضلوا في الحرب العالميـة أشرف نضال . ولم يستطع لويد جورج نفسه أن ينكر ذلـك ، فأثنى على الملك فيصل ثناء عاطراً أمـــام مجلس العموم البريطاني في ٢٩ نيسان (ابريل) ١٩٢٠ (١٣٣٩هـ) ، أي قبل الانذار الفرنسي بشهرين ونصف شهر ، وقال انه «لا يمكن لأحد أن يجد رجلاً أكثر استقامة وإخلاصاً منه » كما ان رجال الجيش البريطـاني الذين تعاونوا مع العرب في الحجاز وفي فلسطين « كانوا يذكرون في كل مناسبة ، الخدمات العظيمة التي أدتها الثورة العربية إلى قضية الحلفاء ، وكانوا يشيدون بوجه خاص بذكر روح الاقدام والبسالة التي أظهرها فيصل في أمر تنظيم الثورة وقيـادة الجيوش خلال الحرب [2] » .

وكانت الثورة المشتعلة في العراق أولى الثورات التي تفجرت في البلاد العربيـة بعد الثورة العربية الكبرى وكانت امتداداً لها واحتجاجاً على نكث العهود والتنكر لمواثيق الشرف . وقد أدرك المسؤولون البريطانيون ان نقمة العرب على بريطانية بوصفها إحدى دول الحلفاء ، بل الدولة التي قطعت العهود للعرب باسمهم، لا بد من

---

١ ــ انظر يوم ميسلون ص ١٧٨ ــ ١٨٤

٢ ــ المرجع السابق ص ١٩٨

أن تتعاظم اثر الاحتلال الفرنسي لسورية والاطاحة بعروش المليك الذي تعلقت به آمال الملايين في كل أرض عربية . ولقد حدث ذلك فعلاً ، وكان يوم ٢٤ تموز (يوليه) ، وهو يوم مأساة ميسلون ، بدء تحول جديد في الثورة العراقية اشتد فيه ضرامها وتعالى لهيبها .

وكان الوطنيون العراقيون قد تنادوا إلى توقيع ثلاث عرائض رفعت إلى الحسين بن علي يطلبون فيها ملكاً للعراق من أنجاله ، ووقع العريضة الأولى علماء الدين ، والثانية زعماء القبائل ، والثالثة الشبان المثقفون ، وحمل هذه العرائض إلى مكة الشيخ محمد رضا الشبيبي ، وقد اتصل أمره بالانكليز قبل سفره فحاولوا القبض عليه وانتزاع العرائض منه ، وكان يضعها داخل جلد مصحف ويطوف بها على الناس لتوقيعها ، فقصد الزبير واختفى بها أياماً ثم صحب قافلة للبدو متجهة إلى نجد وانتقل منها إلى الحجاز حيث قابل الملك حسين وسلمه العرائض ونقل اليه أمنية مواطنيه ، فأكبر ما سمع وقال : « سأكون عند حسن ظن العراقيين ان شاء الله[1] » .

ثم أرسل تلك العرائض إلى نجله فيصل في باريس ، كي يعرضها على ساسة الدول الكبرى فيها ، برهاناً على إصرار العرب على تحقيق استقلالهم ووحدتهم[2] .

وهكذا ولدت فكرة ترشيح فيصل بن الحسين لعرش العراق ، وأخذت تظهر على المسرح السياسي وتنعكس في الصحافة البريطانية التي رأت فيها استرضاء للعرب وتكفيراً عن تنكر الحلفاء للهاشميين ، ومحاولة لإخماد بركان الغضب المتأجج في العراق ، احتجاجاً على السياسة البريطانية التي أسفرت عن أهدافها الاستعمارية هناك ، وحاولت اقناع أهل الرأي بانتخاب السير برسي كوكس رئيساً للدولة العراقية ، وجعل هذه الدولة تابعة للحكومة البريطانية في الهند .

وكان الكولونيل لورنس قد تقلد منصب مستشار للشؤون العربية في وزارة

١ ــ الثورة العربية الكبرى ج ٢ القسم الثاني ص ٣٠ ــ ٣١ ، عشت وشاهدت ص ١٠٧، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ١٦٣

٢ ــ الثورة العربية الكبرى ــ وثائق واسانيد ص ٢٦٦

المستعمرات . ولا ريب في انه كان من مؤيدي ترشيح فيصل بن الحسين لعرش العراق ، تكفيراً عن غدر الانكليز به . ويروي مستر تشرشل في الفصل الذي كتبه عن لورنس في كتابه « عظماء معاصرون » انه لما تولى وزارة المستعمرات في ربيع سنة ١٩٢١ (١٣٤٠ ﻫ) ، أنشأ فيها ادارة جديدة ضم اليها لورنس ، ثم سافر معه إلى القاهرة وفلسطين حيث اجتمع بجميع الخبراء في شؤون الشرق الأوسط ، ثم قدم إلى مجلس الوزراء اقتراحاً بأن تعوض بريطانية على العرب عما أصابهم ، وأن ترضي بيت شريف مكة لما بذلوا من تضحيات [١] .

غير ان الملك فيصل لم يُعر قضية ترشيحه لعرش العراق في بادىء الأمر اهتماماً يذكر « وظل يفكر في القضية السورية قبل كل شيء وأكثر من كل شيء .. ولكنه عندما أحاط علماً بعد ذلك بخفايا السياسة الدولية ، من سفوح جبال الألب ومن ضفاف البحيرات الايطالية ، وحينما اضطر إلى معالجة القضية العربية بمعناها الشامل بسبب توليه تمثيل الحكومة الحجازية في مؤتمر الصلح للمرة الثانية ، أخذ يفكر في « ملكية العراق » بصورة جدية ، وصار يضع الخطط اللازمة لتحقيقها بصورة تضمن للعراق الاستقلال والتقدم ضماناً أكيداً [٢] » بيد انه ظل متردداً في ذلك اعتقاداً منه بأن هذا العرش يعود إلى أخيه عبدالله بناء على قرار المؤتمر العراقي في دمشق [٣] ، ولن ينافسه فيه . ولما رأت وزارة الخارجية البريطانية إصراره في هذا الشأن ، طلبت إلى الكولونيل لورنس ان يتصل بالأمير عبد الله للتأكد من انه ليس لديه أي اعتراض على تنصيب فيصل ملكاً على عرش العباسيين ، وقد تأكد لورنس من ذلك لا سيما وان هذا قد وعد الأمير بأن يكون ملكاً على سورية [٤] .

وعلى الرغم من ان الملك فيصل بدأ يفكر في هذا الموضوع بصورة جدية ، فانه

---

١ ـ أنظر تفاصيل مؤتمر القاهرة في :
Lawrence d'Arabie, par Bénoist Méchin, pp. 156—163

٢ ـ يوم ميسلون ص ٢٠٢

٣ ـ أنظر صفحة ٣٥٩ ـ ٣٦٠ من هذا الكتاب .

٤ ـ عشت وشاهدت ص ٩٤

كان يؤكد للعاملين معه ان ليس ذلك إلا الخطوة الأولى من مجهوده الوطني ، وانه لن ينسى بيعة السوريين التي في عنقه، وانه سيتابع العمل للوصول إلى تحرير سورية وتحقيق العهد الذي قطعه على نفسه بتحرير البـلاد العربية وتوحيدها [١] . ويروي يوسف الحكيم ان الملك قال له وهو يغادر دمشق: « لن أنسى سورية ، وسأواصل جهودي لتحقيق أمانيها ما جرى في عروقي دم عربي [٢] » .

واستمرت المفاوضات بين الحكومة البريطانيـة وفيصل بن الحسين حتى شهر آذار (مارس) ١٩٢١ (١٣٤٠ هـ) ، وكانت هذه المفاوضات تسير ببطء وتردد وحذر شديد من الفريقين، في محاولة شاقة للتوفيق بين تناقضات الساسة البريطانيين، وبين رغبة بريطانية ومعارضة فرنسة ، وبين وطنية فيصل ومطامع الانكليز .

وفي أواخر آذار (مارس) انتقل الملك فيصل إلى القاهرة ، ثم غادرهـا إلى الحجاز للاجتماع بالملك حسين ، ثم انتقل من هناك إلى العراق عن طريـق البصرة فبلغها في ٢١ حزيران (يونيه) ، وقد جال في مختلف أنحاء العراق يلقي الخطب ويشرح الأوضاع ويعرض الخطط ، فاستقبله العراقيون استقبالاً حافلاً ، وأقاموا للحفاوة به وتكريمه مختلف مظاهر الزينة والابتهاج .

وفي يوم ١١ آب (اغسطس) قرر مجلس الوزراء المناداة به ملكاً على العراق على أن تكون حكومته حكومة دستورية نيابية ديمقراطية ، ثم قام مجلس الوزراء باستفتاء عام بواسطة لجان ألفتها الوزارة من أرباب الكفايات وأوفدتها إلى سائر أنحاء العراق ، فكانت كل لجنة تدعو الأهلين إلى الاجتماع في مكان تعينه ثم تطلب منهم إبداء رأيهم فيقبلون على البيعة بحماسة منقطعة النظير .

وهكذا انعقد إجماع الشعب العراقي على اختيار فيصل بن الحسين ملكاً له ، وجرى تتويجه في حفلة رسميـة أقيمت في بغداد في الثالث والعشرين من آب (اغسطس) سنة ١٩٢١ (١٣٤٠ هـ) وألقى المليك المرتجى بهذه المناسبـة خطاباً

---

١ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٢٨٠.

٢ ـ سورية والعهد الفيصلي ص ٢٠٣.

رائعاً قال فيه : « .. واني لا آلو جهداً بأن أستعين برجال الأمـــة على اختلاف مذاهبهم وتباين طبقاتهم وتفاوت معتقداتهم ، فالكل عندي سواء ، لا فرق بين حاضرهم وباديهم، ولا ميزة لأحد عندي إلا بالعلم والمقدرة ، والأمة بمجموعها حزبي لا حزب لي سواها ، ومصلحة البلاد عامة هي مصلحتي لا مصلحة لي سواها [1] » .

وقد كان ذلك اليوم التاريخي بدء تحول جديد في حياة العراق ، إذ بدأ شكل الحكم يتغير تغيراً ملموساً ، وأخذت البلاد تسير سيراً حثيثاً نحو الاستقلال والسيادة الوطنية والازدهار . ومن أقوال الشعراء في تحية فيصل وتحية العهد الجديد ، قول الزهاوي :

انا محبوك فاسلم أيها الملك ... ومصطفوك لعرش شاده الفلك
عرش العراق ضمان للعراق وفي ... تأييده الشعب والأحزاب تشترك
الناس من فرح إذ جئت ترأسهم ... من بعد ما قد بكوا من يأسهم ضحكوا
هذا السلام يعمّ الرافدين غداً ... فلا دمٌ بعد هذا اليوم ينسفك
جرى ليلحق ناس بابن فاطمة ... حتى إذا تعبوا في جريهم بركوا
من هاشم، من قريش، من ذوائبها ... حيث الوشائج والأرحام تشتبك
لله يا فيصلٌ مـا أنت مورثه ... للعرب من شرف في شكره اشتركوا

---

١ ـ انظر النص الكامل للخطاب في « العهود المتعلقة بالوطن العربي » ص ٢٦١

الفصل الرابع والعشرون

عبد الله بن الحسين ينشئ دولة عربية في الأردن

كان في عزم الملك فيصل ، حين غادر دمشق ، أن يتخذ من حوران وشرقي الأردن ، مركزاً للمقاومة ومنطلقاً للعودة ، فما كاد يغادر درعا إلى حيفا في طريقه إلى أوربة ، حتى تفرق من صحبه أو التحق به من قادة الحركة العربية بين فلسطين ومصر وأوربة ، وقصد فريق آخر عمان وبقية أنحاء شرقي الأردن .

وكانت شرقي الأردن إحدى محافظات الدولة السورية التي بايعت الملك فيصل، وأسهمت في الثورة العربية ، وناضلت من أجل الاستقلال ، فتنادى رجالها إلى متابعة النضال وتعزيز المقاومة ، وأبدوا شجاعة فائقة في الحركات الثورية التي شهدتها حوران ، وكتب شيوخها إلى الملك حسين يناشدونه ان يرسل أحد أبنائه لقيادتهم وأن يمدهم بالسلاح والعتاد .

وانقضت فترة قصيرة ومصير شرق الأردن مجهول ، فقد كانت في عهد فيصل بن الحسين جزءاً من الدولة العربية التي أنشأها ، والتي بسطت فرنسة سلطانها عليها ، ولكن فرنسة تخلت لبريطانية عن هذا الجزء النائي من سورية فدخل في منطقة الانتداب البريطاني على فلسطين ، غير ان السلطة البريطانية لم يكن لها وجود ملحوظ ولم تبدأ بالتدخل الفعلي في شؤون البلاد إلا بعد زوال الحكومة العربية

وانقطاع الصلة بين الأردن ودمشق ، وكانت المخططات البريطانية تقضي بإلحاق هذه المنطقة بفلسطين ، وكانت الأهداف الصهيونية تتلاقى مع هذه المخططات أملاً في توسيع رقعة الوطن القومي اليهودي .

وقد تألفت في أواخر سنة ١٩٢٠ (١٣٣٩ هـ) حكومات أو مجالس محلية في عدد من المدن الأردنية لإدارة البلاد بالتعاون مع معتمدين بريطانيين ، إلا ان هذه الحكومات لم تستطع تأمين حاجة البلاد إلى الأمن والاستقرار والتنظيم ، وكانت الحاجة شديدة إلى حكومة مركزية قوية تسير بالشعب الأردني في سبيل التقدم والازدهار .

وخلال تلك الفترة ، وبعد أربعة أشهر من العدوان الفرنسي على ميسلون ، وصل الأمير عبد الله بن الحسين إلى معان [١] . ويرى المؤرخون ان الأسباب التي دعته للقدوم إلى معان كثيرة ، منها ان الملك حسين بن علي اعتبر معان تابعة للحجاز كلياً بعد انتهاء الحكم العربي في دمشق ، ومنها ان الوطنيين في شرقي الأردن وعلى رأسهم عودة أبو تايه وسعيد خير قاموا بإرسال عدد من البرقيات إلى الملك حسين على اثر مقتل الوزراء السوريين في خربة الغزالة وعصيان حوران[٢]، يطلبون اليه إيفاد أحد أنجاله كي يتزعم الحركة الوطنية المناوئة للفرنسيين . ومنها ان الأمير عبد الله كان ناقماً على الانكليز لأنهم حالوا بينه وبين السفر إلى العراق بعد أن بايعه زعماء العراق المقيمون في دمشق ملكاً على العراق يوم بايع زعماء سورية أخاه الملك فيصل ملكاً على سورية . ثم ان الأمير عبد الله كان من بين أنجال الملك الشخص الوحيد الذي يستطيع التفرغ لمهمة كهذه . فالأمير علي كان ولي عهد الحجاز وأمير المدينة المنورة ، بينما كان فيصل في أوربة ومعه أخوه زيد بعد خروجها من دمشق [٣] » . ويقول خير الدين الزركلي في ترجمته لعبد الله بن الحسين : « استولى الفرنسيون على سورية ، فرحل جمهرة من شبانها إلى جهات

---

١ ـ كانت معان لا تزال تابعة للحجاز ، ثم الحقت بشرقي الاردن بموجب اتفاقات بين الملكين حسين وعلي والامير عبد الله .

٢ ـ انظر ص ٤٠٨ من هذا الكتاب .

٣ ـ تاريخ الاردن في القرن العشرين ص ١٣٢

معان ، وأبرقت إلى أبيه الحسين تطلب النجدة لاستعادة أوطانها ، فأرسله أبوه على رأس قوة صغيرة إلى معان [1] » .

والواقع ان الأمير عبد الله أراد أن يحقق الفكرة التي خالجت الملك فيصل حين غادر دمشق ، وهي اتخاذ شرقي الأردن مركزاً للمقاومة ومنطلقاً لتحرير سورية من براثن الاحتلال الفرنسي . وقد أراد الأمير ان يبلغ بقوة السلاح ، الهدف الذي كان فيصل يسعى لبلوغه عن طريق المفاوضات السياسية .

وقد ساور القلق كلًّا من السلطة البريطانية في فلسطين والسلطة الفرنسية في سورية ، لوصول الأمير المفاجىء إلى معان ، ودعوته زعماء البلاد ورؤساء العشائر إلى الاجتماع به ، لما اشتهر به من جرأة وشجاعة نادرتين ، ولدعوته إلى معارضة تجزئة سورية الطبيعية ومقاومة الاحتلال الأجنبي في جميع الأجزاء .

وبادر مظهر رسلان متصرف السلط فأرسل إلى الأمير كتاباً يقول فيه : « لقد بلغ الحكومة الوطنية عزمكم على زيارة شرقي الأردن ، فان كانت الزيارة لمجرد السياحة فان البلاد ستقابلكم بالترحيب ، وان كانت لأغراض سياسية فالحكومة ستتخذ كل الأساليب المانعة لزيارتكم » . فأجابه الأمير على رسالته متحدياً : « انني سأزور الأردن زيارة احتلالية ، وان الحكومة العربية الملكية بسورية هي التي انتدبتني ، فأنا الآن أنوب عن جلالة الملك فيصل ، ويجب عليك أن تعلم ذلك ، كما يجب عليك تلقي الأوامر من معان ، وإلا فسيعين غيرك محالك [2] » فلم يكن من مظهر رسلان إلا ان استقل القطار إلى معان ، ليعتذر من الأمير ويعرب له عن ولائه .

ويروي محمد علي العجلوني انه لما عاد من سورية إلى الأردن بعد الاحتلال الفرنسي ، ووردت الأنباء بوصول الأمير عبد الله إلى معان ، اتفق مع أحمد مريود وفؤاد سليم وخلف التل وأحمد التل وعدد من الفرسان ، على رسم خطة تمهد لقدوم

---

١ ـ الاعلام ج٤ ص ٢١٢ .

٢ ـ عبد الله بن الحسين : مذكراتي ص ١٧١ .

الأمير عبد الله بن الحسين إلى بلاد الأردن ، وأخذوا يطوفون أنحاء البلاد ويتنقلون بين عشائرها ، داعين إلى هذا الهدف ، ثم شخص إلى معان وقابل الأمير في خيمة ضربت في فناء إحدى بنايات المحطة ، وقدم اليه الرسائل الموقعة من نخبة من رجال العشائر والسلط وعجلون وفيها يرحبون بقدمه ويعلنون ولاءهم للبيت الهاشمي، وقال ان وصوله إلى عمان هو الأمر المنتظر وبيّن الضرورة الداعية اليه ، فأجاب سموه ان قدومه إلى الأردن يقتصر على اتخاذ الأسباب لجمع الكلمة فيها، وانه يهدف إلى جعل هذه البلاد جسراً يقفز منه إلى سورية بعد أن يعمل على تجهيز حملة قوية ، وتكون الحملة من أهل البلاد مالاً ورجالاً ، فاقترح العجلوني ان يوجه سموه أحد الأشراف إلى عمان ، فان لقي النجاح كان ذلك باكورة التوفيق تمهيداً لانتقال سموه إلى عمان، فارتاح الأمير إلى هذا الاقتراح واستدعى لفوره الشريف علي الحارثي أحد أبطال الثورة ، وعهد اليه بهذه المهمة وعين العجلوني مستشاراً له [1] .

وقد انبث دعاة الأمير في البلاد ، وسارت الشائعات بأنه جاء لتجريد حملة على الفرنسيين في سورية ، وخاف الانكليز والفرنسيون نتائج هـــذا التجمع العربي الجـــديد ، فأذاعت حكومة فلسطين البريطانية بياناً قالت فيه انها لا تؤيد هذه الحركات العدائية بل تقاومها ، وحشد الفرنسيون قوات كبيرة في درعا وحوران، وكاتبوا الانكليز يستحثونهم على مقاومة الأمـــير وتطويق حركته ، وأعلن في بريطانية ان اللورد كيرزون وزير الخارجية أبلغ فيصل بن الحسين ان حكومته تنظر بعين الاستياء إلى الحوادث الجارية في شرقي الأردن ، وطلب منه ان يرسل برقية بهذا المعنى إلى الملك حسين [2] .

ولبث الأمير الشجاع فترة في معان يوجه البيانات ويوفد الرسل لشرح دعوته وبيان هدفه ، وأخذ الشريف علي بن الحسين الحارثي يتصل بزعماء البلاد وأحرارها داعياً إياهم إلى توحيد الكلمة وتجديد النضال تحت راية الأمير عبد الله .

---

١ ــ ذكريات العجلوني ص ١٠٤ ــ ١٠٧ .

٢ ــ الحسين بــن علي والثورة العربية الكبرى ص ١٦٥ .

ومما قاله الأمير في البيان الذي أصدره في ٢٥ ربيع الأول سنة ١٣٣٩ (١٩٢٠م):

« كل عربي يعلم انكم يا أبنـــاء سورية تستنصرون وتستثيرون حميته ليأتيكم مسرعاً ملبياً مقبلاً غير مدبر ، ومن حيث قد توالت علينا الدعوات وصمّت آذاننا الصرخات ، فها أنا قد أتيت مع أول من لبا كم نشاركـكم في شرف دفاعكم ، لطرد المعتدين عن أوطانكم بقلوب ذات حمية ، وسيوف عدنانية هاشمية .

« ليعلم كل من أراد اهانتكم وابتزاز أموالكم واهانة علمكم واستصغار كبرائكم ، ان العرب كالجسم الواحد إذا شكا طرف منه اشتكى كل الجسم ، وان الله سبحانه وتعالى لم يترك الأمة سدى بداء متفرقة مفتونة بالباطل مغرورة بالكذب وواهن القول [1] » .

وعلى الرغم من طلب السلطات البريطانية من عبدالله بن الحسين البقاء في معان ، وتحذيرها الأهلين من الاتصال به والانضمام اليه ، فقد عزم على الانتقال إلى عمان ، وذهب عدد من زعماء البلاد إلى معان ليكونوا في ركابه بينهم سعيد خير وسعيد المفتي وكامل القصاب وأمين التميمي وعوني القضماني وعوني عبد الهادي وسليمان البلبيسي ومظهر رسلان . وخاطب الأمير مودعيه بقوله :

« كلكم يعلم ما حل بالبلاد ، واننا نرى دماءنا وأموالنا رخيصة في سبيل الوطن وتخليصه . ولقد قطعتم الفيافي والقفار والتحقتم بنا للذود عن البـلاد والأعراض . وقد كان سعيكم سعيـــاً مشكوراً وعملاً مبروراً ، بارك الله فيكم وحيا شعوركم الصادق .

« انني الآن مودعكم وأود أن لا أرى بينكم من يعتزي إلى اقليمه الجغرافي ، بل أحب أن أرى كلاً منكم ينتسب إلى تلك الجزيرة التي نشأنا وخرجنا منها ، والبلاد العربية كافة هي بلاد كل عربي [2] » .

وقد استقبل الأمير في عمان استقبالاً عظيماً ، وتسابق رجالات البـــلاد إلى

---

١ ــ انظر النص الكامل للبيان في المرجع السابق ص ١٦٨ ــ ١٧٠ .

٢ ــ تاريخ الاردن في القرن العشرين ص ١٤٢ .

الحفاوة به وتكريمه ، وانعقدت آمال الوطنيين عليه في تحقيق الوحدة العربية وانتزاع الحق العربي ، وعاهدوه على الالتفاف حوله والسير معه ، وطلبوا منه ان يبادل الأمة العهد فقال : « اعلموا انه ما جاء بي إلا حميتي وما تحمله والدي من العبء الثقيل ، فأنا أدرك الواجب عليّ ، ولو كان لي سبعون نفساً لبذلتها في سبيل الأمة ، ولما عددت نفسي اني فعلت شيئاً[1] » .

وشرع عبد الله بن الحسين يسلك في عمان سلوك الحاكم الفعلي ، وقد احتل رجاله المنطقة الأردنية بكاملها ، وأخذت الأوامر تصدر إلى الحكومات المحلية من عمان ، وبادر إلى تعيين عوني عبد الهادي رئيساً لديوانه ، ثم سلمه رسالة إلى المندوب السامي في القدس ينبئه فيها انه إنما قدم إلى عمان لتحرير سورية، فاضطرب المندوب السامي حين تبلغ الرسالة وطلب من حاملها ان يبلغ الأمير ضرورة عودته من حيث جاء، فقال عوني عبد الهادي ان الرجوع غير ممكن لأن منطقة شرقي الأردن جزء من مملكة فيصل ، وقد جاء الأمير عبد الله اليها نائباً عن أخيه بعد إلحاح شديد من الأهلين وأصحاب الشأن الأول في الأمر . وكان المستر تشرشل وزير المستعمرات البريطانية قد قرر المجيء إلى القاهرة لعقد مؤتمر تسوّى فيه القضايا المعلقة في الشرق الأوسط ، فطلب المندوب السامي البريطاني من عوني عبد الهادي أن يبلغ الأمير رجاءه بأن لا يحرك ساكناً حتى يصل المستر تشرشل إلى القاهرة . وعاد عوني عبد الهادي إلى عمان وأبلغ الأمير ذلك . وكان التصميم تاماً في عمان على ان يبقى الأمير فيها مهما كانت النتائج[2] .

وجاء تشرشل إلى القاهرة ثم انتقل منها إلى القدس ، ودعي عبد الله بن الحسين إلى الاجتماع به ، فسافر من عمان يرافقه وفد كبير من زعماء العرب بينهم رشيد طليع وعوني عبد الهادي وأحمد مريود وأمين التميمي ومظهر رسلان وغالب الشعلان . ويروي المغفور له في كتابيه « الأمالي السياسية » و « مذكراتي » قصة

---

١ ـ الثورة العربية الكبرى ج٣ ص ١٢ .

٢ ـ تاريخ الاردن في القرن العشرين ص ١٤٣ ، انظر ايضا حديث عوني عبد الهادي في ملحق الحياة الخاص بالثورة العربية الكبرى .

تلك الرحلة التاريخية والنتائج التي انتهت اليها ، فيقول انه استقبل في السلط باسم المندوب السامي من قبل الايول مارشال سالمون والكولونيل لورنس . وقد قضى تلك الليلة هناك ، وحدثه لورنس عن الموضوع الذي سيعرضه عليه المستر تشرشل ، فهو سيقترح عليه إقناع أخيه فيصل بالذهاب إلى العراق لترشيح نفسه ملكاً عليها ، وسيبادر إلى الاعتراف بالأمر الواقع الذي تم على يدي الأمير عبد الله في شرقي الاردن فيعرض عليه البقاء فيها لإقامة دولة عربية برئاسته ، وأضاف قائلاً :

— المعروف عنك انك تضحي بشخصيتك من أجل وطنك ، فابق وإذا توفقت ستظفر بعد ستة أشهر بوحـــدة سورية ، وسنزورك في دمشق مهنئين ان شاء الله بتوفيقك لإصلاح ما خرب .

فلم يجبه الأمير بشيء ، وتذاكر بالأمر ليلاً مع الشخصيات الوطنية التي ترافقه، فوافق الجميع على ذلك ، ووجدوا فيه فرصة ذهبية لاستعادة ما سلب وتوحيد ما تجزأ وتفرق .

ولما وصل الموكب إلى أريحا استقبله أعيان فلسطين وعلى رأسهم موسى كاظم الحسيني ، وألقيت في هذا الاستقبال الحـــافل الخطب الوطنية الحماسية ، مما حمل السلطة البريطانية على منع موكب الأمير من التوقف في مدن أخرى .

ووصل الموكب أخيراً إلى القدس ، فاستقبل الأمير استقبالاً رسمياً ، ودعي إلى العشاء على مائدة المندوب السامي السر هربرت صموئيل بحضور المستر تشرشل ، وأثناء الطعام قال تشرشل للأمير :

— ماذا وقع في بلدة الشجرة ؟ لقد عصفت هناك عاصفة عصابة فاعتدت وقتلت، ولقد تلقيت من الحكومة برقيات تشير إلى هـذا الحادث الذي يعزى وقوعه إلى تأثيرك .. ولكن لي منكبان ضخمان يحتملان عنك احتجاج الحكومة !..

فأجاب الأمير مبتسماً :

— لم يبلغني خبر هذا الحادث إلا من فخامتك الآن ، على انني لم أتعهد لأحـد بأي تعهد في معناه منع الناس عن الدفاع عن أوطانهم !

والتفت الأمير إلى غالب الشعلان وسأله عن الحادث ، فقام عن مقعده وحيـا

الأمير تحية عسكرية وقال :

– لعلها حركة لصوص غـــير مقصودة ، أما الهيئات الوطنية فهي في انتظار أوامرك فيما ستفعل !

وفي اليوم التالي عقد الاجتماع الرسمي ، وقد حضره من الجانب البريطاني المستر تشرشل والسر هربوت صموئيل والسكرتير العام لفلسطين السر وندهام ديدس ، ومن الجانب العربي عبد الله بن الحسين وعوني عبد الهادي . قال الأمير : « ففتح الحديث وزير المستعمرات بذكر المقاصد الطيبة التي جمعت بريطانية والعرب في الحرب ، وبالآمال المنوطة بتلك الروح ، وبذكر التعاون الذي حصل في الحرب، ثم ذكر جهود بريطانية في الحيلولة بين حدوث ما حدث بين فرنسة والعرب ، ثم قال : لذلك ولأن انكلترة محايدة في القضية بين العرب والفرنسيين، وهم حلفاؤها، فانها تنصح – وهو يبلغ هذه النصيحة إليّ – بلزوم انصراف الأمير فيصل بن الحسين عن سورية وسفره إلى العراق ليرشح نفسه لملك العراق ، وان الحكومة البريطانية تعلم ان فرنسة لا تشتغل بوجه من الوجوه مع الملك فيصل أو الأمـــير زيد ... وانه يجب عليّ ان أساعد على هذا الغرض ، وأؤثر على والدي أن يقبل به ، وان أؤثر على العراق ان يرضوا بالأمير فيصل ، وان أبقى هنا في شرقي الأردن على تفاهم معهم ، فأسير بالناس سيرة تبتعد عن تحدي الفرنسيين ، وانه إذا تم هذا فانه يؤمل ان تعيد فرنسة النظر في الأمر ، وبالنتيجة فانه يعتقد الاستطاعة بعد ستة أشهر في أن يهنينا برجوع الشام إلى أيدينا .

« وأما فيما يخص فلسطين ، فنوه بالوعد المنصوب المنسوب إلى بلفور ، وقال انه لا يستطيع البحث في هذا الشأن لأن الأمر سيترك للمندوب السامي » .

وقد أجاب الأمير بأنه يسره ترشيح أخيه فيصل لعرش العراق وهو كفء لذلك وسيحض والده على تأييد ذلك ، وأضاف : « أما فيما ينبغي أن أعمله هنا فانني أوافق على وجاهة الرأي ، ولكن لا أستطيع قبوله حتى أعرضه على زعماء البلاد وأحزابهم وهم هنا معي ، ومن غاب فله من يمثله ، وأجيبكم غداً في مثل هـــذه الساعة . وأما أهل فلسطين فهم يرفضون وعد بلفور ويصرون على عروبة فلسطين ،

وكذلك هي ، ولا نستطيع ان نرضى بفناء أهل فلسطين من أجل يهود العالم ، وانهم ليسوا كالنبات أو الشجر كلما قدّم نبت ، ولهذا شأن يطول . فقال : لقد أتعبناك ، وانا لننتظر جوابك في الغد .

« وقد اجتمعت بالذوات الذين معي والذين ذكرت أسماءهم في مقدمة هذا البحث فوافقوا اجماعاً . وفي الوقت المعين من اليوم الثاني ، أبلغت الخبر ، وتقرر أن يزور المندوب السامي عمان لوضع الأساس للاتفاق على تشكيل الادارة في جميع نواحيها [1] » .

وهكذا تألفت امارة شرقي الأردن [2] ، بعد أن وعد عبد الله بن الحسين من قبل قطبين بريطانيين بأنه لن تمضي ستة أشهر حتى تكون دمشق عاصمة ملكه [3] .

ولما كان صك الانتداب على فلسطين ينص على إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين ، فان بريطانية قدمت في ١٦ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٢ (١٣٤١ هـ) مذكرة رسمية إلى مجلس جمعية الأمم تطلب استثناء شرقي الأردن من أحكام هذا النص بما في ذلك النص الذي يحتم تسهيل هجرة اليهود إلى البلاد واستيطانهم فيها ، وقد وافق المجلس على ذلك [4] .

وقد احتجت الأوساط الصهيونية على ذلك ، وقال لويس نامير أحد أقطابها ان لورنس حدثه عن مؤتمر القاهرة قائلاً ان العزم عقد في لندن على دمج شرقي الأردن

---

١ ـ عبد الله بن الحسين : مذكراتي ص ١٧٦ ـ ١٨٢ ، انظر أيضاً حديث عوني عبد الهادي الذي سبقت الاشارة اليه .

٢ ـ اعلن استقلال الامارة في سنة ١٩٤٦ وسميت « مملكة شرقي الاردن » وتوج عبد الله بن الحسين ملكا عليها ، ولما انضمت اليها فلسطين الشرقية في نيسان (ابريل) سنة ١٩٥٠ دعيت « المملكة الهاشمية الاردنية » .

٣ ـ لا حاجة الى القول بأن تواطؤ السياستين البريطانية والفرنسية ، وظهور النزعات الاقليمية في العالم العربي ، هما اللذان حالا دون تحقيق هذا الامر .

٤ ـ تاريخ الاردن في القرن العشرين ص ١٨٦ ، الثورة العربية الكبرى ج٣ ص ١٥ ، موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٢٤٨ ، بريطانيا والدول العربية ص ١٧٥ ، العهود المتعلقة بالوطن العربي ص ٣٢٣ .

وفلسطين وفتح القطرين أمام الهجرة اليهودية ، ولكن مجيء الأمير عبد الله إلى شرقي الأردن وهو ينوي مهاجمة الفرنسيين أفسد علينا الخطة ، ولما كانت الوزارة البريطانية تعارض استعمال القوة لرغبتها في تفادي النفقات المالية ، فلم يبق إلا أن نبحث في حل سلمي ، وكان أفضل حل هو الاتفاق الذي عقدناه مع الأمير ، ولم تكن لنا حرية في اختيار أي حل غير هذا [١] .

وهكذا يبدو بجلاء ان عوني عبد الهادي كان على حق حين قال : « ان انشاء امارة شرقي الأردن كان عملاً وطنياً مفيداً ، ولولا ذلك لكان من المرجح ان يمتد الخطر الصهيوني إلى هذه المنطقة . ومن المعلوم ان شرقي الأردن لم تستثن من أحكام وعد بلفور إلا سنة ١٩٢٢ بعد انقضاء أكثر من عام على تأسيس الامارة فيها [٢] » .

ويجاري عوني عبد الهادي في رأيه هذا كثير من أقطـــاب العرب ومؤرخيهم ونكتفي هنا بقول مسلم العطار : « لولا المغفور له الملك عبد الله لكان من المؤكد إلحاق شرقي الأردن بفلسطين وبالوطن القومي اليهودي ، لذلك كان انشاء الامارة إنقاذاً لهذه المنطقة من التملك الصهيوني ، وقد رافقت تطور شرقي الأردن منذ ان كانت السلطة الأجنبية تسيطر على مقدرات البـــلاد ، إلى أن تدرجت نحو الاستقلال التام ، بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعها الملك عبد الله والتي لم يكن هناك سياسة أفضل منها في ظروف ذلك الزمن [٣] » .

وقد عقدت فيما بعد معاهدة بين الحكومة الانكليزية وسمو الأمير عبد الله ، اعترف فيها ملك بريطانية بقيام دولة مستقلة في شرقي الأردن برئاسة أمير شرقي الأردن « بشرط أن تكون دولة دستورية » ، وأهم أحكام هذه المعاهدة ان « سلطات التشريع والادارة المعهودة إلى صاحب الجلالة ملك بريطانية كمنتدب على فلسطين ، يقوم بها في هذا الجزء من المنطقة تحت الانتداب المعروف باسم شرقي

---

١ - لورنس والعرب ص ٣٠٧ .

٢ - ملحق الحياة الخاص بالثورة العربية الكبرى ص ١٣ .

٣ - المرجع السابق ص ٢٢ .

الأردن ، سمو الأمير عن طريق حكومة دستورية يحددها ويقرها القانون الأساسي لشرقي الأردن [1] » وتعددت المعاهدات بعد ذلك بين الدولتين ، والأردن تنتزع في كل معاهدة جديدة مزيداً من المكاسب السياسية الوطنية، وتقترب شوطاً آخر من الاستقلال التام.

---

١ ــ بريطانيا والدول العربية ص ١٧٦ ، العهود المتعلقة بالوطن العربي ص ٢٥١ ، الثورة العربية الكبرى ج ٣ ص ٢٦

الفصل الخامس والعشرون

صمود الحق الأعزل

لقد وضعت الحرب أوزارها وخمدت نيرانها، وقرر مؤتمر الصلح مصائر الشعوب، فإذا الآمال خيال، وإذا المواثيق سلاسل واغلال، ووقف ذلك المنقـــذ الأعظم والمجاهد الأول، الملك حسين بن علي، يطالب الدول الحليفة بوعودها، ويستنجزها عهودها، فتجيبه بتحطيم الصرح الذي بناه، وتمزيق الوحدة التي غذاهـــا من قلبه وعزيمته وتضحيته، والاطاحة بالاستقلال الذي كان له هدفاً ومثلاً ..

واعجب ما شئت لشيخ جليل، أحدقت به المؤامرات، وتتابعت عليه الاحداث، ولكنها لم تستطع أن تعجم من عوده، وتلين من قناته، وتطفىء الشعلة المتأججة في نفسه، فظل ثابتاً كالطود في وجه العواصف، مناضلاً ما وسعه النضال، مقاوماً ما استطاع المقاومة، يأبى الانحناء أمام جبروت الحلفـــاء، والتراجع أمام ألاعيب السياسة، والخضوع أمام تهديد القوة الغاشمة للحق الأعزل.

لقد كان لا يفتأ ينادي بعروبة فلسطين، ولا يني يحتج على الانتداب، ويقول انه بدعة استعمارية جديدة، وان الانتداب على البلاد العربيـة لا يتفق مع العهود التي قطعت لها ومع أماني شعوبها في التحرر والاستقلال.

وكان لا يكتم نقمته على دول الحلفاء وفي مقدمتها بريطانية، لنكثها بالعهود،

وتنكرها للاتفاقات الصريحة المعقودة بينه وبين السرمكماهون . وعبثـــاً حاولت بريطانية الوصول إلى تسوية مع الملك الغاضب تحظى برضاه وتحقق مطامعها في آن واحد .. عبثاً حاولت حكومة صاحب الجلالة ان تنتزع منه ، باللين تارة وبالعنف تارة أخرى ، معاهدة تحقق أهدافها وتثبت أقدامها ، فقد أبى أن يفرط في الامانة المقدسة التي حملها بيدين شريفتين ونفس عزيزة أبية، واقتحم في سبيلها عباب الأهوال والمخاطر .

ويروي عبد الله بن الحسين ان اللورد اللنبي قد زار جدة لهذا الغرض ، وان ثمة مباحثات قد دارت بينه وبين الملك حسين في سبيل الوصول الى تلك التسويـــة المنشودة ، الا انه لا يحدثنا عما دار في تلك المباحثات ويكتفي بالقول : « فسافرنا إلى جـــدة وكانت زيارة اللورد ، وكانت المباحثات غير المنتجة سوى ازدياد عدم التفاهم ، وكان الموضوع الشام وفلسطين والعراق [1] » .

وبعد اللنبي جاء لورنس ، وكان تشرشل قـــد أتم مهمته في الشرق الأوسط ، وتسنم عرش العراق الملك فيصل، ووافق الامير عبد الله على ان يتولى امارة شرقي الاردن ، فلما عاد تشرشل الى لندن ذهب لورنس الى جدة فوصل في اواخر شهر آب (اغسطس) ١٩٢١ ، وفي اعتقاده انه سيجد الملك الشيخ أكثر ليناً وتسامحاً بعد أن تولى ولداه عرشين عربيين واستقل هو بعرش الحجاز ، معتقداً بأن بريطانية قد وفت بالتزاماتها للعرب .

وكان لورنس يحمل معه من لندن مشروع معاهدة بين الحكومـــة البريطانية وجلالة الملك حسين ، فعرضها عليه وطلب منه توقيعها ، وكانت هذه المعاهدة تضمن لملك الحجاز الحماية والمساعدة مقابل اعترافه بالانتداب على العراق وفلسطين وشرقي الأردن ، وقد سمي الانتداب في المعاهدة مركزاً خاصاً لبريطانية [2] .

ولما اطلع الملك حسين على هذا المشروع قال : « ولكني لا أجد فيه شيئاً عن

---

١ ــ عبد الله بن الحسين : مذكراتي ص ١٦٥

٢ ــ أنظر نص هذا المشروع في : الثورة العربية الكبرى ج ٣ ص ١٥٩ ، العهود المتعلقــة بالوطن العربي ص ٢٦٥ ، الثورة العربية الكبرى ــ وثائق واسانيد ص ١٧٥

فلسطين وعروبتها ! » ثم اقترح ادخال نص بأن فلسطين مستقلة وداخلة في الوحدة العربية ، فاعتذر لورنس بعدم امكان ذلك في الوقت الحاضر مؤكداً انه لا يدخل في دائرة اختصاصه ، واعتذر الملك عن التوقيع وخاطب لورنس في كثير من الغيظ والجفاء ، مصراً على تنفيذ العهود المقطوعة للعرب بحذافيرها ، قائلاً : « ان العرب وضعوا قضية بلادهم أمانة في عنقي فليس في وسعي الحياد عن طلب حريتهم . »

واتفقت كلمة الحاشية التي كانت تحيط بالملك في خلال المباحثات ، على وجوب قبول المشروع وتوقيعه خشية مكر الانكليز وغدرهم فلايتآمرون على الدولة ولايوقعون بها ، وكان لورنس قد حذر المحيطين بالملك من مغبة الرفض وما سيجر على الحسين من متاعب وخيمة، ولكن الحسين لم يكن يعرف المساومة في حقوق الوطن ، فاخفقت محاولاتهم رغم الحاحهم الشديد عليه بالقبول ، وأصر على الرفض، ولما اشتد الضغطعليه ارتقى سلم الدار التي كانوا ينزلون بها في جدة إلى السطح،وولى وجهه شطر البيت الحرام ، وأقسم بربه ألا يوقعه، ثم انزوى لوحده لا يكلم احداً ولا يخاطب احداً [1] ويقول بنواميشان ان الحسين قد أهان لورنس في هذه المقابلة وشتمه وشهر عصاه في وجهه مهدداً بالقائه من أعلى سلم القصر [2] .

وعاد لورنس الى لندن يائساً مخفقاً ، وكان ذلك آخر عهده في التدخل بالشؤون العربية ، وقد التحق اثر ذلك في الجيش البريطاني برتبة جندي بسيط .

وكان صمود الحسين في رفضه التنازل عن حقوق العرب جديراً بالاعجاب ، لاسيما وان موقفه هذا كان معناه فقدان تأييد بريطانية ومساعدتها له. ويقول فيلبي: « ولم تجد الرشوة والوعيد في زحزحة الرجل العجوز عن موقفه المعارض لسياستنا بصورة عامة في جميع المنطقة . وفي النهاية احس لورنس باليأس فغادر جدة بعد ان اوصى الحكومة البريطانية بقطع المعونة المالية عن الحجاز، والتخلي عن الحسين

١ ـ اسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ص ٣٥٠ ، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ١٦٨

٢ Lawrence d'Arabie, P. 162

ليقطف ثمار عناده وصلابته [1] ويقول فيلبي أيضاً: « ان الملك حسين رفض رفضاً باتاً ان يعترف بسياسة الوطن القومي اليهودي في فلسطين بأي شكل كان ، وهو الأمر الذي كان الانكليز يسعون لتحقيقه من المعاهدة [2] » .

وفي ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢ (١٣٤١ هـ) أصدر المجلس الوطني في تركية الحديثة قراراً باعلان الجمهورية التركية وانتخب مصطفى كمال رئيساً لها ، وكانت الرغبة متجهة نحو الاحتفاظ مؤقتاً بالخلافة ، فاختير عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز لهذا المنصب بعد أن جرد من جميع السلطات التي كانت له [3] .

وقد أثار ذلك استياء المسلمين في مختلف أنحاء العالم ، ورأى الأمير عبد الله ابن الحسين ان الوقت مناسب لخطب الخلافة لوالده الحسين ، باعتبارها حقاً من حقوقه، ولعدم جواز بقاء المسلمين اكثر من ثلاثة ايام بلا إمام ، كما يفهم من وصية عمر ابن الخطاب لأهل شورى البيعة من بعده .

ودعا الأمير عبد الله والده الى زيارة عمان ، فقدم اليها في ١٨ كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٣ (١٣٤٢ هـ) ، ثم انتقل منها الى « الشونة » مشتى ولده للراحة والاستجمام ، فتقاطرت إلى هذه البلدة وفود من سورية ولبنان وفلسطين ومصر والأردن للسلام عليه ومبايعته بالخلافة . وقد تمت البيعة في ١١ آذار (مارس) سنة ١٩٢٣ (٥ شعبان سنة ١٣٤٢ هـ) . وكان الأمير عبد الله أول مبايع باسم شعب الأردن والحاج امين الحسيني رئيس المجلس الاسلامي الاعلى باسم فلسطين ، ثم تلاهما قضاة المحاكم الشرعية في فلسطين ، وبعض علماء سورية ولبنان ، وخطبوا باسمه على المنابر هنا وهناك [4] ، كما تلقى برقية من أحمد زكي شيخ العروبة في مصر يقول

---

١ ــ لورنس والعرب ص ٢٥٥ ، العالم العربي ص ٢٧٦ نقلا عن :
Philby : Arabian Days, P. 228

٢ ــ الثورة العربية الكبرى ــ وثائق وأسانيد ص ٢٧٢ نقلا عن :
Forty Years in the Wilderness, PP. 107 - 108

٣ ــ ألغى المجلس الوطني التركي الخلافة نهائيا بقرار آخر اتخذه في ٣ آذار (مارس) سنة ١٩٢٤ وقضى باخراج الخليفة من البلاد .

٤ ــ أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ص ٣٥٨

فيها : « اهنىء العرب والشرق برجوع قريش إلى الحياة العملية لاعادة الاسلام سيرته الاولى على يدي سيدي ومولاي الخليفة الأعظم الحسين بن علي أيده الله ووفقه لاحياء هذا المجد العظيم [1] » .

ومن أقوال الشعراء في هذه البيعة قول بدر الدين الحامد أحد شعراء سورية :

تاج مجد الخلافة انتظما ... فوق رأس الخليفة العربي
يا بني هاشم خـــلافتكم ... زنتموها بالحق والقضب
يا ربوع الحجاز طبت ثرى ... فيك مجدي وفيك خير نبي

وقول الشاعر اللبناني محمد كامل شعيب العاملي :

اليك مليك العرب مني بيعة ... مباركة عن أهل صيدا وعامل
أجل بايعتك اليوم فهر وهاشم ... وجاراهما آساد حرب ووائل
أبت أن ترى إلاك للعرب ملجأ ... وأعظم حام للخلافة كافل

وقد خطب جلالته في الوفود العربية الملتفة حوله فقال : « لا أتنازل عن حق واحد من حقوق البلاد . لا أقبل الا ان تكون فلسطين لأهلها العرب ، أقول لأهلها العرب . لا أقبل بالتجزئة ، ولا أقبل بالانتداب . ولا أسكت وفي عروقي دم عربي عن مطالبة الحكومة البريطانية بالوفاء بالعهود التي قطعتها للعرب ، وإذا رفضت الحكومة البريطانية التعديل الذي أطلبه فاني أرفض المعاهدة كلها ، أقول المعاهدة كلها ، ولا أوقع المعاهدة قبل أخذ رأي الأمة [2] » .

على هذا النحو كان جلالته يبث في الوفود العربية التي تقاطرت من كل حدب وصوب ، روح الوطنية والتضحية ، ويحضها على مقاومة الاستعمار والتعلق بقوميتها ووحدتها ، فخشي الانكليز أن يؤدي وجوده في الاردن إلى قيام اضطرابات معادية

---

١ ــ احمد زكي الملقب بشيخ العروبة ص ٢٣٣

٢ ــ الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ١٩٩

لهم في فلسطين ، فأوفد المندوب السامي رسولاً خاصاً هو المستر اليك كوكسبرايد إلى الملك حسين ليطلب منه بلطف أن يعود إلى الحجاز،فغادر عمان يصحبه الأميران علي وعبد الله [1] .

وعاد الحسين إلى مكة ، فدعا ذوي المكانة إلى اجتماع تقرر فيه تأسيس مجلس يطلق عليه اسم «مجلس شورى الخلافة » يضم ٢٩ عضواً من سائر الأقطار الاسلامية والعربية .

ولما عقد مؤتمر لوزان لحل المشكلات المعلقة بين تركية ودول الحلفاء [2] ، أبرق الملك حسين الى ناجي الأصيل مندوبه في لندن للسفر إلى لوزان ومقابلة وزير الخارجية البريطانية اللورد كيرزون ، وتذكيره بحقوق العرب ، ومطالبته بالوفاء بالعهود التي قطعت لهم باقامة دولة عربية موحدة تضم جميع البلاد العربية في آسية باستثناء عدن ، فقابل الدكتور ناجي الأصيل وزير الخارجية البريطانية وأبلغه احتجاج الحسين من جديد ، واتفق معه على اعادة الاتصال به في لندن .

وما لبث الدكتور ناجي الأصيل أن حمل إلى الحسين في اواخر نيسان (ابريل) ١٩٢٣ ، مشروع معاهدة جديدة وضعته وزارة الخارجية البريطانية وعهدت اليه باطلاع الملك حسين عليه وابداء رأيه فيه . فأدخل الملك على المشروع بعض التحفظات ، وأعاده مع مندوبه إلى لندن لاتمام المباحثات بشأنه مع وزارة الخارجية . وننشر في ما يلي خلاصة لهذا المشروع :

المادة الأولى – تنص على وجود سلم بين الحكومتين البريطانية والحجازية وعلى منع استعمال بلاد الحكومة الواحدة قاعدة عدوان موجهة ضد الحكومة الاخرى .

المادة الثانية – يتعهد جلالة ملك بريطانيا بأن يعترف باستقلال العرب في العراق وشرقي الاردن والولايات العربية في شبه جزيرة العرب ، ما خلا عدن ، وأن

---

١ – تاريخ الاردن في القرن العشرين ص ٢٢٨

٢ – عقد مؤتمر لوزان للمرة الاولى من ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٢٢ الى ٤ شباط (فبراير) ١٩٢٣ دون أن يسفر عن نتيجة ما ، ثم عقد للمرة الثانية في ٢٣ نيسان (ابريل) واسفر عن معاهدة الصلح في ٢٤ تموز (يوليه) .

يعضد هذا الاستقلال. وأما في ما يتعلق بفلسطين فقد تعهد صاحب الجلالة البريطانية بأن لا يجري شيء في هذه البلاد مما يمكن ان يجحف بحقوق العرب المدنية أو الدينية، وأما اذا أبدت هذه الحكومات أو كلها ، رغبة في الاشتراك في الجمارك أو خلاف ذلك ، بقصد ايجاد حلف فيما بعد ، فان صاحب الجلالة البريطانيـة يسعى لترويج رغبتهم إذا طلب اليه ذلك المتعاقدون ذوو الشأن . ويعترف صاحب الجلالة الهاشمية، بالمركز الخاص الذي لجلالته في العراق وشرقي الأردن وفلسطين ، ويتعهد بأن يبذل غاية جهده في التعاون مع الجلالة البريطانية على القيام بتعهداته في المسائل التي تقع ضمن نفوذ جلالته الهاشمية بشأن هذه البلاد .

المادة الثالثة — يتعهد ملك الحجاز بالمحافظة على العلاقات الودية التي وجدت قبل الحرب بين جلالته وبين حاكم عسير وحاكم نجد .

المادة الرابعة — تتعهد الجلالة الهاشمية ، بأن تسعى في تسوية المنازعات بشأن الحدود بين بلاده وحاكمي عسير ونجد ، بمخابرات ودية . ويتعهد ملك بريطانيا بأن يسعى في المساعدة بتسوية منازعات كهذه عندما يرغب ذلك .

المادة الخامسة — يتعهد ملك بريطانيا بأن يصد بجميع الوسائل السلمية والممكنة اي اعتداء يقع على بلاد المملكة الهاشمية ضمن الحدود التي تقرر نهائياً .

المادة السادسة — تنص على تعيين وكيل من قبل الجلالة الهاشمية في لندن ، وعلى تعيين وكيل من قبل جلالته في جدة أو أي مدينة ساحلية اخرى . ويجوز للجلالة الهاشمية ان تعين ايضاً قناصل من قبلها في انكلترا والهند ، وكذلك يحق لبريطانية ان تعين قناصل في جدة وغيرها من المدن الساحلية كما يرى موافقاً ، ويتمتع هؤلاء الوكلاء والقناصل بالامتيازات السياسية والقنصلية العادية .

المادة السابعة — يعترف ملك الحجاز بالترتيبات الصحية والكورنتينات الموضوعة مؤقتاً من قبل الحكومة البريطانية في قمران ، قيامـاً بنصوص الاتفاق الصحي الدولي المعقود في سنة ١٩١٢ ، وتتعهد بأن تعترف بالتدابير التي قد تتخذ في جدة أو في غيرها من المرافىء الهاشمية ، وفقاً لأنظمة يصدرها ملك الحجاز .

المادة الثامنة — تتعهد بريطانيا بألا تتدخل في التدابير التي يتخذها ملك الحجاز

للاعتناء بالحجاج. وتعهد ملك الحجاز بأن يعضد المساعي التي يبذلها الرعايا البريطانيون المسلمون لمساعدة الحجاج في الحجاز .

المادة التاسعة – تنص على تعيين مبلغ محدود يدفعه كل حاج ، وعلى نشر المبلغ الوارد سنوياً .

المادة العاشرة – تنص على الاعتراف بالصفة الهاشمية التي لرعايا الحكومة الهاشمية في بريطانيا ، وكذلك يعترف ملك الحجاز بهذه الصفة للرعايا الانكليز في بلاده .

المادة الحادية عشرة – تنص على تسليم أموال الرعايا البريطانيين ممن يموتون في بلاد جلالته الهاشمية ، إلى المعتمدين البريطانيين في تلك البلاد ، ويتصرف بأموال كهذه وفقاً للقانون الساري في ظروف كهذه .

المادة الثانية عشرة – تنص على حضور قنصل بريطاني ، في المحاكم الهاشمية عندما تنظر هذه المحاكم في قضية يكون فيها احد الرعايا البريطانيين مدعياً أو مدعى عليه ، وعلى تأجيل الحكم إذا رغب المعتمد البريطاني في اجراء المخابرات طبقاً للعدالة . ولا تسري نصوص هذه المادة على حالة الرعايا البريطانيين أو الأشخاص الذين يتمتعون بحماية جلالته البريطانية القاطنين في البلاد الهاشمية .

المادة الثالثة عشرة – تنص على تسليم الحكومة الهاشمية الرعايا البريطانيين الذين يلقى عليهم القبض من قبل السلطات الهاشمية ، إلى القناصل البريطانيين ، بشرط أن يعطي هؤلاء ضماناً باحضارهم عند الاقتضاء. ولا تسري نصوص هذه المادة على الرعايا المقيمين بصورة دائمة في بلاد الحكومة الهاشمية خارج جدة وغيرها من المرافىء التي قد تعين بريطانيا قناصل فيها .

المادة الرابعة عشرة – تنص على رؤية دعاوى البريطانيين التي لا تمس فيها مصالح رعايا الحكومة الهاشمية ، من قبل قناصل بريطانيا .

المادة الخامسة عشرة – تنص على تنازل بريطانيا عن جميع الامتيازات والاستثناءات خلاف المنصوص عليه في هذه المعاهدة التي كان يتمتع بها رعايا بريطانيا ، بمقتضى الامتيازات بين بريطانيا وتركيا .

المادة السادسة عشرة – تنص على اعلام الحكومة الهاشمية المعتمد البريطاني

عندما ترغب في ابعاد احد الرعايا البريطانيين .

المادة السابعة عشرة– تعالج الشروط التي بموجبها تعترف بريطانيا بعَلَم جلالته الهاشمية .

المادة الثامنة عشرة – تصرح بأنه لا يجوز لأحد الفريقين الساميين المتعاقدين ان يعقد معاهدة أو اتفاقاً مع فريق ثالث ضد مصالح الفريق السامي المتعاقد الآخر .

المادة التاسعة عشرة – تنص على انه لا شيء في هذه المعاهدة ، يبطل أي تعهد قد تعهد أو يتعهد به في المستقبل، أحد الفريقين المتعاقدين الساميين ، بمقتضى ميثاق جامعة الأمم .

المادة العشرون – تنص على تصديق المعاهدة ، وانها نافذة المفعول لمدة سبع سنوات ، اعتباراً من اليوم الذي توضع فيه موضع العمل [1] » .

أما تحفظات الحسين فقد نوه بها البيان الذي أذاعه بهذا الشأن في مكة خلال موسم الحج وقد جاء فيه :

« يهمني من جميع الأقطار العربية ما يهمني من امر بيت الله الحرام ، وقد عرضت عليّ الحكومة البريطانية معاهدة وجدت في بعض موادها ما لا يتفق والعهود المقطوعة لي ، فعدلتها تعديلًا هاماً نص فيه على استقلال فلسطين استقلالاً تاماً مطلقاً يخول الفلسطينيين ادارة بلادهم بانفسهم واختيارهم طريقة الحكم التي يريدونها ، وبذلك جعلت وعد بلفور في حكم انه لم يصدر وقضي عليه . وفوق ذلك فقد طلبت في التعديل انه بعد توقيع المعاهدة يؤمر المندوب السامي لفلسطين ان يصرح بحضور مندوب من قبلي وأمام ممثلي عرب فلسطين باستقلال الأقطار الفلسطينية استقلالاً تاماً ، ودخولها صراحة في الوحدة العربية ، طبقاً للعهود البريطانية المقطوعة لي . وأؤكد لكم انه اذا لم تقبل الحكومة البريطانية التعديلات التي طلبتها ، فلا يمكن ان اوقع المعاهدة بل ارفضها رفضا باتاً، وكونوا على ثقة بأنه لا يمكن ان يذهب شبر من اراضي فلسطين وانا واولادي احياء على وجه الأرض ، فاننا نحافظ

---

١ – أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشريف حسين ص ٣٤٦ – ٣٤٨

على اصغر قرية في فلسطين محافظتنا على بيت الله الحرام ، ونريق في سبيل ذلك آخر نقطة من دمائنا . على كل حال فانني بعد انتهاء أمر المعاهدة سأحضر بنفسي إلى اطراف تلك البلاد . فإذا ورد جواب لندن على مطالبي بالايجاب فاني استشيركم فيما يجب عمله ، وأسير معكم على ما تتفقون عليه . وكونوا على ثقة بأني انظر إلى أهل فلسطين نظري إلى أولادي ، ولا أفرق في ذلك بين مسلم ومسيحي ويهودي وطني ومن يرجع عن الصهيونية في اطماعها البلفورية . وأشهد الله على ذلك وهو حسبي ونعم الوكيل[1] . »

وإلى جانب هذا البيان أوفد الملك حسين الشيخ عباس المالكي أحد علماء مكة إلى القدس ، وألقى البيان التالي في دار اللجنة العربية في ٢٥ آب سنة ١٩٢٤ (١٣٤٤ هـ) :

« سادتي اهل فلسطين الكرام

ابلغكم سلام سيدي الملك الذي يهمه من أمركم ما يهمه من أمر البلد الحرام ، وقد بعثني لأشرح لكم بيانه وأبين لكم ما تتساءلون عنه من أمر المعاهدة الحجازية التي تدور المفاوضات لعقدها بين حكومته وحكومة صاحب الجلالة البريطانية ، بعد أن ذكرت الصحف شيئاً عنها أخاف حكومة فلسطين .

سادتي

لقد عرضت بريطانيا المعاهدة على مولاي الملك، وفي بعض موادها ما لم ينشرح له صدره ، فعدلها تعديلاً مهما نص فيه على استقلال فلسطين استقلالاً تاماً يخول الفلسطينيين حق ادارة انفسهم واختيار طريقة الحكم، فترك هذا التدبير وعد بلفور كأن لم يكن اذ قضي عليه بالموت . وفضلا عن ذلك فقد اقترح ان يؤذن للمندوب السامي لفلسطين بعد عقد المعاهدة،وبحضور مندوب من قبله ، بأن يصرح باستقلال البلاد الفلسطينية استقلالاً تاماً مطلقاً ، ودخولها صريحاً في الوحدة العربية ، طبقاً للعهود البريطانية المقطوعة لجلالته. ويؤكد لكم بأنه اذا لم تقبل بريطانيا ان تكون

---

١ ـ المرجع السابق ص ٣٥١ ، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ١٨٧

المعاهدة مطابقة للتعديل الذي اقترحه ، فلا يمكن أن يوقع عليها ، بل يرفضها رفضاً باتاً ، ويؤكد لكم انه لن يذهب شبر من اراضي فلسطين وهو واولاده احياء على وجه الأرض ، وهم يحافظون على اصغر قريـــة في فلسطين محافظتهم على بيت الله الحرام ، ويريقون في سبيل ذلك آخر نقطة من دمائهم .

« ويريد جلالة الملك ان يحضر بنفسه إلى اطراف هذه البلاد، بعد انتهاء المفاوضات في المعاهدة ، فيعقد معكم مؤتمراً ، فإذا كانت المفاوضات انتهت بقبول مطالبه وعقدت المعاهدة ، فيستشيركم في طريقة مـا تختارونه من نظام الحكم ، وإذا كانت قد انتهت على غير اتفاق فيستشيركم ايضاً فيما يجب عمـله ويسير معكم فيما تتفقون عليه [1] » .

وما لبث الملك حسين أن وصل إلى عمان واجتمع فيها بوفد من زعماء فلسطين برئاسة موسى كاظم الحسيني وعضوية امين التميمي وحافظ طوقان وشكري التاجي وعوني عبد الهادي ، وصرح جلالته للوفد بقوله انه لا يعاهد عهداً ولا يبرم قراراً بشأن فلسطين قبل أخذ رأيهم ونيل موافقتهم ، وقال لهم انه سينزل على ارادتهم ، ويتبـع قراراتهم شريطة ألا تخرج عن دائرة الحكمة والروية ، واقترح عليهم ان يضعوا ميثاقاً وطنياً يضمنونه خلاصة مطالبهم وأمانيهم ليعمل على تحقيقه [1] .

يقول جورج أنطونيوس : « وكان الملك حسين على ثقة وثيقة بعرب فلسطين وكان متحققاً من صدق مخاوفهم من المستقبل وعمقها. فأنفق جهوداً، ضاعت سدى، وهو يحاول أن يقنع الحكومة البريطانية بقلة جدوى ما تحاوله حين تسعى لتخفيف تلك المخاوف بتحفظات قاصرة . ومضى حسين ، في صلابـة استنزفت صبر وزارة الخارجية ، يحتج في الرسالة اثر الرسالة بأن دافعه الذي يحفزه ليس دافعاً فردياً أنانياً، وأن موقفه انما يمليه عليه اعتقاده بأن لا سلام في فلسطين للبريطانيين واليهود والعرب، ما دام لدى العرب ما يدفعهم إلى الظن بأن غاية الصهيونية القصوى انشاء دولة يهودية

---

١ ـ المرجع السابق ص ٣٥٢

٢ ـ أسرار الثورة العربية الكبرى ومأساة الشـريف حسين ص ٣٥٣ ، الثورة العـربية الكبرى ـ وثائق وأسانيد ص ٢٧٥

في وسطهم وعلى حساب أمانيهم القومية . ورجا أن تقدم الحكومة البريطانية ضماناً صريحاً لكل حقوق العرب المشروعة لا كذلك الذي جاء غامضاً في نص وعد بلفور، بل بعبارة التأكيد الموجب التي قدمت اليه في كانون الثاني (يناير) عام ١٩١٨ عن طريق القائد هوغارت [١] » .

وحدث خلال ذلك ان استقالت وزارة المحافظين ، وتألفت وزارة جديدة من العمال ، فاستبشر أقطاب الحركة الصهيونية لأنهم كانوا يلاقون لدى الهيئات الاشتراكية مزيداً من التأييد ، وعاد الدكتور ناجي الأصيل إلى مكة وكان الحسين قد عاد اليها ، حاملاً اليه النص النهائي للمشروع ، ولكن الملك أبى الا أن يدخل عليه تحفظات جديدة ويعيده إلى لندن مصراً على ادخال هذه التحفظات في صلب المشروع .

وتعلق نجلاء عز الدين على هذا الموقف الصلب بقولها : « وقد ابى الحسين ان يصل إلى اتفاق، وأصر على ان تفي بريطانية بالعهود التي قطعتها له . وكان بصورة خاصة ، متشدداً في موقفه من فلسطين . ولم يجانبه الصواب حين فهم انها تدخل في نطاق الدولة العربية المستقلة التي نص عليها الاتفاق الذي عقد بينه وبين بريطانية . وقد كان من حق الحجاز، بوصفه احدى الدول المتحالفة ، أن ينضم إلى عصبة الأمم. ولكن لم يتح له الدخول فيها ، لأن الحسين أبى أن يوافق على ميثاق العصبة الذي نص على الانتدابات الانكليزية والفرنسية للبلاد العربية ، وعلى انشاء الوطن القومي اليهودي في فلسطين [٢] » .

وقال حافظ وهبة : « وكان موقفه من فلسطين وتصريحاته المتعددة من أهم المسائل التي عرقلت المفاوضات بينه وبين الانكليز . وقد كانت عقيدة الملك حسين ان فلسطين هي جزء من المملكة العربية التي وعد بتشكيلها ، وأن وعد بلفور باطل لمخالفته للعهود والوعود المقطوعة له من بريطانية [٣] » .

---

١ ــ يقظة العرب ص ٤٥٣

٢ ــ العالم العربي ص ٢٧٦

٣ ــ جزيرة العرب في القرن العشرين ص ٢٠٦

ويصور المؤرخ الانكليزي جورج كيرك هذا الموقف من وجهة نظره بقوله :
« ان هذا الملك ، مع تقدمه في السن ، ما لبث ان آثر تمسكه بآرائه الاعتبارية على انقياده للحكمة التي توحي بها الخبرة الدنيوية ، وانساق إلى مخاصمة بريطانية . وكانت أهم الاعتبارات لديه في ذلك تلك النكبة السياسية التي لحقت بعرب فلسطين من جراء تصريح بلفور والوصاية ، ولما لم يمكن الوصول معه إلى تسوية في هذا الشأن انتهى الأمر بفقده تأييد بريطانية ومعونتها [1] » .

وقد كان هذا الموقف الرائع الذي أدى الى تحطيم الحسين وقذف به من العرش الى المنفى ، كما سنرى في الفصل التالي ، من اصلب المواقف الوطنية في التاريخ ، وألهم الكثيرين من المناضلين في سبيل وحدة العرب وعروبة فلسطين .

---

١ ـ موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٢٥٠ .

الفصل السادس والعشرون

شيخ قريش

قبل أن يصل الدكتور ناجي الأصيل إلى لندن حاملاً معه النص النهائي لمشروع المعاهدة بين الحسين بن علي والحكومة البريطانية، والتحفظات الجديدة التي أدخلها عليه، كانت قوات عبد العزيز آل سعود سلطان نجد تدخل إلى مكة، فيتنازل الحسين عن الملك لولي عهده الأمير علي، وتعلن بريطانية الحياد في المعركة بعد أن تحملت الكثير من احتجاج الحسين عليها وتشهيره بها وقنوطها من الوصول معه إلى اتفاق يرضيه ويحقق أهدافها ومطامعها، وما هي الا جولة قصيرة حتى يبسط ابن سعود سلطانه على الحجاز وينتقل الملك علي في ١٧ كانون الأول (دسمبر) سنة ١٩٢٥ (١٣٤٤ هـ) إلى العراق [١].

أما الحسين فكان قد انتقل إلى العقبة في الاسبوع الأول من شهر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٢٤ (١٣٤٣ هـ)، وما لبثت أن وصلت إلى ميناء العقبة البارجة البريطانية فون فلاور ونزل قائدها فسلم الشيخ الجليل (٢) كتاباً من الحكومة

١ ــ انظر تفصيل ذلك في «نجد وملحقاته» ص ٣٥٠ وما يليها، الثورة العربية الكبرى ج ٣ ص ١٨٢ وما يليها.

٢ ــ كان الحسين يومئذ في حدود السبعين من عمره.

البريطانية تطالبه فيه بمغادرة العقبة خلال ثلاثة أسابيع تجنبـــاً لاضطراب المنطقة وتحرج الموقف بين الأردن وابن سعود .

وتولى الملك غضب شديد ، وهو يرى إلى النهاية الفاجعة التي انتهت اليها صلته بالحليفة الكبرى التي اطمأن اليها ووثق بشرف كلمتهـــا ، وبادر إلى كتابة رسالة شديدة اللهجة إلى رئيس الوزارة البريطانية قال فيها :

« انني منذ ابتداء النهضة العربية حتى هذه الساعة وانا مخلص في ولائي لحكومة بريطانيا ثابت على مبدئي ، اعتماداً على شرفها ، وبناء على عهودها ومواثيقها الرسمية التي قطعتها على نفسها بمحافظتها على حقوق العرب،وتأمين الوحدة العربيةوالتصديق على استقلال العرب ، ومنحها الحرية للشعب العربي الذي اشترك مع حليفته جنباً إلى جنب ، وسفك دماء زهرة الشبيبة من ابنائه ، وضحى بالنفس والنفيس في سبيل الحصول على تلك الغاية الشريفة ، والوصول إلى ضالته المنشودة . كما اني وأقوامي العرب حريصون أشد الحرص على تنفيـــذ احكام تلك العهود والمواثيق التي كانت اساس النهضة العربية،دون ان نخل بما يوجب مسؤوليتنا امام محكمة الضمير النزيه . وقد ضحيت بكل شيء ، وتنازلت عن العرش ، وغادرت وطني ، حبـــاً بالسلام وحقناً للدماء،وأتيت العقبة لأبرهن للعالم أجمع انه لا مطمح لي سوى اسعاد قومي ، وتحرير بلادي ، بعـــد ان قمت بواجباتي ، ولم آلُ جهداً في المحافظة على حقوق العرب ، والسعي وراء الوحدة العربية ، والتمسك بنص المعاهدة وانتظار تنفيذها . ولم اقطع الأمل من الحكومة البريطانية بشأن انجاز وعدها ، والوفاء بعهدهـــا ، استناداً على شرف تقاليدها . وها اني اليوم مقيم في احدى قرى الحجـاز ، معتزلاً العالم ، ومبتعداً عن كل ما من شأنه ان يوجب الشغب وسوء التفاهم ، ولما كان هذا الاعتزال وهذا الابتعاد لم يخلصني من امثال تلك الشوائب ، فـلا شك في اني اينما ذهبت لا يخلو الأمر من حدوث شيء لي كما في التبليغات ، الاخيرة وربما كان أشد هولاً من موقفي الحالي ، إذ لا اضمن منع هياج الشعب العربي وحدوث ما لا تحمد عقباه نحو الحليفة وغيرها . ولهذا فاني لا أرى مندوحة من بقائي في مكاني ، وإن شاءت حكومة جلالة الملك فلتبعث بي إلى عالم المريخ فإني مستعد لإنفاذ رأيها

في هذه البعثة في أول دقيقة التبليغ ، أو انها إذا شاءت ورأت عظمتها ان تبعث احدى وسائطها الحربية لتهلكني وعائلتي وخلاص الجميع من هذه الغوائل ، فلتفعل، لاني آليت على نفسي بالا احجم عن مساعدة ابناء قومي ووطني .

« واني افتخر أمامكم بكوني ما زلت ولا ازال اساعد الحكومة الحجازية بمالي الخاص الذي ادخرته لمستقبلي المجهول ، لأن من لا خير فيه لوطنه ، لا يرجى منه الخير لحلفائه ، وأصدقائه .

«ولي الشرف ايضاً بكوني ثبت على مبدئي، واخلصت في عملي، وقمت بواجباتي، فما عليّ من غيري ، اذا لم يفِ بوعده ، ولم يقم بانجاز عهوده ، ونفذ مطامعه بقوة مدرعاته ، ورؤوس حرابه ، فهناك يكون الحكم على عمله .

« وفضلاً عن ذلك ، فاني لم اعترف بالانتداب على البلاد العربية من أساسه ، وما زلت احتج على الحكومة البريطانية التي جعلت فلسطين وطناً قومياً لليهود ، وشرقي الأردن تحت الانتداب مأوى للارمن .

« وعليه فانني أكرر جوابي النهائي بكوني لا اعترف بذلك الانتداب من اساسه ، ولا يمكنني مغادرة العقبة إلا بعد ابلاغي لغوه ، وبعدئذ اذهب إلى حيث تريد حكومة الملك ، بشرط أن يكون محل إقامتي في داخل البلاد العربية ، وأن لا اكون مسؤولاً عما عساه قد يحدث من شغب ، أو هياج شعب تطمح نفسه لرفع يد الاستعمار وتجديد النهضة ، فيما إذا مست الحاجة ، وإلا فاني لا ابرح العقبة مهما تكن النتيجة ، ولو أدى الأمر لهلاكي ومحو عائلتي من الوجود . واني لا أقصد بهذا معاداة بريطانيا وسواها ، وانما هي في سبيل انقاذ وطني ، وبني قومي . وكل ما تفعله الحكومة البريطانية بي لما يزيدني شرفاً وفخراً بين شعبي وأقوامي ، حيث يسجل التاريخ لكل منا عمله . وفي هذا بلاغ [1] » .

وكان جواب الحكومة البريطانية على هذه الرسالة ، بل هذه الصرخة ، انها أرسلت إلى ميناء العقبة قبل انتهاء مدة الانذار ، البارجة نيودلهي فرست إلى جانب البارجة السابقة امعاناً في التهديد والتهويل ، فلم يسع العاهل الكبير إلا أن يذعن

---

١ – المرجع السابق ص ٣٨١ – ٣٨٢، الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ٢١٠.

للأمر الواقع ، فنزل إلى الباخرة نيودلهي وهو يردد :

مشيناها خطى كتبت علينا ومن كتبت عليه خطى مشاها

وكان الملك عبد الله قد توسط لدى السلطات البريطانية بنقله إلى البصرة كي ينقل منها إلى بغداد فيعيش في جوار نجله فيصل ، الا ان الباخرة سارت به الى المنفى في جزيرة قبرص .

ويتفق المؤرخون على انه مهما كانت الأسباب التي أفضت بالحسين إلى هذه النهاية المؤلمة ، فان احدها هو الصلابة التي استند اليها في التمسك بآماله ومعتقداته ، ومنها رفضه ان يسلم نفسه إلى ما كان يعده خيانة . ولا ريب في انه لو رضي ان يوقع المعاهدة ، في صورتها التي بلغتها في المراحل الأخيرة من المفاوضات ، لاحتفظ بعرشه ، ولربما أنهى أيامه متمتعاً بالحكم والطمأنينة ، غير انه ظل وفياً لمعتقده وضميره ، فتمسك بما اعتبره مسألة انصاف للشعب الذي يمثله ، وفي سياق ذلك نفّر منه حلفاءه ، حتى انه عندما وقعت الواقعة وجد نفسه معزولاً لا صديق له ، وهو يستقبل العاصفة وحيداً [1] .

والواقع ان بريطانية كانت تشعر منذ البدء انها في تعاملها مع الحسين انما تتعامل مع رجل معدنه من الفولاذ ويصعب عليها ان تكيفه كما تريد، وقد روى عبد الله بن الحسين ان لورنس أرسل اليه في بدء الثورة من يغريه بملك الحجاز « بحجة ان الوالد المرحوم عنود في فكره متمسك برأيه ، فقلت لرسوله – وهو الآن حي يرزق – قل لصاحبك هذا ان ابي سيدي وملكي وبعده الأخ الأكبر وبعده نجله، وسأكتفي انا بلقبي إلى آخر أيامي ، وأما هو فقد خدمني وخدم العرب اكبر خدمة بقوله ان والدك عنود متمسك برأيه، إذ يظهر انهم يطلبون من لا رأي له من الناس كي يعمل لورنس ما يشاء [2] » وقد ظل شعور بريطانية بذلك يتطور مع الأيام ، حتى ضاقت به ذرعاً وأصبحت تعده مثاراً للازعاج [3] .

---

١ – انظر خطاب قسطنطين يني في « ذكرى الثورة العربية » ص ١١

٢ – عبد الله بن الحسين : مذكراتي ص ١٤٠.

٣ – انظر يقظة العرب ص ٤٥٥

وفي هذا المنفى الموحش قضى الشيخ الجليل والبطل النبيل ، السنوات الأخيرة من عمره الحافل بجلائل الأعمال ، وقد زارته هناك وفود عديدة من أحرار العرب ، فرأته في معتقله أعظم منه في ملكه ، وهو معتصم بالصبر ، واثق بأن الأمة العربية التي ضحى بعرشه وحياته في سبيلها ، ستظل ناهجة نهجه حتى تنال حريتها الكاملة ووحدتها الشاملة .

ويروي السير ستورس الذي كان آنئذ حاكما لجزيرة قبرص ، في معرض العبرة ، كيف وقف على ضريح كامل باشا الذي شغل أربع مرات منصب الصدر الاعظم للامبراطورية العثمانية ، في مقبرة جامع صغير بنيقوسيا ، ثم يقول :

« ولكن كامل باشا على الأقل نفي إلى وطنه ، بينما الحسين بن علي ملك العرب وخليفة المسلمين ، والد ملك العراق وأمير شرقي الأردن ، عاش لكي يفقدمملكته في الحجاز ، ثم تنقله دارعة انكليزية من خليج العقبة ، ويسمح له بالإقامة فيجزيرة منعزلة حيث لا أحد يعلم عنه شيئاً ، ولا هو يعلم عن أحد ، معتزلا في حياته ، فكان معضلة للسياسيين العظماء ، أما الصغار فلم يعرفوا شيئاً عنه .

« ولقد وجدته في بيت صغير منفرد ، يحيطه ابنه الأصغر زيد بولاء بنوي قلبي . وقد أثرت فيّ رؤية هذا الأمير الشاب الذي قاد الفيالق في الحرب ، وقضى سنة في جامعة « باليول » بانكلترة — يقرأ لوالده شرح البخاري ويرعاه ليلا ونهاراً .

«واشيع ان الملك حسين أحضر معه بضع مئات الألوف من الليرات الانكليزية ولكني كنت موقناً ان مبلغ المال أقل مما تقدره الاشاعة التي تعظم كل صغير[1] وقد انقصته بالتدريج الدعايات والعرائض التي كان يقدمها لأجل قضية فلسطين .

« وكانت الحكومة الانكليزية قد أعدت هدية للملك حسين — حينما كان لا يزال حليفاً مستقلا — وهي وسام الصليب الكبير ، وقبل ان يصله أضاع بلاده وتاجه ودياره . ولقد رأيت كثيراً من تقلبات الحظوظ ، ولكني لم أعرف في

---

١ — يتناقض هذا القول مع ما رواه أمير اللواء محمد علي العجلوني عن الازمة المالية الشديدة التي كان الحسين يعانيها في قبرص ، وكيف كان يتدبر أموره المعاشية من مساعدات يتلقاها من نجليه عبد الله وفيصل (أنظر الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ٢٢٠).

حياتي أبداً ذلك الحد الذي وصلت اليه سخرية القدر حينما قلدت الوسام في دار الكتب القبرصية العامة، لذلك الشيخ الذي لايزال – رغم خسارته السلطان – عظيماً مبجلاً[1] »

وهكذا كان « شرف المنفى » كما يقول الريحاني « أنصع من شرف الملك ».. ويتابع الريحاني قائلاً :

« .. وفي صفحات المجد صفحة قدسية

لا مساومات ولا معاهدات وأنت في خطر يا فلسطين ..

في سبيلك غضبة تذهب بملك ، ومن أجلك وقفة تلوها المنفى

صفحة قدسية يسطرها التاريخ ، تاريخ العرب ، بأنامل الحمد والفخر والجلال ..

في هذه الصفحة عرش الحسين الوطيد

في هذه الصفحة صك الخلود ، خلوده

في هذه الصفحة رسالة للعرب في كل مكان ،

وفي الرسالة : العهد المقدس ، عهد التضامن القومي .

هو رأس الآمال العربية التي تزهر كالربيع كل عام ،

تزهر كالربيع ، وهل تثمر كالصيف ؟

آمال هي القلوب بعينها ، بل هي بأجمعها قلب الأمة النابض الخالد .

وماذا تفعل الأمم الصائلة بقلب امة ناهضة ثائرة ؟

ولكنها أمة مغبونة ، علمها الله البيان ، وأعطاها رمحاً بلا سنان ! .. »

ولما أقعد المرض والشيخوخة ذلك الأسد المبعد عن عرينه ، أذن الأنكليز في أواخر سنة ١٩٣٠ (١٣٤٩ هـ) بسفره إلى عمان ، وجاء نجلاه عبد الله وفيصل فصحباه اليها ، فقضى الأيام الباقية من حياته العظيمة مستسلماً للمرض الذي شل حركته وهد قواه وأنحل جسمه ، وقد شحب وجهه الوسيم وابيض شعره الغزير ، وغارت عيناه في محجريها فما ترسلان إلا وميضاً خافتاً هو التعبير الصامت عن دفين الألم والغيظ الكظيم .

---

١ – الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى ص ٢١٧ نقلا عن :
Orientations, By Sir R. Storrs

وما هي إلا شهور معدودة ، حتى وافتـــه منيته في حزيران (يونيه) ١٩٣١ (١٣٥٠هـ) فلاقى شيخ قريش وجهربه شامخ الرأس عزيز النفس موفور الكرامة، وحمل إلى بيت المقدس ، تلك البقعة المطهرة المباركة التي افتداهـــا بعرشه وملكه وحياته لتبقى عربية خالصة أبد الدهر ، ودفن في المسجد الأقصى ، مشيعاً بدموع الملايين من العرب الذين عاش لهم ، وناضل من أجلهم ، وقضى في سبيلهم .

وقـــد رثاه امين ناصر الدين وفؤاد الخطيب وشفيق جبري وابراهيم طوقان واسكندر الخوري وبدر الدين الحامد والجواهري وشبلي الملاط ومما قال شوقي في رثائه :

لك في الأرض والسماء مآتم — قام فيها أبو الملائك هاشم
عبرات الكتاب فيها جوارٍ — وعيون الحديث فيها سواجم
قعد الآل للعزاء وقامت — باكيات على الحسين الفواطم
قم تحدث أبا عليّ الينـــا — كيف غامرت في جوار الأراقم
لم تبال النيوب في الهام، خشنا — وتعلقت بالحواشي النواعم
هات حدث عن العوان، وصفها — لا ترع في التراب، ما انا لائم
كلنا وارد السراب ، وكل — حمَل في وليمة الذئب طاعم
قد رجونا من الغنائم حظاً — ووردنا الوغى فكنا الغنائم
وظللنا من الوعود نشاوى — لم تفق أمة ولم يصح حاكم
قد بعثت القضية اليوم ، ميتاً ، — رب عظم أتى الأمور الأعاظم
انت كالحق ألـّف الناس يقظان وزاد أئتلافهم وهو نائم
انما الهمة البعيدة غرس — متأتي الجنى بطيء الكمائم
ربما غاب عن يـد غرسته — وحوته على المدى يد قادم
حبذا موقف غلبت عليه — لم يقفه للعرب قبلك خادم

وقال شاعر الأردن مصطفى وهبي التل في رثاء العاهل الكبير :

لانت قناتك للمنون — وقلّما كانت تلين

فعفا الحمى ممن أعزّ وغادر الأسد العرين
وبقلب عنوان العروبة والحجى ، سكن الوتين
أمحرّر الشعب المضيم وناشر الحق الدفين
ومقيل عثرة أمة أعيا النهوض بها القرون
ابن الملوك أبو الملوك وسبط خير المرسلين
يسطيع ان يودي به داء وتأسره منون ??

علمتنا كيف الفناء بحب امتنا يكون
وأعزّ ما ملكت يدان وما يعزّ المالكين
في نصرة المثل العلية كيف يجدر ان يهون
غامرت بالتاج الثمين تصون بالعرش المكين :
المسجد الأقصى وحق بني ابيك بفلسطين
لا غرو أولى القبلتين ان اصطفتك لها خدين
ما زلت بين حماتها في السابقين الأولين

أأصبت أم اخطأت في مسعاك نهج المحسنين ؟
شأنان لن يعنى بمثلها مؤرخك الرصين
يكفيه انك كنت عفّ النفس وضّاح الجبين
لم تُشرَ إذ (بلفور) سامك موطناً : دنيا بدين

صلّى الإله عليك يا ابن الطيّبين الطاهرين
وعلى الذين قضوا بعهدك للعروبة عاملين
في ساحة الشهداء من فيحاء دينهم تدين
في الرمل من بيروت، في عكاء، في مضض السجون
في الغوطتين، وفي العراق، وفي مشارف ميسلون
شمّ المعاطس ، بجدهم في المجد منقطع القرين

إن الحسين لفكرة صدر البقاء بها ضنين
لا بالغ كرّ الردى منها ولا مرّ السنين

فليتق الله الألى هرعوا اليه يؤبنون
ان الرثاء به أحق من الفقيد الفاقدون

وانتظر السير مكماهون سبع سنوات كاملة انقضت على وفاة أبي العرب ، ثم أذاع بياناً حاول فيه الافتراء على الراحل العظيم ، فقد أرسل في ٢٣ تموز (يوليه) ١٩٣٨ (١٣٥٧ هـ) كتاباً إلى جريدة التيمس اللندنية قال فيه :

« تواترت الاشارات إلى تعهدات مكماهون ، ولا سيما ما يتعلق منها بفلسطين وقد ورد لها تفسيرات من جانب اليهود ، وأخرى من جانب العرب ، وقد قيل لي ان متابعة سكوت صاحب التعهد قد يساء فهمه ، فلذلك أرى من الواجب الادلاء ببيان في الموضوع حاصراً كلامي الآن في المنطقة المختلف عليها ، وهي ذلك الجزء من سورية المعروف باسم فلسطين ، أكان منوياً أو غير منوي ادخاله في في الأراضي التي ضمن تعهدي للعرب الاستقلال فيها .

« فأنا اشعر بوجوب التصريح وأصرح نهائياً وبكل تأكيد بأنه لم يكن في النية عند تأدية ذلك التعهد ، للملك حسين ادخال فلسطين في منطقة الاستقلال الذي وعد به العرب ، وكنت مقتنعاً كل الاقتناع وقتئذ بأن الملك حسين كان فاهماً ان فلسطين غير داخلة في ذلك التعهد » .

وقد رد الأمير عبد الله بن الحسين على مكماهون بكتاب أرسله يوم ٢٥ تموز (يوليه) سنة ١٩٣٨ إلى المندوب السامي بفلسطين طالباً منه اذاعته وابلاغه إلى الحكومة البريطانية ، ونرى من وفاء البحث ان نتم به هذه السيرة المعطرة باعراف البطولة والتضحية والمجد :

عزيزي صاحب الفخامة :

« انه لم يدر لي بخلد البتة ان يجرؤ احد فيعرب عن رأي المرحوم والدي الملك بعد انتقاله من هذه الدار الفانية إلى جواره سبحانه، حتى سمعت البارحة في الاذاعة عن لسان السر هنرى ماكماهون ان العهود المقطوعة لوالدي لم تتناول فلسطين ، وأن المرحوم نفسه كان يعرف ذلك . ولما كان لتلك التهمة خطورتها ، وكنت الوحيد الباقي من انجاله ، كان حقاً عليّ ان اذود عنه واسوغ لنفسي النطق بلسانه فأصرح

بأن تلك العهود كانت تشمل فلسطين ، وان المرحوم والعرب الذين كانوا على تلك العقيدة الراسخة لم يساورهم فيها ريب ، فوق اني كنت أعلم ذلك عنه في حياته ، وان فيما دار من مراسلاته مع السر مكماهون ما يعزز حجتي ، ويؤكد صوابها ، ولقد كنت في ذلك الوقت كاتب يده وامين سره واتولى تلك المذكرات إلى ان انجلت الثورة .

« اني لأرجو بعد ان تطلعوا على بياني هذا ان تتكرموا فتعملوا على تصحيح تلك الاذاعة بمثلها حرصاً على الحقيقة وعلى التاريخ ووفاء لعظيم من عظمائه ، ان كان قد انتقل فان على الذين بعده من امثالنا من آله ومن اصدقائهم اجمع ان يدفعوا عنه ما لا يمت اليه بصلة ، وفي الاخص ما يختص بكرامته القومية ، واني تأيداً لما ألمعت اليه اذكر ما يأتي :

١ ـ لقد كانت مسألة الحدود عقبة كؤوداً في المراسلات التي دارت بين المرحوم والدي والسر هنري مكماهون نائباً عن بريطانيا ، وعلى الرغم من كل محاولة لاقناعه بالعدول عنها أو تعديلها فقد أصر على التمسك بها والبت فيها ، فقد قال مكماهون في كتابه المرسل للشريف حسين ، بتاريخ ١٩ شوال سنة ١٣٣٣ « اغسطس سنة ١٩١٥ » ما يأتي :

« اما فيما يتعلق بالحدود فقد يكون بحثنا في مثل هذه التفاصيل ـ والوقت قصير والحرب قائمة ـ سابقاً لأوانه ، خاصة وان تركيا مـا تزال تحتل قسماً كبيراً من الاراضي التي اشرتم اليها في اقتراحكم احتلالاً تاماً » .

أما تلك الاراضي ، التي يشير اليها السر مكماهون فهي التي وردت في كتاب والدي اليه ، مع علي افندي اصفر وفي المادة الاولى منه ما يلي :

١ ـ ان تعترف انكلترة باستقلال البلاد العربية من مرسين ـ ادنة حتى الخليج الفارسي شمالاً ، ومن بـلاد فارس حتى خليج البصرة شرقاً ، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوباً ، يستثنى من ذلك عدن التي تبقى كما هي ، ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سيناء غرباً » .

أما جواب والدي على الكتاب السابق للسر هنري مكماهون فكان بتاريخ ٢٩

شوال سنة ١٣٣٣ (١٩ ايلول سنة ١٩١٥) وفيه ما يأتي :

« ان مصالح ابناء ديانتنا كلها تطلب الحدود التي ذكرتها لكم » .

ثم ان جلالته اشار في ذلك الكتاب بكلمات شديدة اللهجة الى «البرودة »والى « التردد » اللذين ظهرا في كتاب مكماهون ، فيما يتعلق بالحدود ثم قال جلالته :

« ان هذه الحدود ليست لرجل واحد نتمكن من ارضائه ومفاوضته بل هي مطلب شعب ، يعتقد ان حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد » .

وبعد أن أفاض في هذا الموضوع عن « اعتقاد » العرب لئلا « تعارضهم » انكلترة أو احدى حليفاتها فيما بعد ، قال ما نصه :

« ولذلك نرى من واجبنا أن نؤكد لكم اننا سنطلب اليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسة في بيروت وسواحلها » .

ولقد أجاب مكماهون على ذلك بكتاب منه مؤرخ في ١٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٣ (٢٤ تشرين الأول سنة ١٩١٥) فقال :

« انه يؤسفني انكم لاحظتم في كتابي الأخير ، وحديثي عن قضية الحدود شيئاً من البرودة والتردد . وبعد الاعتذار عن ذلك قال :

« فأرسلت كتابكم إلى الحكومة البريطانية ، وانه يسرني ان أرسل اليكم البيانات التالية التي أثق كل الثقة انها تفوز برضاكم: ان مرسين واسكندرون وبعض الأقسام السورية غربي دمشق وحمص وحماة وحلب لا يمكن ان يقال عنها انها عربية محضة » .

ثم قال :

« اما الأراضي التي تستطيع انكلترة العمل فيها بملء الحرية دون ان توقع ضرراً بحليفتها فرنسة ، فان لي السلطة التامة باسم حكومة صاحب الجلالة ان أعطيكم التأمينات التالية جواباً على كتابكم :

١ — ان انكلترة مستعدة — على أساس تلك التعديلات — ان تعترف باستقلال العرب ، وتقديم المساعدة لهم في الحدود التي اقترحها شريف مكة » إلى آخر تلك

التعهدات .

ومن هذا ترون فخامتكم ان المقصود بتلك الحدود إنما كان « سواحل لبنان » الذي ندعه لفرنسة أي بيروت وسواحلها « على أمل المطالبة بها بكل تأكيد بعد انتهاء الحرب » . وقد قبل مكماهون ارجاء البحث في تلك الأنحاء إلى فرصة أخرى وشكر الملك العربي على ما أظهره من حرص على دوام التحالف بين الحلفاء . ثم قال في كتابه المؤرخ في ٩ صفر سنة ١٣٣٤ (١٣ كانون الأول سنة ١٩١٥) ما يلي :

« اما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانية قد فهمت كل ما ذكرتم ودونت ذلك عندها بعناية تامة ، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسة داخلة فيها فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب».

وقد أكد جلالته ذلك في كتاب منه بتاريخ ٢٥ صفر سنة ١٣٣٤ (١ يناير سنة ١٩١٦) وأجابه عليه مكماهون بتاريخ ٢٤ ربيع الآخر سنة ١٣٣٤ (٣٠ يناير سنة ١٩١٦) بقوله :

« اما ما يتعلق في الجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم في تجنيب كل ما من شأنه الاساءة إلى تحالف انكلترة وفرنسة » .

ومن ذلك ترون ان فلسطين لم يكن في عروبتها شك ، ولم ينكر ذلك عليها أحد ، وان فرنسة لم تكن تطالب بها . ثم انها من البلاد التي تستطيع انكلترة العمل فيها بملء الحرية دون ان توقع ضرراً بحليفتها فرنسة .

واني لأرجو ان تكون هذه البراهين الساطعة التي أدليت بها ناطقة مقنعة بأن فلسطين كانت داخلة في الحدود العربية التي اقترحها شريف مكة ، وان الجدال في أمر الحدود العربية إنما ثار على بيروت وسواحلها « رعاية للحليفة فرنسة » وان البت في أمرها أرجىء إلى فرصة أخرى لأنها لم تكن عربية محضة — على رأي مكماهون — ومنها مرسين واسكندرونة .

ثم ان هنالك أدلة ووثائق أخرى وهي تصريح ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ والبرقيات الصادرة من بريطانية إلى والدي وبرقية أخرى (وقد أثبت الأمير في كتابه نصوص

هذه الوثائق ، وهي منشورة في هذا الكتاب) .

وختم رسالته بقوله :

« ذلك ما عنّ لي الالمام به في هذه العجالة وأزيد عليه ان حق العرب في بلادهم فلسطين لا يحتاج إلى وثيقة أو وعد ، فهم أصحاب البـــلاد وأهلها منذ أجيال وفي اقامة متصلة فيها ، وانهم رغم ما اجتاحهم من حروب ، ونزل بهم من خطوب ، لم يفرطوا بها ، ولم يتحولوا عنها ، والذي أرجوه من فخامتكم الآن ، هو ان تثقوا ببطلان ما ذكرته الاذاعة من ان العهود المقطوعة لوالدي لم تتناول فلسطين وانه نفسه كان يعلم ذلك . فان الحقيقة التي لا مرية فيها هي ما صرحت به وأقمت الدليل عليه ،وهو ان فلسطين كانت داخلة في العهود المقطوعة لوالدي وانه لم يكن يعـــلم غير ذلك .

وأرجو ان تتفضلوا بطريقة من الطرق بتصحيح تلك الاذاعة التي نحتج عليها، أو ارشادنا إلى ذلك لنقوم به بالذات ، رعاية لحرمة الأموات وحرصاً على حقائق التاريخ » .

الفصل السابع والعشرون

بين يدي التاريخ

كانت الثورة العربية منعطفاً تاريخياً في حياة العرب ، استأنف التاريخ العربي فيه سيره بعد أن انقطع عدة قرون استطاع الفاتحون أن يهدروا خلالها كثيراً من القيم المادية والفكرية ، ولكنهم عجزوا عن هدر الروح العربي الذي بقي يضطرم تحت الرماد ، فما ان واتته الفرصة حتى تعالى منه اللهب وسطع نوره في الآفاق .

ودراسة هذه الثورة ضرورة قومية لكل عربي يتطلع إلى أفق العروبة الواسع، لأن هذه الثورة وما رافقها ومهد لهـــا من انتفاضات وبطولات وتضحيات ، هي الينبوع الأول للقومية العربية والوحدة العربية،وهي الناظم والموجّه لجميع حركات التحرر في البلاد العربية خلال النصف الأول من هذا القرن .

ونحن لا نستطيع أن نعي تاريخنا الحديث إذا لم نرجع إلى نقطة الانطلاق فيه، ولا يسعنا تقييم التطورات السياسية المعاصرة في بلادنا إذا لم نعرف حركة البعث الأولى ، وليس في امكاننا تنشئة الجيل الطالع على مُثُل الحرية والكرامة والتضحية إذا لم يؤمن هذا الجيل بأن في ضمير تاريخه وتراث شعبه ذكريات تعبق بأعراف البطولة، وأمجاداً تشرق بالعزة والكرامة، وصفحات تحفل بمواقف العطاء والفداء.

وانه لمن المؤسف أن يعمد بعض المؤرخين لا إلى إحياء ذلك الماضي المجيد، بل

إلى طمس ارثه العظيم ، وتشويه صورته الجميلة ، وتحطيم أولئك الأبطال السابقين الذين أضرموا شعلة الحريـــة في بلاد العرب ، وهي تعيش يومئذ في ظلام حالك وليل ممدود الرواق، فعبّدوا الطريق ، وبذلوا المهج والأرواح، واختلطت دماؤهم بكل حبة من تراب الوطن ، وكانوا الجسر الذي عبر منه أولادهم وأحفادهم إلى الحياة والنور .

وهكذا عاش الجيل الجديد وهو لا يعرف شيئاً عن حركات البعث التي انتظمت البلاد العربية في مطلع هذا القرن ، وتوجت بالثورة العربية الكبرى ، ثم كانت الثورات التحررية في سورية والعراق والأردن وفلسطين امتداداً لها وقبساً منها . بل ان بعض أبناء هذا الجيل لينظر إلى تلك الحقبة وإلى أبطـــالها الميامين ، نظرة موغلة في الضلال ، بعيدة عن الانصاف والصواب .

ولا ريب في ان هـــذه النظرة الخاطئة الظالمة ، هي وليدة النزعات الاقليمية الدخيلة على الحركة العربية ، وصنيعة الحركات الشعوبية التي ترمي إلى بتر الجذور التاريخية للقومية العربية ، وتشويه كل حركة أصيلة سابقة لهـا ، لإيهام المأخوذين بذلك الضلال الفكري انها الحركات التي بها يبدأ التاريخ !..

ولكن عبثاً تحاول السحب العـــابرة ان تطمس نوراً يضيء وتطفىء كوكباً يتألق ، فالحق لا يزيله افتراء أو تضليل ، وسوف يشع النور من تلك الصفحـات الخالدة التي سطرها جيل الفداء بكل حبة من قلبه وكل نبضة من دمه، يوم لم يكن الجهاد مآدب وحفلات ، وخطباً تصفق لها الجماهير ، وعرضاً على شاشة التلفزيون ، بل كان تحدياً للموت بكل شكل ولون ، وتعرضاً للمنافي والسجون ، واقتحامـاً للأهوال والأخطار . في ذلك الجو الرهيب تنادى أولئك الأبطال إلى الجهـــاد والكفاح،وتنافسوا في البذل والتضحية،وتسابقوا إلى الاستشهاد على مذبح الحرية، فأيقظوا الأمة من السبات ، ومكنوا في نفوسها محبـة الاستقلال والاستماتة في سبيله . ولقد وقفوا في وجه الاستبداد التركي، ثم وقفوا في وجه الاستعمار الفرنسي والبريطاني ، فقضى بعضهم شهيداً ، وبعضهم ما يزال في الميدان .

لقد كانت ثورة العرب على الدولة العثمانية واجبـــاً قومياً يتعلق بمصير الأمة

العربية كلها ، وواجباً ذاتياً يتعلق بمصير كل فرد من أفرادها ، بعد ان استفحل طغيان هذه الدولة ، ووضعت خطتها الجهنمية لإبادتهم والقضاء على قوميتهم ، وخنق براعم النهضة قبل أن تزهر وتؤتي ثمارها . « ولولا نشوب الثورة العربية تحت راية الحسين – كما يقول عزة دروزة – لاستمرت المأساة واستفحلت ، وأكلت أضعاف ما أكلت من رجال وشباب ، ولكانت عملية النفي والتشريد اتسعت دائرتها اتساعاً خطيراً [1] » .

فالثورة كانت ضرورة حتمية ، ولو لم يثر العرب بعد الاضطهاد الذي عانوه والامتهان الذي تذوقوا مرارته ، وبعد أن شاهدوا شبانهم يُعلـّقون على المشانق ، وشيوخهم يشردون في العراء، وأطفالهم يموتون جوعاً ، ومظاهر قوميتهم و كرامتهم تداس وتمتهن ، لكان معنى ذلك انهم قد استطابوا الذل والهوان ، واستناموا للاستبداد والاستعباد ، ولم تبق فيهم روح تثور وضمير يحتج وإرادة تدفع إلى المقاومة وتهيب إلى الجهاد . ولا سيما بعد ان ثارت جميع الأقوام التي تسلطت عليها الدولة العثمانية وسيطرت على مقدراتها في أوربة وآسية ، ولم يبق راضياً مستكيناً سوى العرب .

لقد كانت الثورة واجبة من قبل اعلان الحرب، ثم تضاعف هذا الواجب وازداد خطورة وأهمية ، حين دخلت تركية الحرب إلى جانب ألمانية ، مراهنةً بذلك على الجواد الخاسر ، وغدا من الواضح ان بلادها ستكون نهبة للمنتصرين ، وان هؤلاء المنتصرين سيعدون العرب أعداء لهم فيستعمرون بلادهم استعمار الغالب للمغلوب ، وكان التحرر من براثنهم في هذه الحالة من أشق الأمور . فمن الخير للعرب إذن ، وقد قامر الترك بمستقبلهم على هذا الشكل ، ان تتوجه كتائبهم إلى النضال من أجل حقهم في البقاء بدلاً من أن تساق إلى القتال في جبال القفقاس والموت في مضائق الدردنيل ، ومن واجبهم اعلان الثورة في سبيل حريتهم وقوميتهم ، حتى ولو لم تكن هنالك أية ضمانات أو عهود ، فكيف بالحسين وقد أغدقت عليه بريطانية وهي

---

١ – حول الحركة العربية الحديثة ج١ ص ٤٢

الدولة الكبرى بين دول الحلفاء ، الوعود السخية التي تحمل في طياتها كل ما يصبو اليه وقومه من استقلال بأمرهم وتوحيد لكلمتهم وجمع لشملهم وعزة لقوميتهم، بعد مئات السنين من خضوع الأمة العربية للمتغلبين المتسلطين .

انها محاولة انقاذ لشرف العرب وكرامتهم ومستقبلهم ، غـامر فيها الحسين بنفسه وأولاده وعشيرته ، بعد أن نال أكثر ما يمكن أن يناله رجل لبلاده ، في ظروف مماثلة لظروفه ، من دول كان النصر سيخفق على ألويتها سواء أشارك العرب في الحرب أو لم يشاركوا فيها . وما أظلم ان يأتي ناقد بعد خمسين سنة صاخبـة بالأحداث حافلة بالمفاجـآت ، وقد تطورت الأوضاع الدولية ، وتغيرت المثل والمفاهيم ، وأصبحت للعرب مكانة مرموقة وكلمة مسموعة ، فيناقش تلك الوعود، ويحاسب الحسين على ما قال وفعل ، مشوهاً الحقائق ومختلقاً الافتراءات لغير سبب يوجبها أو حجة تسندها ، وهو جالس وراء مكتبه راغداً مطمئناً ، دون أن يُدخل في حسابه أو يضع في تقديره ، العوامل الدولية والتاريخية ، وظروف الزمان والمكان ، ناسياً ان الحسين لم يكن يملك من القوى سوى قلة من الأنصار تعيش في رهبة الحصار وقلة الذخيرة ونفاد القوت ، ويكفي أن تغلق عليها بريطانية منافـذ البحر حتى تبيد .

ومن الواضح أن منشأ المآخذ المزعومة التي تؤخذ على الحسين كون بريطانيـة قد حنثت بالعهود التي قطعتها له ، ولا ندري ما هي جريرة الحسين في ذلك ، ومتى كان القتيل يؤخذ بجرم القاتل ؟ أما القول بأنه كان على الحسين أن يعرف سلفاً ان الانكليز لن يفوا بوعودهم ، فهذا قول ينطبق على جميع الاتفاقات والمعاهدات التي عقدها العرب أو غيرهم في سائر العصور . ولم يكن من واجب الحسين أن يفترض هذا الافتراض ، بل كان من واجبـه ان يعلن الثورة التي تعيد للعرب شرفهم وكرامتهم وشخصيتهم والتي ما كان أي عربي آخر بقادر على القيام بها ، وأن يدعمها بما يستطيع من عهود ، ولقد قام بهذا الواجب على أكمل وجه ، وبذل جهده الجاهد في تذليل الجامح وتسهيل الوعر ومصانعة العاصفة ، وان أكبر المتشدقـين بالوطنية والقومية وهم منها براء ، ما كانوا يستطيعون ان يفعلوا أكثر من هذا ، بل

ما كانوا يستطيعون أن يفعلوا حتى هذا . وقد رأينا العرب يغفرون لأناس بحجة ان بعض الظروف لم تساعدهم ، ولا يغفرون لآخرين مع ان جميع الظروف كانت مناوئة لهم . ومع ذلك فقد ظل الحسين يلاحق البريطانيين للوفاء بالعهود التي قطعت له ، دون أن يكون لديه من مصادر القوة التي تدعم حقه غير القوة المعنوية الكامنة في عدالة قضيته ، ومثل هذه القوة ما كانت لتستطيع السيطرة على جو فرساي وسان ريمو . وما كان الحسين في ذلك كله بالساعي لمجد يفيده أو مال يصيبه ، وإنما كان همه ومنى نفسه جميعاً أن يوقظ ديار العروبة من رقادها الطويل ، وأن يحطم ما ترسف فيه من أغلال الظلم ، ولقد جنت العروبة من نضاله خيراً كثيراً ، وما جنى من ذلك إلا مجابهة الخطر ومواجهة التشريد والهوان .

ولا شك في ان العرب لو لم يقوموا بثورتهم لما أمكن الحيلولة دون انتصار الحلفاء وهزيمة الأتراك ، فالثورة العربية لم تكن حاسمة التأثير في مجرى الحرب ، وإنما كانت معاونة ورافدة ، لأن الميدان الرئيسي إنما كان في أوربة ، وما كانت تركية لتستطيع الاستمرار في القتال بعد هزيمة ألمانية والنمسة . ولو حدث هذا دون إعلان الثورة العربية ، لكانت بلاد العرب مسرحاً لاستعمار أشد هولاً مما عانوه بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى .

ورب قائل ان تحالف العرب مع بريطانية قد أدى إلى احتلال بلادهم من قبل الانكليز والفرنسيين ، فلم يزد الأمر على ان استبدلنا استعماراً باستعمار . وهذا تضليل للأمة وتحريف للحقيقة والتاريخ . فان الاحتلال كان واقعاً وحتمياً – بعد انتصار الحلفاء – سواء تحالف الحسين مع بريطانية أو لم يتحالف ، ومن المؤكد ان تحالفه معها قد أدى إلى اضعاف وطأة هذا الاحتلال ، وأعطى العرب فوق حقهم الطبيعي في الحرية والاستقلال ، حقاً مكتسباً بوصفهم حلفاء ومقاتلين إلى جانب الدول المنتصرة ، وقد أسهموا في هذا الانتصار ، كما كانت الوعود التي بذلت له سلاحاً قوياً في نضالهم انتفعوا به في النقاش والجدال والمفاوضة ، وفي اكتساب تأييد الرأي العام العالمي ، وفي نيل ما نالوه بالتالي من أهدافهم القومية في حقبة هي ولا شك حقبة قصيرة إذا قيست بعمر الدول والشعوب .

والواقع ان الثورة العربية كانت أول وأشمل نهضة قومية في تاريخنا الحديث ، وقد جاءت في مطالع هذا القرن لتثبت ان مقومات القومية العربية ظلت صامدة في وجه التحديات التي جابهتها والمحن التي عانتها والقوى المدمرة التي تعرضت لها عبر تاريخ طويل ، منذ أن سقطت بغداد بأيدي المغول سنة ١٢٥٨ (٦٥٦ هـ) إلى ان نصبت مشانق الأحرار على يد جمال باشا في بيروت ودمشق سنتي ١٩١٥ و١٩١٦ (١٣٣٤ و ١٣٣٥ هـ) ، وكانت برهاناً حياً على وعي الأمة العربية لشخصيتها ووحدة مصيرها وعمق الروابط التي تشد جميع خلاياها بعضها إلى بعض .

وإذا كانت القومية العربية قد بدأت بالحركة الرومانتيكية الأدبية التي عملت على احياء اللغة العربية والتاريخ العربي وتراث العرب الفكري ، ثم انتقلت إلى طور العمل السياسي على أيدي الجمعيات السرية والعلنية ، فقد دخلت بفضل الحسين وأبنائه دور الكفاح المسلح ، وخرجت من حيز الأمل إلى حيز العمل ، ومن نطاق النضال الداخلي إلى المسرح الدولي وميدان السياسة العالمية .

لقد استجاب الحسين لنداء الأمة العربية ، واستجابت الأمة العربية لنداء الحسين ، فكانت الثورة العربية التي ألهبت الصحراء وأحالتها ناراً متقدة ، معجزة قومية كبرى أعلنت وجود العرب وأعربت عن ارادتهم . ولم يكن عجيباً ومستغرباً أن تحقق هذه الثورة بعض أهدافها وتخفق في تحقيق البعض الآخر . وإنما كان العجيب والمستغرب مجرد ظهورها على مسرح التاريخ والعرب يومذاك محاطون بالأعداء والطامعين ، تواجههم أحداث جسام ، وتحيط بهم دول لا ينضب معين قواها ومواردها ، وهم محرومون من جميع أسباب القوة شعباً وجيشاً وسلاحاً ومالاً وتنظيماً وخبرة .

ومع ذلك فقد ناضل أبطال الثورة ، في تلك الظروف الشاقة وبتلك الامكانات الضئيلة ، نضال الجبابرة ، ضد خصومهم وحلفائهم على السواء ، وكانت بريطانية تتعاون معهم وتخشاهم في آن واحد ، وكان مكماهون أول من أنذر حكومته بأنها إذ تؤيد القضية الوطنية في بلاد العرب إنما « تعمل عملاً محفوفاً بأعظم الأخطار وأشد المهالك ، لأن حرية العرب قد تنمو في أحد الأيام فتصير الغول الذي افترس

صانعه في رواية فرنكشتين [١] » . وكانت فرنسة ترى ان انتصارات الثورة تثير في العرب نزعات الوحـــدة وأماني الاستقلال ، فيجب أن يحدوا منها ما وسعهم ذلك [٢] ولا تكتم تخوفها من ان تتصل شرارات النهضة العربية بالملايين من رعاياها العرب في شمال أفريقية [٣] . فكانت الدولتان الحليفتان تضنان على رجال الثورة بالسلاح الحديث، وتقتران في العتاد تقتيراً كبيراً، فلا تعطيام منه إلا ما تعتقدان بأنه ضروري للحركات العسكرية المباشرة، وقد تبين ان بعض هذا السلاح والعتاد كان قد استعمل في الحرب الروسية اليابانية سنة ١٩٠٥ (١٣٢٣ هـ) وقد انفجر قسم كبير منه بأيدي مطلقيه ، وكان يدفعها إلى ذلك خوفها من أن تنتهي الحرب ولدى العرب جيش قوي منظم ومقادير وافية من السلاح ومبالغ كافية من المال ، وكثيراً ما كان الحلفاء يتركون الثـــوار العرب في الظروف العصيبة تحت رحمة الأقدار منتحلين شتى الأعذار لتأخير المساعدات والنجدات [٤] .

وبعد استيلاء الجيش العربي على العقبة خفف الانكليز من ميلهم إلى مساندة الثورة ، واتجهت خطتهم إلى إبقاء هذا الجيش في مواقعه الراهنة بالحجاز ، ولكن رجال الثورة رفضوا ذلك ، وأصروا على متابعة الزحف إلى الشمال ، واصطدموا بالضابطين الانكليزيين لورنس وجويس اللذين كانا يحاولان توجيه الجيش العربي نحو الجنوب ، ولم توافق القيادة الحليفة على مطلب قادة الثورة إلا عندما أيقنت بأن رفضها ذلك سيؤدي إلى تمرد الجيش العربي [٥] . ومن ثم بدأ بين فيصل بن الحسين

---

١ ـ عبد الرحمن الشهبندر : لورنس في الميزان ، المقتطف عدد يونيه ١٩٣١

٢ ـ Le Hedjaz dans la guerre mondiale, P. 96

٣ ـ يقظة العرب ص ٣٩٢ ، موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٢٥٢

٤ ـ للتوسع في هذا الموضوع انظر : مذكراتي على هامش القضيـــة العربية ص ٨٨ ، ذكريات العجلوني ص ٣٨ و٦٣ ، يوم ميسلون ص ١٠٥ ، الثورة العربية الكبرى ج١ ص ٢٧٥، أعمدة الحكمة السبعة ص ٣٤ و ١١٤ ، يقظة العرب ص ٣١٣ ، معارك الحرية فـــي سورية ص ١٤٤

٥ ـ انظر : ذكريات العجلوني ص ٥٦ ، أسرار الثورة العربية الكبرى ومأســـاة الشريف حسين ص ٢١٩ ، أعمدة الحكمة السبعة ص ١١٦

واللنبي تنافس شديد في الوصول إلى سورية ، وكان كل منهما يود أن يسبق الآخر في الدخول إلى دمشق .

وعلى الرغم من هذا كله فقد خرجت الحركة العربية من الحرب العظمى ظافرة، وغدت بفضل الثورة العربية قوة مادية محسوسة بعد ان كانت فكرة وخيالاً ، وأصبح لها وزنها وحسابها في المجال الدولي ، وكان من نتائجها المباشرة ان استقلت الجزيرة العربية استقلالاً تاماً ، وانحسر ظل الدولة العثمانية عن نجد والحجاز واليمن وعسير دون ان تتعرض لعدوان جديد .

وأراد فيصل بن الحسين أن يضع دول الحلفاء أمام الأمر الواقع ، فاتفق مع أبناء سورية على إنشاء مملكة دستورية مستقلة قامت على دعائم القومية ، وكانت أول دولة عربية وطنية في العصر الحديث ، واحتشد فيها العديد من الكفايات والمواهب العربية ، فغدت دمشق في حياتها الاستقلالية القصيرة دماغ الأمة العربية الناظم لحركاتها الوطنية والموجّه لها في سبيل قضية واحدة .

واستطاعت الحكومة الفيصلية على قصر أجلها وبرغم المتاعب الاقتصادية التي كانت تعانيها ، والآثار العديدة التي تركتها الحرب ، وتركة العهد العثماني البائد ، ان تسير في سبيل التنظيم والاصلاح سيراً حثيثاً ، وان تقوم بأعمال إنشائية رائعة ، وقد أولت التعليم عناية خاصة فأعادت فتح المدارس التي كانت في العهد العثماني ، ومنها مدرسة الطب التي نقلت إلى بيروت أثناء الحرب، وافتتحت مدارس جديدة، وأنشأت كلية الحقوق والمجمع العلمي العربي بدمشق ، وشرعت في ترجمة الكتب المدرسية المقررة ، وفي تعريب دواوين الحكومة [1] ، وأعدت صفوفاً خاصة لموظفي الحكومة تدربهم على الانتقال من التركية إلى العربية ، وخلقت نزعة استقلالية أصبحت فيما بعد باعثاً وملهماً للحركات الاستقلالية وثورات التحرر من الاستعمار الأجنبي [2] . وكان ذلك برهاناً حياً على حيوية الأمة العربية واستعدادها

---

١ ــ من أطرف ما يروى أن فيصل بن الحسين قد ألف لجنة لترجمة المصطلحات العسكرية من التركية الى العربية منذ كان يخوض المعركة ويعيش في مضاربه بالبادية (ذكريات العجلوني ص ٣٧) .

٢ ــ أنظر « العالم العربي » ص ٢١٤

للتقدم والتطور، ولكن من المؤسف انه لم يكن لدى فيصل بن الحسين الجيش الذي يدعم هذه المنجزات ويحميها .

وقد كان نفوذ الملك فيصل العامل الحاسم في خلق الدولة العراقية الحديثة التي كانت بريطانية تحلم بأن تنشىء فيها حكومة استعمارية برئاسة السر برسي كوكس تلحق بحكومة الهند الانكليزية وتكون من جملة مقاطعاتها [1] ، وقد بدأ تنفيذ هذه الخطة فعلاً، فألحقت حكومة العراق بحكومة الهند تتلقى منها الأوامر وترجع اليها في شؤونها ، وتدفقت جيوش الموظفين الهنود إلى العراق ، وجعلت العملة الروبية نقداً له ، وكان معنى ذلك انه صار مستعمرة لمستعمرة . إلا ان انتخاب فيصل بن الحسين ملكاً للعراق ، قد أزال شبح التابعية الهندية عنه ، وما زال جلالته يدأب بالسهر على مصالح العراق حتى صهر العنصريات المختلفة ووحد النزعات المتضاربة ، وتمكن بحكمته ولباقته ومساعدة القادة الخلص من إلغاء الانتداب على العراق وتحقيق استقلاله والاعتراف به في المجال الدولي ، ولم يغمض ناظريه في الوقت نفسه عن الأهداف الكبرى التي كانت تنزع اليها الحركة العربية .

وكانت الصهيونية ترغب في ضم منطقة شرقي الأردن إلى فلسطين،بحيث يشملها وعد بلفور الذي كرسه صك الانتداب ، فاستطاع عبد الله بن الحسين ببسالته وجرأته أن ينتزع هذه البقعة من الأرض العربية ، وأن ينتزع معها اعترافاً من بريطانية مؤيداً بقرار من عصبة الأمم بأن وعد بلفور لا يسري على شرقي الأردن، وهكذا أنشأ الملك الشجاع دولة عربية جديدة كانت على الدوام ملجأ لأحرار السوريين والفلسطينيين ، ومنطلقاً لنضالهم ضد الانتداب الفرنسي في سورية والانتداب البريطاني في فلسطين .

وهكذا يبدو بجلاء ان الثورة العربية قد حققت جانباً من أهدافنا القومية وحفزتنا إلى النضال من أجل تحقيق الجانب الآخر ، وإذا كانت لم توفق في تحقيق غاياتها الأساسية في الاستقلال التام والوحدة الكاملة ، فلأنها كانت تفتقر إلى القوة

---

١ ــ الثورة العربية الكبرى ج ٢ ص ٣ ، موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ٢١٣

المادية التي تدعم مثل هذه المطالب الكبرى ، فقد أجبرت دول الحلفاء على منح الدول العربية قسطاً من الاستقلال الذاتي لم تكن على استعـــداد لمنحه ، وعلى الاعتراف بحقوق كان من الممكن أن ترفض الاعتراف بها . ولم يكن لفرنسة وبريطانية مطامع قومية في بلاد الشام والعراق كالمطامع التي كانت لتركية، فحافظنا في ظل الانتداب على كياننا القومي ولغتنا القومية ، وما هو إلا ربع قرن حتى زال هذا الانتداب نتيجة لتنبه الوعي القومي وتعاظم النضال الوطني ، فاستقلت سورية ولبنان والعراق وشرقي الأردن ، ولو ظلت تركية تحكم هذه الأقطار لكان كيانها القومي ولغتها العربية مهددين بالزوال . وهذا ما جعل الأمير مصطفى الشهابي يقول في إحدى محاضراته بمعهد الدراسات العربية العالية في جامعة الدول العربية رداً على الافتراء الموجه إلى الثورة الكبرى وإلى قائدها الكبير : « وعلى الرغم من تقولات بعض المغرضين أو الجاهلين أو الخائنين، فالحسين وأولاده رجال الثورة المعروفون ، وجنودها المجهولون ، قد خدموا العرب خـــدمات عظيمة لا كفاء لها [1] » .

وما الثورات المتعاقبة على الاستعمار ، في سورية والعراق وفلسطين والأردن ، إلا امتداداً للثورة العربية الكبرى وتتمة لها ، ونتيجة لليقظة القومية التي أثارتها في النفوس والحماسة الوطنية التي أشعلتها في الصدور . ويتفق المؤرخون على ان المـدة الواقعة بين الحربين العالميتين ، تنقسم في البلاد العربية إلى قسمين غير متساويـين ولا متشابهين ، ففي الفترة الأولى وهي التي أعقبت الحرب مباشرة كانت الجهود الوطنية التي بذلت في مقاومة الاستعمار الأوربي تتسم بالعنف الثوري الذي يرجـع إلى ما تركته الثورة العربية في نفوس العرب من غليان وتوهج . أما الفترة الثانية فكان يغلب على الحركات الوطنية فيها السمة الدستورية . ويقول جورج كيرك : « ان الثورة العربية مهما قيل في أن قيمتها كعملية حربية كانت محدودة ، فان أهميتها في استنهاض الأماني عند المفكرين السياسيين من العرب تفوق كل تقدير ،

---

١ ـ محاضرات في الاستعمار ج ٢ ص ٣٠

وقد كان لذلك من النتائج ما تجلت آثاره عقب انتهاء الحرب مباشرة [1] » .

ان مبادىء الثورة العربية ، وبذورها التي ظلت تنمو في الأرض العربية الطيبة، هي التي جعلت وجود الاستعمار الغربي في البلاد العربية متعذراً بل مستحيلًا ، وهي التي مهدت للصراع معه والتغلب عليه . ويقول الدكتور أحمد قدري في ذلك : « ان التاريخ ليذكر الحسين بطلًا أول للثورة العربية الكبرى ، ومؤسساً أول للوحدة العربية المنشودة ، وباعثاً أول للشعور القومي ، ورسولاً أميناً للقضية العربية ، افتدى نفسه وملكه في سبيلها من غير أن يميل ذات الشمال واليمين أو تأخذه في الحق لومة لائم . وإذا كانت انكلترة قد خانت عهده ولم تبرّ بالوعود التي قطعتها له ، فما يلحقه من ذلك نقد أو غميزة ، إذ ما كان لأي كان سواه في مثل موقفه أن يستوثق بأكثر مما استوثق . ولطالما خانت السياسة ومارت وضربت بالمواثيق عرض الحائط . لقد وضع الحسين لأمته الأسس ، وفتح في وجهها السبل ، وعليها استكمال البناء [2] » .

*

لقد كانت ثورة مباركة بزغ معها فجر جديد استعادت الأمة العربية في نوره شخصيتها المستقلة ومكانتها في التاريخ ، بعد ان أبعدت عن مسرحه أربعمائة عام ، وكادت تقصى عنه إلى الأبد .. ثورة عربية خالصة انبثقت من ارادة الملايين في الحرية والوحدة والايمان برسالة القومية العربية الخالدة . ثورة قومية قامت على أساس العروبة الصافية الشاملة دون التفات إلى أي اعتبار اقليمي أو طائفي [3] . وهكذا غدت دمشق في عهد فيصل بن الحسين عاصمة العروبة كلها لا عاصمة سورية وحدها ، فضمت في تلك الأشهر الخالدة من تاريخ سورية رجالات الأمة العربية وخيرة شبابها ومفكريها من جميع الأقطار ، وأصبحت كعبة لكل وطني عربي ،

---

١ ـ انظر : موجز تاريخ الشرق الاوسط ص ١٩٧ و ٢٠١

٢ ـ مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى ص ٢٨٥

٣ ـ انظر ما كتبه يوسف الحكيم عن معاملة المسيحيين خلال الحكم الفيصلي بدمشق (سورية والعهد الفيصلي ص ٤٤) .

فتوطنها من زعماء العراق ياسين الهاشمي وجعفر العسكري ومولود مخلص وتوفيق السويدي وطه الهاشمي وثابت عبد النور واسماعيل نامق وتحسين العسكري وكثيرون من الضباط والمفكرين الذين بنوا بسواعدهم استقلال العراق .

واجتمع فيها من زعماء سورية الداخلية أمثال هاشم الأتاسي وابرهيم هنانو وسعد الله الجابري وصبحي بركات ومظهر رسلان واحسان الجابري وأحمد مريود والأمير فاعور والأميران بهجت ومصطفى الشهابي وبعض رؤساء آل الأطرش وزعماء جبل الدروز وحوران والبادية ، وكثيرون من المفكرين والأدباء علاوة على رجالات دمشق وشبانها المثقفين الذين شتتتهم الحرب وعادوا اليها من تركية ومصر وسائر الأقطار .

واستوطنها من رجالات سورية الغربية ولبنان رضا الصلح والأمير عادل ارسلان ورياض الصلح ورشيد طليع والدكتور سعيد طليع وتوفيق الناطور وسعيد حيدر وفؤاد سليم وسعيد عمون ورشيد الحسامي وكثيرون من آل بيهم ومعظم زعماء الدنادشة وبلاد العلويين وجبل عامل وبيروت وطرابلس .

وأقام فيها من رجالات سورية الجنوبية أمثال الحاج أمين الحسيني وعوني عبد الهادي وعزت دروزة ومعين الماضي والشيخ عبد القادر المظفر وأحمد حلمي وصبحي خضرا وكثيرون من آل الحسيني والتميمي وغيرهم .

وعاد اليها من مصر الدكتور عبد الرحمن شهبندر والشيخ كامل القصاب وخالد الحكيم واسكندر عمون وغيرهم من الشبان الذين اشتركوا في الثورة العربية فضموا جهودهم إلى جهود رجالات دمشق وشبانها أمثال شكري القوتلي ونبيه العظمة وخير الدين الزركلي وفخري البارودي .

وأقبل عليها من استانبول وأوربة يوسف العظمة وساطع الحصري ونجيب شقير وجميل مردم وكثيرون من الضباط والمفكرين السوريين والعراقيين الذين كانوا هناك ، كما ان زعماء الأمة العربية وكبار مفكريها وخيرة شبانها الذين لم يسعدهم الحظ بالاقامة في دمشق كعبد الحميد كرامي وسلطان الأطرش ويوسف السويدي والشبيبي والرصافي وبيهم والتميمي كانوا يكثرون من التردد عليها وقضاء أيام

وأسابيع فيها ، لمساعدة اخوانهم في مهمة تنظيم الأمة ، وتوطيد أركان الاستقلال ، ومفاوضتهم في الخطة التي يجب انتهاجها لتحقيق هذا الاستقلال ونشر لوائه في جميع الأقطار العربية [1] .

ويلاحظ عجاج نويهض ان تعبير « العالم العربي » لم يكن قد شاع وقت ثورة الحسين ولكن تعبير «الأمة العربية» كان يستعمل في معرض الفخر بالعزة القومية التاريخية ، وتراث المجد العربي ، ورمزاً إلى أشواق العرب نحو استئناف الدولة العربية في العصر الحديث . لقد كانت هناك أمة عربية فأمست شعوباً عربيـــة ، وكانت هناك أشواق إلى بني أمية وبني العباس فذابت هذه الأشواق وحلت محلها أشواق إلى دمشق وبغداد وبيروت والقدس والرياض ومكة وصنعاء ، ثم خلقت هذه الأشواق محاور لها في كل بلد وعلى ضفاف كل نهر من بلاد العرب ، وتمنطقت بحدود اقليمية ولدت بعد سنة ١٩٢٠ ، وابتدعت الأعلام المزركشة وأجوزة السفر المبرقعة ، ومرت عشرات السنين والعرب في صراع عنيف بينهم وبين تاريخهم ، هو يقول : اني تاريخ واحد ، وهم يقولون انك تواريخ [2] !..

والواقع ان تلك الثورة القومية الخالصة التي حررت العرب من النير التركي ، وجعلت من القومية العربية عقيدة حية متطورة ، وكانت باعثاً وملهماً للحركات الاستقلالية وثورات التحرر من الاستعمار الأوربي ، لم تنج من الظلم والتضليـــل والافتراء ، وبدلاً من متابعة الهدف الذي رسمته والطريـق الذي مهدته ، بنفس الروح والحماسة والاخلاص التي اتصف بها أبطالها الميامين ، أخذت بعض الأوساط السياسية تعمل لهدر طاقاتنا في التشكيك بذلـــك التراث وأولئك الأبطال ، وفي ايقاظ النعرات الاقليمية والنزعات الحزبية والتيارات الشعوبية التي وضعت في بعض الأحيان فوق الأهداف القومية الكبرى ، وأحياناً لمحاربة هذه الأهداف .

ولكن القافلة تسير برغم المحن والعقبات ، والقومية العربية أقوى من كل شعار

---

١ ـ أنظر مذكراتي على هامش القضية العربية ص ١٠٦ ، الوحدة العربية ص ١١٦

٢ ـ أنظر مقدمة ذكريات العجلوني ص ٧

مستورد وتيار هدام ، والرسالة العربية باقية على الزمان ينتقل مشعلها من يد إلى يد ويتوارثها جيل بعد جيل ، حتى تحقق الأمة العربية كل أهدافها وأمانيها في الحرية والوحدة والسيادة ، وتتطهر الأرض العربية من كل غاصب دخيل .

ويا مجاهد قريش ، إذا كانت حنيات القبر قد احتوت جثمانك الطاهر ، فان الانسان العربي ليطوي على ذكراك حناياه ، وان روحك العالية ومبادئك السامية، لا تزال خالدة على الدهر ، يسير العرب على هديها ، ويمضون في جهادهم على سناها ، حتى يكتمل النصر .

وما أشبه تراثك الهادي بالدوحة العظيمة ، الذاهبة شموخاً في أغصانها،والمتغلغلة عميقاً في جذورها ، فهي تنبض في كل عرق من عروق الوطن ، مروية بدماء كل شهيد صارع الارهاب والطغيان ، وقارع قوة الوحش بقوة الايمان .

وأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض !

مصادر الكتاب

١ – مصادر ومراجع عربية

ابرهيم أحمد العدوي (الدكتور) : قادة التحرير العربي في العصر الحديث
ابرهيم جمعة (الدكتور) : القومية العربية أصولها ومقوماتها
ابرهيم الحلو : كفاح القومية العربية في القرن العشرين
ابرهيم شريف (الدكتور) : الأطماع الاستعمارية في الشرق الأوسط
أحمد الشيباني : القومية العربية في النظرية والتطبيق
أحمد عزت الأعظمي : القضية العربية
أحمد قدري (الدكتور) : مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى
أديب اسحق : الدرر
اسطفان البشعلاني : لبنان ويوسف كرم
اسعد داغر : مذكراتي على هامش القضية العربية
أمجد طرابلسي : شعر الحماسة والعروبة في بلاد الشام
أمين الريحاني : ملوك العرب
نجد وملحقاته

أمين سعيد : الثورة العربية الكبرى
أسرار الثورة العربيـــة الكبرى ومأساة الشريف حسين
أنور الجندي : الشخصية العربية في الأدب والتاريخ
أحمد زكي الملقب بشيخ العروبة
أنور الرفاعي : جهاد نصف قرن لسمو الأمير سعيد آل عبد القادر الجزائري
أنيس المقدسي : الاتجاهات الأدبية في النهضة العربية الحديثة
أنيس النصولي : أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر
عشت وشاهدت
جبران مسعود : لبنان والنهضة العربية الحديثة
جميل صليبا (الدكتور) : الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام
حافظ وهبة : جزيرة العرب في القرن العشرين
خمسون عاماً في جزيرة العرب
حسن الحكيم : مذكراتي
حسين مؤنس (الدكتور) : الشرق الاسلامي الحديث
حسين النجار (الدكتور) : رفاعة الطهطاوي
حنا خباز : فرنسة وسورية
خير الدين الزركلي : قاموس الأعلام
زكي الأرسوزي : الأمة العربية ، ماهيتها رسالتها مشاكلها
ساطع الحصري : ما هي القومية
محاضرات في نشوء الفكرة القومية
البلاد العربية والدولة العثمانية
يوم ميسلون
سامي الكيالي : الحركة الأدبية في حلب

سليمان موسى : الحسين بن علي والثورة العربية الكبرى
لورنس والعرب
تاريخ الأردن في القرن العشرين (بالاشتراك مع منيب الماضي)
الثورة العربية الكبرى ، وثائق وأسانيد
سمعان الخازن : يوسف كرم في المنفى
طه شرف (الدكتور) : الأحداث العربية في تاريخها الحديث
طه الهاشمي : مذكرات طه الهاشمي
عادل الصلح : سطور من الرسالة
عبد الحميد البطريق (الدكتور) : الأمة العربية
عبد الرحمن البزاز (الدكتور) : هذه قوميتنا
العراق من الاحتلال إلى الاستقلال
عبد الرحمن الرافعي : شعراء الوطنية
عبدالرحمن الكيالي (الدكتور) : المراحل
عبد العزيز الدوري (الدكتور) : الجذور التاريخية للقومية العربية
عبد العزيز عزت (الدكتور) : الايديولوجية العربية والمجتمع العربي
عبد الله بن الحسين : مذكراتي
الأمالي السياسية
عبد الله العلايلي : دستور العرب القومي
عزت عبد الكريم (وآخرون) : تاريخ العالم العربي في العصر الحديث
علي حسن الخربوطلي : المجتمع العربي
علي الشرقي : ذكرى السعدون
علي محمود الشيخ علي : آراء في القضية العربية وذكريات عنها
عمر الدقاق : الاتجاه القومي في الشعر العربي الحديث
عيسى المعلوف : تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني

غالب العياشي : تاريخ سورية السياسي من الانتداب إلى الانقلاب
فارس زرزور : معارك الحرية في سورية
فايز الغصين : ذكرياتي عن الثورة العربية
فخري البارودي : مذكرات البارودي
فريدريك زريق : نهضة العرب ، التحرر فالاستقلال فالدولة
فؤاد حمزة : قلب جزيرة العرب
قدري قلعجي : السابقون
عبد الرحمن الكواكبي
مدحت باشا أبو الدستور العثماني
لويس عوض (الدكتور) : المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث
ماهر فهمي (الدكتور) : الزهاوي
مصطفى الشهابي : محاضرات في الاستعمار
محاضرات في القومية العربية
محب الدين الخطيب : الدكتور صلاح الدين القاسمي
محمد أسعد طلس : تاريخ الأمة العربية
محمد أنيس (الدكتور) : الدولة العثمانية والشرق العربي
محمد بديع شريف : النهضة العربية الحديثة
محمد جميل بيهم : قوافل العروبة ومواكبها خلال العصور
العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب
الحلقة المفقودة في تاريخ العرب
محمد حبيب أحمد : نهضة الشعوب الاسلامية
محمد حسين : الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر
محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية
محمد ضياء الدين الريس : الشرق العربي والخلافة العثمانية
محمد طاهر العمري : تاريخ مقدرات العراق السياسية

محمد عزة دروزة : حول الحركة العربية الحديثة
الوحدة العربية
محمد علي العجلوني : ذكرياتي عن الثورة العربية الكبرى
محمد الغزالي : حقيقة القومية العربية
محمد كامل ليله (الدكتور) : المجتمع العربي
محمد كرد علي : خطط الشام
محمد المبارك : الأمة العربية في معركة تحقيق الذات
محمود البهي (الدكتور) : الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي
محمود الشرقاوي : رواد النهضة العربية
ميخائيل الصباغ : سيرة ظاهر العمر
نجلاء عز الدين : العالم العربي
نجيب أرمنازي : سورية من الاحتلال حتى الجلاء
نجيب صدقة (الدكتور) : قضية فلسطين
نديم بيطار : قضية العرب الفلسطينية
نور الدين حاطوم (الدكتور) : المراحل التاريخية للقومية العربية
وجيه علم الدين : العهود المتعلقة بالوطن العربي
ولي الدين يكن : التجاريب
ياسين عرفة : ديوان الثورة العربية
يوسف الحكيم : بيروت ولبنان في عهد آل عثمان
سورية والعهد العثماني
سورية والعهد الفيصلي
يوسف عز الدين (الدكتور) : الشعر العراقي الحديث واثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه
يوسف هيكل (الدكتور) : نحو الوحدة العربية

*

ثورة العرب : نشره أسعد داغر

الثورة العربية الكبرى : ملحق خاص أصدرته جريدة « الحيـــاة » في ذكرى مرور نصف قرن واشترك في تحريره : نقولا زيادة ، زين نور الدين زين ، عبد الكريم غرايبه ، ناصر الدين الأسد ، سليمان موسى ، قدري قلعجي ، نبيه أمين فارس ، عباس الكرد.

ذكرى الثورة العربية : كلمات ألقيت في احتفال منظمة النجادة ببيروت سنة ١٩٤٣ ، للدكتور أنيس الصغير وقسطنطين يني ونصري المعلوف وتقي الدين الصلح .

رسالة في الاتحاد : بأقلام ساطع الحصري وأكرم زعيتر وكامل مروة

مؤتمر الشهداء : نشره ومهد له يوسف ابرهيم يزبك

المؤتمر العربي الأول : نشره رشيد رضا

الوثائق الرئيسية في قضية فلسطين : أصدرته الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

الوثائق والمعاهدات في بلاد العرب : أصدرته جريدة « الأيام » في دمشق

٢ – مراجع أجنبية مترجمة الى العربية

أحمد جمال : ايضاحات سياسية مذكرات جمال باشا ، ترجمة علي أحمد شكري

ارسكين تشايلدرز : الحقيقة عن العالم العربي ، ترجمة خيري حماد

ارنست راموز : تركية الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي

توماس ارنولد : الخلافة ، ترجمة جميل معلى

جاك بولان : وجهاً لوجه مع القومية العربية ، ترجمة غياث حجار

جورج انطونيوس : يقظة العرب – تاريخ حركة العرب القوميـــة ، ترجمة الدكتور ناصر الدين الأسد والدكتور احسان عباس

جورج كيرك : موجز تاريخ الشرق الأوسط ، ترجمة عمر الاسكندري
جون غلوب : الفتوحات العربية الكبرى ، ترجمة خيري حماد
روبير مونتاين : الوحدة العربية ، ترجمة دار المكشوف
سيتون وليمز : بريطانية والدول العربية، ترجمة أحمد عبد الرحيم مصطفى
فيليب حتي (الدكتور) : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة الدكتور كمال اليازجي
كارل برو كلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة فارس وبعلبكي
لودز : القول الحق ، ترجمة نزيه مؤيد العظم
لورنس : أعمدة الحكمة السبعة ، ترجمة المكتب التجاري
الثورة العربية ، ترجمة كامل صموئيل مسيحة
هانز كوهن : عصر القومية ، ترجمة عبد الرحمن صدقي

٣ – مراجع أجنبية

Aboucassan (B) : Le Problème Syrien.
Azouri (N) : Le Reveil de la Nation Arabe dans l'Asie Turque.
Benoist-Méchin : Lawrence d'Arabie ou le rêve fracassé.
Bremond (Ed) : Le Hedjaz dans la Gurre Mondiale.
Buchard (Charles) : Le Mandat Français en Syrie et au Liban.
Cheradame (A) : La question d'Orient.
David (Philippe) : Un Gouvernement Arabe à Damas.
El Cherif (Ihsan) : La Condition Internationale de la Syrie.
Gouilby : L'Islam devant le Monde Moderne.
Jalabert : Syrie et Liban.
Johamet (René) : Le Principe des nationalités.
Jung (E) : La Revolte Arabe.
Khairallah (K.T.) Les Régions Arabes Liberées.
Lammens (Henri) : La Syrie, Précis Historique.
Mac Lean (Alistair) : Lawrence d'Arabie.
Müller (Victor) : En Syrie avec les Bédouins.
Pichon (Jean) : Le partage du Proche-Orient.
Pichon (Jean) : Sur la route des Indes un siècle après Bonaparte.
Roux (Charles) : France et Chrétiens d'Orient.
Le livre d'or des troupes du Levant 1918-1936.

فهرس الأماكن والمؤسسات

«أ»

« ب »

« ت »

« ج »

« ح »

« خ »

« د »

« ر »

« ش »

« ص »

« ض »

« ط »

« ع »

« غ »

« ف »

« ق »

« ك »

« ل »

« م »

« ن »

« هـ »

« و »

«ي»

فهرس الأعلام

«أ»

« ب »

« ت »

« ث »

« ج »

« ح »

« خ »

« د »

« ر »

« ز »

« س »

« ش »

« ص »

« ض »

« ط »

« ع »

« غ »

« ف »

« ق »

« ك »

« ل »

« م »

« ن »

« هـ »

« و »

« ي »

موضوعات الكتاب

ـــ طبع على مطابع دار الغد ـــ